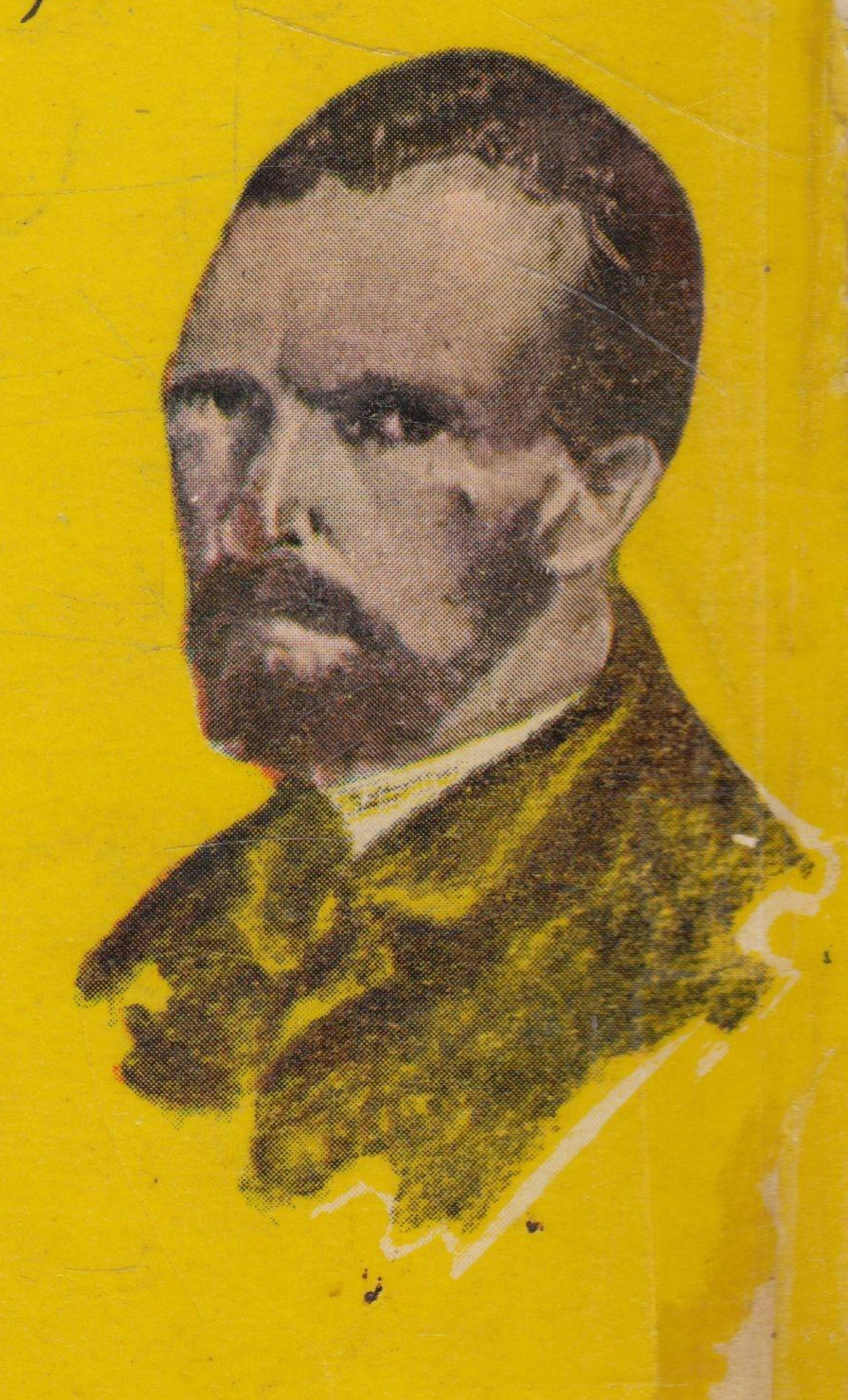


حياة ڤان جوخ

الجزء الثانى



تأليف : إرڤنج ستون

ترجمة : محمد محمود صفوت

مراجعة :
الدكتور عز الدين فريد

الألف كتاب (٦٢١)

حياة ﭬان جوخ

الجزء الثانى

بإشراف
الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية
وزارة التعليم العالى

تصدر هذه السلسلة بمعاونة

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب (٦٢١)

حياة ڤان جوخ

الجزء الثاني

تأليف
إرڤنج ستون

ترجمة
محمد محمود صفوت

مراجعة
الدكتور عز الدين فريد

ملتزم الطبع والنشر
دار نهضة مصر
للطبع والنشر
القاهرة

١٩٦٧

هذه ترجمة كتاب :

Lust For Life

تأليف : **Irving Stone**

(٩)

وبعد ذلك بأيام قابل موف فى الروابى الرولية ، وإذا كانت قد راودته أية آمال فى الصلح فقد خاب أمله . . وقال :

ــ يابن عمى موف ... أريد أن تغفر لى ما بدر منى فى المرسم فقد كان هذا غباء منى ... ألا ترى الطريق ممهدا للصفح عنى ... ألن تأتى لترى عملى أحيانا وتناقشنى فيه ؟

وجاء رفض موف صريحا قاطعا . . إذ قال « إننى ولا ريب لن آتى لأراك لقد انتهى كل ما بيننا . .

ــ أهكذا فقدت إيمانك بى تماما . .

ــ أجل . . إنك على خلق ذميم . .

ــ لو أخبرتنى ماذا فعلت من شر فسوف أحاول إصلاح سلوكى ...

ــ إنى لم أعد أهتم بما تفعله . .

ــ إنى لم أفعل شيئا سوى تناول الطعام والنوم والعمل كأى فنان فهل هذا شر ؟ ...

ــ هل تسمى نفسك فنانا ؟ ...

ــ أجل ...

ــ ياللسخف ، إنك لم تبع لوحة فى حياتك ؟

ــ أهذا ما تعنيه كلمة فنان ــ بيع اللوحات ؟

لقد كنت أعتقد أنها تصف الإنسان الذى يبحث دائما دون أن يهتدى لشىء . . كنت أعتقد أنها تعنى عكس عبارة « إننى أعرف هذا . لقد وجدته » وحينما أقول « أنا فنان .. فإننى أعنى . أننى أبحث .. وأننى أكدح .. وأعيش فى هذا الأمر بكل قلبى .. ومع ذلك فأنت سىء الأخلاق . .

— إنك تشتبه فى ارتكابى شيئا ما — إن هذا يبدو فى الجو . . فأنت تعتقد أننى أخفى شيئا عنك . . إن فنسنت يخفى شيئا لا يستطيع أن يكشفه فى الضوء . . ما الخبر . . ياموف . . حدثنى عنه بصراحة ؟

فذهب موف إلى حامل لوحاته وأخذ يضع الألوان . . واستدار فنسنت وسار فى بطء على الرمال . .

لقد كان على حق . . فلقد كان فى الجو شىء ما . . لقد علمت لاهاى بأمر علاقته بكريستين وكان دى بوك هو الذى جاءه بالنبأ اليقين ، فقد اقتحم الباب وعلى فمه الذى يشبه البرعم ابتسامة خبيثة . . وكانت كريستين تقف أمام فنسنت ليرسمها ولهذا تكلم بالإنجليزية . . وقال له وهو يلتف بمعطفه الأسود الثقيل ويشعل سيجارا طويلا . .

— حسنا يافان جوخ ، إن المدينة كلها تعرف أنك قد اتخذت عشيقة . . وقد سمعت ذلك من فايسنبروخ ومن موف ومن تيرستيج ولاهاى كلها ثائرة من أجل هذا

فقال فنسنت . .

— أوه . . إذن فهذا هو كل ما فى الأمر . .

— كان يجب إن تكون أكثر حصافة أيها الصديق القديم . . أهى إحدى الموديلات من المدينة ؟ . . كنت أعتقد أننى أعرف كل من يمكن الحصول عليه منهن . . فألقى فنسنت نظرة على كريستين التى كانت جالسة فى ثوبها المصنوع من المرينوس وعليها ميدعتها ، بجوار المدفأة يحيط بها جو من الجاذبية البسيطة ، بينما كانت منهمكة فى الحياكة وعيناها على الثوب الصغير الذى كانت تصنعه .

وأسقط دى بوك سيجارته على الأرض وقفز واقفا . . وصاح . .

— يا إلهى . . إنك لاتقصد أن تقول لى إنها عشيقتك ؟

ليست لى عشيقة يا دى بوك .. وإن كنت أظن أن هذه هى المرأة التى يتحدثون عنها . .

فمسح دى بوك بعض ما خيل إليه أنه عرق سال من جبهته وأخذ يتطلع إلى كريستين فى إمعان . .

— كيف بحق الشيطان تحمل نفسك على النوم معها . .

— لماذا تسأل هذا السؤال ؟

— أيها الصديق العزيز القديم . . إنها قبيحة شمطاء . . وشمطاء من أحقر نوع، فما الذى يمكن أن يكون قد دار بخلدك ؟ . . لا عجب أن صدم تيرمتيج إذا كنت تريد أن تتخذ عشيقة . . فلماذا لا تنتقى واحدة من الموديلات الصغيرات النظيفات فى المدينة ؟ ثمة كثيرات منهن يحمن فى كل مكان . .

— كما أخبرتك مرة من قبل يادى بوك، هذه المرأة ليست عشيقتى . .

— ماذا إذن ؟

إنها زوجتى . .

فعض دى بوك على شفتيه الرقيقتين كما يفعل رجل يثنى عروة حول زرار وصاح . .

— زوجتك . .

— أجل إن فى نيتى أن أتزوجها . .

— رباه . .

وألقى دى بوك نظرة واحدة أخيرة تنطق بالرعب والاشمئزاز على كريستين وفر هاربا دون أن يرتدى حتى معطفه . .

وسألته كريستين . . « ماذا كنتما تقولان عنى ؟

فعبر فنسنت المكان وأخذ يتأملها لحظه وقال . .

— لقد أخبرت دى بوك . . إنك سوف تصبحين زوجتى . .

فظلت كريتسين صامتة وقتا طويلا . . ويداها تعملان دون توقف . .

وقد انفرج فمها بعض الشيء وظل لسانها يتحرك بسرعة كاسان الأفعى .. حتى يبلل الشفتين اللتين جفتا سريعا وقالت ..

— هل ستتزوجنى حقا يا فنسنت ؟ .. لماذا ؟ ..

— إذا لم أتزوجك فإنه أقرب للرحمة أن أدعك فى سلام .. إننى أريد أن أتغلغل فى أفراح وأتراح الحياة المنزلية حتى يتسنى لى أن أصورها من واقع تجربتى الشخصية . لقد أحببت امرأة يوما يا كريستين ، وعندما ذهبت إلى بيتها أخبرونى أننى أثرت اشمئزازها .. كان حبى صادقا وشريفا وقويا يا كريستين .. وعندما خرجت من البيت أدركت أن هذا الحب قد قتل .. ولكن الموت يعقبه البعث وكنت أنت ذلك البعث ..

— ولكنك لا تستطيع أن تتزوجنى ... ما قولك فى الأطفال ؟ وربما يتوقف أخوك عن إرسال النقود لك ..

— إننى أحترم المرأة التى تكون أما يا كريستين ، سنرعى المولود الجديد وسيبقى هيرمان معنا هنا .. أما الباقون فيمكنهم البقاء مع أمك .. أما بالنسبة لثيو .. أجل ربما يقطع رأسى ولكنى عندما أكتب له الحقيقة كاملة فلا أظن أنه سوف يتخلى عنى ..

وجلس على الأرض بجوار قدميها ، كانت تبدو أحسن كثيرا مما كانت عليه عندما قابلها أول مرة .. فقد كان فى عينيها العسليتين الحزينتين مسحة من السعادة .. وسرت فى شخصيتها روح جديدة ولم يعد الوقوف أمامه للرسم سهلا بالنسبة لها إلا أنها بذلت جهدا شاقا وتذرعت بالصبر .. وعندما قابلها لأول مرة كانت جافة ومريضة وتعسة .. أما الآن فقد أصبح سلوكها بأكمله أقرب للهدوء واستعادت صحتها وعاشت حياة جديدة .. وبينما كان جالسا يتطلع إلى وجهها الساذج الذى لا يخلو من مسحة من الجمال .. أخذ يفكر مرة أخرى فى هذا السطر من كتاب ميشيليه كيف يحدث أن توجد على الأرض امرأة وحيدة يائسة ؟ وقال ..

— سين . . سوف نمسك يدنا وسوف نقتصد بقدر المستطاع . . أليس كذلك؟ فأنا أخشى أن يأتى وقت أصبح فيه خاوى الوفاض تماما . . وسوف يكون فى وسعى أن أمد لك يد العون حتى تذهبين إلى ليدن . .

ولكن عندما تعودين فلا أدرى كيف ستجدينى وليس عندى ما أقتات به وليس عندى كسرة خبز وكل ماعندى سأقتسمه معك ومع الطفل . .

فانزلقت كريستين من فوق المقعد إلى الأرض بجواره وأحاطت عنقه بذراعيها وأسندت رأسها على كتفه وقالت . .

— دعنى فقط أقيم معك يا فنسنت . . إننى لا أطلب شيئا أكثر من ذلك . . ولو لم يكن هناك سوى الخبز والقهوة . . فلن أشكو . . إننى أحبك يافنسنت فأنت أول رجل يعاملنى معاملة طيبة . . ولست فى حاجة لأن تتزوجنى إذا لم تكن تريد ذلك . . وسوف أقف أمامك لترسمنى وسوف أبذل جهدى وسوف أفعل كل ماتطلبه منى . . دعنى فقط أقيم معك . . هذه هى المرة الأولى التى أشعر فيها بالسعادة . . يافنسنت . . لاأريد أى شىء . . وسوف أشاركك ماتملك فقط وأكون سعيدة . . .

وكان بإمكانه أن يحس بالطفل الذى تحمله فى أحشائها وهو يضمها دافئا ينبض بالحياة . . وتحسس وجهها الحبيب برفق بأطراف أصابعه وأخذ يقبل الندوب واحدة بعد الأخرى . . وترك شعرها يسترسل على ظهرها وأخذ يسوى الخصل النحيلة بضربات رقيقة بيده . . ووضعت خدها السعيد المتورد على لحيته وأخذت تحكها برقة فى شعيراتها وقال :

— هل تحبيننى يا كريستين ؟

— أجل يافنسنت . . إننى أحبك . .

— ما أجمل أن يكون المرء محبوبا . . فليسمه العالم خطأ إذا شاء . .

وقالت كريستين ببساطة . .

ليذهب العالم إلى الجحيم ..

— سأعيش كعامل .. فهذا يناسبنى .. فأنا وأنت يفهم بعضنا بعضاً ولسنا بحاجة إلى أن نأبه بما يقوله أى إنسان، ولسنا مضطرين إلى التظاهر بعلاقة يرضى عنها المجتمع .. لقد نبذتنى طبقتى منذ زمن طويل .. وأنا أفضل أن أحصل على كسرة من الخبز بجانب مدفأتى مهما كانت متواضعة ولا أعيش معك بدون زواج .

وجلسا على الأرض يستمدان الدفء من الوهج المنبعث من الموقد .. وقد احتضن كل منهما الآخر بذراعيه ولم يقطع عليهما خلوتهما إلا ساعى البريد .. وناول فنسنت خطابا من امستردام جاء فيه ...

فنسنت ..

لقد سمعت توا عن سلوكك المشين .. أرجوك أن تلغى طلبى بالنسبة للرسوم الستة ولن أهتم بعد ذلك بعملك ..

ك. م. فان جوخ ..

لقد أصبح مصدره كله الآن يتوقف على ثيو .. ومالم يفلح فى تفهم ثيو طبيعة العلاقة بينه وبين كريستين فإنه أيضاً سيكون محقا فى قطع مبلغ المائة الفرنك الشهرية عنه .. إنه يستطيع أن يعيش بدون أستاذه موف .. وبدون تيرستيج التاجر ، الذى يشترى صوره .. وبدون عائلته .. واصدقائه وزملائه طالما بقى له عمله وكريستين .. ولكنه لايستطيع أن يعيش بدون هذه الفرنكات المائة التى تصله شهريا .. وكتب خطابات عاطفية طويلة لشقيقه شرح له فيها كل شىء وتوسل إلى ثيو أن يفهمه ولا يتخلى عنه وعاش يوما بعد يوم نهبا لخوف منهم من حدوث أسوأ ما يتوقع .. ولم يجرؤ على أن يطلب المزيد من مواد الرسم إلا فى حدود طاقته على الدفع .. ولا أن يتعهد برسم أى لوحات مائية أو يندفع إلى الأمام .. وأبدى ثيو كثيراً من الاعتراضات .. ولكنه لم يدفع

سلوكه .. وأبدى له أيضاً النصيحة .. ولكنه لم يشعر أبداً إلى أنه سيتوقف عن إرسال النقود إذا لم يؤخذ بنصيحته وفى النهاية أكد لفنسنت أنه على الرغم من استهجانه لسلوكه فإنه سيستمر فى إرسال معونته كما كان من قبل .

وحلت الأيام الأولى من مايو . . وكان الطبيب فى ليون قد قال لكريستين إنها ستضع حملها فى أحد أيام شهر يونيه . . ورأى فنسنت أنه من الحكمة ألا تنتقل معه حتى ينتهى الوضع وفى هذا الوقت كان يرجو أن يستأجر البيت الشاغر المجاور لشارع شنكفيج . وكانت كريستين تقضى معظم وقتها فى المرسم ولكن حاجياتها كانت ما تزال فى بيت والدتها وكانا يعتزمان عقد زواجهما رسميا عقب شفائها وذهب إلى ليدن بمناسبة قرب وضع كريستين ولم يتحرك الطفل من الساعة التاسعة مساء حتى الساعة الواحدة والنصف وكان لا بد من سحبه بالجفت ولكنه لم يخرج على الإطلاق .. وقاست كريستين كثيراً من الألم ولكنها نسيت كل ذلك حينما رأت فنسنت وقالت . . سوف نبدأ قريباً فى الرسم مرة أخرى . .

ووقف فنسنت يتطلع إليها والدموع تترقرق فى عينيه . . لم يهمه أن الطفل ينتسب لرجل آخر . . فقد كانت هى زوجته وكان الطفل ابنه وكان سعيداً والألم يعصر صدره . .

وعندما عاد إلى شنكفيج وجد أن صاحب المنزل ومالك مخزن الخشب فى انتظاره أمام المنزل . .

— ما رأيك فى أن تأخذ هذا المنزل الآخر يا سيد . . فان جوخ ؟

إن إيجاره ثمانية فرنكات فقط فى الأسبوع . . . وسأدهنه وأبيضه بالمصيص لك وإذا كنت ستنتقى النوع الذى تفضله من ورق الحائط فإنى سألصقه لك . .

فقال فنسنت . .

— ليس بهذه السرعة . . إننى أود استئجار المنزل الجديد عندما تأتى زوجتى للبيت إلا أننى يجب أن أكتب إلى أخى أولا . .

— حسنا . . يجب أن أضع بعض أوراق الحائط . . ولذلك أرجو أن تختار النوع الذى يعجبك وإذا لم تستطع أن تستأجر البيت فلا بأس . .

وكان ثيو يسمع عن البيت المجاور منذ عدة شهور . . وكان أوسع كثيراً وبه مرسم وغرفة معيشة ومطبخ ومخزن صغير . . وغرفة نوم فى الدور العلوى وكان إيجاره يزيد أربعة فرنكات على إيجار المكان القديم ولكن نظرا لقدوم كريستين وهيرمان والطفل إلى شنكفيج فإنهم كانوا فى حاجة إلى المكان الجديد . . وقد رد عليه ثيو بأنه حصل على علاوة جديدة وأن فنسنت يمكن أن يعتمد على أنه سيتلقى ١٥٠ فرنكا شهرياً فى الوقت الحالى وعلى الفور أستأجر فنسنت المنزل الجديد فقد كانت كريستين توشك على على الحضور فى خلال أسبوع . . وكان يريدها أن تجد عند وصولها عشا دافئا وأعاره المالك رجلين من الساحة لحمل أثاثه من بيته القديم إلى المرسم الجديد وجاءت والدة كريستين إلى هناك لترتيب الأشياء . .

* * *

(١٠)

كان المرسم الجديد يبدو واقعياً جداً بورق الحائط الرمادى البنى ، وأرضيته الخشبية المصقولة وكانت هناك دراسات معلقة على الجدران وحامل الصور فى كل طرف ومنضدة كبيرة بيضاء تصلح للعمل ، وقد وضعت أم كريستين ستائر من الموسلين الأبيض على النوافذ ، وكان هناك ليوان ملحق بالمرسم وضع فيه فنسنت كل لوحات الرسم والمحافظ وأعمال الخشب المحفور ، وفى أحد الأركان يوجد دولاب للزجاجات والأوانى والكتب . . وكان فى حجرة المعيشة منضدة وبعض كراسى المطبخ وموقد غازى وكرسى كبير من الخيزران لكريستين قرب النافذة ، وإلى جانبه وضع مهد حديدى صغير له غطاء أخضر ، وفوقه لوحة محفورة من عمل رامبرانت لامرأتين بجوار المهد وإحداهما تقرأ فى الإنجيل على ضوء شمعة .

وقد استطاع أن يوفر كل شىء ضرورى جداً للمطبخ وعند ما عادت كريستين كان فى استطاعتها أن تعد العشاء فى عشر دقائق واشترى سكينا إضافيا وشوكة وملعقة وطبقا استعداداً لليوم الذى سيأتى فيه ثيو لزيارتهم وفى الدور العلوى نصب سريراً متسعا لنفسه ولزوجته إلى جانب السرير القديم بما عليه من حشيات وملاءات فى ترتيب لا بأس به لهيرمان وأحضر هو وأم كريستين قشا وعشبا بحريا وأكياساً للمراتب وحشيا بنفسيهما المراتب فى الغرفة العلوية ، وعند ما غادرت كريستين المستشفى جاء الطبيب الذى عالجها وممرضة القسم وكبيرة الممرضات لوداعها . . وأدرك فنسنت أكثر من ذى قبل أنها شخص يمكن أن تلقى عطفا ومودة من الناس أصحاب الشأن . . . وقال لنفسه « إنها لم تر أبداً ما هو خير » فكيف يمكنها أن تكون طيبة ؟

وكانت والدة كريستين وإبنها هيرمان فى شنككفيج لتحيتها وكان عودا

وحيداً البيت لأن فنسنت لم يكن قد قال لها شيئاً عن العش الجديد . . وجرت هنا وهناك وأخذت تلمس الأشياء والمهد . . . والمقعد المريح . . . وإناء الزهور الذى كان قد وضعه على الأسكفة خارج نافذة غرفتها . . . وكانت حالتها المعنوية مرتفعة.

وصاحت . .

لقد كان الأستاذ غريبا للغاية فقد قال :

— أود أن أقول هل أنت مغرمة بالجبن وشراب المر ؟ وهل فى مقدورك أن تدخنى السيجار ؟

وأجابته قائلة . .

— نعم .

فقال . .

— ما سألتك إلا لأخبرك أنك لست فى حاجة الإقلاع عنها . . ولكن إياك أن تستعملى الخل والفلفل والمستردة . . ويجب أن تأكلى اللحم مرة واحدة على الأقل كل أسبوع . .

كانت غرفة نومها تشبه إلى حد كبير عنبرا فى سفينة لأنها كانت مكسوة الجدران بالخشب وكان على فنسنت أن يحمل المهد الحديدى إلى الدور العلوى كل ليلة وإلى حجرة المعيشة بالدور الأسفل مرة أخرى كل صباح . . وكان عليه أن يقوم بكل أعمال المنزل التى كانت ما تزال كريستين لا تقوى عليها لضعفها . . ترتيب الفراش وإشعال النار ، ورفع وحمل الأشياء وتنظيفها وأحس كما لو كان قد عاش مع كريستين والأولاد منذ عهد بعيد . . وأنه كان فى بيئته ، وعلى الرغم من أنها كانت ما تزال تعانى من أثر العملية فقد كانت تحس بتجدد قواها وانتعاشها . .

وعاد فنسنت من جديد إلى العمل وقد اطمأن قلبه . . ما أحسن أن

يكون للمرء بيت خاص به ليحس بضوضاء وتنظيم الأسرة حوله . . لقد أمدته الحياة مع كريستين بشجاعة وحيوية للمضى فى عمله . . وإذا لم يتخل عنه ثيو فإنه ولا ريب سوف يستطيع أن يصبح مصـــورا مجيدا . . فى البورنياج راض نفسه على العبودية من أجل الله . . أما هنا فقد اتخذ إلها جديدا ملموسا أكثر واعتنق دينا يمكن التعبير عنه فى جملة واحدة . . إن شكل عامل وبعض الحفر فى أرض محروثة وقليل من الرمل والبحر والسماء كانت موضوعات جادة بالغة الصعوبة ولكنها كانت فى الوقت نفسه متناهية الجمال لدرجة أنها كانت تستحق أن يكرس حياته لمهمة التعبير عن الشاعرية الكامنة فيها . .

وفى عصر أحد الأيام بينما كان عائدا إلى بيته من الروابى قابل تيرستيج أمام بيت شنكفيج وقال تيرستيج . .

— يسعدنى أن أراك يافنسنت . . لقد فكرت فى أن أجىء وأستفسر كيف تتقدم . .

كان فنسنت يخشى العاصفة التى كان يعرف أنها ستهب لو صعد تيرستيج إلى الدور العلوى . . فوقف يتحدث معه بضع لحظات على قارعة الطريق حتى يستطيع أن يستجمع قواه . . وكان تيرستيج ودودا ولطيفا . . وارتجف فنسنت . . وعند مادخل الرجلان كانت كريستين تهدهد الطفل فى مقعدها الخيزرانى . . وكان هيرمان يلعب بجوار الموقد .

فتطلع تيرستيج إليهما وقتا طويلا جدا وقد فغر فاه من الدهشة ، وعند ما تكلم كان حديثه بالإنجليزية فقال .

— ما معنى وجود هذه المرأة وهذا الطفل ؟

— كريستين زوجتى ، والطفل إبننا . .

— أنت تزوجتها فعلا ؟

— إننا لم نقم بعد بإجراءات الاحتفال ، إذا كان ذلك ما تعنيه .

— كيف يمكن أن تفكر فى الحياة مع امرأة . . وأطفال هم . . . ؟

— إن الرجال عادة يتزوجون . . أليس كذلك . . ؟

— ولكنك صفر اليدين ، وأخوك هو الذى يعولك ؟

— كلا ليس الأمر كذلك بتاتا . . إن ثيو يدفع لى مرتبا ، وكل ما أفعله هو ملكه ولسوف يسترد ماله يوما ما . .

— هل جننت يافنسنت ؟ إن مثل هذا السلوك لا يصدر إلا عن عقل معتوه ومزاج سقيم .

— إن السلوك الإنسانى يا سيدى يشبه الرسم إلى حد كبير . . والمنظور كله يتغير بالوضع المنحرف للعين ولا يتوقف على الموضوع بل على الرجل الذى يشاهد المنظر .

— سوف أكتب لأبيك يا فنسنت . . سوف أكتب له وأخبره بالموضوع كله . .

— ألا ترى أنه سوف يكون من السخرية أن يتلقوا منك خطابا غاضبا ثم يتلقوا بعده سريعا التماسا منى بالحضور على نفقتى لزيارتى هنا . .

— أنت تنوى أن تكتب لهم بنفسك . .

— هل تسأل هذا السؤال ؟ سأفعل هذا ولا ريب . . ولكنك تتفق معى على أن الوقت الآن غير مناسب إذ إن والدى سوف ينتقل إلى أبروشية نوينين . . وحالة زوجتى الصحية الآن سيئة لدرجة أن تعرضها لأى قلق أو إجهاد يقضى عليها .

— لن أكتب إذن ولا ريب يا بنى إنك أحمق كذلك الرجل الذى يريد أن يغرق نفسه .. وأنا لا أبغى إلا أن أنقذك من الغرق

إننى لا أشك فى نواياك الطيبة ياسيد تيرستيج وهذا هو السبب فى أننى أحاول ألا أغضب من كلماتك .. ولكن هذا الحديث لا يروق لى أبدا..

وانصرف تيرستيج وعلى وجهه سمات الفشل وكان فايذسنبروخ هو الذى أطلق أول ضربة حقيقية للعالم الخارجى . . فقد دلف إلى الداخل فى غير مبالاة فى عصر أحد الأيام ليرى إذا كان فنسنت ما يزال حيا ..

وقال ..

— هالو . . أرى أنك نجحت فى تدبير شئونك دون هذه الفرنكات الخمسة والعشرين .

— أجل . .

— والآن . . ألست مسرورا لأننى لم أدللك ..؟

— إننى ما زلت أتمسك بأول عبارة قلتها لى عندما رأيتك فى بيت موف . وقد كانت « اذهب إلى الجحيم » ، وأنا أكرر الدعوة . .

إذا حافظت على هذه الروح فسوف تصبح فايسنبروخ آخر . . إذ إن فيك الصفات التى يمكن أن تجعل منك رجلا حقيقيا . . لماذا لا تقدمنى إلى عشيقتك إذ لم يسبق لى هذا الشرف ؟

— افعل بى ما شئت يا فايسنبروخ ولكن دعها فى سلام . .

كانت كريستين تهز المهد الحديدى بملاءته الخضراء وكانت تعلم أنها موضع للسخرية فتطلعت إلى فنسنت وقد ارتسمت على وجهها علامات الألم . . وعبر فنسنت المكان حتى وصل إلى الأم والطفل ووقف بجانبهما وألقى فايسنبروخ نظرة على الجماعة ثم نظر إلى صورة رامبرانت المعلقة على المهد وصاح . . .

— أرى أنكم تصلحون موضوعا للوحة رائعة وأود أن أصوركم وف اسوسمى هذه الصورة « العائلة المقدسة »

— فقفز فنسنت ليضرب فايسنبروخ وهو يسبه ولكن الأخير كان قد خرج من الباب بأمان وعاد فنسنت إلى عائلته وكانت هناك مرآة صغيرة معلقة على الحائط بجانب صورة رامبرانت وألقى عليها فنسنت نظرة فرأى صورهم الثلاثة منعكسة ، وفى لحظة من لحظات الصفاء الهائل . أدرك الحقيقة كما رآها فايسنبروخ . . رأى ابن الزنا والعاهرة ورجل البر . . وسألته كريستين . .

— ما الاسم الذى أطلقه علينا . . .

— العائلة المقدســـة . . .

— ما معنى ذلك . . ؟

— إنها صورة لمريم ويسوع ويوسف . . فانفجرت الدموع من مآقيها ودفنت وجهها فى ملابس الطفل وركع فنسنت على ركبتيه بجانب المهد الحديدى ليواسيها . . الغسق يزحف من النافذة الشمالية ويلقى على الحجرة ظلا هادئا ومرة أخرى كان باستطاعة فنسنت أن ينفرد برؤية حقيقة ثلاثتهم كما لو كان غريبا عن المجموعة . . وفى هذه المرة كان يراهم من خلال بصيرة قلبه هو . . وقال . .

— لا تبكى ياسين . . لا تبكى يا حبيبتى . . ارفعى رأسك وجففى دموعك . . لقد كان فايسنبروخ على حق . .

* * *

(١١)

وا كتشفت فنسنت شفينتجن والرسم بالزيت فى آن واحد فقد كانت شفينتجن قرية صغيرة للصيد تقع على وادى بين تلين رمليين يحميانه على بحر الشمال ، وعلى الشاطىء كانت هناك صفوف من سفن الصيد المربعة ذات الصارى الواحد والأشرعة الداكنة اللون التى أتلفتها الرياح وكانت لها فى المؤخرة دفات خشنة مربعة بينما ألقيت فيها ونشرت عليها شباك الصيد استعداداً لرميها فى البحر وفوقها يرفرف علم صغير مثلث لونه أحمر صدئ أو أزرق بحرى وكانت هناك عربات زرقاء تسير على عجلات حمراء لحمل السمك إلى القرية بينما كانت زوجات الصيادين يرتدين قلنسوات بيضاء بألوان الجلد الزيتية قد ثبتت من الأمام بدبوسين مستديرين من الذهب وقد احتشدت العائلات على حافة الحد للترحيب بسفن الصيد وكان الكورزال بأعلامها البهيجة التى ترفرف عليها بيتا للمتعة أعدت للأجانب الذين كانوا يحبون طعم الملح على شفاههم على ألا تعنى به حلوقهم . . وكان البحر يبدو رماديا بالقلنسوات البيضاء على الشاطىء وألوان متفاوته دائمة العمق من الأخضر الباهت إلى لون أزرق راكد . . وكانت السماء رمادية ناصعة مرصعة بالسحب وبين الحين والآخر تظهر على صفحتها علامة زرقاء لتوحى للصيادين أن الشمس ما زالت تشرق فى هولنده . . لقد كانت شفينتجن بقعة يعمل فيها الرجال. ويرتبط فيها الناس بالبحر وبالأرض . . كان فنسنت قد أنجز عدة رسوم جيدة لمنظر من الطريق بالألوان المائية . . وكانت هذه الوسيلة مرضية بالنسبة للانطباعات السريعة .. ولكن الألوان المائية لاتتسم بالعمق والكثافة والصفة الخاصة للتعبير عن الأشياء التى يريد أن يفصح عنها . . كان يتحرق شوقا إلى الرسم بالزيت ولكنه كان يخشى أن يستعمله لأنه سمع الكثير عن المصورين الذين فشلوا لأنهم رسموا بالزيت قبل أن يتعلموا الرسم . .

ثم جاء ثيو إلى لاهاى . . .

وكان ثيو قد بلغ السادسة والعشرين من عمره . . وأصبح تاجرا ماهراً فى اللوحات الفنية . . وكثيرا ما كان يسافر لعمله وفى كل مكان يحل به كان معروفا بأنه من أحسن رجال الأعمال الشبان . . وكان محل جوبل وشركاه قد بيع لبوسو وفالادون وكانوا يعرفون بالسادة .

وعلى الرغم من أنهما احتفظا لثيو بوظيفته السابقة فإن العمل فى بيع اللوحات الفنية لم يعد كما كان فى عهد جوبل والعم فنسنت ، فقد أصبحت اللوحات تباع بأعلى سعر يمكن الحصول عليه بغض النظر عن مدى قيمتها الفنية وكان المصورون الناجحون فقط هم الذين يلقون كل تعضيد وبينما كان العم فنسنت وتيرستيج وجوبل يرون أن من أهم واجبات التاجر فى اللوحات الفنية اكتشاف تشجيع الفنانين الناشئين ، أصبحوا لا ينشدون الآن غير كبار المصورين المشهورين .

وكان القادمون الجدد إلى الحقل الفنى من أمثال ، مانيه ومونيه وبيسارو وسيسلى وبرينوار وبيرث موريسو وسيزان وديجا وجيومان وحتى الشبان الأصغر سنا — من أمثال كولوترلوتريك وجوجان وسورا وسنياك كانوا يحاولون أن يقولوا شيئا يختلف عن الشىء الذى كان يردده دائما بوجيريو وأنصار المدرسة الأكاديمية ولكن دون أن يستمع إليهم أحد .

ولم يحدث أن عرضت لأسرة واحدة من هؤلاء الفنانين الثائرين أية لوحة أو عرضت للبيع تحت سقف (السادة) وكان ثيو قد أبدى استياء عميقا لأعمال بوجيريو وأنصار المدرسة الأكاديمية واتجه بعواطفه إلى المجددين الشبان . . وفى كل يوم كان يبذل كل ما فى وسعه لإقناع « السادة » بعرض اللوحات الجديدة وحث الجمهور على أن يشتريها وكان هؤلاء السادة يعتقدون أن المجددين ليسوا إلا فئة من العابثين المجانين العاجزين تماما عن المعالجة الفنية بينما كان ثيو يعتقد أنهم أساتذة المستقبل . . وظلت

كريستين بغرفة النوم فى الدور العلوى عندما التقى الأخوان فى المرسم . . وعندما انتهيا من تبادل التحيات الأولية قال ثيو . . لقد أتيت من أجل العمل أيضاً . . ولكن يجب أن أعترف لك أن هدفى الأول فى لاهاى هو أن أثنيك عن عزمك من إنشاء أية علاقة دائمة مع هذه المرأة . . وقبل كل شىء ما شكلها . . ؟

— هل تذكر مربيتنا القديمة فى زندوت لين فيرمان ؟

— أجل . .

— إن سين من هذا النوع من الناس . . إنها مجرد امرأة عادية بين الناس . . إلا أنها بالنسبة لى تعد شيئا ساميا . . وأى إنسان يحب امرأة عادية من العامة وتحبه هى ينعم بالسعادة على الرغم من الجانب المظلم من الحياة . . لقد كان إحساسى بأنى ذو فائدة هو الذى جعلنى أفيق إلى نفسى ثانية وأعود للحياة . . إنى لم أبحث عنها بل وجدتنى . . إن سين تطرح كل الهموم والمتاعب التى تصاحب حياة المصور . . وقد أبدت استعدادها للوقوف أمامى لرسمها مما يجعلنى أعتقد أنى معها سأصبح فنانا أحسن مما لو تزوجت كاى ، . أخذ ثيو يتمشى فى المرسم وأخيراً تكلم بينما كان يتطلع فى إمعان إلى لوحة مرسومة بالألوان المائية وقال :

— الشىء الوحيد الذى لا أستطيع فهمه هو كيف يتأتى لك أن تقع فى حب هذه المرأة بينما كنت متدلها فى حب كاى . . .

— لم أقع فى الحب يا ثيو ، ليس بعد وهل لأن كاى نبذتنى يجب أن تذوى كل مشاعرى الإنسانية ؟ . . عندما أتيت إلى هذا المكان لم تجدنى فى حالة يأس وحزن بل وجدت مرسما جديدا وبيتا ينعم بالحرية والسعادة لا مرسما يحوطه الغموض بل مرسما تمتد جذوره فى أعماق حياة واقعية . . مرسم به معهد ومقعد عال للطفل حيث لا يوجد ركود بل حيث كل شىء يندفع إلى الأمام ويحث ويبعث على النشاط . . وأنا أرى المرء يجب أن

يكون إحساسه بما يرسم كوضح النهار وأنه يجب على المرء أن يعيش فى واقع حياة الأسرة إذا أراد أن يعبر عن حياة الأسرة . .

— أنت تعلم أنى لا أقر أبدا الفوارق الطبقية يا فنسنت ولكن هل ترى أنه من الصواب . . فقاطعه فنسنت قائلا . . .

— لا . . لا أعتقد أنى قد جللت نفسى بالعار لأنى أشعر أن عملى يكمن فى القلوب وأنى يجب أن أرتبط ارتباطا وثيقا بالأرض . . وأن أفهم حقائق الحياة بسرعة . . وأن أحقق تقدما وســـط كثير من الهموم والمتاعب . .

فتقدم ثيو بسرعة ووقف يتطلع إلى أخيه وقال . ،

— إنى لا أنازعك القول فى ذلك . . ولكن ما ضرورة الزواج . .؟

— لأن هناك وعداً بالزواج بينى وبينها . . وأنا لا أريدك أن تعدها عشيقة أو امرأة تربطنى بها علاقة دون اهتمام بما يترتب عليها من نتائج وهذا الوعد بالزواج له جانبان ، فهو أولا وعد بالزواج المدنى حالما تسمح الظروف، وثانياً هو فى نفس الوقت وعد بأن يساعد بعضنا بعضا ويكن أحدنا للآخر الإعزاز كما لو كنا قد تزوجنا حقا . . وأن نتشاطر السراء والضراء . .

ولكن لا ريب أنك ستنتظر قليلا قبل أن تشرع فى إجراءات الزواج المدنى ؟

— أجل ياثيو . . إذا كان هذا هو ما تنشده منى سوف نؤجل عقده حتى أكسب مائة وخمسين فرنكا عن طريق بيع إنتاجى . . وعندما نستطيع الاستغناء عن معونتك . . أعدك أنى لن أتزوجها حتى أحرز تقدما فى رسمى إلى الدرجة التى أستطيع فيها الاعتماد على نفسى . . وبالتدريج . . وحيثما أبدأ فى كسب بعض المال يمكنك أن توسل لى كل شهر مبلغاً أقل وفى آخر الأمر لن أكون بحاجة بعد ذلك إلى نقودك وعندها سوف نتحدث عن الزواج المدنى . .

— هذا يبدو أحسن ما تفعل ..

— ها هى هذه تجىء يا ثيو .. من أجل خاطرى حاول أن تنظر إليها على اعتبار أنها زوجة وأم .. لأن هذه هى حقيقتها ..

فهبطت كريستين الدرجات التى فى مؤخرة المرسم وكانت ترتدى ثوبا أسود نظيفا وكان شعرها مرجلا بعناية ومعقوصا إلى الخلف .. وقد وضعت على وجهها طبقة من الطلاء أخفت تقريبا آثار الجدرى وغدت جميلة فى نوع من الأسلوب المنزلى وكان حب فنسنت يحيطها بهالة من الثقة والصحة .. وصافحت ثيو بهدوء وسألته إذا كان يريد فنجانا من الشاى وأصرت على أن يبقى ليتناول معهما طعام العشاء وجلست فى مقعدها المريح بجانب النافذة تطرز وتهز المهد وأخذ فنسنت يجرى بانفعال هنا وهناك فى المرسم ويعرض على ثيو صوراً رسمها بالفحم ومناظر من الطريق رسمها بالألوان المائية ومجموعة دراسات رسمها بقلم بخار .. كان يريد أن يرى ثيو ما أحرزه من تقدم فى عمله ..

وكان ثيو يؤمن بأن فنسنت سيصبح يوما مصوراً عظيماً ولكنه لم يكن أبدا على يقين من حبه للأشياء التى كان فنسنت قد صنعها .. وكان ثيو هاويا يستطيع أن يميز كل عمل جيد وله خبرة كبيرة فى الحكم على القيمة الفنية، ولكنه لم يستطع أبدا أن يصل إلى قرار حاسم فى إنتاج شقيقه .. فقد كان يرى أن فنسنت دائماً فى حالة التكوين ولم ير أبدا أنه قد وصل إلى مرحلة النضج .. وقال بعد أن عرض عليه فنسنت كل دراساته وتحدث عن أمنياته ..

— إذا كنت بدأت فى الشعور بالحاجة إلى الرسم بالزيت فلماذا لا تبدأ ؟

ماذا تنتظر ؟

— انتظر التأكد من جودة رسمى ..

لقد قال موف وتيرستيج إننى لا أعرف . .

وفايسنبروخ يقول إنك تعرف . . أنت الشخص الذى يجب أن يكون له الحكم النهائى ، إذا كنت تشعر الآن بأنك تريد أن تعبر عن نفسك بلون أعمق فقد آن لك أن تفعل . . هيا . .

— ولكن التكاليف ياثيو . . فهذه الأنابيب المذهلة تساوى ما يعادل ثقلها ذهبا .

— قابلنى فى العاشرة من صباح الغد فى فندق وكلما أسرعت بإرسال اللوحات الزيتية أسرعت أنا فى استرداد أموالى من هذا الاستثمار . وفى أثناء العشاء كان ثيو وكريستين يتبادلان حديثا شيقا.وعندما غادر ثيو البيت التفت لفنسنت وقال له بالفرنسية وهو على السلم . .

— إنها لطيفة . . لطيفة حقا . . لم أكن أظن هذا . .

— وفى صباح اليوم التالى وبينما كانا يسيران فى طريق « فاجنشترات » كانا يمثلان تناقضا غريباً . . فالأخ الأصغر متأنق الثياب فى عناية وحذاؤه مصقول وثيابه منشاة وحلته مكوية ورباط عنقه معقود فى موضعه بأناقة وقبعته المستديرة السوداء وضعت على رأسه بزاوية أنيقة . . ولحيته السمراء الناعمة مشذبة بعناية ، وكان يمشى بخطوات متزنة متساوية . . أما الآخر فكان حذاؤه باليا وسراويله ملطخة بالبقع وكانت لا تنسجم مع المعطف الضيق وكان بلا رباط عنق ، وعلى رأسه قلنسوة كالتى يرتديها الفلاحون ملصقة بقمة رأسه ولحيته مشعثة فى خصلات حمراء نافرة وكان يسير وهو يترنح فى خطوات مضطربة غير متساوية وكان يلوح بذراعيه ويشير بيديه فى حركات تتسم بالانفعال وهو يتكلم . . ولم يفطنا إلى اللوحة التى كانا موضوعها . . وأخذ ثيو فنسنت إلى محلات جوبلز لشراء أنابيب الرسم والفرش وقماش اللوحات وكان تيرستيج يعجب بثيو ويحترمه وكان يود أن يحب ويفهم فنسنت . . وعندما عرف ما جاءا بشأنه

أصر على أن يجهز بنفسه كل المواد وأخـــذ ينصح فنسنت مبينا له قيمة الألوان المختلفة .

وقطع ثيو وفنسنت الـكيلومترات الستة عبر كثبان شفينينجن . . وفى تلك اللحظة كانت سفينة صيد تدخل الميناء . وبالقرب من الأثر التذكارى كان هناك كوخ من الخشب جلس فيه رجل على مرمى البصر وحالما وصل القارب وأمكن رؤياه برز الرجل ومعه علم كبير وكان يتبعه حشد من الأطفال وبعد بضع لحظات كان قد أخذ يلوح بالعلم ووصل رجل يمتطى جوادا هرما وذهب ليحضر الهلب وانضم للجماعة نفر من النساء والرجال الذين تدفقوا على التل الرملى من القرية للترحيب بطاقم السفينة . . وعندما اقترب القارب لدرجة كافية خاض الرجل الذى يعتلى ظهر الجواد فى الماء ثم عاد ومعه الهلب ثم عاد الصيادون إلى الشاطىء على ظهور رفاق كانوا يرتدون أحذية عالية من المطاط . . وعندما كان يصل كل منهم كان يقابل بصيحة عظيمة من صيحات التهليل والترحيب وعندما عادوا جميعاً إلى الشاطىء وسحبت الجياد القارب إلى الشاطىء سارت الفرقة بأكملها إلى البيوت فوق التل الرملى كأنها قافلة يتقدمهم الرجل الذى كان يركب الحصان كأنه شبح طويل . .

وقال فنسنت . .

— هذا هو النوع الذى أود أن أصوره بألوانى .

— دعنى أحصل على لوحات بمجرد أن تصبح راضياً عن عملك . فقد أستطيع أن أجد لها مشترين فى باريس . .

— أواه يا ثيو . . يجب أن تجدهم . . يجب أن تبدأ فى بيع أعمالى .

* * *

(١٢)

وعندما غادر ثيو لاهاى بدأ فنسنت فى تجربة ألوانه فقام بتصوير ثلاث دراسات بالزيت إحداها تمثل صفاً من أشجار الصفصاف المشذبة خلف قنطرة الجيست . . وأخرى عن ممر الفحم الرجوع وثالثة عن حدائق الخضراوات فى ميرورفورت حيث كان رجل يرتدى سترة زرقاء يجمع البطاطس . . وكان الحقل من الرمل الأبيض . . قد قلبت أرضه جزئيا وكان ما يزال مغطى بصفوف من الأعواد الجافة . التى تتخللها الأعشاب الخضراء ، وعلى بعد كانت هناك أشجار خضراء داكنة وبعض الأسطح . . وعندما تأمل عمله فى المرسم ملأه الزهو فقد كان على يقين من أن أى شخص لا يمكن أن يدرك أن هذه اللوحات هى ثمرة جهوده الأولى وكان المرسم وهو العمود الفقرى للتصوير والهيكل الذى يدعم بقية اللوحة يصور الحياة فى دقة وصدق . . وقد دهش قليلا لأنه كان يظن أن إنتاجه الأول سوف يحقق فشلا ذريعا وكان منهمكا فى رسم أرض منحدرة فى الغابات قد غطتها أوراق شجرة الزان الجافة المقروضة وكانت الأرضية بنية مائلة للحمرة خفيفة زادت فى كثافة لونها ظلال الأشجار التى كانت تلقى عليه خطوطا وأحيانا كانت ترسم عليه بعض البقع وكان يبغى الحصول على العمق فى اللون والقوة الهائلة وصلابة الأرض . وبينما كان يصور أدرك لأول مرة مقدار ما يزال من الضوء فى هذا الظلام وكان عليه أن يبقى على هذا الضوء وفى الوقت نفسه يحتفظ بعمق اللون الثرى . .

كانت الأرض بساطا من اللون البنى المحمر العميق تتألق تحت شمس الغروب فى الخريف تلطف من حدتها الأشجار وبرزت شجيرات البتولا واستمدت الضوء من جانب واحد وكانت أوراقها خضراء متألقة . وكانت الجوانب المظلمة من الجذوع دافئة وخضراء داكنة عميقة وخلف الشجيرات وراء الأرض الحمراء المائلة للبنى كانت السماء صافية رمادية تميل للزرقة

دافئة تكاد تكون زرقاء والسكل يتألق وكان يجاورها من الأمام بقعة قاتمة الخضرة وزخرفه من الجذوع الصغيرة والأوراق المصفرة وكان هناك أشباح قليلة من الحطابين يحومون حول المكان كأنهم كتل مظلمة من الظلال الغامضة ورأى قلنسوة بيضاء لا مرأة تنحنى لتمسك بفرع يابس برزت فى فظاظة فى مواجهة اللون الأحمر البنى الداكن للأرض وظهر خيال أسود لرجل فوق السكلأ وضع فى مواجهة السماء وكان الشكل رائعا ومليئا بالشاعرية .

وبينما كان يصور قال لنفسه .

يجب الا أذهب قبل أن أضع فيها شيئا من الإحساس بمساء الخريف .. شيئا غامضا . شيئا خطيرا . ولكن الضوء كان يخفت وكان عليه أن يعمل بسرعة الأشكال التى رسمها بيضع ضربات قوية من فرشاه صلبة وقد أدهشه مدى تعمق جذور الأشجار الصغيرة بقوة فى الأرض ، فحاول أن يصورها . .

ولكن الأرض كانت لزجة لدرجة أن ضربة الفرشاة ضاعت فيها . . وحاول مرة ثم مرة فى يأس حتى بدأ الظلام يتسلل وأخيرا رأى أنه قد غلب على أمره . . فلا فرشاة استطاعت أن تنقل أى شىء عن سمرة الطين اللازب الخصيب للأرض ، وبشىء من البديهة العمياء ألقى بالفرشاة بعيدا واعتصر من أنابيب الألوان ما صور به الجذور والجذوع فى اللوحة ، والتقط فرشاة أخرى وخفف الألوان الزيتية الكثيفة بيد الفرشاة وأخيرا وبينما كان الليل يرخى سدوله على الغابة صاح :

— نعم ها هى ذى الآن تقف هناك وهى ترتفع من الأرض وقد امتدت جذورها عميقة فيها . . لقد عبرت عما كنت أريد أن أقول . .

وزاره فايسنبروخ فى هذا المساء وقال . . تعال معى عند بلشرى . سوف ننعم بمشاهدة بعض اللوحات ونتبادل الحديث ولم يكن فنسنت قد نسى ما حدث فى زيارته الأخيرة فقال — لا ، أشكرك . . إنى لا أريد ان أترك زوجتى . .

فسار فايسنبروخ حتى وصل إلى كريستين وقبل يدها واستفسر منها عن صحتها ولعب مع الطفل فى مرح تام وكان من الواضح أنه لم يعد يذكر آخر ما قاله لهما . ثم قال . .

— دعنى أرى بعضا من رسومك الجديدة يا فنسنت فاقتعل فنسنت مسرورا وتناول فايسنبروخ دراسة عن سوق الاثنين حيث كانوا يشدون بعض المظلات . . وأخرى عن صف ينتظر أمام مطبخ الحساء وثالثة عن ثلاثة من الرجال المسنين فى المصحة العقلية . . . ورابعة عن سفينة صيد فى شفينينجن وقد ارتفع هلبها . . وخامسة أتمها فنسنت وهو جالس على ركبتيه فى وحل الكثبان . . خلال هبوب عاصفة ممطرة . .

— هل هذه اللوحات للبيع ؟ .

إنى أود أن أشتريها . .

— هل هذه إحدى نكاتك التعسة يا فايسنبروخ . .

— إنى لا أمزح أبدا فيما يختص بالتصوير . .

إن هذه الدراسات رائعة ، كم تريد ثمنا لها . . ؟

فقال فنسنت فى ضعف وهو يخشى أن يتعرض للسخرية فى أية لحظة . .

— حدد الثمن الذى تراه . .

— حسنا . ما رأيك فى خمسة فرنكات للواحدة ؟ أى خمسة وعشرين فرنكا للمجموعة . .

— فأتسعت حدقتا فنسنت وقال . .

— هذا كثير جداً . . لقد دفع لى عمى كور فرنكين ونصف فى الواحدة . . . .

— لقد غشك يا ولدى . . وكل التجار يغشونك . . إنهم سيبيعون لوحة من صنعك بخمسة آلاف فرنك . .

— ما قولك . . هل توافق ؟ .

— فايسنبروخ أنت أحيانا ملاك وأحيانا تكون شيطانا مريداً . .

— هذا لمجرد التنويع حتى لا يلمني أصدقائى . .

وأخرج محفظة وناول فنسنت خمسة وعشرين فرنكا وقال . . والآن تعال معى إلى بلشرى فأنت فى حاجة إلى قليل من التسلية ، سوف ترى إحدى الهزليات من تأليف تونى أوفرمانز وسوف يفيدك الضحك . . وهكذا ذهب فنسنت . . وكانت قاعة النادى مكتظة بالرجال وكانوا كلهم يدخنون طباقا رخيصا وقويا . . وكانت اللوحة الأولى مأخوذة عن صورة من الحفر لنيكولاس مايس وهى « اسطبل فى بيت لحم » وكانت جيدة للغاية فى ألوانها وتوزيعها ، إلا أنها كانت ولا ريب خالية من أى تعبير وكانت الثانية مأخوذة عن لوحة رامبرانت « إسحق يبارك يعقوب » وربيكا تنتظر لترى هل ستنجح حيلتها . . وأصيب فنسنت بالصداع بسبب الجو الخانق فغادر المكان قبل تمثيل المسرحية الهزلية وعاد إلى البيت . . وبينما كان يسير أخذ يؤلف عبارات خطاب . . وأبلغ والده بالقدر الذى اعتقد أنه لائق من قصته مع كريستين وأرفق بالخطاب الفرنكات الخمسة والعشرين التى أعطاها له فايسنبروخ وطلب من تيودورس أن يأتى إلى لاهاى وينزل ضيفا عليه . .

وبعد ذلك بأسبوع جاء والده وكانت عيناه الزرقاوان ذابلتين وغدت خطواته أبطأ مما كانت وكان تيودورس قد أمر ولده بترك المنزل فى آخر مرة كانا فيها معا وفى غضون ذلك تبادلا الكلمات الودية وكان تيودورس وآنا كورنيليا قد ارسلا عدة لفافات من الملابس الداخلية والخارجية والسيجار والكعك المصنوع فى البيت وكانا بين الحين والآخر يرسلان إليه ورقة بعشرة فرنكات ولم يدر فنسنت كيف سيعامل والده كريستين فأحيانا سيكون الرجال كرماء يفهمون الموقف وأحيانا اخرى يصابون

بالعمى ويتصرفون فى خسة ولم يكن يظن أن والده سوف يظل لا يكترث ويثير الاعتراضات قرب مهد طفل فالمهد لا يشبه أى شىء آخر ولا مجال للخداع فيه وكان يرجو أن يعفو والده عما حدث من كريستين فى ماضيها المشين .

وكان تيودورس يحمل لفافة ضخمة تحت ذارعه ، وفتحها فنسنت فوجد بها معطفا صوفيا لكريستين فعرف أن كل شىء كان على مايرام . . وبعد أن صعدت كريستين إلى حجرة نومها فى الدور العلوى جلس تيودورس وفنسنت معا فى المرسم . .

وقال الوالد . . .

— فنسنت . . هناك شىء واحد لم تذكره لى فى خطابك . . . هل الطفل ابنك ؟

— لا . . فقد كانت حاملا فيه عندما قابلتها . .

— أين والده . . ؟

لقد هجرها . .

— ولم ير من الضرورى أن يفسر لوالده أن الطفل مجهول الأب . .

— ولكنك سوف تتزوجها يا فنسنت . . أليس كذلك . . فليس من الصواب أن تعيش على هذا النحو . .

— إننى أوافقك ، وإننى لأرغب فى السير فى إجراءات الاحتفال الرسمى بأسرع ما يمكن ولكننى وثيو رأينا أنه من الأفضل أن أنتظر حتى أكسب مائة وخمسين فرنكا فى الشهر عن طريق رسمى . .

فتنهد تيودورس وقال :

— أجل . ربما كان ذلك أفضل . . إن والدتك تود أن تأتى إلى البيت فى زيارة قصيرة يا فنسنت . . وكذلك أنا . . وسوف تتمتع بالإقامة فى نيوتين يا ولدى . . إنها واحدة من أجمل قرى البرابانت . . فالكنيسة

ضئيلة للغاية وهي تشبه الكوخ الجليدي للاسكيمو وهي تتسع لأقل من مائة فرد تصور !! . . ويحيط المنزل بالأبروشية أسوار من النباتات الشوكية يا فنسنت ، وخلف الكنيسة ساحة مليئة بالزهور بها ربوات رملية وصلبان خشبية عتيقة . .

قال فنسنت . .

— صلبان خشبية . . أهي بيضاء . . ؟

— أجل . . وعليها الأسماء باللون الأسود ولكن الأمطار تعمل على محوها . .

— أيوجد برج عال جميل يعلو الكنيسة يا أبي ؟ . .

— واحد لطيف رقيق يافنسنت . . ولكنه يرتفع عاليا فى عنان السماء حتى ليخيل إلى أحيانا أنه يكاد يصل إلى الله . .

فقال : فنسنت وعيناه تتألقان . .

— تلقى ظلا رفيعا على المدافن . . أود أن أرسم ذلك . . ؟

— وهناك مروج وغابات ممتدة إلى جوارها .. والفلاحون يضربون الأرض بمعاولهم . لابد أن تأتى إلى البيت لزيارتنا فى القريب ياولدى . .

— أجل يجب أن أرى نيونين . الصلبان الصغيرة والبرج ، والناس الذين يفلحون الحقول . . إنى أعتقد أنه سيحيط بى دائما شىء ما من البرابنت .

وعاد تيودورس إلى بيته ليطمئن زوجته أن الأمور ليست سيئة مع ولدهم كما كانوا يتخيلون . . وانهمك فنسنت فى العمل بحماس متزايد ووجد نفسه يستعيد كلمات « ميليه » أكثر فأكثر « الفن معركة ، ففى الفن يجب أن يجتهد المرء ولو ضحى بجلده » . . لقد آمن به ثيو ووالده ووالدته لم يستهجنوا علاقته بكريستين ولم يعد أحد فى لاهاى يضايقه بعد الآن . .

وأصبح يتمتع بحرية تامة فى أن يسير قدما فى عمله . . وكان مالك مخزن الخشب المقطوع يرسل له كل الرجال الذين يأتون طالبين العمل. ولا يحصلون عليه ليعملوا لديه كموديلات . . وكلما فرغ جيبه أصبحت حافظة أوراقه عامرة وقد رسم الرضيع الذى يرقد فى المهد إلى جانب الموقد مرات ومرات وعند قدوم أمطار الخريف كان يعمل خارج المنزل على ضوء شعلة زيتية مقتنصا ما يشاء من التأثيرات ، وسرعان ما أدرك أن المصور بالألوان هو ذلك الرجل الذى رئى لونا فى الطبيعة ويعرف فى الحال كيف يحلل هذا اللون . . فيقول . . هذا الأخضر الرمادى أصفر مع الأسود وبه قليل من اللون الأزرق.

وسواء كان يرسم شكلا أو منظراً طبيعياً فإنه كان يتوق أن يعبر لا عن عاطفة الحزن بل عن الندم الشديد . . لقد كان يريد أن يصل الى المدى الذى يقول عنده الناس عن عمله . . . إنه عميق الشعور إنه رقيق الإحساس . .

كان يدرك أنه فى أعين الناس ليس أكثر من شخص شاذ لا يصلح لشيء . . شخص ما ليس له مكان فى هذه الحياة ... وكان يريد أن يظهر فى عمله ماينطوى عليه قلب مثل هذا الإنسان الغريب الأطوار ، هذا الإنسان الذى لا يصلح لشيء ... وفى أفقر الأكواخ وفى أقذر الأركان كان يرى صوراً وموضوعات الرسم وكلما قدم المزيد من الرسم فقدت الأنواع الأخرى من النشاط أهميتها لديه ، وكلما تخلص منها أسرع فى إدراك الصفات القابلة للتصوير فى الحياة . . فالفن كان يتطلب المثابرة على العمل . . وأن يعمل على الرغم من أى شيء وقوة ملاحظة مستمرة . . . وكانت الصعوبة الوحيدة التى تواجهه هى ارتفاع أثمان الألوان الزيتية ارتفاعا فاحشا وأنه كان يضع الألوان الزيتية فى طبقات كثيفة .. وحينما كان يضغط الأنبوبة لتخرج منها الألوان ويضعها على اللوحة فى كتل كبيرة عميقة فكأنما كان يصب الفرنكات فى بحر الشمال ، وكان يرسم بسرعة

فائقة حتى أصبحت تكاليف لوحته هائلة وكان يستهلك من الألوان الزيتية فى جلسة واحدة ما يكفى موف مدى شهرين كاملين ولم يكن فى مقدوره أن يصور بألوان خفيفة ولم يكن فى وسعه أن يرسم ببطء وتبخرت نقوده وامتلأ مرسمه بالصور . .

وحالما كان مرتبه يصل من عند ثيو الذى كان قد رتب أن يرسل له خمسين فرنكا مرة فى أول الشهر ومرة أخرى فى العشرين كان يندفع وهو يعدو إلى التاجر فيشترى أنابيب كبيرة من الألوان الطفلية والأزرق الكوبالت وأزرق بروسيا وأنابيب صغيرة من أصفر نابلى والسيانه والأزرق اللازوردى والصمغ النفطى ثم يظل يعمل فى سعادة حتى ينضب معينه من الألوان والفرنكات بعد أن يصل مرتبه من باريس بخمسة أو بستة أيام عادة وتبدأ متاعبه من جديد ..

وقد أدهشه أن يكتشف أنه يجب شراء أشياء كثيرة للطفل وأن كريستين تحتاج إلى أدوية بصفة دائمة وإلى ملابس جديدة وإلى أطعمة مخصوصة وأن هيرمان فى حاجة إلى شراء كتب وأدوات للمدرسة التى أرسل إليها وأن البيت كان بئرا بلا قرار تبتلع مصابيح وأوانى وأغطيـــة وفحما وخشبا وستائر وسجاجيد وشموعا وملاءات وأدوات فضية وأطباقا وأثاثا ونهرا ليس له آخر من الطعام . . وكان من الصعب عليه أن يعرف كيف يوزع الخمسين فرنكا بين رسمه وبين الثلاثة الذين يعتمدون عليه فى معيشتهم . .

وعلقت كريستين فى إحدى المرات عندما رأت فنسنت يختطف الخمسين فرنكا من مظروف ثيو ويبدأ فى جمع الأنابيب الفارغة قائلة ، مثلك كمثل العامل الذى يندفع إلى حانوت البيرة فى ذات اللحظة التى يتناول فيها أجره ..

وأقام آلة جديدة لرسم المنظور تقوم على ساقين طويلتين يمكن تثبيتهما فى الهضاب الرملية وكلف الحداد بعمل زوايا من الحديد للإطار ، وكانت شفيننجن ببحرها وهضابها الرملية وصياديها وسفنها الشراعية وجيادها وشبا كها تستهويه أكثر من كل شيء . .

وكان يسعى عبر الكثبان الرملية كل يوم ، ينوء بحامله الثقيل . . وآلة الرسم المنظور حتى لا تفوته الطبيعة المتغيرة للبحر والسماء . . ولما جاء وقت الخريف وبدأ الفنانون الآخرون يلازمون نيران مراسمهم كان هو يخرج ليرسم فى وسط الريح والمطر والضباب والعاصفة وفى أردأ طقس كانت ألوانه التى لم تجف تصبح مغطاة بالرمال التى تحملها الريح والماء المالح . . وكان المطر يبلل ثيابه والضباب والريح تبعث فى جسده القشعريرة والرمال تدخل فى أنفه وعينيه ولكنه كان يحب كل لحظة منها . . ولم يكن هناك مايوقفه عن الرسم ساعتها إلا الموت . .

وفى إحدى الليالى عرض على كريستين لوحة جديدة فقالت له «ولكن يافنسنت كيف يتأتى لك أن تجعلها تبدو واقعية هكذا . .

ونسى فنسنت أنه كان يتحدث إلى امرأة أمية من العامة وصار يتحدث مع فايسنبروخ أو موف وقال . .

ـ أنا نفسى لا أدرى . . فأنا أجلس ومعى لوحة بيضاء أمام البقعة التى تعجبنى وأقول لنفسى هذه اللوحة البيضاء لابد وأن تصبح شيئا ما ! . وأظل أعمل وقتا طويلا وأعود إلى البيت غير راض عما فعلت . . وأضعها بعيدا فى الحجرة الصغيرة وبعد أن أحصل على قسط من الراحة أعود فأنظر إليها فى شىء من الخوف وأنا مازلت غير راض عنها . . لأن روعة الأصل تكون ساعتها محفورة فى مخيلتى بجلاء بحيث لا أرضى عما فعلته . . ولكن على الرغم من كل ذلك أعثر فى رسمى على صدى لما أذهلنى وأرى أن الطبيعة قد باحت لى بشىء ما . .وتحدثت معى وأنى قد نقلت هذا الحديث على اللوحة فى إيجاز . .

وفى هذا الاختزال الذى أتوقعه ربما أجد كلمات لا تفسير لها وربما وجدت أخطاء وثغرات . ولكن يبقى بها دائما شىء ما من هذا الذى أخبرتنى به عن الغابات ، أو الشاطىء أو الشكل . . أتفهمين ذلك . . ؟

ـ لا . .

* * *

(١٣)

لم تكن كريستين تفهم إلا قليلا مما كان فنسنت يعمله وكانت تعتقد أن نهمه بتصوير الأشياء ضرب من الأفكار الثابتة التى تكلف غاليا . . وأدركت أن الرسم هو الصخرة التى بنيت عليها حياته . . ولم تبذل أية محاولة لمعارضته . . والنتيجة أن التقدم البطيء والتعبير الأليم فى عمله ضاعا عليها تماما . . فقد كانت كريستين رفيقة طيبة لأغراض الحياة المنزلية العادية . . ولكن الحياة العادية المنزلية لم تكن تحتل إلا جزءا ضئيلا من حياة فنسنت وعندما كان يرغب فى التعبير عن نفسه بالكلمات كان يجد نفسه مضطرا لأن يكتب إلى ثيو وكان يدبج له خطابا عاطفيا طويلا كل ليلة تقريبا يخبره فيه عن كل ما رآه وما صوره وما فكر فيه خلال النهار . . وعندما كانت تساوره الرغبة فى أن يستمتع بتبصير الآخرين كان يلجأ إلى الروايات من الفرنسية والإنجليزية والألمانية والهولندية . . كانت كريستين لا تقاسمه فى هذا الصدد إلا جزءا يسيرا من حياته ولكنه كان راضيا عن هذا ولم يكن يخالجه الندم على قراره باتخاذ كريستين زوجة له . . ولم يحاول أن يفرض عليها القيام بأعمال ذهنية إذ كان واضحا أنها ليس عندها الاستعداد لهذه الأعمال . .

ولم يكن ثمة بأس بكل هذا خلال شهور الصيف الطويلة والخريف وأوائل الشتاء عندما كان يخرج من البيت مبكرا فى الساعة الخامسة والسادسة صباحا ليظل بعيدا عنه حتى يتلاشى ضياء النهار تماما وعندئذ كان يسعى إلى البيت عبر الهضاب فى جو الغسق البارد إلا أنه عندما كانت تهب عاصفة ثلجية فظيعة لتحتفل بالذكرى السنوية الأولى لالتقائهما فى شرب النبيذ أمام محطة الراين وعندما كان فنسنت يضطر إلى العمل فى البيت من الصباح حتى يرخى الليل سدوله كان من الصعب أن يحافظا على علاقة مرضية وعاد يرسم من جديد وكان يوفر من النقود التى يصرفها

على الألوان . ولكن الموديلات كانت تلتهم ماله على حساب بيته وأسرته . . فقد كان الناس الذين يقبلون أن يعملوا لقاء أجر زهيد فى أسوأ نوع من الأعمال الحقيرة يطلبون مبلغا كبيرا لا لشىء إلا ليحضروا ويجلسوا أمامه وطلب الإذن بالرسم فى مصحة الأمراض العقلية ولكن السلطات صرحت له بأن هذا الأمر لا سابقة له عندهم وفضلا عن هذا فإنهم كانوا يقيمون طبقات جديدة ولهذا فإنه لم يستطع أن يعمل هناك إلا فى أيام الزيارة . . وكان أمله الوحيد ينحصر فى كريستين . . فما إن استردت قواها وتحسنت صحتها حتى أصبح ينتظر منها أن تعمل كموديل . . وأن تعمل بنفس الجهد الذى كانت تبذله قبل مولد الطفل . . ولكن كان لكريستين رأى آخر . . فى البداية كانت تقول له : إننى لم أسترد قواى تماما . . انتظر قليلا . . لست فى عجلة من أمرك . . وعندما استردت صحتها تماما كانت تعتقد أنها مشغولة جدا وكانت تقول له . . ليس الحال الآن كما كان من قبل يا فنسنت ، إن على أن أعتنى بالطفل . وعلى أن أحتفظ بنظافة البيت كله . . وأن أطبخ لأربعة أفراد ، وكان فنسنت يستيقظ فى الخامسة من صباح كل يوم ليقوم بأعمال المنزل حتى تتفرغ للوقوف أمامه لرسمها خلال النهار . . فكانت تحتج قائلة . . . إننى لم أعد موديلا يا فنسنت . . إننى زوجتك . .

ـــ سين : يجب أن تقفى أمامى لأرسمك فلم يعد فى طاقتى استئجار موديل كل يوم وهذا أحد الأسباب التى جئت بك من أجلها إلى هنا . .

اجتاحت كريستين نوبة من النوبات التى تفقد فيها السيطرة على أعصابها التى كثيرا ما كانت تحدث عندما لقيت فنسنت لأول مرة وقالت . .

ـــ هذا كل ما صاحبتنى من أجله . . لكى توفر المال عن طريقى إننى مجرد خادمة لعينة لك . . وإذا لم أتخذ وضعا لترسمنى فسوف تلقى بى مرة أخرى إلى قارعة الطريق .

ففكر فنسنت لحظة ثم قال . .

— لقد سمعت كل هذه الأشياء فى بيت أمك . . إنك لم تفكرى فيها من تلقاء نفسك . .

— حسنا . . لماذا إذا فعلت هـــذا . . إنها الحقيقة أليس كذلك ؟ . .

— سين : عليك أن تكفى عن الذهاب إلى هناك . .

— لماذا أظن أنى أحب أمى أليس كذلك ؟ . .

— ولكنهم يحطمون الروابط التى بنيت بيننا . . وأول ما يجب أن تعرفيه هو أنهم سيعودون بك إلى الوراء بأسلوبهم فى التفكير وأين سيكون زواجنا إذن . .

— ألست أنت الذى تطلب منى الذهاب إلى هناك حينما يفرغ الطعام فى البيت . . لتكسب مزيدا من المال . . وعندها لن أعود إلى هناك . .

وعندما تمكن فى النهاية من إقناعها باتخاذ وضع أمامه كانت لا تصلح للتصوير فقد كانت ترتكب كل الأخطاء التى طالما أجهد نفسه فى حملها على الإقلاع عنها . طوال السنة الماضية وأحيانا كان يساوره الشك فى أنها كانت تتعمد الانتفاض والقيام بحركات خرقاء حتى تثير نفوره منها فلا يثقل عليها بطلب اتخاذها وضعا خاصا بعد ذلك . . وفى النهاية وجد نفسه مضطرا إلى التخلى عنها . .

ازدادت نفقات الموديلات اللاتى كان يستأجرهن للتصوير فى الخارج وقد ترتب على ذلك أن تعددت أيضا الأيام التى كانوا يقضونها بلا نقود يشترون بها الطعام . . وكذلك تعددت الأيام التى كانت كريستين تضطر فيها لقضائها فى بيت أمها . . وفى كل مرة كانت تعود فيها من هناك كان يلاحظ تغيرا طفيفا فى قوة تحملها وسلوكها ووجد نفسه محصورا فى هذه الدائرة الخبيثة فلو أنه أنفق كل دخله على بيته لأمكن له أن ينقذ كريستين من تأثير أمها عليها ولأمكنه أن يحافظ على علاقتهما على أحسن ما يرام .

إلا أنه لو فعل هذا فعليه أن يتخلى عن عمله . . فهل ينقذ حياتها ليقضى على حياته هو . . . ؟

وإذا لم تذهب إلى والدتها عدة مرات كل شهر فسوف تموت جوعا هى والأطفال . . وإذا ذهبت فإنها أخيرا سوف تحطم بيتهم . . فما العمل . . ؟ . .

كريستين مريضة وتحمل طفلا . . كريستين فى المستشفى . . كريستين تسترد عافيتها بعد الوضع كلها صفة لشخص واحد ... امرأة مهجورة . . يائسة . . شبه ميتة تعسة عظيمة الامتنان لكلمة حنان واحدة ، أو أى فعل يقصد به معاونتها — امرأة عرفت كل الآلام .. كله فى العالم وعلى استعداد لأن تفعل أى شىء فى سبيل أن تتوقف آلامها لحظة واحدة والتى تبذل كل الوعود المحمومة من أجل نفسها ومن أجل الحياة .. أما كريتسين عندما استردت عافيتها ثانية ، امتلأ جسمها وتورد وجهها بفعل الطعام الجيد والدواء والرعاية فقد كانت امرأة من نوع آخر . . فقد بدأت تنسى الآلام . . ويضعف تصميمها على أن تصير ربة بيت ماهرة وأما طيبة ، وأخذت العادات والأفكار التى عرفتها فى حياتها الماضية تعود إليها تدريجيا . لقد عاشت بلا رابط فى الطرقات وسط التراب ودخان السجاير السوداء والألفاظ السافلة والرجال الخشنين مدى أربعة عشر عاما . . وباسترداد قواها الجسدية رجحت الأربعة عشر عاما التى قضتها فى كسل السنة الوحيدة التى عاشتها تحوطها الرعاية والحب الرقيق . . وأخذ يتسلل إلى نفسها تغير خبيث لم يستطع فنسنت أن يفهمه فى البداية ثم أصبح بالتدريج يدرك ما يدور حوله . . فحوالى هذا الوقت بالذات فى بداية العام الجديد تلقى فنسنت خطابا غريبا من ثيو لقد التقى أخوه فى طرقات باريس بامرأة وحيدة مريضة ويائسة . . وكانت تعانى من مرض فى قدمها يعوقها عن العمل .. ولقد أوشكت أن تقتل نفسها ولقد أرشد فنسنت ثيو إلى الطريق فحذا حذو أستاذه .. ووجد للمرأة مكانا فى بيت أصدقائه القدامى واستدعى

لها طبيبا قام بفحصها وتكفل بكل نفقات معيشة هذه المرأة وفى خطاباته كان يسميها مريضته . . وقال . .

— هل أتزوج مريضتى يا فنسنت : أهذه خير طريقة لخدمتها . هل على أن أسير فى إجراءات الاحتفال القانونى ؟ . . إنها تعانى كثيرا وهى تعسة وقد هجرها الشخص الوحيد الذى أحبته فاذا على أن أفعله حتى أنقذ حياتها ؟

وقد تأثر فنسنت تأثرا عميقا وكتب مبديا عطفه . . ولكن مشكلة كريستين كانت تزداد تفاقما كل يوم . إذ كانت تضج بالشكوى حينما لا يكون بالبيت سوى القهوة والخبز وتعير له فى أن يتخلى عن استئجار الموديلات وينفق ماله فى شئون البيت . . وعندما كانت تعجز عن امتلاك ثوب جديد كانت تهمل الثوب القديم وتدعه يتلطخ ببقع الطعام والقذارة . وكفت عن رفو ثيابه وملابسه الداخلية ومرة أخرى وقعت تحت تأثير أمها التى أقنعتها بأن فنسنت إما أن يهرب منها وإما أن يلقى بها إلى قارعة الطريق، ولما كان ارتباطهما بعلاقة دائمة مستحيلا فما جدوى الاهتمام بالارتباط بعلاقة مؤقتة؟

هل يمكنه أن ينصح ثيو بأن يقترن بمريضته ؟ . . وهل الزواج الشرعى هو الطريق الأمثل لإنقاذ مثل هؤلاء النساء؟ أم أن أهم شىء هو سقف يظلهم وطعام جيد يعود عليهم بالصحة والعافية وحنان يعيدهم ثانية إلى حظيرة حب الحياة ؟ . . وكتب لأخيـــه محذرا ومهلا . . ابذل كل ما فى وسعك من أجلها . . فهذا دافع نبيل . . ولكن عقد الزواج لن يساعدك بتاتا فإذا قويت أواصر الحب بينكما فسيقوم الزواج أيضا . . ولكن انتر أولا إذا كنت تستطيع إنقاذها .

كان ثيو يرسل إليه خمسين فرنكا ثلاث مرات شهريا . . أما الآن فقد بدأت كريستين تهمل فى تدبير شئون البيت وأخـــذت النقود تفد فى وقت أقل مما كان يحدث من قبل . . وكان فنسنت حريصا على الموديلات حتى يستطيع أن يجمع دراسات كافية لعمل عدة لوحات

واقعية . . وكان يأسف من أجل كل فرنك يجب أن يقتطعه من نفقات الرسم ليضيع فى البيت وكان قلبها يمتلىء حقدا على كل فرنك يضطر لأخذه من مصروف البيت. ليبتلعه الرسم. كانا يكافحان من أجل العيش وكانت المائة والخمسون فرنكا كل شهر لا تكاد توفر له الطعام والمأوى فحسب.. وكانت محاولة القيام بتوفير العيش لأربعة أشخاص بهذا المبلغ عملا يطول ولكنه مستحيل .. وبدأ يدين لصاحب البيت وصانع الأحذية . . والبقال والخباز وبائع الألوان . ولكى تبلغ متاعبه ذروتها نقصت موارد ثيو . . وكتب له فنسنت خطابات تفيض بالتوسل ويقول فيها أكون شاكرا لو أمكنك أن ترسل المبلغ قبل اليوم العشرين بقليل أو على الأقل ليس بعده، ليس لدى فى البيت سوى فرخين من الورق ولم يبق لدى إلا آخر قطعة من قلم وأنا لا أملك فرنكا واحدا أنفقه على الموديلات أو الطعام . وكان يكتب هذه الخطابات ثلاث مرات كل شهر . . وعندما كانت تصله الفرنكات الخمسون كان يجد نفسه مدينا بها للتجار فلا يبقى لديه شىء يعيش منه فى الأيام العشرة التالية ...

كانت مريضة ثيو فى حاجة لإجراء عملية جراحية لاستئصال ورم فى قدمها ، وكان على ثيو أن يصحبها إلى مستشفى لا بأس به وفى الوقت نفسه كان يرسل مبلغا من المال إلى أهله فى نونين لأن الأبروشية الجديدة كانت صغيرة ولم يكن دخل تيودورس يكفى دائما لتلبية حاجات أسرته . . فكان ثيو يعول نفسه ويعول مريضته وفنسنت وكريستين وهرمان وانتون والأسرة فى نيونين فكان يستنفد آخر سنتيم من مرتبه ولا يستطيع أن يرسل إلى فنسنت فرنكا آخر . .

وأخيرا حدث فى حوالى أوائل مارس أن بقى فنسنت وليس معه إلا فرنك واحد قيمة ورقة مالية ممزقة رفضها التجار من قبل ولم يكن باقيا بالبيت لقمة واحدة ولا يمكن أن يصل المبلغ التالى من ثيو قبل تسعة أيام على الأقل وكان يخشى أشد الخشية من أن يدع كريستين تقع ثانية بين براثن امها طوال هذه المدة فقال لها :

— سين : إننا لا نستطيع أن نترك الأطفال يتضورون جوعا . .
ومن الأفضل أن تأخذيهم إلى بيت والدتك حتى يصل خطاب ثيو وتطلع أحدهما للآخر لحظة وكانت تدور فى ذهن كل منهما نفس الأفكار ولا يجرؤان على التعبير عنها . .

وقالت . .

— أجل . أرى أنه لا مفر من هذا . .

وأعطاه البقال رغيفا من الخبز الأسود وبعض الجبن مقابل ورقة النقد الممزقة وأحضر بعض الموديلات إلى البيت على أن يدفع لهن أجورهن فيما بعد وأصبح أكثر عصبية وصار عمله صعبا وجافا وكان الجوع يضعف جسده . . وكانت تبدو عليه آثار المتاعب المالية المتوالية ولم يستطع أن يعيش بدون عمل . . إلا أن كل ساعة كان يقضيها فى العمل كانت تبين له أنه لا يكسب أرضا . .

وفى نهاية الأيام التسعة وفى اليوم الثلاثين وصله خطاب من ثيو مرفقا به خمسون فرنكا وكانت مريضته قد شفيت من العملية وألحقها ببيت خاص وكان ينوء بهذا العبء المالى أيضا . . . وتملكه اليأس وقال . . .

— أخشى أنى لا أستطيع ضمان شيء لك فى المستقبل . .

هذه العبارة أطارت صواب فنسنت . . هل يعنى ثيو فقط أنه لن يستطيع أن يرسل أى مبلغ بعد ذلك ؟ إن هذا فى حد ذاته لن يكون بالأمر السيء إلى هذه الدرجة ، ولكن هل يعنى هذا أن أخاه قد توصل إلى نتيجة بأنه عاطل عن الموهبة ولا يبشر بشيء فى المستقبل من خلال الرسوم اليومية التى أرسلها له فنسنت ليريه ما أحرزه من تقدم فى عمله ؟

وأصبح لا ينام بالليل نهبا للقلق . . وكتب خطابا لثيو حالما قال يطلب منه أيضا ، وأخذ يبحث فى يأس عن وسيلة لكسب عيشه ولكنه لم يجد . .

* * *

(١٤)

عندما ذهب لرؤية كريستين وجدها فى صحبة والدتها وأخيها وعشيقة أخيها ورجل غريب . وكانت تدخن سيجارا أسود وتحتسى شراب الجن ولم يعد على الإطلاق أنها سرت لفكرة العودة إلى شنكفيج .. وقد أعادت لها الأيام التعسة التى قضتها فى بيت أمها عاداتها السيئة القديمة ووسائلها المدمرة لكسب العيش وصاحت قائلة ..

— فى وسعى أن أدخن السجائر إذا شئت .. وليس من حقك أن تمنعنى مادمت أحصل عليها بنفسى .. لقد قال لى الطبيب فى المستشفى إنى أستطيع أن أحتسى ما أشاء من الجن وشراب المر ...

— أجل كدواء لفتح شهيتك ..

فانفجرت فى ضحكة خشنة وقالت ..

— دواء .. يالك من .... ونطقت بجملة لم تستعملها منذ الأيام الأولى لتعارفهما .

كان فنسنت قد بلغ حدا يرثى له من الحساسية فانفجر فى نوبة من الغضب الجامح وحذت كريستين حذوه وصرخت قائلة .. إنك لم تعد تعتنى بأمرى .. وأنت لا تعطينى شيئا آكله .. لم لا تكسب مزيدا من المال ، أى نوع من الناس أنت بحق الجحيم ..

وبينما كان الشتاء القارس يختفى ليحل الربيع المتبرم كانت أحوال فنسنت تنحدر من سوء إلى أسوأ وتراكمت عليه الديون ولكنه لم يستطع أن يملأ معدته بالطعام المغذى ، انعكس هذا عليه وأصبح لا يستطيع أن يبتلع لقمة واحدة وأثرت أمراض معدته فى أسنانه فكان يقضى الليالى ساهرا

يتلظى من الألم وقد تطايرت شظايا هذا الألم فأصابت أذنه اليمنى وكانت طوال النهار تختلج فى عصبية . .

وبدأت والدة كريستين تأتى إلى المنزل تشارك ابنتها الشراب والتدخين .. ولم تعد ترى أن كريستين ستكون سعيدة الحظ عندما تتزوج وحدث أن وجد فنسنت شقيقها هناك ولكنه انسل خارجا بمجرد أن دخل فنسنت . .

وسأل فنسنت . .

— لماذا جاء إلى هنا . . ماذا يريد منك . .

يقولون إنك ستلقى بى على قارعة الطريق . .

— إنك تعلمين ياسين أنى لم أفعل هذا أبدا .. لن أفعل طالما رغبت فى البقاء معى . .

— إن أمى تريد منى أن أرحل . . وهى تقول إنه ليس من صالحى أن أبقى هنا دون أن أجد شيئا أتبلغ به .

— وأين ستذهبين . .

— إلى البيت بالطبع . .

— وتأخذين الأولاد إلى البيت ؟

— هذا أفضل من الموت جوعاً هنا . .

— فى استطاعتى أن أعمل وأكسب عيشى

— وأى عمل ستزاولين . .

— حسن أى عمل . . خادمة أجيرة . . فى أحواض الغسيل . . أظن . .

— ورأى لتوه أنها كانت تكذب وقال . .

— إذن فهذا ما يغريك على أن تفعليه . .

— حسنا . . هذا ليس بالأمر السيء لهذه الدرجة فأنت تكسب عيشك . . ؟

— اسمعي ياسين . . إذا عدت لهذا البيت فأنت ضائعة وأنت تعلمين أن والدتك سوف ترسل بك إلى الشوارع من جديد ، تذكري ماقاله لك الطبيب فى ليدن . . إذا عدت إلى هذه الحياة فسوف تقتلين نفسك . .

— إنها لن تقتلنى . . إنى على أحسن مايرام الآن . .

— إنك تحسين بالعافية لأنك تعيشين فى حرص . . ولكن لو عدت ثانية . .

— بحق يسوع من سيعود . . مالم ترسل بى . . إنى . . ؟

وجلس على ذراع مقعدها المصنوع من الأغصان ووضع يده على كتفها . . كان شعرها مشعثا وقال :

— إذن صدقينى ياسين . . إنى لن أتخلى عنك أبدا هل فى نيتك مشاركتى ما أملك ؟ سوف تقيمين معى ولكن يجب أن تبتعدى عن والدتك وأخيك . فهما سيوردانك موارد التهلكة عدينى من أجلك أنت أنك لن تريهما بعد الآن . .

— أعدك بذلك . .

وعندما عاد بعد يومين عقب انتهائه من رسم دار البر وجد المرسم خاليا ولا أثر لطعام العشاء وعثر على كريستين فى بيت أمها تحتسى الشراب . .

وعندما عاد إلى البيت احتجت قائله . .

ــ لقد أخبرتك أنى أحب أمى . . وأعتقد أنى أستطيع أن أراها متى شئت ، لست ملكا لك . . ومن حقى أن أفعل ما أشاء . .

وانساقت وراء عاداتها البذيئة التى ألفتها حياتها السابقة . . وعندما كان يحاول أن يقوم اعوجاجها ويقول لها إنها كانت تباعد بينها وبينه كانت تجيب عليه بقولها . .

ــ نعم إننى أعرف هـذا تمـاما . . إنك لا تريدنى أن أبقى معك . .

فأوضح لها مدى قذارة البيت وشدة إهمالها فقالت . .

ــ حسنا . . إننى كسول ولا أصلح لشىء . . ولقد كنت هكذا دائما . . وهذا شىء لا سبيل لإصلاحه . . فإذا حاول أن يريها النهاية التى كان كسلها يقودها إليها كان ردها عليه .

ــ لست إلا امرأة منبوذة . . هذا صحيح . . وسوف أختم حياتى بإلقاء نفسى فى النهر . . وكانت والدتها تأتى إلى المرسم تقريبا كل يوم وانتزعت من فنسنت تلك الرفيقة التى كان يقدرها فى كريستين . . وأصبح البيت فى حالة يرثى لها من الفوضى وأصبحت الوجبات غير منتظمة وسمح لهيرمان بأن يهيم على وجهه فى ثياب قذرة مهلهلة . . وأن يمتنع عن الذهاب إلى المدرســـة وكلما قل جهد كريستين فى العمل كلما أسرفت فى التدخين وفى احتساء شرابها من الجن ولم تـكن تقول لفنسنت من أين حصلت على المال الذى اشترت به هذه الأشياء . .

وأقبل الصيف وخرج فنسنت إلى الخلاء ليرسم مرة أخرى ، وكان هذا يعنى مخصصات جديدة من أجل الرسـوم والفرش وقماش اللوحات والإطارات والحوامل الأكبر وأبلغه ثيو بتحسن أحوال صحته . . ولـكن طرأت على علاقته بها مشكلات خطيرة . .

ماذا عليه أن يفعل لهذه المرأة بعد أن استردت صحتها ..؟

أغلق فنسنت عينيه عن كل شيء يتعلق بحياته الخاصة وواصل الرسم .. وكان يدرك أن بيته يتحطم على مسمع منه .. وأنه تورط فى هوة الكسل السحيقة التى تردت فيها كريستين وحاول أن يتغلب على يأسه بالانهماك فى العمل .

وفى كل صباح يرسم فيه مشروعا جديدا يراوده الأمل فى أن تكون لوحته كاملة وجميلة بحيث تباع فورا .. وتوفر له مطالب الحياة .. كان فى كل ليلة يعود للبيت وهو يدرك فى حزن أنه ماتزال أمامه سنوات عديدة حتى يملك زمام فنه كما كان يطمع فى هذا ..

وكان عزاؤه الوحيد فى الطفل انتون ، فقد كان الطفل معجزة فى حيويته وكان يلتهم كل شيء يمكن أكله وهو يضحك ويثوح ، وكثيرا ما كان يجلس مع فنسنت فى المرسم على الأرض فى أحد الأركان وكان يصيح عند رؤية رسوم فنسنت ثم يجلس بهدوء يتأمل الرسوم المعلقة على الحائط .. وكان ينمو ويبشر بأنه سيكون طفلا جميلا ممتلئا بالحيوية وكلما قلت عناية كريستين بالطفل كلما ازداد فنسنت حباله .. ورأى فى أنتون الأمل الحقيقى والجزاء الأوفى لأحداث الشتاء الماضى .

ولم يزره فايسنبروخ سوى مرة واحدة ..

وعرض عليه فنسنت بعض الرسوم التى أنجزها فى السنة الماضية وكان غير راض عنها بتاتا .

فقال له فايسنبروخ ..

يجب ألا يكون إحساسك نحوها هكذا فبعد سنوات طويلة سوف تعيد النظر فى هذه اللوحات الأولى من أعمالك وسوف تدرك أنها كانت صادقة ونفاذة .. ما عليك إلا أن تواصل العمل بكل جهد ولا تدع أى شيء يقف فى سبيلك ..

وكان ما أوقفه فى النهاية لطمة تلقاها على وجهه فى خلال فصل الربيع أخذ مصباحا إلى صانع الآنية الخزفية لإصلاحه فأصر التاجر على أن يأخذ فنسنت إلى البيت بعض الأطباق الجديدة . .

— ولكنى لا أملك مالا أدفعه ثمناً لها . .

— لا بأس . . لا ضرورة للعجلة . . خذها وسدد ثمنها عندما تحصل على المال .

وبعد شهرين طرق باب المرسم وكان رجلا جسيماً له رقبة غليظة كرأسه وقال له متسائلا .

— ماذا تقصد بالكذب على . . لماذا تأخذ بضائعى ولم تسدد ثمنها عندما حصلت على المال طوال هذه المدة ؟ . .

— أنا خاوى الوفاض تماما فى هذه اللحظة وسوف أدفع لك حالما أتسلم نقودا . .

— هذا كذب . . لقد أعطيت نقودا لجارن صانع الأحذية . .

— إنى مشغول ولا أحب أن يزعجنى أحد . . سأدفع لك حينما أحصل على المال أرجوك أن تخرج . .

— سوف أخرج عندما تعطينى هذا المبلغ . . وليس قبل هذا . .

فدفع فنسنت الرجل نحو الباب فى تهور وقال ، آمرا . .

— اخرج من بيتى . .

وكان هذ ما ينتظره البائع فما أن لمسه حتى سدد لكمة من قبضته اليمنى إلى وجه فنسنت . . فارتطم بالحائط ثم لطم فنسنت مرة أخرى وألقى به على الأرض وخرج دون أن يفوه بكلمة واحدة .

وكانت كريستين فى بيت أمها . .

فزحف أنتون على الأرض وأخذ يربت على وجه فنسنت وهو يبكى ..

وبعد بضع دقائق عاد فنسنت إلى وعيه وجر نفسه على السلم إلى الدور العلوى ورقد على الفراش . . ولم يلحق وجهه أذى من الضربات ولم يشعر بأى ألم ولم يجرح نفسه عندما سقط بشدة على الأرض . . ولكن هاتين الكمتين حطمتا شيئا فى أعماقه وغلبتاه على أمره . . وكان يعرف هذا الشيء .

وعادت كريستين إلى البيت وارتقت درجات السلم إلى الدور العلوى وكان البيت خاليا من المال والطعام . . وكثيرا ما كانت تعجب كيف استطاع فنسنت أن يبقى على قيد الحياة . . ورأته راقدا بعرض الفراش ورأسه وذراعاه تتدلى إلى جانب وقدماه تتدليان من الجانب الآخر . . وسألته ..

— ماذا حدث ؟

— وبعد فترة طويلة وجد القوة ليستدير ويضع رأسه على الوسادة وقال :

— سين .. لابد أن أرحل من لاهاى ..

— نعم .. أعرف ..

— يجب أن أبتعد من هنا .. إلى مكان فى الريف إلى درينث . ربما نستطيع أن نعيش بنفقات أقل ..

— أتريد أن أصحبك ؟ إن درينث جحر بشع .. ماذا أصنع عندما تنفد منك النقود ولانجد مانتبلغ به ؟ .

— لاأعرف ياسين .. أعتقد انك لن تأكلى ..

— هل تعدنى بأن تنفق الفرنكات المائة والخمسين على مطالب العيش ولا تنفقها على الموديلات والألوان ؟

— لا أستطيع ياسين .. فهذه الأشياء لها الأولوية ..

— أجل بالنسبة لك . . .

— ولكنها ليست كذلك بالنسبة لك . ولم لا تكون كذلك ؟

— يجب أن أعيش أيضاً يافنسنت وإننى لاأستطيع أن أعيش بدون طعام . .

— وأنا لا أستطيع أن أعيش بدون أن أرسم . .

— حسنا . . إنه مالك . وأنت تأتى فى المقدمة . .

فهمت . . هل معك بضع سنتيمات ؟ هيا بنا إلى مشرب النبيذ المواجه لمحطة الراين .

كان المكان يعبق برائحة النبيذ اللاذع الطعم وكان هذا فى وقت متأخر بعد الظهيرة ولكن المصابيح لم تكن قد أضيئت بعد . . وكانت المائدتان اللتان جلسا إليهما متقاربين لأول مرة كانتا خاليتين وشقت كريستين طريقها إليهما وطلب كل منهما كأسا من النبيذ اللاذع الطعم وجعلت كريستين تلهو بكأسها وتذكر فنسنت كيف أعجبته يداها المعروقتان من العمل حينما كانت تقوم بمثل هذه الحركة على المائدة منذ مايقرب من عامين . .

وقالت بصوت خافت . . لقد قالوا لى إنك ستتركنى . . وقد عرفت هذا أيضاً ...

— أنا لا أريد أن أهجرك يا سين . .

— ليس هذا هجرا يافنسنت . . فأنت لم تفعل لى إلا ماهو خير . .

— إذا كنت مازلت راغبة فى مشاركتى العيش فسوف أصحبك معى إلى درينث . .

فهزت رأسها دون أن تختلج بأى انفعال وقالت . .

— لا فليس هناك مايكفينا نحن الاثنين . .

— إنك تدركين هذا . . أليس كذلك ياسين ؟

— لو كان لدى أكثر لأعطيتك أى شىء . ولكن حينما يتحتم على أن أختار بين إطعامك وسد نهم عملى ..

فوضعت يدها على يده وكان فى استطاعته أن يحس بملمس بشرتها الخشن وقالت . .

— لابأس . . يجب ألا تشعر بالحزن لهذا الأمر . لقد فعلت لى كل مافى وسعك وأعتقد أنه قد حان الوقت لكى نفترق . . . وهذا كل مافى الأمر . .

— هل تريدين أن نتزوج ياسين . . إن كان ذلك يحقق لك السعادة فسوف أتزوجك وأصحبك معى ..

— لا . . إننى سوف أعيش مع أمى وعلينا جميعا أن نحيا الحياة التى تروقنا . . وسوف يكون الحال على مايرام . . فأخى سيستأجر بيتا جديدا لفتاته ولى ..

وارتشف فنسنت كأسه حتى الثمالة وكان يحس بحرارة الرواسب التى تبقت فى القاع وقال :

— لقد حاولت أن أساعدك ياسين ولقد أحببتك ومنحتك كل الحنان الذى ينطوى عليه قلبى .. وفى مقابل هذا أريد منك أن تصنعى شيئاً واحدا من أجلى .. شيئا واحدا فقط ..

فسألته فى حزن .. ماهو ؟

— لاتعودى مرة أخرى إلى التسكع فى الشوارع . . فهذا كفيل بالقضاء عليك ..

من أجل أنترن لاتعودى إلى تلك الحياة ..

— هل لدينا ما يكفى لشراء كأس أخرى من النبيذ ..

— أجل

وابتلعت نصف محتويات الكأس في جرعة واحدة ، ثم قالت ..

— أنا لا أعرف إلا أنني لاأستطيع أن أكسب ما يكفي وخاصة عندما يتحتم على أن أسدد نفقات كل الأطفال .. فإذا كنت سأذرع الطرقات فهذا لأنه لامفر من هذا وليس لأن هذه هي رغبتي ..

— إذا توفر لك ما يكفيك من العمل فهل تعديني بألا تعودي لهذا الأمر .. أليس كذلك .. ؟

— نعم ولاريب .. أعدك بهذا ..

— سوف أرسل لك نقودا ياسين كل شهر .. وسوف أنفق دائما على الطفل وأريد منك أن تتيحي فرصة لهذا الولد الصغير ..

— سيكون على مايرام .. تماما كبقية إخوته ..

وكتب فنسنت لثيو يخبره بعزمه على الرحيل إلى الريف ويفصم علاقته بكريستين .

وأجاب عليه ثيو برجوع البريد بخطاب طواه على ورقة أخرى نقدية من فئة المائة فرنك ليسدد ديونه وكلمة حارة يعبر بها عن موافقته ..

لقد اختفت مريضتي في الليلة الماضية .. وأضاف قائلا .. وقد تعافت الآن تماما ولكن يبدو أننا لم نوفق في الاهتداء إلى رابطة تناسبنا معا .. لقد أخذت معها كل شيء ولم تترك لي أي عنوان .. وهذا أحسن ولاريب .. والآن ها نحن قد أصبحنا أنا وأنت لايعوقنا شيء ..

وحزم فنسنت كل الأثاث في الدور العلوي إذ كان يريد أن يعود إلى لاهاي وفي اليوم السابق لسفره إلى درينث تسلم رسالة وطردا من نيونين وكان بالطرد بعض التبغ . وإحدى فطائر الجبن من صنع أمه ملفوفة في ورقة زبدة .. وكتب له والده يسأله ..

— متى ستأتى إلى البيت لترسم هذه الصلبان الخشبية فى المدافن ..؟..

وأدرك فى الحال أنه يريد العودة إلى وطنه .. فقد كان مريضاً يتضور جوعا، وكانت أعصابه مهدمة منهوك القوى خائر العزيمة . وسوف يعود لوطنه ليرى أمه ويقضى بضعة أسابيع يسترد فيها صحته وروحه المعنوية وغامره إحساس بالطمأنينة لم يعرفه منذشهور طويلة عندما فكر فى ريف بارابانت وأســـوار النباتات الشوكية والهضاب الرملية والعازقين فى الحقول . .

وصحبته كريستين والطفلان إلى المحطة . . ووقفوا جميعاً على، الرصيف وقد عجزوا عن الكلام وأقبل القطار واستقله فنسنت . . وهناك وقفت كريستين وهى تضم الطفل إلى صدرها وتمسك بيد هيرمان . . وأخذ فنسنت يرقبهم . .

تحرك القطار فى ضوء الشمس الساطعة . . واختفت المرأة إلى الأبد فى ظلمات المحطة القذرة .

* * *

الكتاب الرابع

نيو نين

(١)

كانت أبروشية نيو نين تتألف من طابقين من الأحجار البيضاء وخلفها حديقة كبيرة وكانت هناك أشجار غار وسياج من النباتات وبركة وثلاث من أشجار السنديان المبتورة . . .

وعلى الرغم من أن تعداد سكان نيو نين كان ألفين وستمائة نسمة فإن مائة واحدة منهم فقط كانوا من البروتستانت ، وكانت كنيسة تيودورس صغيرة . . .

وكانت نيو نين على بعد خطوة واحدة من السوق الصغيرة الرائجة فى مدينة إيتن وكانت نيو نين فى الحقيقة عنقودا صغيرا من البيوت تصطف على جانبى الطريق الآتى من مدينة أيندهوفن عاصمة المنطقة .

وكان معظم سكانها يعملون نساجين وفلاحين تتناثر أكواخهم فى المرج وكانوا قوماً يخشون الله من الطبقة الكادحة يعيشون طبقا لأساليب وعادات أسلافهم . . .

وأمام الأبروشية وفوق الباب علقت هذه الأرقام من الحديد الأسود أو ١٧٦٤ وكان مدخل الباب يؤدى مباشرة إلى الطريق ويوصل إلى قاعة واسعة تقسم المنزل إلى قسمين : فى الجانب الأيسر الذى يقسم غرفة الطعام والمطبخ كان هناك سلم غير متقن الصنع يؤدى إلى حجرات النوم فى الدور العلوى ، وكان فنسنت يشاطر أخاه كور فى الحجرة التى تقع فوق غرفة المعيشة ، وعندما استيقظ فى الصباح استطاع أن يرى الشمس تشرق على البرج الرقيق لكنيسة والده . . . وتلقى فى رفق بظلالها الرمادية على البركة . . . وعند غروب الشمس تكون درجات الألوان أكثر عمقا مما تكون عليه فى الفجر كان فنسنت يجلس فى مقعد بجانب

النافذة ويرقب اللون الذى ينعكس على صفحة مياه البركة الذى يشبه غطاء ثقيلا من الزيت ثم يذوب . . . رويدا رويدا فى الغسق . . .

كان فنسنت يحب والديه وكان والداه يبادلانه الحب ، واتخذ ثلاثتهم قرارات حاسمة بأن يحافظوا على علاقتهم الودية وأن يسود بينهم الوئام وكان فنسنت يأكل ملء بطنه وينام ملء عينيه . . . وفى بعض الأحيان كان يخرج للتريض فى المروج ولكنه لم يتحدث ولم يرسم ولم يقرأ بتاتا . . . وكان كل من فى البيت دمثا رقيقا فى معاملته له كما كان بدوره رقيقا معهم . . . كانت بينهم رابطة تتسم بالوعى الذاتى . . . فقبل أن يهموا بالحديث كانوا يقولون لأنفسهم . . .

يجب أن أكون على حذر . . . فلست أريد أن أقوض هذا الانسجام . . . واستمر الانسجام طوال مرض فنسنت ، ولم يستطع أن يحس بالراحة فى غرفة يشاركه فيها قوم لا يفكرون على النحو الذى كان يفكر فيه . وعندما قال له والده مرة سأقرأ رواية « فاوست » لجوته وقد ترجمها الأب تن كيت ولهذا فإنها لن تكون مخالفة للآداب إلى حد كبير . . . أحس فنسنت بغصة فى حلقه . . . لقد جاء إلى البيت لقضاء أجازة قدرها أسبوعان فقط . . . ولكنه أحب البرابانت . . . وبوده لو أقام هناك . . . كان يحب أن يرسم ببساطة وهدوء من الطبيعة ولا يحاول أن يقول شيئا إلا ما رآه . ولم تكن تساوره أية رغبة أخرى سوى أن يتعمق فى الحياة فى قلب الريف وأن يرسم الحياة الريفية وكما فعل الأب الطيب ميليه . . . أراد أن يعيش مع الفلاحين ويفهمهم ويصورهم . . .

وكان على يقين تام بأن هناك بعض الناس الذين جذبتهم المدينة وارتبطت بها حياتهم ومع ذلك احتفظوا بانطباعات واضحة عن الريف وظلوا يشعرون بالحنين طوال حياتهم إلى الحقول والفلاحين . . . ولقد عرف دائما أنه سوف يعود يوما إلى البرابانت ويبقى فيها إلى الأبد ولكنه ما كان ليستطيع أن يبقى فى فيونين إذا لم يرحب به والده .

وقال لأبيه :

— إن الباب إما أن يفتح وإما أن يغلق ... فلنحاول أن نصل إلى نقطة تلتقى فيها وجهات نظرنا . . .

— أجل يافنسنت ، لشد ماأرغب فى هذا . . . فأنا أرى أن تصوبرك قد بلغ حدا من الإجادة على أية حال وهذا يسرنى . . .

— حسن جداً إذن فقل لى بصراحة . . . هل تعتقد أن فى وسعنا كلنا أن نعيش هنا فى سلام .

— هل تريد أن أبقى . . . ؟

— أجل . .

— إلى متى ؟

— طالما تحب فهذا بيتك ومكانك بيننا .

— وإذا اختلفنا؟ . .

— إذن ليس لنا أن نزعج من أجل هذا . . فلنحاول أن نعيش مع بعضنا فى هدوء ووئام . .

— ولكن ماذا أصنع لتدبير مرسم ؟ فلا ريب أنك لا تريد أن أعمل فى البيت . .

لقد كنت أفكر فى هذا . .

— لماذا لا تأخذ غرفة الدواجن التى فى الحديقة . . يمكنك أن تستأثر بها وحدك ولن يضطر إنسان إلى إزعاجك . .

غرفة الدواجن تقع خارج المطبخ بالضبط ولكن لم يكن هناك بينهما باب مشترك وكانت مضجعا من حجرة لها نافذة صغيرة عالية تطل على الحديقة وكانت أرضيتها التى من الطين تنضح دائما بالرطوبة فى الشتاء .

— سوف نشعل كمية كبيرة من الأخشاب هنا يافنسنت ونجفف

المكان . . ثم نضع أرضية من الخشب حتى تستطيع أن تنعم بالراحة التامة فما قولك فى هذا ؟ . .

فتطلع فنسنت حوله ورأى غرفة متواضعة تشبه إلى حد كبير أكواخ الفلاحين التى تتناثر فى المروج ورأى أن فى إمكانه أن يحولها إلى مرسم ريفى حقيق . .

وقال تيودوروس . .

— إذا كانت هذه النافذة صغيرة جداً فإن لدى الآن بعض الفائض من المال ونستطيع أن نوسعها . .

— لا . . لا . . إنها لا بأس بها كما هى الآن ، وسوف تتوافر لى نفس الكمية من الضوء التى تنعكس على الموديل التى كانت ستتوافر لى لو كنت أرسمه فى كوخه الخاص . .

وأحضروا برميلا مثقوبا وأشعلوا ناراً عظيمة وعندما جفت كل الرطوبة من الجدران والسقف وأصبحت الأرضية الطينية صلبة وضعوا عليها ألواحا خشبية ، وحمل فنسنت إليها سريره الصغير ومنضدة ومقعدا وحوامل لوحاته وسمر رسومه وكتب بالفرشاه اسم « جوخ » بحروف غليظة على الحائط المدهون باللون الأبيض الذى يقع بجوار المطبخ وأقام بها ليصبح « مبايه » الهولندى . .

* * *

(٢)

كان أهم أهل نيو نين هم النساجون .. وكانوا يقيمون فى أكواخ من القش والطين مسقوفة بالغاب . تتألف عموما من حجرتين .. وكانت العائلة تعيش في حجرة لها كوة صغيرة تسمح بأن يتسلل منها شعاع من الضوء . وكانت في الجدران تجاويف مربعة على ارتفاع ثلاث أقدام من الأرض أعدت للسرائر ، ومنضدة وبضعة مقاعد وموقد تشعل ناره بالخشب وصوان غير متقن الصنع للأوانى والأطباق .. أما الأرض فكانت غير مستوية والجدران من الطين . وفى الغرفة الملحقة وهى فى نحو ثلث حجم غرفة المعيشة وفى منتصف ارتفاعها نحتت طنف منحدرة ثبت فيها النول . وكان النساج الذى يعمل بانتظام يستطيع أن ينسج قطعة يبلغ طولها ستين ياردة فى الأسبوع . وبينما كان ينسج كان على امرأته أن تطوى له ما ينسجه . وكان النساج يحصل من وراء هذه القطعة من القماش على ربح صاف قدره أربعة فرنكات ونصف فى الأسبوع .. وحينما كان يأخذها إلى صاحب المصنع كان يتسلم غالبا الرسالة التى تحتم عليه ألا يأخذ قطعة أخرى للبيت قبل مرور أسبوع أو أسبوعين ، وقد اكتشف فنسنت من عمال المناجم فى البوريناج أنهم يتمتعون بروح مختلفة .. فقد كانوا هادئين ولم يسمع فى أى مكان أى شىء مثل الأحاديث الثائرة .. ولكنهم كانوا يبدون مرحين مثل خيول عربات الركوب أو الأغنام التى تنقلها باخرة إلى إنجلترا .. وسرعان ما اكتسب فنسنت صداقتهم فقد وجد أن النساجين ليسوا إلا أرواحا بسيطة لا يطلبون إلا العمل الذى يكفيهم للحصول على البطاطس والبن وشريحة من لحم الخنزير الذى يعيشون عليه بين الحين والآخر ..

ولم يمانعوا فى أن يرسمهم وهم يعملون إذ إنه لم يأت أبدا دون أن تخلو يده من قطعة من الحلوى لطفل الأسرة أو من كيس تبغ للجد العجوز .

وقد اكتشف نولا عتيقا من شجر البلوط البنى المائل إلى الاخضرار حفر عليه تاريخ عام ١٧٣٠، وقرب النول أمام نافذة صغيرة تطل على رقعة خضراء، كان هناك مقعد لطفل وكان الطفل يجلس فيه وهو يحدق فى المأكول الطائر ساعات طويلة . .

كانت غرفة صغيرة بائسة لها أرضية من الطين ولكن فنسنت وجد فيها نوعا من الهدوء والجمال حاول أن يسجله فى لوحاته

وكان يستيقظ فى ساعة مبكرة من الصباح ويقضى اليوم بأكمله فى الحقول أو فى أكواخ الفلاحين والنساجين .. ومع هؤلاء الناس الذين كانوا يعملون فى الحقول وعلى الأنوال كان يشعر أنه فى بيته ولم تكن عبثا هذه الأمسيات العديدة التى قضاها مع عمال المناجم والحفارين فى البقايا النباتية القديمة والفلاحين بجانب النار .

وباستمرار مشاهداته لحيـــاة الفلاح طوال ساعات النهار أصبحت تستهويه لدرجة أنه لم يعد يشغل ذهنه بأى شىء آخر . كان يبحث عما لا يحدث فيما يحدث .

وعاد إليه حبه القديم للرسم من الشكل ولكن مع هذا الحب الآن كان قلبه يخفق بحب جديد . . للون . . كانت حقول القمح نصف الناضج ذات لون ذهبى داكن وأحمـــر قان وبرونزى ذهبى ويرتفع أثره إلى الذروة بالتناقض بينه وبين لون السماء الأزرق الكوبالتى .

وفى الخلفية كانت أجساد نساء بالغة الخشونة ممتلئة بالحيوية لفحت الشمس وجوههن وأذرعتهن يرتدين ملابس زرقاء تيلية خشنة متربة وقلنسوات سوداء على هيئة البيريه يغطين بها شعرهن القصير .

وعندما كان يأتى وهو يتأرجح بشدة إلى الطريق الرئيسى وقد ثبت على

ظهره حامل صوره وتأبط لوحاته التى لم تجف ألوانها كان شيش النوافذ فى كل بيت يفتح قليلا من أسفل وكان يشعر بعينين نسائيتين مرتابتين تتفحصانه فى فضول .

وفى البيت اكتشف أن المثل القديم الذى يقول ...

الباب يجب أن يفتح أو يغلق ...

ليس صادقا تماما عند تطبيقه على العلاقات العائلية .. فقد اعتاد باب المناء العائلى فى الأوبرشية أن يظل فى وضع غامض لا يمكن تحديد ما إذا كان مفتوحا أم مغلقا إذا كانت أخته إليزابيث تنفر منه وكانت تخشى أن تؤدى غرابة أطواره إلى تحطيم فرصها فى الزواج فى نيونين . أما ويلبين فكانت تحبه ولكنها كانت تعتقد أنه ثقيل الظل . ولم يستطع أن يكتسب صداقة أخيه الأصغر كور إلا فيما بعد .

وكان فنسنت لا يتناول طعامه على مائدة الأسرة بل فى أحد الأركان واضعا الطبق فى حجره والرسوم التى أنجزها فى يومه ملقاة على مقعد أمامه ، وكان يتفحص عمله بعينين نافذتين ويمزقها أربا لما فيها من أخطاء وقيم رخيصة ولم يتحدث أبدا إلى أفراد الأسرة ، وكانوا بدورهم نادرا ما يخاطبونه ... وكان يلتهم خبزه جافا لأنه كان لا يريد أن يتعود على التورط فى شىء وإذا حدث أن تردد عرضا اسم كاتب ممن يحبهم فى أثناء الحديث على المائدة كان يلتفت لهم ويتحدث معهم لحظة . . ولكنه اكتشف بوجه عام أنه كلما قل مايقوله كل منهم للآخر كلما كان هذا خيرا لهم جميعا .

* * *

(٣)

كان قد مضى عليه نحو شهر عندما بدأ يخامره إحساس عجيب بأن أحدهم يرقبه . وكان يعرف أن أهل نيوفين كانوا يحدقون فيه ، وأن الفلاحين فى الحقول قد اعتادوا أن يستندوا إلى فئوسهم ويحدقوا فيه باستغراب . . . ولكن إحساسه فى هذه المرة كان مختلفا فقد كان يخامره شعور بأن أحدهم لا يرقبه فحسب، بل إنه أيضاً يقتفى أثره . وفى الأيام القليلة الأولى حاول أن يتخلص من هذا الشعور وقد نفد صبره . ولكنه لم يستطع أن يتخلص من الإحساس بأن عينين كانتا تخترقان ظهره بنظراتهما النفاذة . . وكثيرا ما كان يلقى على الحقل حوله نظرة سريعة فاحصة ولكنه لم يستطع أن يرى شيئا . . وفى إحدى المرات خيل إليه أنه لمح الطرف الأبيض لثوب امرأة وهو يتوارى خلف شجرة عندما كان يلتفت فجأة . . وفى مرة أخرى وبينما كان خارجا من بيت أحد النساجين رأى شبحا يسرع فى الطريق ومرة ثالثة أيضا وبينما كان يرسم فى الغابة ترك حامل صوره وسار إلى الغدير ليشرب وعندما عاد وجد بصمات أصابع على اللون الذى لم يجف .

وقد استغرق نحو أسبوعين حتى استطاع أن يضبط المرأة وكان يقوم برسم الحفارين فى المروج وكانت هناك عربة نقل عتيقة مهجورة على مقربة منه . وكانت المرأة تقف خلفها بينما كان يعمل فالتقط حامل صوره ولوحاته فجأة وتظاهر بأنه كان يتأهب للعودة إلى منزله . . فأسرعت المرأة مندفعة فى طريقها . . فتبعها دون أن يثير شكوكها ورآها تدخل فى البيت المجاور للأبروشية وقال ..

— من يقيم فى البيت المجاور لنا من اليسار يا أماه .. ؟

— عائلة بيجيمان ..

— ومن هم .. ؟

— لا نعرف عنهم كثيرا .. هناك خمس فتيات وأمهم ويبدو أن الأب قد توفى . .

— كيف يبدون ؟

— من الصعب أن أقول لك . . إنهم يميلون إلى الغموض . .

— وهل هم من الكاثوليك ؟

— لا . . إنهم بروتستانت . . وكان الأب راعيا لكنيسة . .

— هل هناك من بين الفتيات من لم تتزوج بعد . . ؟

— أجل . . جميعهن . . لماذا تسأل . . ؟

— إننى أتساءل فقط ومن يعول هذه الأسرة . . ؟

— لا أحد ويبدو أنهن ثريات . .

— أعتقد أنك لا تعرفين اسم أية واحدة . . من الفتيات ؟

فتطلعت إليه أمه فى فضول ثم قالت . . لا . .

وفى اليوم التالى ذهب ثانية إلى ذات المكان فى الحقول . . فقد كان يريد ألا تفوته زرقة أشكال الفلاحين التى تبدو فى القمح الناضج أو تناقض الأوراق الذابلة فى سياج من خشب الزان . .

وكان الناس يرتدون أثوابا من التيل الخشن الذى كانوا ينسجونه بأنفسهم وسدى النول أسود ولحمته زرقاء ويتألف من هذا الخليط نموذج مخطط باللونين الأسود والأزرق وعندما يهترئون هذا القماش بتأثير الريح والطقس وتصبح كالحة اللون إلى حد ما فإنه يصير هادئا ورقيقا لا حد له ليكشف عن ألوان لحم الجسد .

وعند الضحى أحس بأن المرأة وراءه مرة أخرى ولمح ثوبها بطرف عينيه فى دغل وراء العربة المهجورة .

وغمغم لنفسه قائلا . . سوف أمسك بها اليوم . حتى ولو اقتضى الأمر أن أتوقف فى وسط هذه الدراسة ، وكان قد تعود على أن يستعجل نتيجة أى شيء أكثر من أى وقت مضى وأن يصور انطباعه عند النظر الذى يراه أمامه بضربة عظيمة واحدة يشحنها بطاقة شديدة .

وكان أعظم ما أذهله فى الصور الهولندية القديمة هو أنها رسمت بسرعة وأن أساتذة التصوير تعجلوا رسم شيء بأول ضربة للفرشاة ولم يقوموا بتهذيبها .

وقد صوروا بسرعة كبيرة لكيلا يمسوا صفاء انطباعهم الأول عن الحالة التى تصوروها للتصميم . . ونسى كل شيء عن المرأة فى فورة عاطفته الخلاقة وعندما تصادف أن ألق نظره حوله بعد ساعة لاحظ أنها كانت قد غادرت الدغل وأنها كانت الآن تقف وراء العربة وهم أن يقفز ويمسك بها ويسألها لماذا كانت تقتفى أثره طوال هذا الوقت إلا أنه لم يستطع أن ينتزع نفسه من عمله .. وبعد برهة تلفت حوله مرة أخرى ولدهشته لاحظ أنها كانت تقف أمام العربة وهى تحدق فيه بثبات وكانت هذه هى أول مرة تخرج فيها إلى العراء . .

وواصل العمل بأقصى ما يمكنه من حمية وكلما تضاعف جهده كلما بدا له أن المرأة قريبة المنال . وكلما ازداد إحساسه بلهيب النظرات التى كانت تحملق فيه من وراء ظهره . .

وأمال حامله قليلا حتى يحصل على الضوء الكافى ورأى أنها كانت تقف وسط الحقل فى منتصف الطريق بينه وبين العربة وبدت له كامرأة نومت تنويما مغنناطيسيا وتسير وهى نائمة . واقتربت منه خطوة فخطوة وكانت تتوقف فى كل خطوة وتحاول أن تمنع نفسها وتتقدم بثبات تدفعها نحوه قوة لا تستطيع أن تسيطر عليها . وأحس بها وراء ظهره . فاستدار بسرعة

وأخذ يحدق فى عينيها وكان يرتسم على وجهها تعبير محموم ينطق بالرعب ، وكان يبدو عليها أنها أسيرة عاطفة ضالة لم تستطع أن تكبح جماحها . ولم تتطلع إلى فنسنت وإنما أخذت تتأمل لوحته وانتظر منها أن تتكلم ولكنها التزمت الصمت فاستأنف عمله من جديد وأنهى لوحته بكل ما يتفجر فى جسده من قوة ولم تتحرك المرأة وكان فى وسعه أن يحس بثوبها وهو يلامس معطفه . . كانت ساعة متأخرة من العصر وكانت المرأة قد قضت ساعات طويلة وهى واقفة فى الحقل وكان فنسنت منهوك القوى وأعصابه متوترة إلى أقصى حد بسبب ما كان من انفعاله فى عملية الخلق الفنى فنهض واقفا والتفت إلى المرأة ، وجف ريقها فأخذت تبلل سقفها الأعلى بلسانها ثم راحت تبلل الشفة السفلى بالشفة العليا إلا أن اللعاب سرعان ما تبخر وعادت شفتاها تحترقان من جديد ووضعت يدها على حلقها وبدا أنها كانت تجد صعوبة فى التنفس وحاولت أن تتكلم ولكنها لم تستطع .

فقال لها . .

— أنا جارك فنسنت فان جوخ . . ولكنى أظن أنك تعرفين هذا . .

فقالت بصوت هامس ضعيف لم يستطع أن يسمعه إلا بصعوبة .

— أجل . .

— أى فتاة من أخوات بيجيمان أنت ؟

فارتجفت قليلا وأمسكت بكمه وتمالكت نفسها وحاولت مرة أخرى أن ترطب شفتيها بلسان جاف .

وبذلت عدة محاولات لتنطق قبل أن تنجح وقالت :

— مارجو . .

— ولماذا كنت تتبعيننى يامارجو بيجمان ؟ لقد كنت أعرف هذا منذ عدة أسابيع . .

فأفلتت من شفتيها صرخة مكتومة وأنشبت أظافرها فى ذراعيه لتسند نفسها ثم خرت على الأرض مغشيا عليها .

لجثا فنسنت على ركبتيه ووضع ذراعه تحت رأسها وأزاح الشعر المنسدل على عينيها وكانت الشمس على وشك المغيب بقرصها الأحمر فوق الحقول . وكان الفلاحون يسعون فى طريق عودتهم منهوكى القوى . وكان فنسنت بمفرده مع مارجو فأخذ يتطلع إليها فاحصا . . لم تكن جميلة ولا بد أنها قد تجاوزت الثلاثين من عمرها وكان ثغرها يتوقف فجأة فى الركن الأيسر ولكن فى الركن الأيمن كان هناك خط رفيع يسير منحدرا حتى يصل تقريبا إلى الفك وكانت هناك هالات زرقاء وغضون تحت العينين وكانت البشرة تبدو على وشك التغضن . . وكان مع فنسنت قليل من الماء فى قارورة فبلل وجه مارجو بإحدى الخرق التى اعتاد أن يمسح بها اللون وفجأة فتحت عينيها المغمضتين ورأى أنهما كانتا عينين جميلتين عسليتين غامقتين . . فيهما رقة روحية غامضة تقريبا وغمس أطراف أصابعه فى قليل من الماء ومسح بها وجه مارجو فارتجفت وهى تستند إلى ذراعه وسألها .

— هل أنت الآن أحسن يامارجو ؟

وهناك رقدت برهة قصـــيرة وأخذت تتطلع إلى عينيه الزرقاوين المائلتين إلى الخضرة النفاذتين المليئتين بالعطف المشربتين بالفهم . . ثم ألقت بذراعيها حول عنقه ودفنت شفتيها فى لحيته فى نشيج عنيف بدا أنه انتزع من أعماق أحشائها .

* * *

(٤)

وفى اليوم التالى التقى فنسنت ومارجو فى مكان حدداه سلفا يبعد قليلا عن القرية وكانت مارجو ترتدى ثوبا من التيل الرقيق له ياقة عالية وتمسك فى يدها بقبعة صيفية وعلى الرغم من أنها كانت ما تزال متوترة الأعصاب وهى فى صحبته فإنها كانت تبدو أكثر تماسكا لنفسها من قبل . .

وعندما جاءت ألقى فنسنت بلوحة الألوان ولم يكن جمالها يوازى جزءاً يسيراً من جمال كاى الرقيق ولكنها كانت امرأة جذابة إذا قورنت بكاى . .

ونهض من مقعده وهو لايدرى ماذا يصنع . فقد كان عادة متحاملا على النساء اللاتى كن يرتدين فساتين ، وكان يميل إلى السيدات اللائى كن يرتدين سترات وجونلات وكان يرى أن الطبقة الراقية من نساء هولندا ليس فيهن بصفة خاصة من الجاذبية ما يؤهلهن للتصوير وغير جديرات بأن يتطلع إليهن ، وكان يفضل عليهن الفتيات من الخادمات وكن غالبا يشبهن الفتيات اللاتى صورهن « شادران » واحنت مارجو عليه وقبلته ببساطة وبلا تكلف كما لو كانا حبيبين منذ زمن طويل ثم التصقت به وأخذت ترتجف لحظة . . وفرش فنسنت معطفه على الأرض لتجلس عليه وجلس هو على مقعده واستندت مارجو إلى ركبته وأخذت تتطلع إليه وارتسم فى عينيها تعبير لم يره من قبل أبدا فى عينى امرأة . .

وهتفت قائلة « فنسنت » لمجرد تلذذها بنطق اسمه . .

وقال وهو لايدرى ماذا يصنع أو يقول . .

— نعم يا مارجو .

— هل أسأت الظن بى فى الليلة الماضية ؟

— أسأت الظن بك . . ؟ لا . . ولماذا أفعل هذا ؟

— ربما كان من الصعب عليك أن تصدق . . ولكن عندما قبلتك يافنسنت بالأمس كانت هذه هى أول مرة أقبل فيها رجلا فى حياتى . .

— ولكن لماذا ؟ ألم تجربى الحب أبدا ؟

— لا . .

— وا أسفاه . .

وران عليها الصمت برهة ثم قالت . .

— أليس كذلك ؟ لاريب أنك أحببت نساء أخريات . . فهل أنا على خلق ؟

— نعم . .

— كثيرات منهن . . ؟

— لا . . ثلاث فقط . .

— وهل كن يبادلنك الحب ؟

— لا يا مارجو . . لم يكن الحب متبادلا . .

— ولكن لابد أنهن قد أحببنك . .

— لقد كنت دائماً سيء الحظ فى الحب . .

فاقتربت منه مارجو واستندت بذراعها على حجره وأخذت تداعب وجهه بأصابع يدها الأخرى وتتحسس عنقه القوى العالى القصبة وفمه الممتلىء المنفرج وذقنه المستديرة وسرت فى جسدها قشعريرة غريبة فأبعدت أصابعها وغمغمت قائلة . .

— كم أنت قوى . . كل شىء فيك قوى . . ذراعاك وذقنك ولحيتك . . لم أعرف فى حياتى رجلا مثلك . .

فأمسك بشدة وجهها بين راحتيه إذ استجاب للحب والإثارة اللتين كان يختلج بهما جسد الفتاة . .

وسألته فى قلق . .

— هل تحبنى قليلا ؟

— أجل .

— هل ستقبلنى ؟

فقبلها ..

— أرجوك .. لا تسىء الظن بى يافنسنت فأنا عاجزة عن كبح جماح نفسى وأنت ترى أننى قد وقعت فى حبك .. ولم أستطع أن أبتعد عن طريقك ..

— هل أحببتنى ؟.. أحقا قد وقعت فى حبى ؟ ولكن لم ؟

فرفعت رأسها وقبلته فى جانب فمه وقالت ..

— هذا هو السبب ..

وجلسا وقد ران عليهما الصمت وكانت مقبرة الفلاحين تبعد عنهما قليلا فمنذ أجيال كان الفلاحون يرقدون رقدتهم الأخيرة فى نفس الحقول التى كانوا يحرثونها وهم أحياء وكان فنسنت يحاول أن يعبر فى لوحته عن بساطة الموت . مجرد سقوط ورقة فى الخريف . مجرد حفرة فى الأرض يقام عليها صليب خشبى .. وكانت الحقول حوله حيث تنتهى مساحة الحشائش فى المدافن خلف الحائط الصغير تصنع خطا أبديا يقابل السماء أشبه ما يكون بأفق البحر .. وسألته برقة ..

— هل تعلم أى شى عنى يا فنسنت ؟

— قليلا جدا ..

— هل أخبروك .. هل أخبرك أحد عن حقيقة عمرى ؟

— لا ..

— حسناً ، إننى فى التاسعة والثلاثين عن عمرى وفى خلال بضع شهور سوف أتم الأربعين وفى السنوات الخمس الأخيرة كنت أحدث نفسى قائلة إننى إذا لم يخفق قلبى بحب أحدهم قبل أن تنتهى الثلاثينات من عمرى . فسوف أقتل نفسى ..

— ولكن الحب أمر يسير يامارجو ..

— آه .. أهذا ماتعتقد .. ؟

— أجل .. إن الصعوبة هو أن يجد الإنسان من يبادله الحب ..

— لا . . ليس هذا بالأمر السهل فى نيوفين .. لقد أمضيت عشرين عاما وأنا أتحرق شوقا لحب أى أنسان ولم أستطع أن أحقق هذا أبدا ..

— أبدآ ..

فحولت عنه نظراتها وقالت ..

— مرة واحدة .. فقد أحببت صبيا عندما كنت فتاة صغيرة ..

— وبعد ؟

— كان كاثوليكيا .. وهم أبعدوه ..

— هم ؟

— والدتى وإخوتى ..

وركعت فى طين الحقل العميق فتلطخ ثوبها الأبيض الجميل ووضعت كلتا مرفقيها على فخذيه وأراحت وجهها بين يديها وكانت ركبتاه تلامسان جنبيها برفق ..

— إن حياة المرأة تكون خاوية إذا لم يكن هناك حب يملؤها يافنسنت . .

— أعلم هذا ..

— عندما كنت أستيقظ كل صباح كنت أناجى نفسى قائلة . . اليوم ساعثر ولا ريب على رجل أحبه .. ولم لا .. ؟ إن النساء الأخريات يفعلن هذا . . ثم يقبل الليل وأجد نفسى نهبا للوحدة والتعاسة صنف لاينتهى من الأيام الفارغة يافنسنت فليس لدى ما أفعله فى البيت فعندنا الخدم وكانت كل ساعة تمر أجد نفسى أتحرق شوقا إلى الحب . . وفى كل ليلة كنت أقول لنفسى « ربما لاتشعرين اليوم بلذة الحياة . . . » لقد عشت من أجل هذا كله . .وظللت أهون على نفسى بالتفكير فى أنه لابد أن يأتى يوما رجل

أحبه بأى وسيلة . وتتابعت أعياد ميلادى . . السابع والثلاثون .. الثامن والثلاثون والتاسع والثلاثون . . وما كنت لأستطيع أن أواجه عيد ميلادى الأربعين دون أن أجرب الحب على الإطلاق . . ثم أتيت أنت يافنسنت . وأخيراً هاأنذا أيضاً أذوق الحب . .

كانت صيحة انتصار كما لو كانت قد أحرزت نصراً عظيم . . ونهضت وهى تضم شفتيها استعدادا للتقبيل فأزاح شعرها الناعم خلف أذنيها وعندها ألقت ذراعيها حول عنقه وقبلته ألف قبلة فى كل موضع . .

وبينما كان فنسنت يجلس هناك على مقعد المصور الصغير ولوحة ألوانه إلى جانبه ومقبرة الفلاحين أمامه تماماً وبينما كان يضم المرأة الراكعة بالقرب منه وقد طواسيل عاطفتها المتدفقة .شعر لأول مرة فى حياته بالبلسم الشافى اللذيذ لحب جارف من امرأة . . وارتجف لأنه عرف أنه كان يقف على أرض مقدسة . .

وجلست مارجو على الأرض بين ساقيه وقد وضعت رأسها إلى الوراء على ركبته وكان خداها متوهجين وعيناها تلمعان وكانت تنفساتها عميقة وكانت تلتقطها فى صعوبة وفى غمرة حبها المتدفق كانت تبدو صغيرة لم تتجاوز الثلاثين ولم يستطع فنسنت أن يشعر نحوها بأية عاطفة بتاتاً ، فأخذ يتحسس بأصابعه بشرة وجهها الناعمة حتى أطبقت على يده وقبلتها ووضعت راحته على خدها الملتهب ثم تكلمت بعد صمت دام فترة وقالت فى هدوء :

— إنى أعلم أنك لاتحبنى . . فهذا أكثر مما أطلب . . كنت أتضرع إلى الله أن يهيء لى فرصة أنعم فيها بالحب . . ولم أحلم قط أنه يمكن لأى أحد أن يبادلنى الحب . . فالمهم هو أن أحب يافنسنت وليس أن يحبنى أحد . . أليس كذلك ؟

وفكر فنسنت فى أرسولا وفى كاى ثم أجاب نعم . .

فحكت مؤخرة رأسها بركبته وهى تتطلع إلى السماء الزرقاء وقالت :

— وهل ستسمح لى بأن آتى معك ؟ وإذا كنت لاترغب فى الحديث فسوف أكتفى بالجلوس إلى جوارك ولا أفنح فمى بكلمة واحدة .. فقط دعنى بقربك وأعدك أنى لن أزعجك أو أتدخل فى عملك ..

— فى وسعك أن تأتى ولاريب .. ولكن خبرينى يامارجو، إذا كانت نيونين خالية من الرجال فلماذا لم ترحلى عنها وتقومى بزيارة إلى الأهل . ألم يكن معك المال ؟

— أوه نعم .. لدى الكثير من المال .. لقد ترك لى جدى دخلا طيبا ..

— إذن فلماذا لم تذهبى إلى أمستردام أو لاهاى ؟ كان يمكنك أن تقابلى بعض الرجال الظرفاء ..

— لقد منعونى من تنفيذ هذا ..

— لم تتزوج واحدة من شقيقاتك .. أليس كذلك ؟

— نعم ياعزيزى نحن الخمسة لم نتزوج ..

فأحس بالألم يسرى فى جسده .. كانت هذه هى المرة الأولى فى حياته التى نادته فيها امرأة بقولها « ياعزيزى » لقد عرف من قبل مدى التعاسة التى يحس بها المرء حينما يحب شخصاً لايبادله الحب .. ولكنه لم يخامره الشك قط فى العذوبة الكاملة التى يحس بها عندما يجد امرأة طيبة تحبه بكل كيانها .. وكان يعتبر حب مارجو له حادثا غريباً لم يكن طرفا فيه ولكن هذه الكلمة البسيطة التى نطقت بها مارجو بهدوء وله غيرت حالته العقلية كلها فضم مارجو إليه واحتضن جسدها المرتجف .

وغمغمت قائله ..

— فنسنت .. فنسنت .. كم أحبك ..

— ما أغرب أن أسمعك تقولين كم أحبك ..

— لايهمنى الآن أنى قد عشت كل هذه السنين دون أن اعرف

الحب . . فأنت يا أعز مخلوق عندى كنت تستحق الانتظار . وفى كل أحلامى عن الحب لم أتصور أبداً أنه كان من الممكن أن يكون شعورى نحو اى إنسان مثل شعورى نحوك . .

— وأنا أيضاً أحبك يامارجو . .

سحبت نفسها من بين ذراعيه قليلا وقالت . .

— لست فى حاجة لأن تقول هذا يافنسنت . . قد يحدث بعد فترة من الوقت أن تميل إلى قليلا . . أما الآن فكل ما أطلبه منك هو أن تدعنى أحبك . .

وانسلت من بين ذراعيه وأزاحت معطفه جانبا وجلست ثم قالت . .

— عد إلى عملك يا عزيزى . . ينبغى لى ألا أقف فى طريقك . . وأنا أحب أن أتأملك وأنت ترسم . .

* * *

(٥)

كانت مارجو تصحب فنسنت كل يوم تقريباً كان يخرج فيه ليرسم .. وفى معظم الأحيان كان يسير عشرة كيلومترات حتى يصل إلى ذات البقعة من المرج التى كان يرغب فى أن يصورها وكانا يصلان معاً وقد أنهكت قواهما وهدهما التعب من أثر الحرارة ولكن مارجو لم تجأر أبدا بالشكوى فقد طرأ على المرأة تحول مروع ..

فشعرها الذى كان أسمر كلون جلد الفأر أصبح أشقر زاهى اللون وشفتاها اللتان كانتا رقيقتين جافتين أصبحتا مليئتين حمراوين وبشرتها التى كانت جافة وتكاد تكون مليئة بالتجاعيد غدت الآن ناعمة رقيقة دافئة وبدت عيناها أكثر اتساعا عما كانتا عليه من قبل .. وبرز ثدياها .. واكتسب صوتها جرساً جديداً وصارت خطوتها قوية تتفجر منها الحيوية .. لقد فجر الحب فى داخلها نبعاً غريباً وأصبحت تسبح دواما فى أكسير الحب الذى يفيض منه .. وكانت تحضر معها غذاء لا يتوقعه حتى ترضيه وترسل إلى باريس لإحضار بعض الصور التى كان قد أبدى إعجابه بها فى سياق الكلام .. ولم تتطفل أبدا على عمله .. وعندما كان يصور كانت تجلس إلى جواره فى صمت تام غارقة فى نفس العاطفة الجياشة التى كان يشيعها فى لوحاته ..

ولم تكن مارجو تعرف شيئاً عن الرسم ولكنها كانت ذات بديهة سريعة وحساسة وكان لديها المقدرة على أن تقول الكلمة المناسبة فى اللحظة المناسبة ..

ووجد فنسنت أنها كانت تفهم دون أن تعرف هذا .. وأحدثت فى نفسه تأثيراً كأنه الكريمونا الذى أتلفه إهمال المصلحين .. وقال لنفسه ..

— لو أننى قابلتها منذ عشر سنوات فقط.

وسألته ذات يوم وهو يتأهب للبدء فى لوحة جديدة ..

— كيف يتسنى لك أن تعرف أن البقعة التى اخترتها سوف تصلح للتصوير على اللوحة؟

ففكر فنسنت برهة ثم أجاب ..

— إذا أردت أن أكون إيجابيا فيجب ألا أخشى الفشل فعندما أرى لوحة بيضاء تحملق فى بشىء من البلاهة فإن ما أفعله هو أن أطرح عليها شيئاً ..

— لاريب أنك تطرح شيئاً فلم أر قط فى حياتى شيئاً ينمو أسرع مما تنمو لوحاتك ..

— حسن .. إن على أن أفعل هذا فأنا أشعر بأنى سأصاب بالشلل من اللوحة البيضاء التى تحدق فى .. وتقول لى « أنت لاتعرف شيئاً .. »

— أتعنى أنه نوع من التحدى ..

— تماما .. فاللوحة البيضاء تحدق فى كأى بلهاء ولكنى أعلم أنها تخشى الرسام جياش العاطفة الذى يجرؤ فيحطم مرة سحر عبارة «أنت لاتستطيع» .. فالحياة نفسها تقلب أمام الإنسان صفحة بيضاء فارغة مثبطة للهمة لا أمل فيها لا يكتب عليها يا مارجو أكثر مماهو مرسوم على هذه اللوحة البيضاء ..

— أجل هذا حق ..

— ولكن الرجل المؤمن النشيط لا يرهب هذا الفراغ بل يقتحمه ويعمل ويبنى ويخلق وفى النهاية لا تعود اللوحة فارغة وإنما تغطيها صورة الحياة الثرية ..

كان فنسنت يستمتع بحب مارجو له .. ولم تنظر إليه أبدا بعينين ناقدتين. كل ما كان يفعله كانت تراه صوابا ولم تقل له أبدا إن أخلاقه كانت غير مهذبة وإن صوته كان أجش وإنه كانت فى وجهه خطوط غليظة . ولم تلمه أبدا على أنه كان لا يكسب مالا ولم تقترح عليه أن يفعل أى شىء غير الرسم وعندما كانا يسيران عائدين إلى البيت فى هدوء الغسق وذراعه ملتفة حول وسطها وصوته رقيق من تأثير عطفها عليه كان يقول لها عن

كل الأشياء التى قام بها ولماذا كان يفضل تصوير الفلاحة وهى ترتدى ثياب الحداد عن رسم العمدة ولماذا كان يرى أن فتاة قروية فى تنورتها وصدرتها الزرقاوين الملوثتين بالتراب والملطختين بالبقع أجمل فى نظره من أى سيدة ولم تجادله فى أى شىء وكانت تتقبل منه كل ما يقول كانت تحبه هو حباً جما . .

ولم يستطع فنسنت أن يتعود على وضعه الجديد وكان يتوقع كل يوم أن تنفصم هذه العلاقة وأن تصبح مارجو قاسية عديمة الرحمة وأن تواجهه بفشله . . ولكن حبها أخذ يتزايد مع نضوج الثمار فى الصيف وكانت تضفى عليه من العطف التام والعبادة ما لا تستطيع أن تمنحه إلا امرأة ناضجة وعندما لم يرضه أنها لم تنقلب عليه بإرادتها حاول أن يحرضها على لومه بتصوير لوحاته الفاشلة بحيث تبدو سوداء بقدر المستطاع ولكنها لم تر أنها كانت لوحات فاشلة ، بل رأت أنها كانت تعبيرات بسيطة توضح لماذا فعل ما كان عليه أن يقوم به .

وأخبرها بقصة فشله فى أمستردام وفى البوريناج وقال لها :

— لقد كان هذا فشلا ولا ريب . كل ما فعلته كان خطأ ، والآن ما رأيك ألم يكن كذلك ؟ فابتسمت له فى عطف وقالت :

— إن الملك لا يخطىء . .

وفى يوم آخر قالت . . إن والدتى تقول لى إنك رجل شرير . . وقد بلغها أنك كنت تعيش فى لاهاى مع نساء ساقطات فقلت لهم إنه أفك وبهتان أثيم . .

فقص عليها فنسنت حكاية كريستين فاستمعت له مارجو بشىء من الحزن والأسى فى عينيها . . ذلك الأسى الذى كان يبدو فى نظراتها قبل أن يبدده الحب ، وقالت :

— أتدرى يا فنسنت أن بك شيئاً من أخلاق المسيح . . وإنى لواثقة أن هذا كان ما سيراه أبى أيضا . .

ــ أهذا كل ما يمكنك أن تجديه من كلمات تقولينها لى عندما أخبرك أننى عشت عامين مع إحدى المومسات . .

ــ إنها لم تكن مومسا يا فنسنت . . لقد كانت زوجتك وإن فشلك فى إنقاذها لم يكن خطأ منك وكذلك فشلكم فى إنقاذ البورانيين . فرجل واحد لا يستطيع أن يفعل إلا القليل أمام حضارة بأكملها .

ــ حقاً إن كريستين كانت زوجتى وقد قلت لأخى ثيو وأنا صغير « إذا لم أستطع أن أعثر على زوجة صالحة فسوف أتخذ زوجة سيئة . . فزوجة سيئة خير من أن أعيش بلا زوجة على الإطلاق . . » وران عليهما صمت أثقل عليهما قليلا فموضوع الزواج لم يعرض أبدا فى حديثهما وقالت مارجو . .

ــ هنا شىء واحد آسف له فى مسألة كريستين ، كم كنت أود لو أننى أمضيت هذين العامين أنعم فيهما بحبك . .

وكف عن محاولة نبذ حبها له وتقبله كشىء محتوم .

وقال لها : عندما كنت صغيراً يا مارجو كنت أعتقد أن الأشياء رهن بالمصادفات أو الأحداث الصغيرة أو سوء التفاهم الذى لا يقوم على سبب ولكن عندما تقدم بى العمر بدأت أرى دوافع أعمق وهذا حال معظم الناس إذ كتب القدر المحتوم أن يبحثوا زمناً طويلا عن الضوء .

ــ كما كان على أن أبحث عنك .

ووصلا إلى الباب المنخفض لكوخ أحد النساجين فضغط فنسنت على يدها بحنان فمنحته ابتسامة عذبة تدل على الإذعان حتى إنه أخذ يعجب لماذا شاء القدر أن يحرمه من الحب طوال هذه السنوات ودلفا إلى الكوخ ذى السقف القش . . وكان الصيف قد انصرم ليحل الخريف وبدأت الأيام تصبح حالكة الظلام . . وكان هناك مصباح معلق يتدلى فوق النول الذى كانت تنسج عليه قطعة من القماش الأحمر . . وكان النساج وزوجته

يرتبان . . وكانت الأشكال السوداء المواجهة للضوء والتى تبرز من لون القماش تلق ظلالا على رقائق الخشب الطويلة الرفيعة وعوارض النول . تبادلت مارجو وفنسنت ابتسامة لها مغزى إذ كان قد علمها كيف ترى جوهر الجمال فى الأماكن القبيحة . .

وجاء شهر نوفمبر وهو فصل سقوط الأوراق وعندما تساقطت أوراق الأشجار جميعا فى بضعة أيام كانت نيونين كلها تتحدث عن مارجو وفنسنت . . وكانت القرية تحب مارجو وكانت لا تأمن جانب فنسنت وتتوجس منه خيفة . . وحاولت والدة مارجو وشقيقاتها الأربعة أن يفصمن هذه العلاقة ولكنها أصرت على أن ما كان بينهما لا يعدو أن يكون مجرد صداقة . وما الضرر إذا ما سارا معاً فى الحقول ؟ وكان آل بيجمان يعلمون أن فنسنت لا يستقر فى مكان وكانوا يتوقعون وهم على يقين أن يرحل عن القرية يوما ما ولم يخامرهم القلق كثيرا ولكن اهل القرية لم يهدأوا وقيل مراراً وتكراراً إنه لايمكن توقع خير من هذا الرجل الغريب الأطوار فان جوخ وإن آل بيجمان سوف يأسفون إذا لم يبعدوا ابنتهم وينقذوها من براثنه .

ولم يفهم فنسنت مطلقاً لماذا كان أهل البلدة يكرهونه إلى هذا الحد فهو لم يتدخل فى شئون أحد ولم يؤذ أحداً ولم يدرك أى صورة غريبة رسمها للناس فى هذه القرية الصغيرة الهادئة التى لم تتغير فيها الحياة فى كلمة أو إعادة منذ مئات السنوات . ولم يفقد الأمل فى حملهم على حبه إلا بعد أن اكتشف أنهم كانوا يرونه رجلا عاطلا .

وبينما كان يمر يوما على دين فان دن بيك وهو صاحب حانوت صغير حياه هذا وألق فى وجهه بوجهة نظر اهل القرية . .

فقال :

— لقد أقبل الخريف الآن وولى الطقس الجميل . . أليس كذلك ؟

— نعم

— إن كل إنسان يعتقد أنك ستذهب قريباً إلى العمل .. أليس كذلك؟
فأزاح فنسنت الحامل المربوط على ظهره إلى وضع يريحه أكثر وقال ..
— أجل .. إنى فى طريقى إلى المرج .
فقال له دين . .
— لا .. إنى أعنى العمل .. العمل الحقيقى الذى تقوم به طول العام ..
فقال فنسنت بهدوء ..
— إن عملى هو التصوير ..
— إن كل إنسان يعنى عملا تتقاضى عنه أجراً .. شغلا .
— عملى هو أن أذهب إلى الحقول كما ترانى الآن ياسيد فان دن بيك كما تبيع أنت السلع وتعتبرها مهنتك تماما ..
— حقا .. ولكنى أبيع سلعاً ، فهل تبيع أنت ماتصنع ؟
كان كل فرد يتحدث إليه فى القرية يوجه إليه مثل هذا السؤال وكان قد سئم الإجابة عليه فقال :
— إنى أبيع أحيانا .. فأخى تاجر فى اللوحات الفنية ويشترى منى ..
— يجب أن تذهب إلى العمل ياسيدى .. إذ ليس من الخير أن تتعطل على هذا النحو فسوف يدركك الكبر ولن يكون لديك شىء ..
— أتعطل .. إنى أعمل ضعف الوقت الذى تبقى فيه مخزنك مفتوحا ..
— أتسمى هذا عملا .. ؟ أن تجلس وتظل تعبث بالألوان ؟ ليس هذا إلا عبث أطفال . . لقد وصلت إلى سن لايجوز معه أن تضيع وقتك ..

كان فنسنت يعلم أن دين فان دن بيك يتحدث بلسان القرية فى هذا الموضوع وأن العقلية الريفية ترى أن كلمتى فنان وعامل لايستويان أبداً ولم يعد يهتم بما تفكر فيه القرية ولم يعد يراهم أثناء مروره بهم فى الطرقات .. وعندما بلغ عدم ثقتهم به إلى أقصى حد إيجابى وقعت حادثة

أعادت إليه ثانية حب الناس .. فقد كسرت ساق آنا كورنيلا .. وهى تترجل من القطار فى محطة « هيلموند » وحملت بسرعة إلى البيت . وعلى الرغم من أن الطبيب لم يخبر الأسرة بشىء إلا أنه كان يخشى على حياتها .. وألقى فنسنت بعمله جانباً دون أن يفكر فى شىء آخر .. وكانت تجربته فى البوريناج قد جعلت منه ممرضا ممتازاً وأخذ الطبيب يرقبه مدى نصف ساعة ثم قال .. إنك لأفضل من إمرأة ولسوف تكون والدتك بين أيد ماهرة ..

أما أهل نيونين الذين كان فى استطاعتهم أن يكونوا كرماء فى أوقات الأزمة كما كانوا يستطيعون أن يقسوا فى أوقات الملل فقد حضروا إلى الأبروشية يحملون مالذ وطاب من الأطعمة والكتب وكلمات المواساة .. وكانوا يحدقون فى دهشة بالغة ورأوه يبدل غطاء السرير دون أن يحرك والدته .. وكان يقوم بغسل جسدها ويطعمها ويعتنى بالضماد الذى فى ساقها .. وما كاد يمر أسبوعان حتى كانت القرية قد أعادت النظر كلية بشأن رأيها فى فنسنت وعندما كانوا يأتون كان يتحدث معهم بلغتهم وكان حديثهم يدور عن أحسن السبل لتجنب القرحات التى يسببها الفراش وأى الأطعمة ينبغى للمريض أن يتناولها وكيفية المحافظة على تدفئة حجرة المريض وبعد حديثهم معه على هذا النحو وتفاهمهم معه استقر رأيهم على أنه كان إنساناً بغض النظر عن كل اعتبار آخر .. وعندما تحسنت صحة والدته قليلا وأصبح فى مقدوره أن يخرج لرسم فترة قصيرة كل يوم كانوا يخاطبونه باسمه وبابتسامة تفتر عنها ثغورهم ولم تعد مصاريع النوافذ تفتح قليلا من أسفلها واحدة بعد أخرى وهو يسير فى طرقات المدينة .. وكانت مارجو إلى جواره طوال هذا الوقت وكانت المرأة الوحيدة التى لم يذهلها مارأته من إنسانيته وكانا يتحادثان همساً فى حجرة المريضة يوما عندما قال فنسنت إن مفتاح كثير من الأشياء هو المعرفة الكاملة لجسم الإنسان ولكن الوصول إلى هذه المعرفة يكلف غالياً ولاريب وهناك كتاب

رائع فى هذا المجال اسمه « التشريح للفنانين » لجون مارشال .. ولكنه غالى الثمن ..

— أليس لديك من المال ماتستغنى عنه ؟

— لا وان يكون لدى حتى أبيع أى شيء ..

— فنسنت إنه ليسعدنى حقاً أن أقرضك بعض المال فأنت تعلم أن لى دخلا ثابتاً ولم أستطع أبداً أن أنفقه ..

— هذا كرم منك يا مارجو .. ولكننى لا أستطيع

فلم تلح عليه ولكن بعد مرور أسبوعين ناولته لفافة من لاهاى .. فسألها ..

— ماهذه ؟

— افتحها لترى ما بها .

كانت هناك بطاقة ملصقة بالشريط وكانت اللفافة تحتوى على كتاب مارشال وقد كتب على البطاقة بمناسبة أسعد أعياد الميلاد كلها ..

فصاح قائلا ..

— ولكنه ليس عيد ميلادى ..

فضحكت مارجو وقالت ..

— لا .. إنه عيد ميلادى أنا .. عيد ميلادى الأربعون يافنسنت .. لقد جعلتنى أشعر بحاضر حياتى .. فتكرم وخذه ياعزيزى فأنا اليوم جد سعيدة ، وبودى أن تشاركنى سعادتى ..

كانا فى مرسمه فى الحديقة ولم يكن هناك إلا ويليمين التى كانت تجلس مع أمها فى البيت وكان الوقت يقترب من المغيب وكانت الشمس الغاربة تلون الحائط الأبيض الناصع برقعة من الضوء الخافت وأخذ فنسنت يقلب فى الكتاب برقة . كانت هذه هى أول مرة يرى فيها شخصاً ماغير ثيو يجد سعادة فى أن يقدم له العون .. وألقى الكتاب على الفراش وتناول مارجو بين ذراعيه .. وكانت عيناها تذرفان الدموع من فرط حبه وكانا فى

خلال الشهور القليلة المنصرمة لم ينعما بالمداعبات فى الحقول إلا لماما فقد كانا يخشيان العيون . .

وكانت مارجو تستسلم لملاطفاته مسرورة . وفى إذعان كريم وكان قد مضى على فراقه لكريستين حتى الآن خمسة شهور .. وكان يشعر ببعض القلق فى الثقة بنفسه إلى حد بعيد .. ولم يكن يريد أن يقترف شيئا يؤذى به مارجو أو حبها له وأخذ يتطلع إلى عينيها العسليتين الرقيقتين بينما كان يقبلها فابتسمت له ثم أغمضت عينيها وانفرجت شفتاها قليلا لتستقبل شفتيه . . وضم كل منهما الآخر بقوة وقد التصق جسداهما من الثغر إلى أخمص القدم .. وكان الفرض على بعد خطوة واحدة منهما فجلسا معاً وفى هذا العناق الثابت نسى كل منهما السنوات الخالية من الحب التى جعلت حياتهما مجدبة ..

وغابت الشمس واختفت رقعة الضوء التى كانت على الجدار وسبحت حجرة الدواجن فى ضوء الغسق اللذيذ ومرت مارجو بيدها على وجه فنسنت وكانت تصدر من حلقها أصوات غريبة هى لغة الحب .

وأحس فنسنت بنفسه يغوص فى قاع هاوية سحيقة ليس لها إلا مخرج واحد يقذف منه .

وانتزع نفسه من بين ذراعى مارجو وقفز واقفاً وسار إلى حامل صوره وغضن قطعة من الورق كان يرسم عليها وكورها فى يده . ولم يكن هناك صوت يسمع إلا نداء طائر العقعق وهو يرفرف على أشجار السنط ورنين الأجراس المعلقة فى رقاب الأبقار العائدة إلى البيت . وبعد لحظة قالت مارجو ببساطة وهدوء ..

— فى إمكانك أن تفعل لو أردت ياعزيزى .

وسألها دون أن يلتفت اليها . .

— لماذا ..

— لأنى أحبك ..

ــ لن يكون هذا من الصواب ..

ــ لقد قلت لك من قبل يافنسنت إن الملك لايخطىء أبدا ..

فخرج فنسنت جاثياً على إحدى ركبتيه وكانت تضع رأسها على الوسادة .. ومن جديد لاحظ الخط الذى كان يمتد من الجانب الأيمن لثغرها حتى يصل إلى فكها . . وقبله ولثم القنطرة الضيقة لأنفها .. وفتحت طاقتى أنفها المثلثتين ومر بشفتيه على بشرة وجهها التى بدت فى نضارة فتاة تصغرها بعشر سنوات .. وفى ضوء الغسق كانت تبدو وهى مستلقية فى استسلام وذراعاها ملتفتان حول عنقه فاتنة وغدت تلك الفتاة الجميلة التى كان يعرفها الناس ولا ريب وهى فى العشرين من عمرها وقال ..

ــ إننى أحبك أيضاً يامارجو .. لم أكن أعرف هذا من قبل ولكننى الآن أعرف ..

ــ جميل منك أن تقول هذا ياعزيزى .. أنا أعرف أنك تميل إلى قليلا وأنا أحبك من كل قلبى وهذا يرضينى ..

وكان صوتها رقيقاً حالماً .. إنه لم يحبها كما أحب كاى وأرسولا بل إنه حتى لم يحبها كما كان يحب كريستين ولكنه كان يشعر بعاطفة رقيقة نحو هذه المرأة التى كانت ترقد بين ذراعيه فى استسلام ..

كان يدرك أن الحب يكاد يشمل كل رابطة إنسانية وآلمه شىء فى أعماق نفسه عندما فكر فى أنه لم يستطع أن يشعر إلا بالقليل من الحب للمرأة الوحيدة فى هذا العالم التى أحبته حباً لا حد له وتذكر ماعاناه من عذاب لأن أرسولا وكاى لم تبادلاه الحب . . كان يحترم حب مارجو الجارف له .. ولكنه بصورة لايمكن تفسيرها وجده عبثاً ممقوتاً وبينما هو راكع على الأرضية الخشبية لحجرة الدواجن وقد وضع ذراعه تحت رأس المرأة التى أحبته بقدر ما أحب أرسولا وكاى ، أدرك أخيراً لماذا هربت منه المرأتان ..

— مارجو إن حياتى بائسة ولكن يسعدنى جداً إذا قبلت أن تشاركينى إياها ..

— أريد أن أشاركك حياتك ياعزيزى .

— نستطيع أن نبقى هنا فى نيونين .. أم هل تفضلين أن نغادرها بعد أن نتزوج ؟

فحكت رأسها فى ذراعه وهى تداعبه وقالت ..

— حيثما تذهب ..

* * *

(٦)

لم يكونا بأية حال متأهبين لمواجهة العاصفة التى هبت فى صباح اليوم عندما أعلنا النبأ لعائلتهما .. فبالنسبة لعائلة فانجوخ كانت المشكلة مجرد عجز مالى إذ كيف يتسنى له أن يتخذ لنفسه زوجة وشقيقه ثيو يعوله ؟

وقال له والده ..

— يجب أولا أن تكسب مالا .. وأن تستقيم فى حياتك .. وبعدها يمكنك أن تتزوج .

ولكن ماحدث من اضطراب فى الأبروشية لم يكن إلا زوبعة صغيرة إذا قورن بما كان يحدث فى البيت المجاور الذى كانت تقيم به النساء . كان لآل بيجمان خمس شقيقات لم يتزوجن جميعاً على استعداد لمواجهة العالم فى جبهة صلدة وزواج مارجو سيكون دليلا حياً أمام القرية على فشل الفتيات الأخريات ..

ورأت مدام بيجمان أنه من الأفضل أن تجنب أربعا من بناتها مزيداً من التعاسة ولا تدع واحدة منهن تنعم وحدها بالسعادة ..

وفى ذلك اليوم لم تصحبه مارجو إلى أكواخ النساجين ، وفى ساعة متأخرة من بعد الظهر أقبلت إلى المرسم وكانت عيناها منتفختين ومتورمتين، وبدت كهلة تجاوزت الأربعين كما لم يحدث من قبل وضمته إلى صدرها لحظة فى نوع من العناق اليائس .. وقالت له ..

— لقد كن يتقولن عليك بفظاعة طوال اليوم .. لم أعرف أنه فى الإمكان وجود رجل يتصف بمثل هذه الأخلاق الذميمة ويبقى على قيد الحياة ..

— كان يجب أن تتوقعى هذا ..

— هذا حق ولكن لم يخطر ببالى أبداً أنهن سيهاجمنك بهذه الطريقة التى تدل على الحقد .

فطوقها بذراعه فى رقة .. وقبلها فى خدها وقال :

— دعيهن لى .. سأزوركن الليلة بعد العشاء وربما استطعت إقناعهن بأنى لست هذا الشخص الرهيب الذى يتصورنه ..

وما إن وطئت قدماه عتبة بيت آل بيجان حتى عرف أنه قد اجتاز أرضاً أجنبية قريبة وكان يخيم على البيت جو مشحون بالشرخلقته سبعة من النساء ، جو لم يقتحمه صوت رجل أو وقع قدميه ..

وقادوه إلى البهو وكان بارداً ورطباً لم يدخله أحد منذ شهور وكان فنسنت يعرف أسماء الشقيقات الأربع ولكنه لم يكاف نفسه عناء ربط الأسماء بالوجوه فقد كن جميعاً صورة كاريكاتورية لمارجو .. وتصدت الأخت الكبرى التى تدير المنزل وأخذت على عاتقهامهمة استجوابه وقالت:

— تقول لنا مارجو إنك ترغب فى الزواج منها ... فهل لنا أن نسأل ماذا حدث لزوجتك فى لاهاى ؟

فشرح فنسنت لهن علاقته بكريستين فازدادت برودة جو البهو وهبطت بضع درجات ..

— كم عمرك ياسيد فان خوخ ؟ ..

— واحد وثلاثون عاماً ..

— وهل أخبرتك مارجو بأنها فى ..

— إننى أعرف عمر مارجو ..

— هل لى أن أسالك كم تكتسب من المال ؟

— إننى أتقاضى مائة وخمسين فرنكا فى الشهر ..

— وما مصدر هذا الدخل ؟

— شقيقى يرسله إلى ..

— أتعنى أن شقيقك هو الذى يعولك ؟

— لا .. إنه يدفع لى مرتباً شهرياً وفى مقابل هذا يحصل على كل ما أقوم برسمه ..

— وكم باع من هذه الرسوم ؟

— فى الحقيقة لا أستطيع أن أخبرك ..

— حسناً فى وسعى أنا أن أقول لك . لقد أخبرنى والدك أنه لم يبيع حتى الآن لوحة من لوحاتك .

— سيبيعها فيما بعد .. وسوف تدر عليه أضعاف أضعاف ثمنها الآن ..

— هذا أمر فيه نظر وهذا أقل مايقال . فلنتحدث فى الحقائق ..

وأخذ فنسنت يدرس وجه الأخت الكبرى الجامد الذى يفتقر إلى الجمال ولم يكن فى استطاعته أن يتوقع أى عطف من هذا الجانب ..

وواصلت حديثها قائلة ..

— وإذا كنت لاتكسب شيئاً فهل لى أن أسألك كيف تتوقع أن تعول زوجة ؟

— إن شقيق بمحض اختياره يقامر بمائةوخمسين فرنكا كل شهر وهذا شأنه هو لاشأنكن . . وهو بالنسبة لى سيظل مرتباً وإنى لأعمل بجد وأشق لكى أكسبه . وبإمكانى أنا ومارجو أن نعيش على هذا المرتب لو أحسنا التدبير ..

وصاحت مارجو

— ولكننا لن نكون فى حاجة لهذا ..

فقالت لها شقيقتها الكبرى بلهجة آمرة :

— اسكتى يامارجو

وقالت لها والدتها ..

— تذكرى يامارجو أن لدى السلطة لإيقاف ذلك الدخل إذا مااقترفت مايشين سمعة أسرتك ..

فابتسم فنسنت وتساءل قائلا :

— أيعد زواجها منى عار ؟

— نحن لانعرف عنك سوى القليل ياسيد فان جوخ . وهذا القليل

الذى نعلمه عنك لا يسرك .. فمنذ متى وأنت تعمل كمصور ؟

— منذ ثلاث سنوات ..

— ومع ذلك فأنت لم تنجح بعد .. ترى متى تصل إلى النجاح ؟

— لا أدرى .

— ماذا كنت تصنع قبل أن تحترف الرسم ..؟

— كنت تاجر فنون ثم مدرساً فبائع كتب ثم طالب لاهوت ثم مبشراً إنجيليا .

— وفشلت فيها كلها ؟

— لقد تخليت عنها جميعاً .

— لماذا ؟

— لأنها لا تناسبنى .

— وبعد كم من الوقت سوف تتخلى عن التصوير ؟

فصاحت مارجو :

— إنه لن يفعل ذلك أبداً ..

فقالت الأخت الكبرى ..

— يبدو لى ياسيد فان جوخ أنك متهور إذ ترغب فى الزواج من مارجو فأنت لا أمل لك فى تبوؤ مكان بين أقرانك ولا تملك فرنكا باسمك وليست لديك وسيلة لكسب فرنك واحد وأنت عاجز عن الصمود فى أى نوع من الوظائف وأنت تهيم على وجهك كعاطل أفاق .. فكيف تجرؤ على أن تسمح لشقيقتنا بأن تتزوجك ؟

فتناول فنسنت غليونه ثم وضعه مرة أخرى وقال :

— إن مارجو تحبنى وأنا أحبها ، وأنا أستطيع أن أسعدها وسوف نعيش هنا سنة أو نحو ذلك ثم نسافر إلى الخارج ولن تلقى منى سوى الحب والعطف ..

فصاحت إحدى الشقيقات الأخريات وكان لها صوت حاد ..

— بل إنك ستهجرها ! . . لسوف تملها وتهجرها إلى أحضان امرأة ساقطة كالتى تركتها فى لاهاى ! . .

وقالت أخرى . .

— إنك لا تريد الزواج منها إلا من أجل مالها فحسب !

وقالت ثالثة . .

— ولكنك لن تحصل عليه فوالدتى ستحول المرتب مرة أخرى وتنفقه على الضيعة .

فترقرقت عينا مارجو بالدموع ، ونهض فنسنت وأدرك أنه لا جدوى من إضاعة الوقت مع أولئك السليطات . . إن عليه أن يتزوج مارجو فى آيند هوفن وأن يرحلا فوراً إلى باريس . . ولم يكن يريد أن يبتعد عن البرابانت فى الوقت الحاضر إذ إن عمله هناك لم ينته بعد ولكنه ارتجف عندما فكر فى ترك مارجو فى هذا البيت الذى تعيش به هؤلاء النساء العاقرات. وقاست مارجو فى الأيام التالية وبدأ تساقط الجليد . . واضطر فنسنت أن يعمل فى مرسمه ولم تسمح أسرة بيجيمان لمارجو بزيارته .. فمنذ اللحظة التى كانت تنهض فيها من الفراش فى الصباح إلى أن كان يسمح لها بالتظاهر بالنوم كانت تكره على سماع أقوال مقذعة ضد فنسنت . .

لقد عاشت مع أسرتها أربعين عاما ولم تعرف فنسنت إلا بضع شهور وكانت تكره شقيقاتها لأنها كانت تعلم أنهن قد حطمن حياتها ولكن الكراهية هى إحدى الأشكال الشديدة الغموض للحب وأحيانا يتولد عنها إحساس قوى بالواجب .

قال لها فنسنت :

— لست أدرى لماذا لا ترحلين معى أو على الأقل لماذا لا تتزوجين منى هنا دون موافقتهم .

— إنهن لن يسمحن لى .

— والدتك ؟

— شقيقاتى أما والدتى فإنها تجلس وراءهن وتوافق .

— أيهمك ما تقوله شقيقاتك ؟

— هل تذكر ماقلته لك إننى أحببت صبياً عندما كنت صغيرة ؟

— أجل . .

— لقد منعن هذا . أعنى شقيقاتى ولست أدرى لماذا . فطوال حياتى كن يمنعن عنى الأشياء التى كنت أرغب فيها وعندما قررت زيارة أقاربى فى المدينة لم يسمحن لى بالذهاب وعندما أردت أن أقرأ لم يسمحن بدخول الكتب الجيدة فى البيت وفى كل مرة كنت أدعو فيها رجلا لزيارتنا فى البيت كن يمزقنه إربا بعد مغادرته البيت حتى لا أطيق أبداً النظر إليه مرة أخرى . وأردت أن أصنع شيئاً نافعاً فى حياتى . أردت أن أصبح ممرضة أو أدرس الموسيقى ولكنهن أبين على ذلك . . وكان على أن أفكر فى نفس الأشياء التى يفكرن فيها وأن أعيش بالضبط كما كن يعشن » .

— والآن ؟

— والآن لن يسمحن لى بالزواج منك .

وضاع من صوتها واتزانها كثير من الحيوية التى اكتسبتها أخيراً وجفت شفتاها وبرزت التجاعيد الصغيرة حول عينيها .

— لا تشغلى بالك بهن يا مارجو . سوف نتزوج وسوف يكون هذا نهاية لآلامك وقد اقترح على أخى كثيراً أن أذهب إلى باريس وسيكون فى استطاعتنا أن نعيش هناك .

ولم تحر جواباً . . وجلست على حافة الفراش وأخذت تحدق فى أرض الغرفة الخشبية ، وتقوست كتفاها ، وجلس بجوارها وأخذ يدها فى يده وقال :

— أتخشين الزواج منى دون موافقتهن . . ؟

فقالت وكان صوتها واهناً خالياً من الاقتناع . .

— لا . سأقتل نفسى يافنسنت لو أخذونى منك ، إننى لا أستطيع أن أتحمل هذا . لا أطيقه بعد أن أحببتك ، سأقتل نفسى وهـــذا هو كل ما فى الأمر .

— ليس من الضرورى أن يعلمن. فلنفعل هذا أولا ثم نخبرهن فيما بعد .

— لا أستطيع أن أقف ضدهن . إنهن عصبة بالنسبة لى ولا أستطيع أن أحاربهن جميعاً .

— حسناً ، لا تشغلى نفسك بمحاربتهن . ما عليك إلا أن تتزوجى منى وسيكون فى هذا نهاية لهذه المشكلة .

— لن تكون هذه هى النهاية بل إنها ستكون البداية فأنت لا تعرف شقيقاتى .

— ولست أريد ان أعرف ! . . ولكنى سأحاول معهن مرة أخرى الليلة .

وأدرك أن المحاولة لن تجديه فتيلا منذ اللحظة التى دلف فيها إلى البهو. كان قد نسى جو المكان القارس .

وقالت الأخت :

— لقد سمعنا كل هذا من قبل يا سيد فان جوخ ، وهذا لن يقنعنا أو يؤثر علينا . . ولقد استقر رأينا فى هـذا الموضوع . . إننا نود أن نرى مارجو سعيدة ولكننا لا نريد لها أن تحطم حياتها وقد رأينا أن نمهلك عامين فإذا مرا وكنت ماتزال ترغب فى زواجها فإننا سنسحب اعتراضاتنا .

فقال فنسنت :

— عامين .

وقالت مارجو بهدوء :

— لن أكون هنا بعد سنتين .

— وأين ستكونين ؟

— سأكون من الأموات ، سأقتل نفسى إذ لم تسمحن لى بأن أتزوجه .

وفى أثناء هذا الطوفان من عبارات «كيف تجرئين على التفوه بمثل هذه الألفاظ ؟ «و» ها أنتن ترين مدى تأثيره عليها ! ، هرب فنسنت وكان لسنوات عدم التوافق أثرها على مارجو ولم تكن أعصابها قوية ولم تكن صحتها على ما يرام . وكانت روحها المعنوية تنهار مع كل يوم يمر تحت وطأة هجوم جبهة النساء الخمسة الذى لاهوادة فيه . قد تستطيع فتاة العشرين أن تكافح وتشق طريقها دون أن تصاب بخدوش ولكن مارجو كانت قد استنفدت كل ماعندها من مقاومة وقوة وإرادة وبدت على وجهها التجاعيد وعادت إلى عينيها تلك النظرات الحزينة القديمة وغدت بشرتها شاحبة خشنة وازداد عمق الخط الممتد من الجانب الأيمن لثغرها وتبخر الحب الذى كان يكنه فنسنت لمارجو بزوال حسنها ولم يكن قد أحبها حقاً أو كان يرغب فى الزواج منها والآن تضاءلت رغبته أكثر من أى وقت مضى . وأحس بالخجل لقسوته وهذا جعله أشد حماساً فى حبه وغزله . ولم يعرف هل أدركت مشاعره الحقيقية وسألها يوما عندما استطاعت أن تهرب إلى مرسمه لبضع دقائق .

— هل تحبينهن أكثر مما تحبينني يا مارجو ؟ »

فألقت عليه نظرة تفيض بالدهشة والعتاب وقالت :

— أوه يا فنسنت ؟

— إذن فلماذا تنوين التخلى عنى ؟

فألقت بنفسها بين ذراعيه كطفل هده التعب وخرج صوتها ضائعاً واهنا وهى تقول :

— لو كنت أعتقد أنك تحبنى كما أحبك لوقفت أمام العالم أجمع ولكن حبنا لا يعنيك إلا قليلا ... ويعنى عندهن الكثير ...

— أنت مخطئة يا مارجو .. فأنا أحبك . . »

فوضعت أصبعها برفق على شفتيه وقالت :

— لا يا عزيزى . . أنت تردد هذا . . ولكنك لا تحبنى . . وينبغى ألا تتألم من أجل هذا . . وأنا أريد أن أكون العاشقة التى تمنح القدر الأكبر من الحب . .

— لماذا لا تنفصلين عنهن وتكونين سيدة نفسك ؟

— من السهل عليك أن تقول هذا ، فأنت قوى وتستطيع أن تصارع أى إنسان ، ولكنى فى الأربعين ... ولدت فى نيونين ولم أذهب قط أبعد من آيند هوفن ألا ترى يا عزيزى أننى لم أفصم صلتى بأى إنسان أو شىء فى حياتى .

— أجل . . أرى هذا . .

— لو كان هذا شيئاً أردته يا فنسنت لحاربت من أجلك بكل ما أملك من قوة ولكنه ليس إلا شيئاً أرغب فيه أنا وفضلا عن هذا فإنه جاء بعد فوات الأوان ... والآن انتهت حياتى ...

وخفت صوتها حتى استحال إلى همس . .

فرفع ذقنها بخنصره وأمسكها بإبهامه .

ورأى الدموع تترقرق فى مآقيها . وقال :

— يا فتاتى العزيزة ، ياعزيزتى الحبيبة مارجو ، فى وسعنا أن نعيش معاً طوال الحياة وكل ماعليك أن تقوليه هو كلمة نعم . . احزمى ملابسك الليلة بينما أهلك نيام وتستطيعين أن تناوليها لى من النافذة ، وسوف نسير إلى آيند هوفن ونستقل قطار الصباح الباكر إلى باريس .

— لا جدوى من ذلك ياعزيزى فأنا جزء منهن وهن جزء منى ولكنى سأتخذ طريقى فى النهاية .

— مارجو أنا لا أطيق أن أراك تعسة على هذا النحو . .

فأدارت وجهها نحوه وقد جفت دموعها وابتسمت له وقالت :

— لا يافنسنت . . إننى سعيدة .. لقد حصلت على ما كنت أتمناه . . وقد كان رائعاً أن أحبك .

فقبلها وأحس بملوحة الدموع على شفتيها ، تلك الدموع التى سالت على خديها .

وقالت بعد قليل . .

— لقد توقف سقوط الجليد ، هل تنوى أن تخرج غداً إلى الحقول لترسم ؟

— أجل . . أظن هذا .

— وأين ستكون ؟ سألحق بك وقت العصر ؟

وفى اليوم التالى أخذ يعمل فى ساعة متأخرة وقد وضع على رأسه قلنسوة من الفرو وجذب بإحكام بلوزة تيلية حول رقبته ، وكانت السماء فى المساء بلون الزئبق الممزوج بالذهب .. فوق أشباح الأكواخ التى تقوم بين كتل من الأدغال الوردية اللون وفوق ورود الحور الصغيرة السوداء الباقية ، وكانت الأرض من الأمام لونها أخضر باهت يميل إلى البياض تخترقها خطوط من التربة السوداء وقصبات الغاب الجافة الشاحبة ع طوال حواف الخندق .

وجاءت مارجو تمشى على عجل عبر الحقل ، وكانت ترتدى نفس الثوب الأبيض الذى كانت ترتديه عندما التقى بها لأول مرة . . وقد ألقت على كتفيها وشاحا، ولاحظ أن هناك مسحة من التورد فى وجنتيها وكانت تبدو كالمرأة التى ازدهر جمالها من تأثير الحب منذ بضعة أسابيع فقط وكانت تحمل فى يدها سلة بها أدوات الحياكة .

وألقت ذراعيها حول عنقه وكان فى وسعه أن يحس بدقات قلبها وهو يخفق فى عنف وهى تحتضنه فدفع رأسها إلى الخلف وتطلع إلى عينيها العسليتين وقد اختفت منها نظرات الحزن والأسى .

وسألها . .

ـــ ما الخبر ؟ هل حدث شيء ؟

ـــ فصرخت قائلة

لا .. إنى .. إننى فقط سعيدة للقائك مرة أخرى ..

ـــ ولـكن لمـاذا أتيت فى هذا الثوب الخفيف ؟

فران عليها الصمت لحظة ثم قالت :

ـــ يافنسنت . . مهما باعدت بيننا الظروف فإننى أريد منك أن تذكر شيئاً .. شيئاً واحداً عنى .

ـــ ما هو يا مارجو ؟

ـــ هو أنى أحببتك ! تذكر دائماً أنى أحببتك أكثر من أى امرأة أخرى فى حياتك كلها . .

ـــ ولمـاذا ترتجفين على هذا النحو ؟

ـــ لا شيء . . لقد احتجزونى وهـذا هو السبب فى أنى تأخرت فى المجىء . . هل أوشكت على الانتهاء ؟

ـــ سأنتهى بعد بضع دقائق .

ـــ إذن دعنى أجلس خلفك وأنت تعمل كما تعودت أن أفعل ، وأنت تعلم يا عزيزى أنى لم أرغب أبدا فى أن أقف فى طريقك أو أكون عقبة أمامك .. وإنما أردت فقط أن تدعنى أحبك . .

فقال :

ـــ أجل يا مارجو .

ولم يستطع أن يفـكر فى شيء آخر يقوله .

ـــ إذن فعد إلى العمل ياحبيبى وانته منه . . حتى يتسنى لنا أن نعود معاً إلى البيت . .

وارتجفت قليلا فأحكمت لف الوشاح حول كتفيها ثم قالت . .

ـــ قبل أن تبدأ يافنسنت قبلنى مرة أخرى قبلة كالتى طبعتها على شفتى عندما كنت فى مرسمك ... عندما كنا نحلق فى أجواء السعادة وكل منا بين ذراعى الآخر . .

فقبلها بحنان وجذبت أطراف ثوبها حولها وجلست وراءه . وكانت الشمس قد غابت وأرخى ليل الشتاء القصير سدوله على الأرض المنبسطة وجرفهما الهدوء الذى يلف الريف فى المساء .

ورن فى السكون صوت فرقعة زجاجة ثم نهضت مارجو على ركبتيها وأطلقت صرخة نصف مكتومة ثم ارتمت على الأرض فى تشنج عنيف فقفز فنسنت وألقى بنفسه أمامها .. كانت عيناها دامعتين وارتسمت على وجهها ابتسامة ساخرة وانتابتها سلسلة من التشنجات السريعة وتصلب جسدها وتقوس إلى الخلف وانثنت ذراعاها .

وانحنى فنسنت على الزجاجة التى كانت ملقاة على الجليد . كانت هناك بقايا مواد بلورية بيضاء ترسبت داخل الفوهة وكانت لا رائحة لها .

وحمل مارجو بين ذراعيه وانطلق يجرى بجنون عبر الحقول ، كان على بعد كيلومتر من نيونين ... وكان يخشى أن تموت قبل أن يستطيع الوصول بها إلى القرية .. وكان الوقت قبيل ساعة العشاء وكان الناس يجلسون أمام دورهم ، وأقبل فنسنت من أقصى طرف المدينة وكان عليه أن يجرى وأن يخترق القرية بأكملها وهو يحمل مارجو بين ذراعيه ووصل إلى بيت آل بيجيان ودفع الباب وفتحه بركلة من حذائه ووضع مارجو على الأريكة التى فى البهو وأقبلت الأم والشقيقات وهن يهرولن

وصاح قائلا :

— لقد تناولت مارجو السم ! ، سأحضر الطبيب !

وانطلق يجرى إلى طبيب القرية وسحبه من على مائدة العشاء ، وسأله الطبيب :

— هل أنت واثق أنه كان الاستركنين ؟

— إنه يشبهه .

— وهل كانت ماتزال على قيد الحياة عندما حملتها إلى البيت .

— أجل .

وعندما وصلا هناك كانت مارجو تتلوى على الأريكة . وانحنى عليها الطبيب وقال :

ـــ لقد كان الاستركنين ولاريب ، ولكنها تعاطت معه شيئاً لتقضى على الألم . . ويبدو لى من رائحته أنه صبغة الأميون ، ولم تدرك أنه سوف يكون له فعل الترياق .

وسألته الأم :

ـــ إذن فسوف تعيش يادكتور ؟

ـــ إن أمامها فرصة . . ينبغى أن نحملها إلى أوترخت فى الحال . . إذ يجب أن توضع تحت الملاحظة الدقيقة

ـــ هل يمكنك أن تحدد لنا مستشفى تفضله فى أوترخت ؟

ـــ لا أعتقد أنه من الحكمة دخولها مستشفى .. ومن الأفضل أن تذهبي بها إلى إحدى المصحات فترة معينة وأنا أعرف مصحة جيدة ، اطلبي تجهيز عربتك فيجب أن نستقل آخر قطار يقوم من أيندهوفن .

ووقف فنسنت ساكناً فى ركن مظلم وأحضرت العربة ووقفت أمام الباب ولف الطبيب مارجو فى ملاءة وحملها إلى الخارج وتبعته والدتها وشقيقاتها الخمس بينما التزم فنسنت المؤخرة ، وكان أفراد أسرته يقفون أمام الباب المجاور على عتبة الأبروشيتة وقد احتشدت القرية بأجمعها أمام بيت آل بيجمان .. وخيم صمت رهيب عندما خرج الطبيب وهو يحمل مارجو بين ذراعيه ثم رفعها إلى العربة ووقف فنسنت بجوارها وأمسك الطبيب باللجام والتفتت أم مارجو فرأت فنسنت مايزال واقفاً وصرخت قائلة :

ـــ أنت فعلت هذا ! أنت الذى قتلت ابنتى !

فتطلع الجمهور المحتشد إلى فنسنت وألهب الطبيب ظهور الجياد بالسوط وتوارت العربة خلف الطريق ..

* * *

(٧)

كان بين أهل القرية وبين فنسنت ود مفقود قبل أن تنكسر ساعد أمه لأنهم كانوا لا يثقون به ولأنهم عجزوا عن فهم أسلوبه فى الحياة . ولكنهم لم يناصبوه أبداً العداء أما الآن فقد انقلبوا عليه انقلابا شديداً . واستطاع أن يحس بكراهيتهم تحيط به من كل جانب فقد كانوا يديرون له ظهورهم عندما كان يقترب منهم ولم يقبل أحد أن يتحدث إليه أو يزوره وأصبح واحداً من المنبوذين .

ولم يهتم بالأمر طالما كان لا يمس سواه — إذ كان النساجون والفلاحون يستقبلونه فى أكواخهم كصديق ولكن عندما كف الناس عن الذهاب إلى الأبروشية لرؤية والديه أدرك أنه لا مناص من الرحيل .

وعرف فنسنت أن خير ما يفعله هو أن يغادر البرابانت كلية ويدع والديه فى سلام ، ولكن إلى أين يذهب ؟ لقد كان البرابانت موطنه وكان يود لو عاش هناك طوال حياته . وكان يريد أن يرسم الفلاحين والنساجين.. فنى هذا وجد المبرر الوحيد لعمله . وعرف أنه من أروع الأشياء التعمق فى الجليد ، فى الخريف الذى يبدو فى الأوراق الذابلة ، وبين الحنطة الناضجة فى الصيف وفى الربيع وسط الحشائش وأنه شىء رائع أن يبقى ذوقا بين الحاصدين وبنات الفلاحين فى العراء فى الصيف وبجوار نار المدفأة فى الشتاء وأن يحس أن الحياة التى كانت هكذا دائماً وسوف تظل دائما على هذا النحو .

وكانت لوحة (أنجيلوس) التى رسمها ميليه أقرب ما استطاع إنسان أن يتوصل إلى خلقه من الأشياء المقدسة . ووجد سذاجة حياة الفلاحين الحقيقة الوحيدة الخالدة .. وكان يحب أن يرسم فى الخلاء وفى البقعة نفسها وهناك وكان عليه أن يهش مئات من حشرات الذباب ويكافح التراب والرمل

وتتعرض اللوحات للخدوش عندما كان يحملها ساعات طويلة عبر الدوح والنباتات الشوكية .

ولكنه عندما كان يعود كان يعرف أنه كان يقف وجها لوجه أمام الحقيقة وأنه قد اقتبس منها شيئا من بساطتها الأساسية . فإذا كانت لوحاته التي استوحاها من الفلاحين تفوح منها رائحة لحم الخنزير والدخان والبطاطس فإن هذا لم يكن بعيدا عن الصواب وإذا فاحت رائحة روث من اسطبل فهذا دليل على أنه اسطبل وإذا عبقت الحقول برائحة الحنطة الناضجة أو نفاية طيور البحر أو السماد فإن هذا يكون سليما أيضا وحل مشكلته بطريقة بسيطة للغاية فعلى مسافة قصيرة من الطريق كانت الكنيسة الكاثوليكية وبجوار بيت الحارس وكان جوهانوس شافرات حائكا للثياب وكان يعمل بهذه المهنة عندما كان يعفى من خدمة الكنيسة ، وكانت زوجته أدريانا سيدة طيبة فأجرت لفنسنت غرفتين وهى تحس بشيء من السرور لأنها استطاعت أن تفعل شيئا للرجل الذى انقلبت عليه القرية كلها وكان يقسم بيت آل شافرات فى الوسط ممر كبير وكان على يمين الداخل جناح العائلة وعلى اليسار غرفة جلوس كبيرة تطل على الطريق وإلى الخلف منها غرفة أصغر ، وقد أصبحت غرفة الجلوس مرسم فنسنت والغرفة التى وراءها مخزنا له . وكان ينام فى الدور العلوى فى غرفة السطوح المشرقة .. وكان نصفها يستعمل لنشر غسيل أسرة شافرات وكان فى النصف الآخر سرير عال ، وكرسى . . وعندما كان الليل يرخى سدوله كان فنسنت يلقى بملابسه على المقعد ويقفز إلى السرير ويدخن حفنة من الطباق ويتأمل الوهج الذى يذوب فى الظلمة ثم يستسلم للنعاس ... ووضع فى المرسم لوحاته المصورة بالألوان المائية والطباشير ورءوس لرجال ونساء كانت تتميز بأشكالها الزنجية وأنوفها الفطساء وبعظام الفك البارزة والآذان العريضة وكانت هناك لوحات لنساجين وأنوال يستخدمها نساجون ولنساء يبدرن المأكوك وفلاحين يزرعون البطاطس ، وكسب صداقة

أخيه كور وصنعا معاً حيوانا وجمعا على الأقل ثلاثين عشا مختلفا من أعشاش الطيور وكل أنواع الفراش والنباتات من المرج وما كوكات وعجلات للغزل ومدافىء للفراش وآلات للفلاحين وقلنسوات وقبعات قديمة وأحذية خشبية وأطباقا وكل شىء يتصل بحياة الريف بل إنهما وضعا شجرة صغيره فى ركن من الأركان الخلفية واستقر ليبدأ العمل .

واكتشف أن عليه أن يضع قليلا من الأصفر اللون حتى يبدو أصفر فاقعا إذا ماوضعه بجوار البنفسجى أو الأزرق المائل إلى البنفسجى ..

وتعلم أيضا أن العزلة هى نوع من السجن ..

وفى مارس كان والده قد سار مسافة كبيرة فى الهوارى لزيارة مريض من رعايا كنيسته فسقط متكوما على الدرجات الخلفية للأبروشية . وعندما وصلت إليه آنا كورنيلا كان قد فارق الحياة .. ودفنوه فى الحديقة بالقرب من الكنيسة العتيقة .

وحضر ثيو لتشييع الجنازة وفى هذه الليلة جلسا فى مرسم فنسنت وأخذا يتحدثان أولا عن شئون الأسرة ثم عن عملهما .

وقال ثيو :

— لقد عرض على مبلغ ألف فرنك فى الشهر لكى أترك العمل مع محل جوبلز وأذهب إلى محل جديد .

— وهل فى نيتك أن تقبله ؟

— لا أعتقد . ، فى رأيى أن سياستهم ستكون تجارية بحتة ..

— ولكنك كنت تكتب لى وتقول إن جوبلز ...

— أعلم ذلك .. فالسادة أيضا يجرون وراء الأرباح الضخمة إلا أنى قضيت معهم اثنى عشر عاما فلم أغير عملى من أجل بضع فرنكات ؟ قد

يضعونى يوما على رأس أحد فروعهم فإذا قاموا بهذا فسوف أبدأ فى بيع لوحات الانطباعيين .

— الانطباعيون ؟ أعتقد أننى رأيت هذا الاسم مكتوبا فى مكان ما . فمن هم ؟

— أوه . إنهم ليسوا إلا بعض المصورين الناشئين فى باريس ، أدوارد مانيه وديجا ورينوار وكلود مونيه وسيسلى وكوربيه ولوتريك ، وجوجان وسيزان ، سيرا ...

— من أين حصلوا على هذا الاسم ؟

— من معرض عام ١٨٧٤ فى نادار ، وكان لكلود مونيه لوحة معروضة هناك أطلق عليها اسم « انطباع . شروق الشمس » فأطلق ناقد فى إحدى الصحف يدعى لويس ليروى عليه معرض الانطباعيين فلصق بهم هذا الاسم .

— هل يستعملون ألوانا مشرقة أو ألوانا قاتمة ؟

— أوه ، ألوانا مشرقة ! فهم يبغضون الألوان القاتمة .

— إذن فلا أظن أننى أستطيع أن أعمل معهم إذ فى نيتى أن أغير طريقة تلوينى ولكنى سأتجه إلى استخدام الألوان الأشد قتامة بدلا من الألوان الأكثر إشراقا .

— ربما تغير رأيك عندما تجىء إلى باريس .

— ربما .. وهل يبيع أى واحد منهم شيئا من لوحاته ؟

— إن ديران رويل يبيع أحيانا لوحة مائية ، وهذا كل ما أعرفه عن الجميع .

— إذن كيف يعيشون ؟

— الله وحده يعلم . بذكائهم فى الغالب . فروسو يعطى دروسا فى الكمان للأطفال ، وجوجان يقترض من أصدقائه القدامى فى البورصة ، وسيرا

تعوله والدته ، وسيزان يعوله والده .. ولست أدرى من أين يحصل الآخرون على المال ..

— وهل تعرفهم جميعا ياثيو ؟

— إنى أتعرف عليهم شيئا فشيئا ، وقد كنت أحاول إقناع « السادة » بأن يفردوا لهم ركنا صغيرا لعرض إنتاجهم فى محل جوبلز ولكنهم رفضوا أن يلمسوا لوحة لمصور انطباعى بعصا طولها عشرة أقدام .

— يبدو أن هؤلاء الرفاق من النوع الذى يجب أن أقابله اسمع ياثيو .. إنك لاتصنع شيئا مطلقا لكى أحصل على بعض المتعة بلقاء غيرى من المصورين .

فسار ثيو إلى النافذة الأمامية للمرسم وأخذ يحدق فى الرقعة الصغيرة المزروعة بالحشائش والتى كانت تفصل بيت الحارس عن الطريق المؤدى إلى آيندهوفن .

ثم قال :

— تعال إذن إلى باريس لتقيم معى ، ولاريب أنك سوف تنتهى هناك أخيراً إلى شىء .

— لست على استعداد للذهاب الآن .. فأمامى بعض العمل الذى يتطلب الإنجاز هنا أولا ..

— حسن .. إذا بقيت فى الريف فلا أمل لك فى الاشتراك مع الفنانين من أمثالك .

— ربما كان هذا صحيحا ، إلا أن هناك شيئا واحداً ياثيو أستطيع أن أفهمه ، فأنت لم توفق أبداً إلى بيع رسم واحد أو صورة واحدة لى والواقع أنك حتى لم تحاول أبداً . والآن هل حاولت ؟

— لا

— ولم لا ؟

— لقد عرضت أعمالك على الخبراء وهم يقولون ...

فهز فنسنت كتفيه وقال :

— أوه .. الخبراء ! إنى أعلم تماما التفاهات التى يتورط فيها معظم الخبراء . لاريب أنك يجب أن تعلم ياثيو أن آراءهم لاعلاقة لها كثيراً بالجودة التى تنطوى عليها إحدى اللوحات .

— حسن ، ما كان ينبغى أن أقول لك هذا . إن لوحاتك يمكن بيعها تقريبا ، ولكن ...

— ثيو ، ثيو ، هذه هى نفس الكلمات التى كنت تكتبها لى بشأن رسومى الأولى من « إيتن »

— إنها صادقة يافنسنت ، فأنت تبدو دائما على وشك الوصول إلى نضوج رائع وأنا أتناول كل رسم جديد بشغف وأرجو أن تكون المعجزة قد حدثت أخيراً . ولكن طالما . . .

قاطعه فنسنت وهو يضرب غليونه على الموقد .

— بالنسبة لموضوع صلاحيتها للبيع أو عدم صلاحيتها فهذا منشار قديم لا أريد أن أحطم عليه أسنانى .

— تقول إن لديك عملا هنا إذن فهيا وحاول أن تنهيه وكلما أسرعت بالمجىء إلى باريس كان هذا خيرا لك ، ولكن إذا كنت فى الوقت نفسه تريد أن يباع لك شىء فأرسل لى صورا بدلا من هذه الدراسات فليس هناك من يرغب فى شراء دراسات .

— حسن .. من الصعب أن تقول متى يكون الرسم دراسة ومتى يكون لوحة . فلنصور من اللوحات قدر مانستطيع ياثيو ولنتقبل أنفسنا على علاتنا بكل أخطائنا ومزايانا وأنا أقول «نحن» لأنى أحصل منك على المال وأنا أعلم مدى ماتتكلف من جهد فى سبيل الحصول عليه من أجلى وهذا يعطيك الحق فى أن تعتبر أن نصف العمل من ابتكارك .

فسار ثيو حتى وصل إلى نهاية الحجرة وأخذ يعبث بغطاء قديم للرأس كان معلقا على شجرة ثم قال :

— أوه .. أما بالنسبة لهذا ...

* * *

(٨)

لم يكن فنسنت قد زار الأبروشية قبل وفاة والده إلا زيارات عابرة لتناول العشاء أو لقضاء ساعة فى صحبة والديه وبعد تشييع الجنازة أوضحت له شقيقته إليزابث أنه كان شخصاً غير مرغوب فيه بتاتا فقد كانت الأسرة تريد أن تحتفظ بموقف معين وشعرت والدته أنه مسئول عن حياته الخاصة وأن من واجبها أن تقف بجانب بناتها . .

وكان الآن يعيش فى وحدة تامة فى نيونين ولقد استعاض عن الناس بدراسته للطبيعة . . وقد بدأ بصراع لا يمل لمتابعة الطبيعة ولكن كل شىء جاء مجانباً للصواب .. وانتهى بأن شرع يبتكر فى هدوء من لوحة ألوانه وأذعنت له الطبيعة وتبعته صاغرة . .

وعندما كان يحس بالبؤس فى وحدته كان يفكر فى المنظر الذى جرى فى مرسم فايسنبروخ واستحسان المصور السليط اللسان للألم ووجد فى مصوره المخلص ميليه فلسفة فايسنبروخ فى أقوى صورة معبرة :

« لا أريد أبداً أن أكبح جماح الألم لأنه كثيراً ما يكون حافزا للفنانين على التعبير عما فى نفوسهم تعبيراً قوياً » .

وتوطدت أواصر الصداقة بينه وبين أسرة من الفلاحين تحمل اسم « دى جروت » وتتألف من أم وأب وابن وبنتين وكلهم كانوا يعملون فى الحقول وكان آل جروت كغالبية الفلاحين فى البرابانت لهم الحق فى أن يطلق عليهم ذوى السحنات السوداء شأنهم شأن عمال المناجم فى البوريناج فقد كانت لهم سحنات زنجية وكانت فتحات أنوفهم واسعة ومفرطحة وكانت أنوفهم معقوفة وشفاههم غليظة متدلية وآذانهم طويلة بارزة . وكانت تقاطيعهم بارزة إلى الأمام من الجبهة وكان الرأس صغيراً ومدبباً وكانوا يسكنون فى كوخ من غرفة واحدة بها تجاويف فى الجدران تستخدم للأسرة

وفى منتصف الغرفة كانت هناك منضدة ومقعدان وبضع صناديق ومصباح معلق يتدلى من السقف الخشن المليء بالعروق وكانوا يتناولون مع العشاء قدحا من القهوة السوداء وربما كانوا يتناولون شريحة لحم الخنزير مرة كل أسبوع. كانوا يزرعون البطاطس ويحرثون الأرض فتخرج البطاطس وتلك كانت حياتهم كانت ستين دى جروت ابنة حلوة فى السابعة عشرة من عمرها وكانت تضع على رأسها غطاء عريضاً أبيض وقت العمل وكانت ترتدى سترة سوداء لها ياقة بيضاء..

واعتاد فنسنت أن يزورهم كل مساء وكان هو وستين يضحكان معاً فترة طويلة. وكانت تصيح قائلة:

« انظر.. إننى سعيدة جميلة ، إننى أستحق الرسم هل أضع قلنسوتى الجديدة على رأسى من أجلك ياسيدى ..

ـــ لا ياستين.. إنك جميلة كما أنت الآن.

ـــ أنا جميلة ؟

وكانت تنطلق فى ضحكات صاخبة وكانت لها عينان واسعتان باسمتان وتقاطيع جميلة وكان وجهها ينبض بالحياة. وعندما كانت تنحنى لتقطع حبات البطاطس الكبيرة من الحقل كان يرى فى خطوط جسدها من الرشاقة الأصلية أكثر مما كانت تملكه كاى وقد تعلم أن اللحن الجوهرى فى رسم الشكل هو الحركة وأن أكبر خطأ ارتكبه أساتذة الفن القدامى فى حق رسم الأشكال فى اللوحات هو أنهم امتنعوا عن رسمها.

« ورسم آل جروت وهم يعزقون الحقل وصورهم وهم يعدون المائدة فى البيت ويأكلون البطاطس المسلوقة وكانت ستين دائماً تنظر إليه خلسة من فوق كتفيه وتمزح معه. وأحياناً كانت ترتدى قلنسوة وياقة نظيفتين فى يوم أحد وتسير معه فى الخلاء. وكانت هذه هى التسلية الوحيدة التى كان يعرفها الفلاحون ، وسألته مرة ..

— هل كانت مارجو بيجمان تحبك ؟

— أجل .

— إذن فلماذا حاولت أن تنتحر ؟

— لأن أسرتها لم تسمح لها بالزواج منى .

— لقد كانت حمقاء . أتعرف ماذا كنت أفعل بدلا من الانتحار ؟ كنت أحبك !

وضحكت فى وجهه ثم جرت إلى دغل من أشجار الصنوبر . . وظلا طوال النهار يضحكان ويلهوان بين أشجار الصنوبر ورآهما أرواح آخرون من المتريضين .

وكانت ستين قد جبلت بطبيعتها على الضحك وأصغر الأشياء التى كان يقولها فنسنت أو يعملها تجعلها تطلق من بين شفتيها ضحكات صاخبة وكانت تصارعه وتحاول أن تلقيه على الأرض ، وعندما كانت لا تعجبها الأشياء التى رسمها فى بيتها كانت تسكب عليها القهوة أو تقذف بها فى النار وكثيراً ما كانت تأتى إلى مرسمه وتتخذ وضعاً لرسمها وعندما كانت تغادر المرسم كان المكان يبدو فى حالة يرثى لها من الفوضى .

وهكذا مضى الصيف وفى أعقابه الخريف وأقبل الشتاء من جديد . . واضطر سقوط الجليد فنسنت أن يعمل فى مرسمه طوال الوقت وكان أهل نيوانين لا يحبون أن يتخذوا وضعاً ليرسمهم ولولا حاجتهم إلى المال لما أقبل إليه أحد وكان قد قام برسم ما يقرب من تسعين حائكة ثياب لكى يرسم صورة لمجموعة تتكون من ثلاث حائكات .

وكان يريد أن يرسم عائلة دى جروت وهى تتناول عشاءها المكون من البطاطس والقهوة ولكن لكى يرسم لهم صورة متقنة شعر بأن عليه أن يرسم أولا كل فلاح فى المنطقة المجاورة ولم يكن القسيس الكاثوليكى أبدا من المحبذين لتأجير غرفة فى بيت حارس الكنيسة للرجل الذى كان

ملحداً وفناناً معاً . ولكن طالما أن فنسنت كان هادئاً ومؤدباً فإنه لم يجد سبباً يتذرع به لطرده .

وأقبلت يوماً أدريانا شافرات إلى مرسمه وقد بدا عليها الانفعال وقالت

— الأب باولز يود أن يراك حالا !

وكان الأب أندريا باولز رجلا ضخم الجثة أحمر الوجه وقد ألقى نظرة عجلى على المرسم وقرر أنه لم يشاهد فى حياته مثل هذه الفوضى المجنونة وسأله فنسنت بأدب :

— ماذا أستطيع أن أفعل لك أيها الأب ؟

— أنت لا تستطيع أن تفعل لى شيئاً ولكن باستطاعتى أنا أن أفعل لك شيئاً ! سوف أحكم عليك من خلال هذا الموضوع بشرط أن تفعل ما يقال لك .

— أى موضوع تشير إليه يا أبى ؟

— إنها كاثوليكية وأنت بروتستانتى ، ولكننى سأحصل لك على إذن خاص من الأسقف . تأهب للزواج خلال بضعة أيام .

فتقدم فنسنت إلى الأمام حتى يتأمل الأب باولز فى ضوء النهار الذى كان يتسلل من النافذة وقال :

— أخشى أن أقول إننى لا أفهم شيئاً يا أبى .

— بل إنك تفهم ما أقول . ولا فائدة من هذا التظاهر بعدم الفهم . إن ستين دى جروت تحمل طفلا ! وشرف هذه العائلة يجب أن يصان .

— يالها من شيطانة !

— يمكنك ولاريب أن تدعو الشيطان وهذا حقاً من عمل الشيطان .

— هل أنت واثق من هذا يا أبى ؟ ألست مخطئاً ؟

— إنى لا أوجه الاتهام للناس حتى أضع يدى على الدليل الأكيد .

— وهل أخبرتك ستين . . هل قالت لك إننى كنت هذا الرجل ؟

— لا . . لقد رفضت أن تصرح لنا باسمه . .

— إذن فلماذا تخلع على أنا هذا الشرف ؟

— لقد شوهدتما معاً مراراً .. ألم تكن تحضر إلى هذا المرسم كثيراً ؟

— بلى .

— ألم تكن تتنزه معها بين الحقول يوم الأحد ؟

— بلى . . لقد فعلت هذا .

— حسن . . أى دليل أعظم من هذا أحتاج إليه ؟

فظل فنسنت صامتا برهة ثم قال بهدوء :

— يؤسفنى أن أسمع منك هذا أيها الأب وخاصة إذا كان سيجر المتاعب على صديقتى ستين ولكنى أؤكد لك أن علاقتى بها كانت فوق مستوى الشبهات . .

— أتتوقع منى أن أصدق هذا ؟

فأجاب فنسنت :

— لا . إننى لا أتوقع هذا منك .

وعندما عادت ستين فى تلك الليلة من الحقول كان فى انتظارها على عتبة كوخهم وكانت بقية الأسرة قد دخلت لتناول طعام العشاء فتهالكت ستين بجواره وقالت :

— سوف أجيء لك بشخص آخر قريبا لترسمه .

— إذن فهذا صحيح ياستين ؟

— طبعاً . . هل تريد أن تتحسسه ؟

وتناولت يده ووضعتها على بطنها .

وشعر بتضخم بطنها وقال لها :

— لقد أخبرنى الأب باولز منذ قليل بأنى والد الطفل .

فضحكت ستين وقالت :

— كنت أتمنى لو كنت السبب ولكنك لم ترغب فى ذلك قط . هل أنا مخطئة ؟

فتطلع إلى العرق الناشيء من سيرها فى الحقول والذى كان يغطى

بشرتها الداكنة وإلى تقاطيعها الغليظة غير المستقيمة وأنفها الكبير وشفتيها المتلثتين .

ابتسمت له فقال :

ـ كنت أود هذا أنا أيضاً ياستين .

وقالت له .

ـ إذن فالأب باولز قال .. إنك أباه . هذا أمر مضحك .

ـ وماذا يضحك فى هذا ؟

ـ هل تكتم سرى ؟

ـ أعدك بهذا .

ـ إنه من رجال كنيسته .

فأطلق فنسنت صفيراً وقال :

ـ وهل تعلم أسرتك بهذا ؟

ـ لا بالطبع ، ولن أخبرهم بذلك ابدا ... ولكنهم يعلمون أنك لست المسئول ...

فداف فنسنت إلى داخل الكوخ ولم يلحظ تغـــيراً فى الجو إذ تقبل آل دى جروت مسألة حمل ستين بنفس الروح التى كانوا يستقبلون بها حمل البقرة فى الحقل ولم تتغير معاملتهم له عما كانت عليه من قبل وأدرك أنهم كانوا يؤمنون ببراءته .

ولكن القرية لم تشاركهم هذا الرأى ، فقد كانت أدريانا تتصت على الباب وسرعان ما نقلت الأخبار إلى جيرانها وإن هى إلا ساعة حتى علم ألفان وستمائة من سكان نيونين أن دى جروت سوف تلازم الفراش حتى تضع طفل فنسنت وأن الأب باولز سوف يكرههما على الزواج .

كان نوفمبر قد حل منذراً بالشتاء وآن له أن يرحل إذ إنه لم ير فائدة فى بقائه بعد ذلك بنيونين فقد رسم كل شىء يستحق الرسم فى القرية وتعلم كل شىء يجب أن يعرفه عن حياة الفلاحين وكان لا يعتقد أنه يستطيع أن يعيش

فى مواجهة حقد القرية واتضح له أنه قد آن له أن يرحل ولكن إلى أين يذهب .

وطرقت أدريانا الباب ثم قالت له بحزن :

— يا سيد فان جوخ ... يقول الأب باولز إن عليك أن تغادر هذا البيت حالا وتقيم فى مكان آخر .

— حسن جداً ، كما يجب .

وسار فى المرسم وهو يتطلع إلى عمله ... سنتان قاسيتان من العبودية ، ومئات من الدراسات عن النساجين وزوجاتهم وعن الأنوال والفلاحين فى الحقل وعن جذوع الأشجار فى قلب حديقة الابروشية وعن برج الكنيسة القديمة والمرج وأسوار النباتات الشوكية فى حرارة الشمس وعن برودة الغسق فى الشتاء .

وأحس بهم ثقيل فقد كانت أعماله كلها تتناول جزئيات كانت تحتوى على أجزاء من كل مرحلة فى حياة الفلاح فى البرابانت ولكن لم تكن هناك قطعة واحدة من أعماله تمثل حياة الفلاح فى مجموعها وتصور روح كوخه وبطاطسه المسلوقة . أين صورته للفلاح البراباتى التى تضاهى صورة إنجليوس ؟ كيف يستطيع أن يرحل قبل أن يرسمها ؟ وألقى نظرة سريعة على نتيجة الحائط ... كان ما يزال باقيا اثنا عشر يوما على بداية الشهر ، فنادى على أدريانا وقال لها :

— بلغى الأب باولز أننى دفعت الإيجار لأول الشهر ولن أرحل قبل ذلك الحين ..

وجمع حامل لوحاته وصوره وقماش لوحاته وفرشه . وسار يجر قدميه حتى وصل إلى كوخ آل دى جروت وكان البيت خاليا . وبدأ العمل برسم لداخل الحجرة بالقلم .

وعندما عادت الأسرة من الحقل مزق الورقة . . . وجلس آل دى جروت يتناولون طعامهم من البطاطس المسلوقة والقهوة السوداء ولحم الخنزير . ونشر فنسنت لوحاته وانهمك فى العمل حتى أوت الأسرة إلى فراشها . وظل طوال تلك الليلة يعمل لإنهاء اللوحة فى مرسمه ثم نام أثناء النهار وعندما استيقظ أحرق لوحته وهو يحس باشمئزاز وحشى ثم انطلق مرة أخرى إلى بيت آل دى جروت وكان فنسنت قد تعلم من أساتذة الفن الهولندى القدامى أن الرسم واللون كانا شيئاً واحداً .

وجلس آل دى جروت فى نفس الأوضـــاع التى تعودوا عليها طوال حياتهم وأراد فنسنت أن يصور بوضوح الطريقة التى كان هؤلاء الناس يتناولون بها طعامهم من البطاطس فى ضوء المصباح وكيف عزقوا الأرض بهذه الأيدى ذاتها التى كانوا يضعونها فى الطبق كان يريد أن يعبر عن العمل اليدوى وكيف كانوا يكسبون عيشهم بأمانة وشرف .

وكانت عادته القديمة فى الانهماك بكل قوة فى تصوير لوحة قد غدت الآن طيعة ذليلة فأخذ يعمل بسرعة هائلة وحيوية متدفقة ولم يفكر فيما كان يعمله إذ كان قد رسم مئات الفلاحين والأكواخ والأسرات وهم يجلسون أمام طعامهم من البطاطس المسلوقة .

وقالت الأم .

— كان الأب باولز هنا اليوم ...

فسألها فنسنت .

— وماذا كان يريد ؟

— لقد عرض علينا بعض المال بشرط ألا نتخذ وضعاً لترسمنا .

— وماذا قلتم له ؟

— قلنا له إنك صديقنا .

وأضافت ستين .

ـــ وقد قام بزيارة كل بيت حولنا ولكنهم أبلغوه أنهم يفضلون أن يكسبوا فلسا واحداً من اتخاذهم وضعاً لترسمهم فيه ولا يقبلون إحسانه .

وفى صباح اليوم التالى حطم لوحته مرة أخرى واستولى عليه شعور امتزج فيه الغضب بالعجز إذ لم يبق أمامه إلا عشرة أيام وكان عليه أن يرحل عن نيونين بعد أن غدت لا تحتمل ولكنه كان لا يستطيع أن يغادرها إلا بعد أن يحقق وعده لميليه .

وفى كل ليلة كان يعود إلى كوخ آل دى جروت ويظـــــل يعمل حتى يغلبهم النعاس فلا يقوون على الجلوس .

وفى كل ليلة كان يجرب تركيبات جديدة للألوان بقيم ونسب مختلفة..
وفى كل يوم كان يرى أنه قد أخطأ وأن عمله لم يصل بعد إلى درجة الكمال

وحل اليوم الأخير فى الشهر وكان فنسنت قد عمل بجنون دون أن ينعم بقسط من النوم أو يذوق طعاماً فى معظم الأوقات . كان يعيش على طاقته العصبية وكلما فشل كلما اشتد انفعاله . وكان فى انتظار آل دى جروت عندما أقبلوا من الحقول . وكان قد نصب حامل صوره ومزج ألوانه وشد لوحته على الإطار . كانت هذه هى فرصته الأخيرة ففى الصباح كان عليه أن يرحل عن البرابانت للأبد .

وظل يعمل ساعات وفهم آل دى جروت فعندما انتهوا من تناول عشائهم ظلوا جالسين إلى المائدة وأخذ يتغنون برقة بلهجة عمال الحقول ولم يعرف فنسنت ماذا كان يصور . وكان يتعجل رسم الشىء دون تفكير أو شعور ينشأ بين يده وبين حامل صوره وكان آل دى جروت يغلبهم النعاس ويهد التعب فنسنت عندما تبلغ الساعة العاشرة بعد أن يكون قد فعل كل ما فى

طاقته باللوحة وجمع حاجياته وقبل ستين وودعهم جميعاً ، وراح يجر قدميه في ظلمة الليل . وهو لا يدرى أنه كان يسير . . وفى المرسم وضع اللوحة على أحد المقاعد وأشعل غليونه ووقف يتأمل لوحته . كان العمل كله خاطئا من أساسه ، فقد أغفل أشياء كثيرة . وكان خاليا من الروح . لقد فشل مرة أخرى وضاعت من عمره سنتان من العمل فى البرابانت ودخن غليونه حتى احترق التبغ كله ثم حزم حقيبته وجمع كل دراساته من على الحائط ومن المكتب ووضعها جميعاً فى صندوق كبير ثم ألقى بنفسه على الأريكة ولم يدركم مضى من الوقت . ثم استيقظ وانتزع اللوحة من الإطار وألقى بها فى أحد الأركان ووضع لوحة جديدة . . ثم مزج بعض الألوان وجلس وبدأ العمل . . إن المرء ليبدأ بصراع يائس لمحاكاة الطبيعة ولكن كل شيء يسير خطأ ثم ينتهى المرء بأن يبتكر فى هدوء من لوحة ألوانه ويجد أن الطبيعة تسلس له قيادها وتصبح طوع أمره . ويعتقد الناس أنى أتخيل ولكن هذا ليس صحيحا فأنا أتذكر وكان هذا بالضبط ماقاله بيترسون فى بروكسل . . لقد كان شديد الصلة بموديلاته . ولم يستطع أن يحقق المنظور . . بل كان يصب نفسه فى قالب الطبيعة أما الآن فإنه كان يصب الطبيعة فى قالب نفسه . . ورسم كل شيء بلون ثمرة البطاطس الناضجة التى لم تنزع عنها قشرتها والتى يكسوها التراب كان بها غطاء المائدة الكتانى القذر ، والحائط الملوث بالدخان . . والمصباح الذى يتدلى من عروق السقف الخشنة وستين وهى تقدم إلى والدها البطاطس المسلوقة والأم وهى تصب القهوة السوداء . . والأخ وهو يرفع قدح القهوة إلى شفتيه وعلى وجوههم جميعاً كانت ترتسم سمات الاستسلام المادئ والصبر والإذعان للنظام الذى سنته الطبيعة للأشياء منذ القدم ، وأشرقت الشمس وتسلل شعاع من النور من خلال نافذة غرفة الخزين ، ونهض فنسنت وأحس بفيض من الهدوء التام والاطمئنان وزال عنه ما كان يكابده من انفعال فى خلال الاثنى عشر يوما الماضية وتطلع إلى عمله . كانت تفوح منه رائحة لحم الخنزير والدخان

وبخار البطاطس المسلوقة وابتسم فقد رسم لوحته التى تضارع إنجليوس واهتدى إلى الشيء الذى لا يفنى فى الشيء الذى يزول وسوف يظل الفلاح الباراباتى خالداً . ونظف اللوحــــة ببياض بيضة وحمل صندوقه الذى يحوى رسومه ولوحاته إلى الأبروشية وتركها مع أمه وودعها ثم عاد إلى مرسمه وكتب على لوحته « أكلة البطاطس » ، ووضع معها بعضا من أحسن دراساته ثم انطلق إلى باريس ..

* * *

الكتاب الخامس

باريس

(١)

فى صباح اليوم التالى جلسا يتناولان طعام إفطارهما المكون من الكعك والقهوة وسأل ثيو :

ــ إذن لم يصلك خطابى الأخير ؟

فأجاب فنسنت .

ــ لا أظن ، وماذا كان به ؟

ــ أخبار ارتقائى لمنصب مدير قاعة جوبيل .

ــ حقاً ياثيو ، ولكنك لم تحدثنى أمس عن هذا بكلمة واحدة .

ــ لقد كنت بالغ الانفعال فلم تع ماقلت . إنى مكلف بإدارة قاعة الفنون فى بوليفار مونمارتر .

ــ هذا رائع ياثيو ! ما أجمل أن تكون مطلق التصرف فى قاعة للفنون!

ــ ولكنى لست كذلك حقاً يا فنسنت فعلى أن أسير على سياسة آل جوبيل ولا أحيد عنها ولكنهم سمحوا لى بتعليق لوحات «الانطباعيين» فى الطابق الأرضى ولهذا . . .

ــ ولمن منهم تعرض ؟

ــ مونيه وديجا وبيسارو ومانيه .

ــ لم أسمع عنهم قط من قبل .

ــ إذن نخير لك أن تأتى معى إلى قاعة الفنون وتلقى على ما فيها نظرة طويلة ؟

ــ ترى ما معنى هذه الابتسامة الماكرة التى ترتسم على شفتيك ياثيو ؟

ــ أوه لاشئ . أتريد مزيداً من القهوة ؟ يجب أن ننصرف بعد بضع دقائق فقد تعودت الذهاب إلى المحل سيراً على الأقدام كل صباح .

— شكراً .. لا لا نصف قدح فقط . تبا لك ياثيو ! ولكم يسرني أن أتناول طعام الافطار على مائدتك مرة أخرى !

— كنت أترقب قدومك إلى باريس منذ وقت طويل وكان لابد أن تاتى أخيراً بالطبع وإن كنت أعتقد أنه كان يحسن بك لو انتظرت حتى حلول شهر يونيه عندما أنتقل إلى مسكنى فى شارع لبيك المكون من ثلاث حجرات وأظن أنه ليس لديك هنا مايشغلك .

فاستدار فنسنت فى مقعده وأخذ يتطلع حوله . وكانت شقة ثيو مكونة من حجرة واحدة ومطبخ صغير وغرفة صغيرة وكانت الحجرة مفروشة بأثاث جميل أصيل من طراز لويس فيليب ولكن لم يكن فيها من الفراغ ما يسمح بالحركة وقال فنسنت :

— لعمرى لو وضعت حاملا للرسم فسوف نضطر إلى نقل بعض القطع من أثاثك الجميل إلى فناء الدار .

— أعلم أن المكان مزدحم ولكن الفرصة سنحت لى لشراء هذه القطع فى إحدى الصفقات الرابحة وهى ما أنا فى حاجة إليه بالضبط لتأثيث الشقة الجديدة . هيا بنا يافنسنت فسوف أصحبك معى فى نزهتى المفضلة أسفل التل إلى البوليفار . وإنك لن تعرف باريس إلا إذا تنسمت عبيرها فى الصباح الباكر . وارتدى ثيو معطفه الأسود الثقيل وكان يرتفع إلى ماتحت رباط رقبته الناصع البياض وأجرى الفرشاة لآخر مرة على خصلات شعره الصغيرة التى عقصها على جانبى مفرق رأسه ثم قام بتسوية شعرات شاربه ولحيته الناعمة ووضع على رأسه قبعة سوداء صلبة القوام (بولر) وتناول قفازيه وعصاه ثم انطلق إلى الشارع .

— حسناً يا فنسنت هل أنت على استعداد ؟ يا إلهى ! ما أبشع منظرك! قد تستطيع ارتداء هذا الزى فى أى مكان آخر ولكنك لو سرت به فى باريس لقبضوا عليك .

فتطلع فنسنت إلى نفسه وقال :

— وماذا به من عيب ؟ لقد كنت أرتديه طوال العامين الماضيين تقريباً ولم يقل أحد عنه شيئاً .

فضحك ثيو وقال :

— لا بأس لقد اعتاد الباريسيون على رؤية أمثالك من الناس وعند ما تغلق قاعة الفنون أبوابها سأحصل لك على بعض الملابس

وانطلقا يهبطان سلماً ملتوى الدرجات ومرا بغرفة الحارسة وعبرا الباب إلى شارع لافال وهو شارع واسع جداً يقع فى حى تجارى وبه مخازن كبيرة لبيع العقاقير وإطارات الصور والقطع الأثرية . وقال ثيو :

— تأمل هؤلاء السيدات الثلاثة الجميلات فى الطابق الثالث من عمارتنا .

فتطلع فنسنت إلى أعلى ورأى ثلاثة رءوس ركبت فوق ثلاثة صدور من القميص وكتب تحت الأولى كلمة «نحت» وتحت الوسطى كلمة «عمارة» وتحت الثالثة كلمة «تصوير» فقال :

— ما الذى دفعهم إلى الاعتقاد بأن فن التصوير تمثله جارية قبيحة ؟

فأجاب ثيو :

— لا أدرى ولكنك على أية حال أصبت كبد الحقيقة

ومر الرجلان بمحال العاديات فى لفييه روين حيث اشترى ثيو أثاثه من طراز لويس فيليب وبعد لحظة وصلا إلى شارع مونمارتر وكان يلتوى فى رشاقة لأعلى التل إلى طريق كليشى وتل مونمارتر وجنوب التل إلى قلب المدينة وكان الشارع تغمره أشعة الشمس وتفوح فيه رائحة باريس وهى تنهض من سباتها وترى فيه الناس يأكلون كعك «الكرواسان» ويرتشفون القهوة فى المشارب وتشهد فيه حوانيت الخضراوات واللحوم والجبن ، وهى تفتح أبوابها لمزاولة تجارتها اليومية .

كان قطاعاً بورجوازياً حافلا بالمخازن الصغيرة وكان العمال يسيرون فى وسط الشارع وربات البيوت يقلبن البضائع فى الصناديق أمام المحلات ويساومن التجار فى تذمر . وتنفس فنسنت بعمق ثم قال :

— ها هى باريس بعد أن غبت عنها كل هذه السنين .

— نعم ، إنها باريس عاصمة أوربا ولا سيما لفنان .

وبهر فنسنت تدفق الحياة على سفح التل فها هم الندل بستراتهم المخططة بخطوط حمراء وسوداء متتالية وها هن ربات البيوت يحملن أرغفة الخبز تحت أذرعهن وهى مكشوفة للأبصار وها هى عربات اليد على حافة الطريق وها هن الوصيفات فى خفاف لينة وها هم رجال الأعمال الناجحون فى طريقهم للعمل .

وبعد أن مروا بمحلات لا تحصى للجزارة والحلوى والخبز وغسل الثياب والمقاهى الصغيرة انحنى شارع مونمارتر إلى وسط التل ثم انحدر إلى ميدان شاتودن وكان على شكل دائرة غير كاملة تكونت من التقاء ست شوارع ، ثم عبرا الميدان ومرا بنوتردام دى لوريت وهى كنيسة مربعة مبنية بالحجر الأسود وعلى سطحها ثلاث تماثيل للملائكة تسبح فى رقة فى السموات العلا وتطلع فنسنت إلى ما هو مكتوب على الباب . وقال :

— هل يقصدون بها يا ثيو الحرية والمساواة والإخاء ؟

— أعتقد هذا وقد تعمر الجمهورية الثالثة طويلا إذ إن أنصار الملكية فى حكم الموتى وسوف يتسلم الاشتراكيون مقاعد الحكم وقد قال لى إميل زولا بالأمس إن الثورة القادمة ستكون ضـــد الرأسمالية وليست ضد الملكية .

— زولا ! جميل منك أن تعرفه يا ثيو .

— لقد قدمنى له بول سيزان ونحن نجتمع كلنا فى مقهى « باتينيول » مرة كل أسبوع وسوف أصحبك معى إلى هناك فى المرة القادمة .

وبعد أن غادرا ميدان «شاتوون» فقد شارع مونمارتر طابعه البورجوازى واتسم بمظهر أكثر جلالا وغدت الحوانيت أكبر حجماً والمقاهى أفخر مما كانت والناس أحسن زياً والمبانى أبهى منظراً وكانت الممرات الجانبية تزخر بقاعات الموسيقى وكانت الفنادق تضفى منظراً بهيجاً وحلت عربات الركوب محل عربات البضائع .

وسار الأخوان فى خطى نشطة وأخذت أشعة الشمس الضعيفة تشتد وكانت رائحة الهواء توحى بعيشة الثراء والحيـــاة المعقدة التى يحياها سكان المدينة .

وقال ثيو:

— بما أنك لا تستطيع العمل فى البيت فإنى أقترح عليك أن تذهب إلى أستديو كورمان .

— ومن هو ؟

— حسناً، إن كورمان من أنصار المدرسة الأكاديمية كمعظم الأساتذة، وإذا لم تتقبل نقده فإنه سيتخلى عنك

— وهل هذا يكلفنى كثيراً ؟

فربت ثيو على فخذ فنسنت بعصاه وقال :

— ألم أقل لك إنى رقيت وسوف أصبح واحداً من هؤلاء السراة الذين ينوى زولا أن يطيح بهم فى ثورته القادمة !

وأخيراً انتهى شارع مونمارتر إلى بوليفار مونمارتر الواسع الفخم بمخازنه الكبيرة وطرقه المسقوفة ومحلاته الغالية .

وكان البوليفار — الذى أصبح بوليفار الطليان والذى يؤدى إلى ميدان

الاوبرا بعد مسير بضعة مبانٍ — أم شارع عمومى فى المدينة ورغم خلو الشارع فى هذه الساعة من الصباح فإن الموظفين كانوا يتأهبون داخل المخازن لمواجهة يومهم الحافل بالعمل . وكان الفرع الذى يديره ثيو من محلات جوبلز يشغل رقم ١٩ بعد مسير بضع مبانى من يمين شارع مونمارتر . وعبر فنسنت وثيو الشارع العريض وتوقفا بجانب مصباح غازى فى الوسط حتى تمر بهما عربة ثم استأنفا سيرهما إلى قاعة الفنون .

وانحنى الموظفون فى ملابسهم الأنيقة لثيو وهو يسير فى بهو قاعة الفنون وتذكر فنسنت كيف كان ينحنى لتيرستيج وأوباخ عندما كان يعمل كاتبا وكان الهواء عاطراً بأريج الثقافة الرفيعة ، وهو عطر ظن أن أنفه قد نسيه وعلى جدران البهو رأى لوحات لبوروجير و وهينر وديلاروش وفوق الصالون الرئيسى كانت هناك شرفة صغيرة يؤدى إليها سلم خلفى وقال ثيو :

— إن اللوحات التى تريد أن تراها فى الطابق الأسفل وحالما تنتهى من مشاهدتها تعال وأخبرنى برأيك فيها .

— لماذا تلعق شفتيك يا ثيو ؟

فابتسم ثيو ابتسامة عريضة وقال « إلى الملتقى » واختفى فى مكتبه

* * *

(٢)

— هل أنا فى مستشفى للمجانين؟

وتعثر فنسنت وهو يسير مغمض العينين إلى المقعد الوحيد فى الطابق الأرضى وجلس وهو يفرك عينيه . لقد اعتاد منذ بلغ الثانية عشرة من عمره أن يرى لوحات قاتمة مظلمة ، لا تكاد ترى فيها لمسات الفرشاة وكل التفاصيل فيها صحيحة وكاملة وألوانها المستوية تتداخل فى بعضها أما هذه اللوحات التى تضحك له وهى تطل من الجدران فى مرح فلم تكن تشبه أية لوحات سبق له أن رآها أو حلم برؤياها . لقد دالت إلى غير رجعة المسطحات المستوية الرفيعة والعاطفة الرصينة ومزيج الألوان السمراء التى اعتادت أوربا أن تغرق بها لوحاتها منذ مئات السنين وهاهى لوحات يغمرها ضوء الشمس وتفيض بالضوء والهواء وتتدفق بالحيوية ، لوحات لراقصات الباليه خلف المسرح نفذت بألوان بدائية حمراء وخضراء وزرقاء نثرت بلامبالاة بجانب بعضها . وتطلع إلى التوقيع وكان ديجا .

وكانت هناك مجموعة من المناظر الخلوية على شاطىء النهر صور فيها لون منتصف الصيف بنضرته العظيمة وشمسه المحرقة وهى تتوسط كبد السماء وكانت لمونيه .

ولم ير فنسنت بين مئات اللوحات التى كان قد شاهدها مثيلا لهذه اللوحات المتألقة التى يغمرها الضوء ويتخللها الهواء ويفوح شذاها العطر وكان أشد الألوان قتامة بين الألوان التى استخدمها مونيه أخف اثنى عشر مرة من أفتح لون رآه فى كل متاحف هولندا وكانت لمسات الفرشاة جريئة وكل ضربة منها واضحة وكل لمسة تنسجم مع إيقاع الطبيعة وكان سطح اللوحات مغطى بطبقة كثيفة من الطلاء الثمين .

ووقف فنسنت أمام صورة لرجل يرتدى فانلة صوفية ويمسك بدفة قارب صغير فى استغراق شديد يتميز به الرجل الفرنسى الذى يستمتع

بأجازته بعد ظهر يوم الأحد وجلست بجانبه زوجته فى استسلام . وتطلع فنسنت إلى اسم الفنان وقال بصوت عال :

— مونيه أيضاً ؟ هذا غريب ، فليس ثمة تشابه بينها وبين مناظره الحلوية .

وتطلع مرة أخرى وأدرك أنه كان على خطأ ... فقد كان مانيه وليس مونيه . وتذكر قصة لوحتى مانيه «نزهة على الحشائش» و «أوليمبيا» وكيف اضطر رجال الشرطة إلى إحاطتهما بالحبال لمنع الناس من تمزيقهما بالمدى والبصق عليهما ولم يعرف لماذا كانت لوحات مانيه تذكره بمؤلفات إميل زولا إذ يبدو فيها نفس التطلع الشديد إلى استجلاء الحقيقة وتوقد الذهن والجرأة والإحساس بأن الخلق هو الجمال ولا يهم إن كان يبدو وضيعا ، وأخذ يدرس التنفيذ الفنى (التكنيك) عن قرب ورأى أن مانيه وضع الألوان الأساسية أحدها وراء الآخر دون مراعاة للتدرج وانه أغفل الكثير من التفاصيل ولم يعرف أين تنتهى تماما الألوان والخطوط والضوء والظلال فقد كانت تتداخل فى بعضها .

وقال فنسنت :

— تماما كما تراها العين وهى تتذبذب فى الطبيعة .

وسمع صوت موف يثقب أذنيه قائلا :

— ألا يمكنك أن تستقر على طريقة معينة فى رسم الخطوط يافنسنت ؟

وجلس مرة أخرى وأغرق فى التفكير فى اللوحات وبعد برهة فطن إلى إحدى الوسائل البسيطة التى أحدثت ثورة كاملة فى فن التصوير فهؤلاء المصورون جسموا الهواء فى لوحاتهم هذا الهواء الملىء بالحيوية والحركة أعنى شيئا ما على المناظر التى كانت تشاهد فيها ! وأدرك فنسنت أن لوحات أنصار المدرسة الأكاديمية خلت من الهواء وكانت مجرد فراغ أبيض ملأوه بأشياء جامدة .

ولكن ما أغرب هؤلاء الرجال الجـــدد ! لقد اكتشفوا الهواء ! اكتشفوا الضوء والحياة والجو والشمس ورأوا الأشياء تترشح بفعل الطاقات التى لا حصر لها والتى تعيش فى هذا الفيض الدافق .

وأدرك فنسنت أن فن التصوير لن يكون كما عرفه من قبل وأن آلات التصوير وأنصار المدرسة الأكاديمية قد ينقلون نسخاً طبق الأصل أما المصورون فسوف يرون كل شىء مصفى حسب طبيعتهم والشمس تغمر بالضوء والهواء الذى يعملون فيه . وبدا له كما لو كان هؤلاء الرجال قد ابتدعوا فناً جديداً .

وعاد وهو يتعثر فى المقاعد وكان ثيو فى البهو الرئيسى وقد التفت له والابتسامة تداعب شفتيه وأخذ يتطلع إلى وجه شقيقه فى لهفة وقال :

— حسناً يافنسنت ؟

فشهق فنسنت وقال :

— أواه ياثيو !

وحاول الكلام ولكنه لم يستطع واندفع إلى الطابق الأسفل ثم استدار وبادر بالخروج من قاعة الفنون .

وسار فى الشارع العريض حتى وصل إلى مبنى مثمن الأضلاع عرف فيه دار الأوبرا ولمح بين المبانى الحجرية قنطرة فانطلق إليها وانزلق إلى حافة الماء وغمس أصابعه فى السين ثم عبر القنطرة دون أن يلقى نظرة واحدة على تماثيل الفرسان البرنزية وشق طريقه إلى الشوارع التى لا عهد له بها والتى على الشاطىء الأيسر وأخذ يسير صعداً فى ثبات ومر بمقبرة ثم استدار إلى اليمين ووصل إلى محطة كبيرة للسكك الحديدية ونسى أنه كان قد عبر نهر السين فسأل شرطيا أن يدله على شارع لافال فقال له الشرطى :

— شارع لافال ؟ إنك يا سيدى لا تسير فى الجانب الصحيح فهذه

مونبارناس وينبغى أن تهبط التل وتعبر نهر السين ثم تصعد مرة أخرى إلى مونمارتر .

وأخذ فنسنت يسير على غير هدى فى شوارع باريس دون أن يهتم إلى أين تقوده قدماه ومر بشوارع عريضة نظيفة بها حوانيت فخمة ثم بأزقة وضيعة قذرة ثم انتهى إلى شوارع بورجوازية غصت على جانبيها بصفوف لا نهاية لها من حانات النبيذ ومرة أخرى وجد نفسه على قمة تل أقيم فوقه قوس نصر وكان يطل من الشرق على شارع تحف بجانبيه أشجار وتحيط به منتزهات تشغل رقعا ضيقة وينتهى بميدان فسيح فى وسطه مسلة مصرية ثم لمح فى الغرب غابة واسعة .

وفى ساعة متأخرة من عصر اليوم عثر على شارع لافال . وكان الألم الذى يعتصره قد خدر إحساسه بالتعب كله وانطلق مباشرة إلى حيث حزم لوحاته وصوره التخطيطية للدراسة ونشرها كلها فوق الأرض وحملق فى لوحاته ربااه ! كم هى قاتمة وكئيبة ! كم هى ثقيلة لا حياة فيها فقد كان يرسم كما لو كان يعيش فى قرن غابر ولم يدرك هذا .

وعاد ثيو إلى المنزل عند الغسق فوجد فنسنت جالسا على الأرض فى خمول فركع بجانب شقيقه وكانت خيوط النهار الأخيرة تتلاشى من الحجرة وأخلد ثيو للصمت قليلا ثم قال :

— إنى أدرك إحساسك يا فنسنت فقد ذهلت لروعة ما رأيت أليس كذلك ؟ لقد نبذنا تقريباً كل شىء مقدس فى عرف فن التصوير .

وتلاقت عينا فنسنت الصغيرتين فى ألم بعينى ثيو وقال :

— لم لم تقل لى ياثيو ؟ ولم لم أعرف ؟ لماذا لم تأت بى إلى هنا من قبل ؟ لقد تركتنى أضيع سدى ست سنوات طوال من عمرى .

— أتقول أضعتها ؟ هذا هراء . لقد صقلت فيها موهبتك الفنية وها أنت

ترسم بأسلوب فنسنت فان جوخ لا بأسلوب أى شخص آخر فى العالم ولأنك جئت إلى هنا قبل أن يتبلور أسلوبك الخاص فى التعبير اصهرتك باريس فى بوتقتها .

— ولكن ماذا عساى أن أصنع ؟ انظر إلى هذه النفايات !

وركل بقدمه لوحة كبيرة قاتمة الألوان وقال :

— إنها لا حياة فيها ياثيو ولا تساوى شيئاً .

— اتسألنى ماذا أنت صانع؟ سأقول لك . ينبغى أن تتعلم كيفية استخدام الضوء واللون من الانطباعيين وأن تقتبس منهم قدر ما تستطيع ولا شىء أكثر من هذا إذ يجب ألا تقلدهم واحرص ألا يكتسحك الطوفان ولا تدع باريس تغرقك .

— ولكن يجب أن أتعلم كل شىء من جديد ياثيو فكل ما أفعله خطأ .

— بل إنك مصيب فى كل ما تفعل ماعدا معالجتك للضوء واللون فأنت مصور انطباعى منذ أمسكت بالقلم فى البوريناج — انظر إلى رسمك ! وتأمل لمسات فرجونك ! لم يرسم أحد قط بمثل هذا الأسلوب قبل مانيه . تأمل خطوطك ! إنك لا ترسم أبدا خطا واضحا محددا . انظر إلى ما رسمته من وجوه وأشجار وأشكال فى الحقول إنها انطباعاتك وهى فجة لم تكتمل بعد ولكن تنضح بشخصيتك وهذا معناه أنك انطباعى لأنك لا ترسم بأسلوب شخص آخر سواك ولا تقيد نفسك بالقواعد والتعليمات وأنت يافنسنت واحد من أبناء هذا الجيل وأنت انطباعى سواء كرهت أو رضيت .

— أواه ياثيو كم أحب هذا !

— إن أعمالك معروفة بين المصورين الشبان الذين يوثق بهم . أوه لا أقصد هؤلاء الذين تباع لوحاتهم بل أقصد هؤلاء الذين يقومون بالتجارب الهامة وهم يتوقون إلى التعرف بك ولا شك أنك ستتعلم منهم أشياء رائعة .

— وهل يعرفون أعمالى ؟ أيعرف الانطباعيون الشبان أعمالى ؟

وركع فنسنت على قدميه حتى يستطيع أن يرى ثيو بوضوح وفكر ثيو فى الأيام الخالية فى زندرت عندما كانا يلهوان معاً على أرض حجرة الأطفال وقال :

— نعم بالتأكيد . ماذا ظننت أنى كنت أفعل فى باريس كل هـــذه السنين ؟

إنهم يعتقدون أن لك عينا نفاذة وأصابع فنان ماهر وكل ما يلزمك أن تفعله الآن هو أن تخفف من ألوانك وأن تتعلم كيف تصور الهواء بحيويته المتألقة . أليس رائعاً يافنسنت أن نعيش حتى نشهد حدوث مثل هذه الأشياء الهامة ؟

— ويحك يا ثيو أيها الشيطان العجوز . ويحك أيها الشيطان العجوز الكبير !

— هيا وانهض على قدميك يافنسنت وهون عليك . لنرتد ملابسنا ونذهب لتناول طعام العشاء وأصحبك إلى مطعم افيفرسل وهم يقدمون فى باريس أشهى انواع الشاتوبريان . ولسوف أقيم لك مأدبة حقيقية وأقدم لك فيها يابنى زجاجة من الشمبانيا احتفالا باليوم العظيم الذى انضم فيه فنسنت فان جوخ إلى سكان باريس !

* * *

(٣)

وفى صباح اليوم التالى أخذ فنسنت أدوات الرسم وانطلق إلى استوديو كورمان وكان عبارة عن حجرة واسعة فى الطابق الثالث يغمرها ضوء قوى ينفذ إليها من الشارع وفى أحد طرفيها كان يقف رجل عار كموديل فى مواجهة الباب وتناثر فيها ما يقرب من ثلاثين مقعداً وحاملا خصصت للطلبة وقيد فنسنت اسمه بين طلبة كورمان وخصص له حامل للرسم وظل يرسم زهاء الساعة فتح بعدها باب الصالة ودلفت منه امرأة كانت تعصب رأسها وتمسك بيدها فكها فألقت على الموديل العارى نظرة رعب ثم صاحت « يا إلهى » وانطلقت تجرى . واستدار فنسنت إلى رجل كان يجلس بجانبه وقال :

— ترى ماذا أصابها ؟

— أوه هذا يحدث كل يوم فقد كانت تبغى عيادة جارنا طبيب الأسنان وعادة تكفى الصدمة التى تصيبهن من رؤية رجل عار لشفاء آلام أسنانهن ولعمرى إذا لم ينتقل طبيب الأسنان فإن مصيره الإفلاس . إنك طالب مستجد ، أليس كذلك ؟

— بلى وهذا ثالث يوم لى فى باريس .

— وما اسمك ؟

— فان جوخ .

— وما اسمك أنت ؟

— هنرى تولوز لوتريك . أتمت بصلة القربى لثيو فان جوخ ؟

— إنه أخى .

— إذن فلا بد أنك فنسنت ! حسناً ، يسرنى أن أتعرف بك فإن أخاك خير من يتعامل مع الفنانين فى باريس وهو الوحيد الذى يتيح للشبان فرصة الظهور وهو لا يفعل هذا فحسب بل يكافح من أجلنا وإذا كان جمهور

باريس قد رحب بنا فإن الفضل فى هذا يرجع إلى ثيو فان جوخ وكلنا نعتقد أنه لطيف جداً .

— وهذا ما أعتقده أنا أيضاً .

وتطلع فنسنت إلى الرجل باهتمام وكانت للوتريك رأس مفلطحة وكانت تقاطيع وجهه وأنفه وشفتاه وذقنه بارزة عن رأسه المفلطحة وكانت له لحية سوداء تهز بعيداً عن ذقنه بدلا من أن تنمو لأسفل وسأل لوتريك .

— ماذا يدعوك إلى أن تغشى مكانا كريها كاستوديو كورمان ؟

— لابد لى من مكان أرسم فيه . لم تفعل أنت هذا ؟

— أكون ملعونا لو عرفت . . لقد عشت طوال الشهر الماضى فى ماخور فى مونمارتر ورسمت صوراً شخصية للفتيات وهذا كان فى نظرى عملا يستحق الذكر أما الرسم فى استوديو فهو عبث أطفال .

— بودى أن أرى دراساتك لهؤلاء السيدات .

— حقاً ؟

— بلا شك ولم لا ؟

— لأن معظم الناس يعتقدون أنى مجنون بسبب تصويرى للراقصات والمهرجين والعاهرات ولكنك تجد فى هؤلاء الطابع الأصيل .

— أعلم هذا فقد تزوجت واحدة فى لاهاى .

— حسناً ! إن كل أفراد عائلة فان جوخ على حق ! اسمح لى بأن أرى رسمك التخطيطى (الاسكتش) للموديل ، أتسمح لى ؟

— خذها كلها . لقد رسمت أربعة .

فتطلع لوتريك بضع لحظات إلى الرسوم التخطيطية ثم قال :

— أرى أننا سنتفق معا يا صديقى فنحن نفكر بأسلوب واحد . هل رأى كورمان هذه الرسوم التخطيطية ؟

ــ لا .

ــ عندما يراها سيكون هذا آخر عهدك بهذا المكان وسوف تكون هدفا لسهام نقده لقد قال لى أمس « إنك تبالغ يا لوتريك . أنت تبالغ دائماً فى كل دراساتك خط واحد من الرسم الهزلى (الكاريكاتير) .

وقد أجبته هذا ليس رسما هزليا يا عزيزى كورمان بل طابع مميز .

فلمعت عينا لوتريك السوداوان الضيقتان وقال :

ــ ألا زلت ترغب فى رؤية هذه الصور الشخصية التى رسمتها لفتياتى ؟

ــ بلى بالتأكيد .

كان للوتريك عنق غليظة مكتنزة وكتفان عريضتان وعندما نهض على قدميه رأى فنسنت أن صديقه الجديد كان كسيحا وكان لوتريك وهو واقف لا يزيد طولا عنه وهو جالس وكان جذعه البدين يرتكز على رأس مثلث عند وسطه ثم ينحدر بشدة ليرتكز على ساقيه الصغيرتين العاجزتين .

وسارا فى بوليفار كليش وكان لوتريك يستند بشدة على عصاه ويتوقف بين هنيهة وأخرى ليلتقط أنفاسه وبعد مسير بجموعة من المبانى فى هذا الجانب من المولان روج استدارا ليصعدا التل نحو البوت مونمارتر وكان لوتريك يتوقف راغما للراحة من آن لآخر وقال :

ــ لعلك تعجب ما إذا أصاب ساقى يافان جوخ ولعمرى إن كل واحد ليتساءل عن هذا . حسناً سأخبرك .

ــ أرجوك . لاداعى لأن تحدثنى عن هذا .

ــ ولكن يجب أن تعرف .

واتكأ على عصاه واستند إليها بكتفيه ثم استأنف قائلا :

ــ لقد ولدت وأنا مصاب بلين العظام وفى الثانية عشرة من عمرى

انزلقت قدمى على أرض صلبة للرقص فكسرت عظام فخذى الأيمن وفى العام التالى سقطت فى حفرة فكسرت ساقى اليسرى ومنذ ذلك الحين لم تنم ساقى بوصة واحدة .

— وهل أنت تعس لهذا ؟

— كلا فلو كنت طبيعيا كأترابى لما استطعت أن أكون مصوراً فوالدى هو الكونت دى تولوز وأنا ثانى إخوتى فى وراثة اللقب ولو شئت لكان فى وسعى الحصول على عصا الماريشالية ولركبت بجانب ملك فرنسا إن كان هناك ملك لفرنسا ولكن بالله لماذا يرضى المرء أن يكون كونتا بينما يستطيع أن يصبح مصوراً ؟

— هذا حق وأخشى أن أقول إن أيام الكونتات قد ولت .

— لنستأنف سيرنا فاستوديو ديجا فى نهاية هذا الطريق . يقولون إنى أقلد أعماله لأنه يرسم راقصات الباليه وأنا أصور فتيات ملهى المولان روج فليقولوا ما يحلو لهم . هاهو مسكنى فى شارع فونتين رقم ١٩ مكرر وأنا أقطن فى الطابق الأرضى كما لعلك حزرت .

ودفع الباب ليفتحه وأومأ لفنسنت بالدخول وقال :

— إنى أعيش بمفردى . اجلس إذا استطعت أن تجد مكانا صالحا للجلوس .

وتطلع فنسنت حوله وإلى جانب اللوحات والأطارات وحاملات التصوير والمقاعد الخالية من المساند والسلالم المتحركة والستائر رأى منضدتين كبيرتين تزحمان الاستوديو وكانت إحداهما محملة بزجاجات ملئت بالأنبذة النادرة وقنينات ملئت بسوائل متعددة الألوان وعلى المنضدة الأخرى تكومت أحذية للراقصات وباروكات للرأس وكتب قديمة وملابس للسيدات وقفازات وجوارب وصور مبتذلة ورسوم يابانية ثمينة ولم يكن هناك وسط هذه الفوضى الضاربة مكان رحب يستطيع أن يجلس فيه لوتريك ليصور وقال :

— ماذا بك يافان جوخ ؟ ألا تستطيع أن تجد لك مكانا تجلس فيه ؟ ماعليك إلا أن تدفع ماعلى الأرض من سقط المتاع و تأتى بالمقعد إلى النافذة . هنا نام سبع وعشرون فتاة ولقد بت مع كل واحدة منهن . ألا توافقنى على أنه من الضرورى أن تبيت مع امرأة حتى تفهمها تماماً ؟

— أجل .

— هاهى الرسوم التخطيطية . لقد أخذتها إلى تاجر فى الكابوسين فقال « لماذا تصر على رسم هذا القبح يالوتريك ؟ لماذا تصور دائماً أحط من تقابلهم من الناس وأشدهم خسة ؟ فهؤلاء النسوة من المنبوذات اللائى لفظهن المجتمع وعلى وجوههن ترتسم آثار التبذل والانغماس فى الرذيلة فهل يعنى الفن الحديث أن تبدع شيئاً قبيحاً ؟ هل عميتم أيها المصورون عن الجمال فلم تعودوا ترسمون سوى حثالة الناس؟

فقلت له « عفوا ولكن أعتقد أنى سأصاب بالغثيان ولا أحب أن ألوث سجادتك الجميلة » . هل الإضاءة كافية يافان جوخ ؟ أتريد بعض الشراب ؟ قل ماذا تفضل ؟ فلدى كل ما يمكن أن تكون فى حاجة إليه .

وسار وهو يتطلع بين المقاعد والمناضد والستائر فى حركات رشيقة ثم صب كأسا من الشراب وقدمه إلى فنسنت وصاح قائلا :

— نخب القبح يافان جوخ وأرجو ألا تصيبك الأكاديمية بالعدوى !

واحتسى فنسنت شرابه وأخذ يدرس الرسوم التخطيطية السبعة والعشرين التى رسمها لوتريك لفتيات أحد ملاهى مونمارتر وأدرك أن الفنان قد صورهن كما رآهن فقد كانت صوراً شخصية موضوعية لم يراع فيها قواعد السلوك الأدبى ولم يأبه فيها بأى تأويل أخلاقى وشاهد التعاسة والألم وتبلد الإحساس والخسة الدنيئة والبعد عن كل الصفات الروحية وقد ارتسمت بجلاء على وجوه الفتيات وسأله :

— هل تحب الصور الشخصية للفلاحات يا لوتريك ؟

— نعم إذا كانت لا تفيض بالعاطفة .

— حسناً إنى أرسم فلاحات وإنه ليروعنى أن هؤلاء السيدات أيضاً من الفلاحات وتنطق صورهن بمتاجرتهن فى أجسادهن . أليست الأرض والجسد شكلين مختلفين لنفس المادة ؟ وهؤلاء السيدات . إنهن يكتنزن اللحم ، ذلك اللحم البشرى الذى ينبغى أن يرعينه لينبض بالحياة . لعمرى هذا عمل رائع يالوتريك . لقد فعلت شيئاً يستحق أن يذكر بالحمد والثناء .

— ألا ترى أنهن قبيحات ؟

— بل إنها أصدق صور انتقادية لحياتنا وهذا فى نظرى أرقى أنواع الجمال . ألا تظن هذا ؟ ولعمرى لو عمدت إلى رسم صور مثالية للسيدات تفيض بالعاطفة لأخرجت لنا صوراً قبيحة لأن صورك الشخصية ستكون دنيئة وزائفة ولكنك صورت الحقيقة كاملة كما رأيتها وهذا هو معنى الجمال ، أليس كذلك ؟

— رباه ! لم لا يكون فى العالم الكثير من أمثالك ؟ تفضل واشرب كأساً آخر !

وخذ من هذه الرسوم التخطيطية ما تشاء ! تخير منها ما يروقك !
فرفع فنسنت لوحة أمام الضوء وتمعن فيها لحظة ثم صاح قائلا :
« دوميه ! هذا هو من تذكرنى به » .
فأشرق وجه لوتريك وقال :

— نعم إنه دوميه — أعظمهم على الإطلاق والشخص الوحيد الذى تعلمت منه شيئاً . رباه شد ما أمقت هذا الرجل !

— ولكن لماذا تصور أشياء تكرهها ؟ إنى لا أرسم إلا الأشياء التى أحبها .

— إن أعظم فن ينبع من الكراهية يافان جوخ . آه ! أرى أنك معجب بلوحة جوجان .

— ماذا قلت ؟ لمن هذه اللوحة ؟

— لبول جوجان . أتعرفه ؟

— كلا .

— إذن يجب أن تتعرف به . هذه اللوحة لسيدة وطنية من المارتنيك وقد عاش جوجان هناك فترة وهو يحب إلى درجة الجنون رسم الموضوعات البدائية ولكنه مصور عظيم وله زوجة وثلاثة أولاد ويشغل وظيفة فى بورصة العقود تدر عليه دخلا سنوياً قدره ثلاثون ألفا من الفرنكات ، وقد اشترى لوحات من بيسارو ومانيه وسيسلى بما يساوى خمسة عشر ألفاً من الفرنكات ورسم صورة شخصية لزوجته فى يوم زفافهما وقد اعتقدت أنها الفتة جميلة منه واعتاد جوجان أن يرسم فى أيام الآحاد . هل تعرف نادى بورصة العقود للفنون ؟ لقد عرض مرة صورة على مانيه فقال له إنها رائعة جداً فأجاب جوجان « أوه . ولكن لست إلا أحد الهواة » فقال مانيه « لا فليس بين المصورين هواة اللهم إلا هؤلاء الذين يرسمون صوراً قبيحة » وكان لهذه الملاحظة مفعول الخمر فأدارت رأس جوجان ولم يرسم منذ ذلك الحين إلا وهو مخمور وتخلى عن وظيفته فى البورصة وعاش عاماً فى روين هو وأسرته على مدخراته ثم أرسل بزوجته وأطفاله إلى بيت والدها فى استكهولم ومنذ ذلك الحين يعيش وهو فاقد الإدراك .

— يبدو أنه لطيف المعشر .

— ولكن ينبغى أن تكون حريصاً عندما تراه إذ إنه يتلذذ بتعذيب أصدقائه . ما رأيك يا فان جوخ فى أن تسمح لى بأن أصحبك لرؤية المولان روج والآليزيه مونمارتر ؟ إنى أعرف كل الفتيات هناك . أتعشق النساء يا فان جوخ ؟ أقصد أتحب أن تبيت معهن ؟ أما أنا فأعشقهن فما رأيك فى أن نقضى ليلة يوما ما ؟

— لا مانع .

— رائع . أعتقد أنه آن لنا أن نعود لاستوديو كورمان . مارأيك في قليل من الشراب قبل أن نذهب ؟ إليك الآن كأسا آخر لتفرغ الزجاجة . احترس وإلا قلبت هذه المنضدة . لا بأس فسوف تتكفل الخادمة برفع كل هذه النفايات وإنى أعتقد أنى ساضطر إلى الانتقال من هنا قريباً جداً . إنى فى رغد من العيش يافان جوخ فوالدى يخشى أن ألعنه لأنه أنجب كسيحا مثلى ولذا فإنه يعطينى كل ما أطلبه ، وأنا لا أجد معى سوى لوحاتى عند ما أنتقل من مكان وأستأجر لى استوديو خاليا ثم أشترى الأشياء واحدة واحدة . وعندما أضيق به ذرعا أنتقل منه مرة أخرى . وبهذه المناسبة أى نوع تفضل من النساء ؟ الشقراوات أم ذوات الشعر الأحمر ؟ لا تهتم بالإغراء . تأمل كيف تنساب هذه السقوف المعدنية إلى بوليفار كليش كأنها محيط أسود . أوه يا للجحيم ! لا داعى لأن أتظاهر أمامك بهذا فأنا أستند على هذه العصا وأشير إلى المناظر الجميلة لأن الله خلقنى عاجزاً ولا أستطيع السير أكثر من بضع خطوات فى كل مرة ! لا بأس فكلنا عاجزون فى ناحية ما . هيا بنا .

* * *

(٤)

وبدا له الأمر سهلا فكل ماعليه أن يعمله هو أن يلقى بلوحة ألوانه القديمة ويشترى بعض الألوان الفاتحة ويصور كأى انطباعى . وما إن انتهى أول يوم من هذه التجربة حتى دهش فنسنت وثار قليلا وفى نهاية اليوم الثانى تملكته الحيرة وتناوبته مشاعر الحزن والغضب والخوف وفى نهاية الأسبوع كان فى أشد حالات الحنق والغضب فبعد أن أمضى شهوراً مضنية فى تجاربه مع الألوان اكتشف أنه ما يزال فى بداية الطريق فقد كانت لوحاته قاتمة كئيبة وألوانها لزجة . وكان لوتريك يجلس فى استديو كورمان بجانب فنسنت يرقب تصويره ويلعن أسراب الذباب ولكنه أحجم عن تقديم أية نصيحة له .

وإذا كان هذا الأسبوع قد مر قاسياً على فنسنت فإنه كان أقسى ألف مرة على ثيو ولا عجب فقد كان ثيو لطيف المعشر ، كريم الأخلاق ، رقيقاً فى عاداته ومعيشته ، وكان متأنقا إلى أقصى حد فى ملبسه ، دمثاً فى حديثه ، يحافظ على أناقة منزله ومحل عمله ، ولم يكن يملك إلا جزءاً صغيراً من قوة فنسنت وحيويته الدافقة .

وكانت الشقة الصغيرة التى يسكنها فى شارع لافال لاتكاد تتسع لثيو وأثاثه الهش من طراز لويس فليب ولم يكد ينتهى الأسبوع الأول حتى أحال فنسنت المكان إلى حانوت لسقط المتاع فقد كان يذرع غرفة المعيشة ويركل قطع الأثاث التى تعترض طريقه ويلقى باللوحات والفراجين ويفرغ أنابيب الألوان على أرض الحجرة ويرصع الأرائك والمناضد بملابسه المتسخة وأطباقه المكسورة ويلوثها برذاذ طلائه وبالجملة فقد قلب حياة ثيو الذى كان يحرص على التمسك بأهداب آداب السلوك

وصاح ثيو :

— فنسنت ، فنسنت لا تكن حاد الطبع إلى هذا الحد !

وكان فنسنت يذرع أرض الشقة الصغيرة وهو يعض على أصابعه ويتمتم بكلمات لنفسه ثم تهالك جالساً فى أحد المقاعد الهشة وزمجر قائلا :

— لاجدوى من هذا فقد بدأت متأخراً جداً وبلغت من الكبر سناً لا أستطيع فيه أن أغير ما بنفسى — رباه لقد تعست ياثيو ! وفى هــــذا الأسبوع بدأت فى رسم عشرين لوحة ولكنى لم أستطع أن أبدأ من جديد فسرعان ما تغلب على طريقتى فى التنفيذ الفنى وها أنذا أعترف لك بأنى انتهيت ! ولن أستطيع العودة إلى هولندا لتصوير الأغنام بعد ما شهدته عيناى هنا . لقد أتيت متأخراً جداً لأشق طريقى الرئيسى إلى ميدان الفن رباه ماذا عساى صانع ؟

وقفز ثم سار نحو الباب وهو يترنح ليلتمس بعض الهواء النقى ثم أغلقه بعنف ورفع مصراع النافذة ليفتحها وحملق لحظة فى مطعم « باتاى » ثم أغلق النافذة بشدة حتى تحطم زجاجها تقريباً وسار نحو المطبخ فى خطوات واسعة ليطفىء ظمأه وسكب على أرض الحجرة نصف الماء ثم عاد إلى غرفة المعيشة والماء يسيل على جانبى ذقنه .

— حسناً ، ما رأيك ياثيو ؟ أينبغى أن استسلم للقنوط ؟ هل انتهى أمرى ؟ يبدو أن الأمر هكذا ، أليس كذلك ؟

— فنسنت ، إنك تتصرف كالأطفال . هل لك أن تهدأ لحظة وتصغى إلى . لا لا ، قف ولا تذرع الحجرة هكذا حتى أستطيع أن أتحدث إليك ، وبالله هلا خلعت هذا الحذاء الثقيل إذا كنت تنوى أن تركل به هذا الكرسى المموه بالذهب كلما مررت به .

— لقد تركتك ياثيو تعولنى ست سنوات طوال ، فما الذى حصلت عليه فى مقابل هذا ؟ مجموعة من الصور السمراء القاتمة ورجل فاشل لا أمل فيه .

— اسمع يابنى العزيز . عندما أردت تصوير الفلاحات هل استطعت أن تلم بكل دقائق التصوير فى أسبوع أم أن الأمر اقتضى منك خمس سنوات ؟

— هذا حق ولكنى كنت ما زلت مبتدئاً .

— وها أنت تبدأ اليوم بتعلم الألوان ! هذا قد يستغرق منك خمس سنوات أخرى .

— ولكن ألا يمكن أن ينتهى هذا ياثيو ؟ أينبغى على أن أتردد طوال حياتى على المدرسة ؟ لقد بلغت الثالثة والثلاثين من عمرى فتى بحق الله أصل إلى مرحلة النضوج ؟

— هذه آخر تجربة لك يا فنسنت وقد رأيت كل شىء يتم تصويره فى أوربا وأعمال الرجال التى تقبع فى طابق الأسفل هى آخر صيحة فى التصوير . . . وعندما تخفف الوانك . . .

— أواه ياثيو ! أتعتقد أن هذا فى استطاعتى ؟ ألا تظن أنى فاشل ؟

— بل إنى أميل إلى الاعتقاد بأنك غبى أحمق : أتريد أن تتقن فى أسبوع واحد قواعد أعظم ثورة حدثت فى تاريخ الفن ؟ هيا بنا نتنزه على التل ونرطب رءوسنا بالهواء فلو مكثت معك فى هذه الحجرة خمس دقائق أخرى فقد أنفجر .

وفى عصر اليوم التالى قام فنسنت بتصوير رسوم تخطيطية باستديو كورمان وظل به لساعة متأخرة ثم ذهب إلى ثيو فى قاعة جوبيل .

وكانت السماء فى أوائل شهر أبريل مصبوغة بلون الشفق وكانت صفوف المبانى ذات الطوابق الستة تسبح فى ضوء قرنفلى اللون — وكانت كل باريس تتناول المشهيات وغصت المقاهى التى على جانبى شارع مونمارتر

رجال يتحادثون مع أصدقائهم ومن داخل المقاهى كان ينبعث صوت موسيقى هادئة يعزفونها للترويح عن الباريسيين بعد ما كابدوه فى يومهم من عناء ، وكانت المصابيح الغازية تضاء والندل يبسطون المفارش على الموائد فى المطاعم والموظفون فى المصالح يجذبون مصاريع النوافذ من الحديد المموج ويفرغون البضائع من الصناديق الموضوعة على الجوانب وأخذ ثيو وفنسنت يتجولان على مهل وعبرا ميدان شاتودن بضوضائه التى تصدر من العربات القادمة إليه من الشوارع الستة المؤدية إليه ، ومرا بنوتردام دى لوريت ثم عرجا على التل ووصلا إلى شارع لافال .

— هل لنا أن نتناول فاتحا للشهية يافنسنت ؟

— لامانع ولنجلس فى مكان نستطيع أن نشهد منه الجمهور .

— إذن لنذهب إلى مطعم باتاى فى شارع ديزابيس فقد يهبط علينا بعض أصدقائى .

وكان يتردد على مطعم باتاى كثير من المصورين ولم يكن فى مقدمته من الخارج إلا أربع أو خمس موائد ولكن كانت فى داخله غرفتان رحيبتان .

وكانت مدام باتاى تتقدم الفنانين دائماً إلى إحدى الحجرتين وتقود البورجوازيين إلى الأخرى وكانت تستطيع أن تدرك من أول نظرة لأى الطبقتين ينتمى أى رجل . وصاح ثيو :

— أيها النادل : هات زجاجة من شراب كوميل أكاو أو .

— وبما تشير على ياثيو ؟

— جرب شراب الكوانترو يجب أن تشرب على سبيل التجربة فترة حتى تهتدى إلى مشروبك المفضل .

ووضع الساقى أمامهما زجاجتى شرابهما على طبقين وقد كتب عليهما الثمن بحروف سوداء وأشعل ثيو سيجارا بينما أشعل فنسنت غليونه .

ومرت بهما الغسالات وهن يرتدين مآزر سوداء ويحملن فى أذرعهن سلالا مليئة بالملابس المكوية كما مر بهما عامل يخطر ومعه سمكة من نوع الرنجة غير ملفوفة وكان يحملها من ذيلها وشاهدا مصورين يرتدون أسمالا ومعهم لوحات لم يجف بعد طلاؤها وقد ثبتت فى الحامل ورجال أعمال على رءوسهم قبعات من نوع الدربى ويرتدون سترات رمادية مبرقشة وربات للبيوت ينتعلن خفافا من القماش ويحملن زجاجة نبيذ أو قطعة من اللحم لفت فى ورقة . ونساء جميلات يرتدين جونلات طويلة فضفاضة تضيق عند الوسط وتتدلى على رءوسهن قبعات صغيرة يزينها الريش .

— أليس هذا استعراضاً رائعاً ياثيو ؟

— بلى فباريس لا تصحو قبل تقديم أطباق فواتح الشهية .

— كنت أحاول أن أفكر ما الذى يجعل من باريس تلك المدينة الرائعة؟

— بصراحة لا أدرى فهذا لغز قديم وأعتقد أن السر يكمن فى طبيعة الفرنسيين أنفسهم فهنا يتمتع الناس بحرية نموذجية ويعيشون فى تسامح شديد ويتقبلون الحياة كما هى . هالو ! هاهو أحد أصدقائى وبودى أن تقابله . مساء الخير يابول . كيف حالك .

— بخير . أشكرك ياثيو .

— هل لى أن اقدم لك أخى فنسنت فان جوخ ؟ فنسنت هذا بول جوجان . اجلس يابول لتشرب زجاجة من الأبسنت الذى لاغنى لك عنه.

ورفع جوجان زجاجة الأبسنت وذاق الشراب بطرف لسانه ثم أطبق عليها بفمه والتفت إلى فنسنت وقال :

— ما رأيك فى باريس يا سيد فان جوخ ؟

— إنى أحبها كثيراً .

— حقاً ! هذا غريب . بعض الناس مايزالون يحبونها أما أنا فإنى أراها علبة هائلة لسقط المتاع وفيها حثالة الحضارة .

— إن شراب الكوانترو لم يعجبنى كثيراً ياثيو ، فهل لك أن تشير على بشىء آخر ؟

فقال جوجان :

— جرب شراب الأبسنت يافان جوخ فهو فى نظرى الشراب الوحيد الجدير باهتمام أى فنان . .

— ما رأيك ياثيو ؟

— ولم تسألنى؟جرب بنفسك. أيها النادل زجاجة من شراب الأبسنت للسيد . يبدو أنك راض عن نفسك اليوم يابول فماذا حدث ؟ هل بعت إحدى لوحاتك ؟

— لم يحدث شىء من هذا القبيل ياثيو ولكنى مررت بتجربة شائقة فى هذا الصباح ؟

فغمز ثيو بعينيه لفنسنت وقال :

— هلا حدثتنا عنها يابول . أيها النادل ! زجاجةأخرى من الأبسنت لمسيو جوجان .

وتذوق جوجان شرابه الجديد من الأبسنت بطرف لسانه وبلل حلقه بجرعة ثم بدأ يقول :

— أتعرف ذلك الزقاق المسدود « أمياس فرنيه » الذى يتفرع من شارع دى فورنو ؟ حسناً . فى الساعة الخامسة من صباح اليوم سمعت الأم فوريل زوجة سائق عربة النقل تصيح «النجدة ! لقد شنق زوجى نفسه ! »

فقفزت من فراشي وارتديت سراويلي (وهي كل ما أملك من متاع الدنيا) واختطفت مدية وهبطت السلم وقطعت الحبل وكان الرجل قد مات ولكن جسده كان ما يزال دافئاً ودمه مايزال حاراً وأردت أن أحمل الرجل إلى فراشه ولكن الأم فوريل صرخت فى قائلة :

— قف ! يجب أن ننتظر حتى يأتى رجال الشرطة !

ولما كان منزلى يطل من الجانب الآخر على فراش بستانى السوق فقد ناديت البستانى قائلا :

— « أعندك بطيخة صفراء » ؟ فأجاب قائلا « نعم ياسيدى وبطيخة ناضجة » وتناولت بطيختى فى طعام الإفطار دون أن أفكر فى الرجل الذى شنق نفسه فالحياة حلوة كما ترى ولكل سم ترياق . وقد دعيت لتناول طعام الغداء فارتديت أحسن قمصانى وفى نيتى أن أدخل السرور على قلوب أصحابى وحدثتهم بالقصة فابتسموا ولم يبدوا اى اهتمام بل إنهم طلبوا منى قطعة من الحبل الذى شنق به الرجل نفسه .

وتطلع فنسنت باهتمام إلى بول جوجان . وكانت له رأس همجى كبيرة وشعره أسود وله أنف ضخم ينحدر من طرف عينه اليسرى إلى الركن الأيمن لفمه وكانت عيناه واسعتين بارزتين كلوزتين تنبعث منهما نظرات سوداوية وحشية وفوق عينيه نتوء من العظام وتحتهما خدان مستطيلان وذقن عريضة — كان رجلا عملاقا يتمتع بحيوية متدفقة .

وابتسم ثيو ابتسامة خفيفة وقال :

— أخشى يابول أن تكون مصابا بالسادية فلا يمكن أن يكون تلذذك برؤية هذا المشهد طبيعياً تماماً . والآن يجب أن أنصرف لارتباطى بموعد سابق لتناول طعام الغداء . أقادم أنت معى يافنسنت ؟

فقال جوجان :

— بل دعه يبق معى ياتيو فأنا أريد أن تتوثق صلتى بشقيقك .

— حسن جداً ولكن إياك أن تدعه يجرع كثيراً من شراب الأبسنت فإنه لم يتعود على هذا . كم الحساب أيها النادل ؟

وقال جوجان :

— إن أخاك على حق يافنسنت وإذا كان ما يزال يتهيب عرض أعمال صغار الفنانين فإنى أعتقد أن فالدون يضطره لفعل هذا .

— ولكنه يعرض لوحات لمونيه وسيسلى وبيسارو ومانيه فى الشرفة.

— هذا حق ولكن أين أعمال سيرا ؟ وجوجان ؟ وسيزان وتولوز لوتريك ؟ لعمرى إن الفنانين الآخرين يكبرون فى السن ويسرقهم الوقت .

— آه إذن فأنت تعرف تولوز لوتريك ؟

— هنرى ؟ طبعاً ! ومن لايعرفه ؟ إنه مصور عظيم ولكنه مجنون إذ يعتقد أنه مالم يبت مع خمسة آلاف امرأة فإنه دليل على أنه ليس كامل الرجولة وهو يستيقظ كل صباح وقد برح به الألم بسبب مايعانيه من نقص لعجز ساقيه وفى كل ليلة يغرق هذا الإحساس بالنقص فى كئوس الشراب وبالتمرغ فى أحضان امرأة ولكنه فى اليوم التالى يعاوده ولو لم يكن مجنونا لكان واحداً من أحسن مصورينا . لسوف ندلف إلى هنا فالاستديو الخاص بى فى الطابق الرابع — تنبه إلى هذه الدرجة فهى مكسورة .

وصعد جوجان ثم أضاء مصباحاً ليرى فنسنت حجرة صغيرة تقع فى أعلى المنزل بها حامل للرسم وسرير من النحاس الأصفر ومنضدة وكرسى وفى قبوة قرب الباب شاهد فنسنت بعض الصور الفوتوغرافية البذيئة .

— هل أستطيع أن أقول بعد رؤية هذه الصور إن أفكارك عن الحب ليست سامية .

— ترى أين تجلس فوق الفراش أم على المقعد ؟ هناك فوق المائدة بعض التبغ لحشو غليونك . حسنا ، إننى أحب النساء على أن يكن بدينات وحليعات وإنى لأضيق ذرعاً بكل امرأة ذكية وطالما تمنيت أن تكون لى عشيقة بدينة ولكنى لم أعثر قط على واحدة من هذا النوع ولهذا فإنهن طالما سخرن بى لاسيما وهن حاملات . هل قرأت قصة نشرها شاب يدعى موباسان فى الشهر الماضى ؟ إنه تحت وصاية زولا وقصته عن رجل يحب امرأة بدينة وفى ليلة عيد الميلاد أعد مأدبة عشاء لشخصين وانطلق خارجا ليلتمس رفيقة تؤنسه فلقى امرأة تناسبة تماماً ولكنهما ما إن بدآ فى تناول المشويات حتى ولدت طفلا يقفز ويمشى ؟

— ولكن هذا لاعلاقة له بالحب إلا قليلا ياجوجان .

فتمدد جوجان فوق الفراش ووضع تحت رأسه ذراعا ملفوفة العضلات وأخذ ينفخ سحب الدخان على العارضات الخاليه من الطلاء ثم قال:

— لا أقصد أن أقول إننى لا أتأثر بالجمال يافنسنت ولكنى فقط لا أعيره وزنا فأنا لا أعرف الحب كما ترى وقولى عبارة « أنا أحبك » قد يحطم كل أسنانى ولكن ليس لدى ما أشكو منه وإنى لأتمثل بقول المسيح « الجسد هو الجسد والروح هى الروح » وشكراً لهذا فمبلغ قليل من المال يكفى لإشباع مطالب جسدى وترك روحى فى سلام .

— لعمرى إنك تأخذ الأمور بمنتهى البساطة !

— لا ، فاختيار من تشاطرنى الفراش ليس أمراً سهلا وإنى لأحس بلذة مضاعفة مع المرأة التى تشاطرنى اللذة ولكنى أفضل الاكتفاء بالاتصال البدنى الأجوف ولا أتورط فى الانفعالات بل أوفرها للتصوير .

— كنت سأعرف هذا مؤخرا . ، شكرا فلا أعتقد أنى سأتحمل مزيدا من الأبسنت . كلا مطلقاً هيا بنا فأخى ثيو يعتقد أن أعمالك رائعة فهل لى أن أرى بعض دراساتك ؟

فوثب جوجان وقال :

— كلا فدراساتى شخصية ولاتخص أحداً سواى مثل خطاباتى ولكن سأريك لوحاتى ولكنك لن تستطيع الرؤية بوضوح فى هذا الضوء . حسناً ، لا بأس مادمت تصر .

وركع جوجان على ركبتيه وجذب كومة من اللوحات من تحت الفراش وأوقفها واحدة بعد أخرى وأسندها إلى زجاجة الأبسنت على المائدة وكان فنسنت يتوقع أن يرى شيئاً غير عادى ولكنه لم يشعر إلا بالدهشة والذهول عندما رأى أعمال جوجان فقد شاهد مجموعة مهوشة من الصور التى تسبح فى ضوء الشمس رسم فيها أشجاراً لم يكتشفها بعد أى عالم بالنبات وحيوانات لم يشك فى وجودها كوفييه ورجالا من خلق خيال جوجان وحده وبحراً من المحتمل أن يكون من فيض بركان وسماء لا يمكن أن يسكنها إله وشاهد صوراً سمجة كثيرة الزوايا لوطنيات تخفى عيونهن البدائية الساذجة سر اللانهاية . لوحات حالمة نفذت بألوان صارخة قرنفلية وبنفسجية وحمراء مرتعشة ومناظر كلها زخرفية تتفجر فيها مجموعة من النبات والحيوان بفعل حرارة وضوء الشمس .

وغمغم فنسنت قائلا :

— إنك كاوتريك .. تكره ، تكره بكل مافيك من قوة .

فضحك جوجان وقال :

— مارأيك فى تصويرى يافنسنت ؟

— بصراحة لا أدرى . أمهلنى بعض الوقت لأفكر فى الأمر واسمح لى بالعودة لمشاهدة أعمالك مرة أخرى .

— تعال وقتما تحب فليس فى باريس اليوم من يجيد التصوير مثلى سوى شاب واحد هو جورج سيرا وهو مثلى يحب الرسم البدائى . أما باقى الحمقى فى باريس فإنهم مهذبون .

وتساءل فنسنت

— جورج سيرا ؟ لا أعتقد أنى سمعت عنه

لا ، إنك لم تسمع عنه فليس فى المدينة تاجر يقبل عرض لوحاته ومع ذلك فهو مصور عظيم .

— بودى أن أقابله ياجوجان .

— سآخذك معى إلى هناك فيما بعد — ماقولك فى أن نتناول طعام العشاء عند بروان . هل معك اى نقود ؟ ليس معى إلا فرنكان ولذا يحسن بنا أن نأخذ معنا هذه الزجاجة . هيا انصرف أنت أولا وسوف أحمل لك المصباح حتى نقطع نصف الطريق ولا تدق عنقك .

* * *

(٥)

كانت الساعة تقارب الثانية صباحاً عندما انطلقا إلى بيت سيرا .
وسأله فنسنت .
— ألا تخشى أن توقظه ؟
— كلا وربي ! فإنه يعمل طوال الليل ومعظم النهار ولا أظن أنه ينام ، هاهو المنزل وهو ملك لوالدة جورج وقد قالت لى مرة :

« ابنى جورج يريد أن يصور ، حسن جداً فليصور فلدى من المال مايكفينا نحن الاثنين طالما أن هذا يسعده ، وهو ابن بار بها ولايشرب ولايدخن ولايسب ولايخرج لمطاردة السيدات ولاينفق نقوداً على أى شيء سوى مواد الرسم وليس له إلا رذيلة واحدة هي الرسم وقد سمعت أن له عشيقة وابنا يعيشان بالقرب منه ولكنه لم يحدثنا عنهما قط .

وقال فنسنت :

— أرى أن المنزل يسوده الظلام فكيف ندخل دون أن توقظ كل أفراد الأسرة ؟

— إن جورج فى الطابق الأعلى ومن المحتمل أن نرى ضوءاً من الجانب الآخر وعندها نقذف نافذته بحصاة ويجدر بك أن تترك فعل هذا لى لأنك إذا لم تقذف بها المكان الصحيح فقد تصيب النافذة التى فى الطابق الثالث وتوقظ والدته .

ونزل جورج سيرا ليفتح الباب ووضع أصبعه على شفتيه وتقدمهم ليصعد بهم ثلاثة طوابق على السلم ثم أغلق خلفه باب الغرفة التى تقع فى أعلى المنزل . وقال جوجان .

— جورج أود أن أقدم لك فنسنت فان جوخ شقيق ثيو وهو يرسم كأى هولندى ولكن بغض النظر عن هذا فإنه رفيق لطيف المعشر .

وكانت غرفة سيرا فى أعلى المنزل واسعة جداً وتمتد تقريبا بطول المنزل وعلى الجدران كانت لوحات هائلة لم تتم بعد وأمامها صقالة وتحت المصباح الغازى وضعت مائدة عالية مربعة وفوق هذه المائدة وضعت لوحة لم تجف ألوانها بعد . وقال :

— يسرنى أن أتعرف بك ياسيد فان جوخ . أرجو أن تأذن لى ببضع دقائق . أتسمح لى؟ ينبغى أن أملأ فراغ مربع صغير قبل أن يجف اللون .

وصعد فوق مقعد عال بلاظهر وجثا فوق لوحته وكان المصباح الغازى يشتعل بلهب صغير ثابت وكان مايقرب من عشرين وعاء من الأوعية الصغيرة للألوان قد رصت على المنضدة على شكل خط مستقيم وغمس « سيرا » طرف أصغر فرشاة للرسم ، رآها فنسنت فى حياته ، فى أحد هذه الأوعية وبدأ يضع نقطا صغيرة من اللون ، على اللوحة فى دقة حسابية متناهية وكان يعمل بهدوء وبدون أى انفعال وكانت طريقته بعيدة وآلية نقطة وراء نقطة وكان يمسك بفرشاة مستقيمة فى يده ولا يكاد يغمسها فى وعاء اللون ثم يرسم نقطة وراء نقطة على اللوحة القماشية ، مئات من النقط الدقيقة .

وأخذ فنسنت يرقبه وقد فغر فاه وأخيراً استدار « سيرا » على مقعده وقال :

— ها أنذا قد جوفت هذه المساحة .

وقال جوجان :

— أتسمح بأن تريها لفنسنت ياجورج؟ إنه قادم من مكان لايصورون فيه إلا البقر والأغنام . ولم يعرف أن هناك فنا حديثاً إلا منذ أسبوع .

— تفضل بالجلوس على هذا المقعد يا سيد فان جوخ .

لجلس فنسنت على المقعد وأخذ يتطلع إلى اللوحة المنشورة أمامه ولم تكن شبيهة بأى شىء سبق له أن رآه سواء فى ميدان الفن أو فى الحياة

وكان المنظر يمثل جزيرة جراند جات بها مخلوقات بشرية رسمت بأسلوب معمارى من نقط لانهاية لها بألوان متدرجة وكانت تقف كبرجين فى كاتدرائية من الطراز القوطى . وكانت الحشائش الخضراء والنهر والقوارب والأشجار كلها عبارة عن مجموعة غامضة ومبهمة من النقط الضوئية وصورت اللوحة ما فى الألوان من ظلال خفيفة وكانت أخف من الألوان التى جرؤ على استعمالها كل من مانيه أو ديجا أو حتى جوجان فى لوحاته . وكانت الصورة انسحابا إلى منطقة الهارمونى المجرد تقريبا ولو قدر لها أن تنبض بالحياة لما كانت حياة طبيعية فقد كان الهواء يملؤها بإضاءة متألقة خالية من الأنفاس . كانت طبيعة صامتة لحياة مهتزة تجردت للأبد من كل حركة .

ووقف جوجان إلى جانب فنسنت وضحك عندما شاهد ما ارتسم على وجهه من تعبير وقال :

— هون عليك يافنسنت فلوحات جورج تذهل كل من يراها لأول مرة . دعنا من هذا وقل لى ما رأيك .

فالتفت فنسنت إلى سيرا وقال معتذرا :

— أرجو أن تغفر لى ياسيدى ولكننى صادفت فى الأيام القليلة الماضية كثيراً من الأشياء الغريبة لدرجة أفقدتنى الاتزان وقد تدربت على الرسم بالطريقة الهولندية التقليدية ولم تخالجنى أى فكرة عما يمثله الانطباعيون والآن فإنى أجد فجأة أن كل ما آمنت به قد أصبح منبوذا .

فقال سيرا :

— إنى أقدر موقفك فطريقتى ثورة على كل فن التصوير ولهذا فإنى لا أتوقع منك أن تتقبلها من أول نظرة وكان فن التصوير — كما تعرف ياسيدى وحتى وقتنا هذا — مسألة تخضع للخبرة الشخصية ولذا فإنى أهدف إلى أن أجعل منه علما مجردا ولهذا يجب أن نتعلم كيف نرتب بطريقة منطقية معلوماتنا عن الإحساسات التى تخالجنا ونتوصل إلى ضابط أفكارنا

رياضيا وكل إحساس بشرى يمكن بل ويجب أن يقلل حتى يصبح عبارة مجردة من اللون والخط ودرجة اللون (التون) . هل رأيت أوانى اللون على مائدتى ؟

— أجل لقد لاحظتها .

— كل واحد من هذه الأوانى ياسيد فان جوخ يحتوى على عاطفة إنسانية معينه ويمكن حسب مواصفات عملها فى المصانع وبيعها فى الصيدليات ولا ضرورة بعد ذلك لمزج الألوان فى لوحة (البالت) كيفما اتفق فهذا أسلوب انتهى زمنه ومن الآن فصاعدا يمكن المصور أن يذهب إلى الصيدلية ويرفع فقط أغطية الأوانى الصغيرة بحثا عن اللون المنشود . إن هذا عصر العلم ، وسوف أجعل من فن التصوير علما يدرس فالشخصية يجب أن تختفى ويصبح الرسم فنا هندسيا دقيقاً كفن العمارة . أفاهم أنت ما أقول ياسيدى ؟

فقال فنسنت :

— كلا أخشى ألا أكون قد فهمت .

فلكز جوجان فنسنت وقال :

— اسمع ياجورج . لماذا تصر على القول بأن هذه الطريقة من ابتكارك؟ لقد مارسها بيسارو قبل أن تولد .

— هذا كذب .

وتورد وجه سيرا وقفز من فوق مقعده وهرول إلى النافذة وأخذ يدق بأصبعه على الأسكفة ثم عاد وهو يندفع كالعاصفة وقال :

— من قال إن بيسارو مارسها قبلى ؟ إنى أقول لك إنها من ابتكارى وكنت أول من فكر فيها وقد تعلم بيسارو طريقته الترقيمية منى وقد اطلعت على تاريخ الفن منذ عهد الإيطاليين الأوائل وأقول لك إن أحدا لم يفكر فيها قبلى فكيف تجرؤ ... !

وعض على شفتيه فى وحشية ثم سار إلى إحدى صقالاته وأدار ظهره المحدب إلى فنسنت وجوجان .

وذهل فنسنت تماما لما طرأ عليه من تبدل فقد كانت تقاطيع الرجل المنحنى على لوحته المنشورة فوق المنضدة باردة تماما كتمثال من رخام وكانت عيناه هادئتين كأن الأمر لا يعنيه وما أشبهه بعالم منكب على عمله فى معمله وانساب صوته بادرا كما لو كان يلقى محاضرة تربوية وكان يظلل عينيه نفس القناع التجريدى عندما التقى بلوحاته كان غير الرجل الذى رآه فى طرف الحجرة التى فى أعلى المنزل والذى كان يعض على شفته السفلى الغليظة الحمراء البارزة من بين لحيته المستديرة وكان فى سورة غضبه يغفل خصلات شعره الأسود الذى صففه بعناية من قبل .

وقال جوجان وهو يغمز بعينه لفنسنت .

— أوه هون عليك ياجورج فكل واحد يعرف أن الطريقة من ابتكارك ولولاك لما كان هناك أسلوب الترقيمية .

فسكن غضب سيرا وعاد إلى المنضدة وبدأت سورة الغضب تختفى فى بطء من عينيه . وقال فنسنت :

— يا سيد سيرا كيف يمكن أن تجعل من فن التصوير علما مجرداً طالما أنه أساساً تعبير عما يحس به الفرد ؟

— اسمع ! سأريك .

واختطف سيرا صندوقا للألوان من فوق المنضدة وجثا فوق الأرض الخشبية العارية وكان المصباح الغازى يرسل ضوءا خافتا فوق رءوسهم فى سكون الليل التام وركع فنسنت بجانبه بينما جلس جوجان القرفصاء على الجانب الآخر وكان سيرا مايزال مهتاجا فأخذ يتكلم بحدة ونشاط وقال:

— فى رأيى أن كل المؤثرات فى فن التصوير يمكن أن تمثل فى صيغ . لنفرض أنى أريد أن أرسم منظراً فى سيرك وها هو حصان عارى الظهر وأمامه

المدرب وهنا القاعة والمتفرجون وأنا أريد أن أرسم لوحة توحى بالمرح فما هى العناصر الثلاثة للتصوير ؟ الخط والتون واللون . حسن جدا . لكى أضفى المرح أرسم كل خطوطى فوق الخط الأفق هكذا وأجعل الألوان الفاتحة هى الحالية هكذا والتون دائما هكذا . هاهى ذى ! ألا توحى إليك بالمرح المجرد ؟

فأجاب فنسنت :

— حسناً ، إنها قد توحى بالمرح مجرداً ولكن ليس فيها المرح نفسه .

فتطلع إليه سيرا وهو جاثم فى مكانه ورغم اختفاء وجهه فى الظلام فقد لاحظ فنسنت جمال وجه الرجل .

— إنى لا أسعى وراء المرح ذاته بل أنشد جوهر المرح . أتعرف أفلاطون ياصديقى ؟

— أجل .

— حسن جداً . إن ما يجب على المصورين أن يتعلموه هو تصوير جوهر الشيء لا الشيء ذاته . وعندما يصور الفنان حصانا يجب ألا يرسم حصانا معينا بالذات تستطيع أن تتعرف عليه عندما تراه فى الشارع فالكاميرا تستطيع أن تلتقط صوراً فوتوغرافية بل يجب أن تفعل شيئاً أكثر من هذا وما ينبغى علينا أن نسجله عندما نصور حصانا يا سيد فان جوخ هو الصفة المميزة للحصان كما ذكرها أفلاطون أى الجوهر الخارجى للحصان . وعندما نصور رجلا فينبغى ألا نصور حارس الباب وفوق أنفه ثؤلولة بل الصفة المميزة للرجل . روح وجوهر كل رجل — هل فهمت ما أعنيه ياصديقى ؟

فقال فنسنت .

— نعم ولكنى لا أتفق معك فى الرأى .

— سنتفق فيما بعد .

ونهض سيرا وخلع سماقه ومسح به صورة السيرك التى رسمها على الأرض ثم أردف قائلا :

— والآن لنثار على الهـــدوء . ها أنذا أقوم برسم منظر فى جزيرة جراندجات وأرسم كل خطوطى أفقية هكذا وبالنسبة للتون فإنى أساوى بين الدافئ والبارد وبالنسبة اللون أسوى بين الظلام والضوء وهكذا . هل تراها ؟

فقال جوجان .

— استمر ياجورج وكف عن توجيه هذه الأسئلة السخيفة .

— والآن يأتى دور تصوير الحزن فنرسم كل خطوطنا بحيث تسير فى اتجاه نازل هكذا ونجعل التونات الباردة هى الغالبة هكذا والألوان القاتمة هى السائدة هكذا . ها هو ذا جوهر الحزن ! أى طفل يستطيع رسمه فالصيغة الرياضية بتركيب نسب معينة لرسم الفضاء فى لوحة سوف تنشر فى كتيب صغير وقد توصلت أنا إليها وما على المصور إلا أن يقرأ الكتاب ويذهب إلى الصيدلى ويشترى الأوانى المعينة اللون المطلوب وينفذ القواعد المكتوبة وبذا يكون مصوراً كاملا يرسم بطريقه علمية ويستطيع أن يعمل فى ضوء الشمس أو فى ضوء مصباح غازى ويجوز أن يكون راهباً أو داعراً ولا يهم إن كان فى السابعة أو فى السبعين من عمره وكل الرسوم يمكن أن تصل إلى درجة من الكمال المعيارى المجرد .

فأخذ فنسنت يطرف بعينيه وضحك جوجان وقال :

— إنه يعتقد أنك مجنون ياجورج

فسح سيرا رسمه الأخير بسماقه وقذف به فى ركن مظلم ثم سأله .

— أحقا ما يقول يا سيد فان جوخ ؟

فقال فنسنت محتجا .

— لا لا . فطالما وصمونى أيضاً بالجنون حتى أصبحت أستعذب سماع كلمة مجنون ولكن ينبغى أن أقرر لك أن أفكارك غريبة جداً !

فقال جوجان .

ـ إنه يقصد أن يقول ياجورج ....

وسمعوا طرقة حادة على الباب فزمجر جوجان قائلا .

ـ رباه ! لقد أيقظنا والدتك مرة أخرى ! ولقد سبق أن أبلغتنى بأنها ستستخدم معى فرشاه الشعر إذا لم أبتعد من هنا فى الليل .

ـ ودخلت والدة سـيرا وكانت ترتدى فستانا ثقيلا وقلنسوة للنوم وقالت :

ـ لقد وعدتنى ياجورج ألا تعمل طول الليل بعد ذلك . أوه . أهذا أنت يابول ؟ لم لا تدفع إيجار بيتك ؟ فتجد مكانا تبيت فيه بالليل .

ـ لو قبلت أن أقيم هنا أيتها الأم سيرا . فلن أكون ملزماً بدفع أى إيجار مطلقا .

ـ لا ، شكراً . يكفى وجود فنان واحد فى الأسرة . لقد أحضرت لك بعض القهوة والكعك وإذا كان لابد أن تعمل فينبغى أن تأكل . أظن أنه يجب أن أنزل لإحضار زجاجتك من الأبسنت يابول .

ـ لعلك لم تشربيها كلها أيتها الأم سيرا ؟

ـ بول ، تذكر ما قلته لك عن فرشاة الشعر .

وبرز فنسنت من الظلام فقال سيرا .

ـ أماه هذا صديق جديد تعرفت به إنه فنسنت فان جوخ .

فصافحته الأم سيرا وقالت :

ـ إنى أرحب بقدوم أى صديق لابنى حتى لو حضر فى الساعة الرابعة صباحا ، ماذا تحب أن تشرب ياسيدى ؟

ـ لو سمحت سأتناول كأساً من الأبسنت مع جوجان .

فصاح جوجان قائلا :

— هذا لا يمكن ! فالأم سيرا تصرف لى حصه محددة ولا تسمح لى إلا بزجاجة واحدة كل شهر ولذا أرجو أن تشرب شيئاً آخر ولن يفرق حلقك الجاهل بين الأبسنت والشارتريز الأصفر .

وجلس الرجال الثلاث والأم سيرا يتحدثون ويرتشفون القهوة ويأكلون الـكعك حتى أشرق الفجر ورسمت أشعة الشمس مثلثا صغيراً من الضوء الأصفر على النافذة الشمالية وقالت الأم سيرا .

— يجب أن أرتدى ملابسى فقد طلع النهار وأرجو أن تحضر ليلة يا سيد فان جوخ لتناول العشاء معنا أنا وجورج وإنه لمن دواعى سرورنا أن تحضر .

وعند الباب الأمامى قال سيرا لفنسنت .

— أخشى أن أكون قد شرحت لك طريقتى بسذاجة ولذا أرجو أن تعود فى أى وقت تشاء لنعمل معاً وعندما تستوعب طريقتى سترى أن التصوير لم يعد كما كان . حسنا ، يجب أن أعود لأتم لوحتى وعلى أن أجوف فضاء صـغيراً آخر فيها قبل أن أنام . أرجو أن تبلغ تحياتى لأخيك .

وسار فنسنت وجوجان فى الممرات الحجرية المهجورة وصعد التل إلى مونمارتر وكانت باريس ما تزال تغط فى نومها والنوافذ الخضراء مغلقة بإحكام والستائر مسدلة على أبواب الحوانيت وكانت عربات النقل الريفية فى طريقها للعودة بعد أن أفرغت حمولتها من الخضروات والفواكه والأزهار فى الأسواق . وقال جوجان .

— لنصعد إلى قمة الهضبة ونرقب الشمس وهى توقظ باريس .

— كم أحب هذا .

وبعد أن وصلا إلى بوليفار كليش عرجا على شارع لبييك الذى كان يلتوى حول مولان دى لاجاليت ويشق طريقه الملتوى صعدا إلى تل

مونمارتر . وأخذت المنازل تقل تدريجيا وبدت أمامها سهول مستوية حافلة بالأزهار والأشجار وانتهى شارع ليبيك فاتخذ الرجلان طريقا متعرجا خلال الغابة وقال فنسنت .

— قل لى بصراحة ياجوجان مارأيك فى سيرا ؟

— جون ؟ كنت أعتقد أنك ستسأل عن هذا ، إنه يعرف عن اللون أكثر من أى رجل آخر منذ عهد ديلا كروا وله نظريات منطقية فى الفن وأرى أن هذا خطأ فالمصورون لايجوز لهم التفكير فيما يصنعون بل يجب أن يتركوا النظريات للنقاد ولا شك أن جورج سيساهم مساهمة فعالة فى تطوير اللون وقد يكون غرامه بالفن المعمارى القوطى عاملا فى التعجيل برد فعل بدائى فى الفن ولكنه مجنون . بل ومجنون تماما كما لعلك رأيت بنفسك.

وكان صعودهما شاقا ولكنهما عندما وصلا إلى القمة شاهدا باريس كلها وقد امتدت أمامهما والسقوف السوداء التى تشبه البحيرة وأبراج الكنائس العديدة التى تبزغ فى ظلام الليل وكان نهر السين يقسم المدينة إلى نصفين ويبدو كخط ملتو من الضوء وكانت المنازل تنحدر أسفل تل مونمارتر إلى وادى السين ثم تكافح صعدا للوصول إلى مونبارناس وكانت الشمس ساطعة وتضىء بأشعتها غابة فنسوة وفى الطرف الآخر من المدينة كانت أشجار غابة بولونيا الخضراء ناعسة وتسبح فى الظلام وكانت معالم المدينة الثلاث وهى دار الأوبرا فى الوسط ونوتردام فى الشرق وقوس النصر فى الغرب تقف فى الهواء كهضبات من الحجر الملون .

* * *

(٦)

وهبط السلام على الشقة الصغيرة فى شارع لافال وحمد ثيو نجمه السعيد على الهدوء ولكن هذا لم يدم طويلا فإن فنسنت بدلا من أن يشق طريقه فى بطء وبدقة من خلال لوحة ألوانه القديمة بدأ يقلد أصدقاءه فى غمرة رغبته الملحة فى أن يكون مصوراً انطباعيا نسى كل ماتعلمه عن قواعد التصوير . وبدت لوحاته نسخا فظة لما يرسمه سيرا وتولوز لوتريك وجوجان وكان يعتقد أنه يتقدم بصورة رائعة .

وقال له ثيو ليلة :

— قل لى يا بنى ما اسمك ؟

— فنسنت فان جوخ .

— أواثق أنت أنه ليس جورج سيرا أو بول جوجان ؟

— بحق الشيطان ماذا ترمى إليه يا ثيو ؟

— أتعتقد حقاً أنه يمكنك أن تكون مثل جورج سيرا ؟ ألا تدرك أنه لم يخلق إلا لوتريك واحد منذ بدأ هذا العهد ؟ وأنه لا يوجد إلا جوجان واحد فقط وحمدا لله ! من الغباء أن تحاول أن تقلدهم .

— ولكننى لا أقلدهم بل أتعلم منهم .

— بل أنت تقلدهم أرنى لوحة من لوحاتك الجديدة وسوف أقول لك على الفور من كنت تتقمص شخصيته ليلة أمس .

— ولكنى أتحسن طول الوقت يا ثيو — تأمل كيف أصبحت هذه الصور أكثر بهجة وإضاءة .

— بل ، إنك تنحدر كل يوم من سيء إلى أسوأ فأنت ترسم كل لوحة بمهارة أقل مما كان يصور بها فنسنت فان جوخ . اعلم يابنى أن الطريق غير معبد أمامك وقد يقتضى الأمر منك سنوات من العمل الشاق فهل أنت

عاطل عن الموهبة حتى تقلد أعمال الآخرين ؟ ألا يمكنك أن تتشبه بما ينبغي أن يقدموه .

— ولكنى أرى ياثيو أن هذه اللوحات رائعة !

— وأنا أقول لك إنها مريعة !

واستمرت المعركة .

وفى كل ليلة كان يعود فيها ثيو من عمله فى قاعة الفنون وهو منهوك القوى متوتر الأعصاب كان يجد فنسنت فى انتظاره على أحر من الجمر ليريه لوحة جديدة وكان يقفز بوحشية حالما يرى ثيو قبل أن تتاح الفرصة لأخيه ليخلع قبعته ومعطفه ويقول له :

— انظر ! والآن قل لى إن هذه ليست لوحة جيدة ! وقل إن ألوانى لم تتحسن ، تأمل فى تأثير ضوء الشمس ! انظر إلى هـ ...

وكان على ثيو أن يختار بين أن يكذب ويمضى أمسية جميلة مع شقيقه الحبيب أو يصارحه بالحقيقة فيظل يطارده بعنف فى البيت حتى ينبلج الفجر ورغم ما كان يشعر به ثيو من تعب شديد فإنه لم يستطع إلا أن يصارحه بالحقيقة وسأله فى صوت متعب .

— متى ذهبت لآخر مرة إلى استوديو دوراند رويل ؟

— وماذا يهمك من هذا الأمر ؟

— أجب على سؤالى .

فقال فنسنت فى خوف .

— حسناً كان هذا عصر أمس .

— هل تعرف يافنسنت ان فى باريس خمسة آلاف مصور يحاولون تقليد ادوارد مانيه ؟ وأن معظمهم يفعلون هذا خيرا منك ؟

وكانت أرض المعركة أصغر من أن تسعهما معاً .

وجرب فنسنت خدعة جديدة فألقى بكل ما فى جعبته من معلومات عرفها عن الانطباعيين فى تصوير لوحة واحدة .

وفى تلك الليلة غمغم ثيو قائلا :

— رائعة . سنطلق على هذه اللوحة اسم « تلخيص » بل سوف نطلق اسما على كل شيء فى اللوحة فهذه الشجرة من عمل جوجان أصلا ولا شك أن الفتاة التى فى الركن من عمل تولوز لوتريك وأستطيع القول بأن ضوء الشمس الذى رسمته على مجرى النهر من عمل سيسلى أما الألوان المونيه والأوراق الخضر له فلبيسارو والهواء لسيرا وأما الشكل الأوسط فلماتيه .

وكافح فنسنت بمرارة وكان يكدح طول اليوم وعندما كان ثيو يعود للبيت ليلا كان يتعرض للعقوبة المعهودة كأنه طفل صغير واضطر ثيو أن يبيت فى غرفة المعيشة حتى لا يستطيع فنسنت أن يصور هناك بالليل وكانت مشاجراته مع ثيو قد خلفته بالغ الاهتياج شديد الانزعاج فلم يستطع للنوم سبيلا . وكان يقضى الساعات الطويلة يجادل أخاه ويحاوره ويظل ثيو معه فى عراك حتى يتغلب عليه النوم من الإعياء ومايزال النور مشتعلا وفنسنت يحاول أن يدعم أقواله بحركات ثائرة . شىء واحد منع ثيو من الذهاب هو اعتقاده بأنه سينتقل عما قريب إلى شارع ليبيك حيث يختص بغرفة للنوم يغلق عليه بابها بقفل متين . ولما سئم فنسنت من الجدل حول لوحاته أخذ ينغص صفو ليالى ثيو بالدخول معه فى مناقشات مضنية حول الفن ومهمة الفن وتعاسة كل من يمتهن الفن وقال له شاكيا :

— إنى لا أستطيع ان أفهمك ياثيو فها أنتذا مدير قاعة من أهم قاعات العرض فى باريس ومع ذلك لا تريد أن تعرض لوحة واحدة لأخيك .

— إن فالدون لايسمح لى .

— وهل حاولت ؟

— آلاف المرات .

— حسناً ، لنسلم أن لوحاتى لم تصل بعد إلى مستوى كاف من الإجادة ، فما رأيك فى لوحات سيرا ؟ وجوجان ؟ ولوتريك ؟

— إنهم كلما أتوا لى بلوحات جديدة أتوسل إلى فالدون ليسمح لى بتعليقها فى الطابق الأرضى .

— هل أنت مدير لهذه القاعة أم لقاعة أخرى ؟

— للأسف أنا أعمل هناك فقط .

— إذن يجب أن تتخلى عن هذه الوظيفة فهى مشينة ولا تليق بك .
ولو كنت مكانك ياثيو لما تحملت هذا الوضع ولبادرت بتركهم .

— فلنتحدث مليا فى هذا الأمر صباحا يا فنسنت فقد قضيت يوما شاقا وأريد أن أنام .

— ولكنى لا أريد الانتظار حتى الصباح بل أريد أن أتحدث معك فى هذا الأمر الآن فورا . أى فائدة تجنيها ياثيو من عرض لوحات مانيه وديجا . لقد عرف الناس أعمالهما وبدآ يبيعان لوحاتهما وأرى أن الفنانين الشبان أحق بأن تكافح الآن من أجلهم .

— أمهلنى بعض الوقت فقد يتيسر لى هذا بعد ثلاث سنوات أخرى .

— لا ! إننا لانستطيع الانتظار ثلاث سنوات ويجب أن نعمل الآن . أواه ياثيو لماذا لاتتخلى عن وظيفتك وتفتح قاعة للفنون يكون لك فيها مطلق التصرف ؟ فكر فى هذا وسوف تتخلص من فالدون وبورجيرو وهينز !

— ولكن هذا يستلزم مالا يافنسنت وأنا لم أدخر شيئا .

— ستحصل على المال بأى شكل .

— إن مهنة الفن بطيئة الثمرات كما تعرف .

— فلتكن بطيئة ، سنعمل ليلا ونهارا حتى تكون نفسك .

— وماذا سنفعل فى أثناء ذلك ومن أين نأكل ؟

— تلومنى لأنى لا أكسب عيشى ؟

— هلا ذهبت للنوم يافنسنت وتركتنى فأنا منهوك القوى

— لا أريد أن أنام بل أريد أن أعرف الحقيقة . أهذا هو السبب الوحيد الذى يدفعك إلى التمسك بوظيفتك عند جوبيل ؟ أهذا لأنك مضطر

إلى أن تعولنى ! هيا وقل الحقيقة : قل إنى عبء ثقيل على كاهلك وأنى حجر عثرة فى سبيل حريتك وإنى أدفعك إلى التمسك بوظيفتك ولو لم أكن لتمتعت بحريتك .

— لو كنت أكبر وأقوى منك قليلا لضربتك لأعيد إليك صوابك وأعتقد أنى سأطلب من جوجان أن يأتى ويفعل ذلك ، إن عملى سيكون مع جوبيل الآن وإلى الأبد يافنسنت وعملك هو الرسم الآن وإلى الأبد ، ونصف دخلى من عملى مع جوبيل سيكون لك ، ونصف دخلك من الرسم سيكون لى . والآن ابتعد عن فراشى ودعنى أنام وإلا ناديت شرطيا !

وفى مساء اليوم التالى ناول ثيو فنسنت مظروفا وقال :

— إذا لم يكن لديك مايشغلك هذه الليلة فإنه يمكننا الذهاب لحضور هذا الحفل .

— ومن الذى يقيمه ؟

— هنرى روسو ، ألق نظرة على الدعوة .

وكانت بطاقة الدعوة تتضمن بيتين من الشعر وبعض الأزهار المرسومة وسأل فنسنت .

ولكن من هو ؟

— إننا ندعوه موظف الجرك فقد كان جابيا لعوائد الجرك فى المقاطعات حتى بلغ الأربعين من عمره واعتاد أن يصور فى أيام الآحاد كما يفعل جوجان ، ومنذ بضع سنوات حضر إلى باريس واستقر فى قطاع العمال حول الباستيل ولم يتلق فى أى يوم من حياته قسطا من التعليم ومع ذلك فإنه يصور ويكتب الشعر ويؤلف الموسيقى ويلقى دروسا فى الكمان على أطفال العمال ويعزف على البيانو ويدرس الرسم لرجلين عجوزين .

— وأى نوع من الأشياء يرسمها ؟

— حيوانات خيالية ضخمة تبرز من أحراش لاتوجد إلا فى الخيال

وما فى هذه الغابة أقرب ما يكون لما فى حديقة الأرجان بغابة بولونيا وهو فلاح وبدائى بطبيعته ويسخر منه كل الناس حتى جوجان .

— وما رأيك فى عمله ياثيو ؟

— حسنا . لا أدرى فكل واحد يقول إنه معتوه ومجنون .

— أهو كذلك !

— بل إنه طفل ، طفل بدائى وعندما نحضر حفل الليلة ستتاح لك الفرصة للحكم عليه بنفسك فكل لوحاته معلقة على الجدران .

— لا بد أن لديه مالا وفيرا حتى يمكنه إقامة حفلات .

— لعله أفقر رسام فى باريس اليوم فهو يضطر إلى استئجار الكمان الذى يلق عليه الدروس لأنه لايستطيع أن يشتريه ولكنه يهدف من وراء إقامة هذه الحفلات إلى غرض آخر ستكتشفه بنفسك .

وكان المنزل الذى يعيش فيه روسو تسكنه عائلات عمال من ذوى الحرف اليدوية وكان روسو يستأجر به غرفة فى الطابق الرابع وكان الشارع يغص بأطفال يلعبون ويصخبون وكان المطبخ والحمام ودورة المياه المشتركة والتى تقع فى الممر تزكم الأنوف برائحتها الشديدة وتخنق الأنفاس واستجاب هنرى روسو لطرقات ثيو وفتح الباب وكان رجلا قصيرا بدينا قوى البنية طبقا لخطوط فنسنت وكانت أصابع يده قصيرة بتراء ورأسه مربع الشكل تقريبا وله أنف وذقن كبيران وعينان واسعتان بريئتان وقال فى لهجة ناعمة ولطيفة .

— لقد شرفتنى بالحضور يا سيد فان جوخ .

وقدم ثيو له فنسنت فأحضر لهما روسو مقعدين وكانت الغرفة بهيجة الألوان تقريبا وقد ركب روسو على النوافذ ستائره الريفية المصنوعة من القماش المبرقش باللونين الأحمر والأبيض وغطيت الجدران بلوحات متوحشة وأدغال ومناظر طبيعية لا تخطر بالبال .

وفى ركن الحجرة كان يقف أربعة من الصبية الصغار بجانب بيانو قديم محطم ويحملون فى أيديهم آلات السكان بعصبية وعلى الطنف فوق المدفأة رص روسو الكعك الذى صنعه فى البيت ونثر فيه حبات الكراوية وكانت هناك بعض الأرائك والمقاعد المتناثرة فى الحجرة .

وقال روسو :

ـــ أنت أول من وصل يا سيد فان جوخ ، لسوف يشرفنى الناقد جيوم بيل بحضور حفلتى ، وترامت إلى أسماعهم جلبة من الشارع وسمعوا صراخ الأطفال ودمدمة عجلات العربات وهى تسير على الحصباء ودفع روسو الباب ليفتحه فانسابت أصوات نسائية ناعمة من البهو ، وسمعوا صوتاً يهدد قائلا :

ـــ تابع السير . تابع السير . يد على الدرابزين وأخرى على أنفك .

وعلى أثر هذه الفكاهة سمع روسو بوضوح ضحكة عالية فالتفت إلى فنسنت وابتسم .

وفكر فنسنت أنه لم ير قط رجلا تنطق عيناه بمثل هذه البراءة والصراحة وليس فيهما أثر للحقد أو التبرم ـ واندفعت إلى الغرفة جماعة مكونة من نحو عشرة أو اثنى عشر شخصا ، وكان الرجال يرتدون ملابس السهرة أما النساء فكن يلبسن فساتين فاخرة وينتعلن خفافا غالية جميلة وفى أيديهن قفازات طويلة بيضاء وعلى أثر دخولهن فاح فى الحجرة شذى عطورهن الثمينة ومساحيقهن الرقيقة وانتشرت رائحة الحرير والمخمرات القديمة .

وصاح جيوم بيل بصوته العميق المهيب :

ـــ حسناً ياهنرى ها نحن هؤلاء قد أتينا ولكننا لانستطيع أن نمكث طويلا لأننا ذاهبون لحضور الحفلة الراقصة التى تقيمها الأميرة دى بروجلى ولكن يجب عليك فى الوقت نفسه أن تعمل على تسلية ضيوفى .

واندفعت فتاة هيفاء ذات شعر أفحم وترتدى فستاناً مكشوف الصدر من طراز أمبير وقالت :

— أوه أريد أن أراه ـ فكروا فقط أننا فى حضرة المصور العظيم الذى تتحدث عنه باريس كلها ـ هل لك أن تقبل يدى يا سيد روسو ؟
وقال أحدهم .
— حذار يابلانش فأنت تعرفين . . . هؤلاء الفنانين .
وابتسم روسو وقبل يدها وانزوى فنسنت فى ركن بينما أخذ بيل وثيو يتجاذبان هنيهة أطراف الحديث وأخذ باقى الجماعة يسيرون أزواجا فى الحجرة وهم يعلقون على مختلف اللوحات تعليقات تصحبها ضحكات هادرة ويعبثون بستائر روسو وتحفه . وينتهون فى كل ركن بالحجرة ويطلقون عليه نكتة جديدة .
وقال روسو :
— إذا تفضلتم بالجلوس سيداتى وسادتى فسوف تشنف فرقتى الموسيقية أسماعكم بعزف قطعة موسيقية من تأليفى وإنى أهديها للسيد بيل وقد أطلقت عليها اسم أغنية رافال .
فصاح بيل :
— اسمعوا جميعاً ! سيقوم روسو بتسليتنا . جينى ! بلانش ! جاك ! اجلسوا فسوف تسمعون قطعة رائعة .
ووقف الصبية الأربعة يرتجفون أمام المعزف الوحيد المحطم وأعدوا كاناتهم وجلس روسو إلى المعزف وأغلق عينيه وقال بعد لحظة :
— استعدوا
وبدأ يعزف وكانت القطعة الموسيقية التى ألفها من الأناشيد الكنائسية البسيطة وحاول فنسنت أن يستمع ولكن ابتسامات الجماعة المتكلفة طغت على الموسيقى وأخيرا صفقوا جميعا وهتفوا استحسانا وذهبت بلانش إلى البيانو ووضعت يديها على كتفى روسو وقالت :
— لقد كان هذا جميلا منك ياسيدى ، جميلا حقا ، وقد حرك عزفك مشاعرى وكان له أثر عميق لم أصادفه من قبل .

— هذا ثناء لا أستحقه منك يا سيدتى .

فصرخت بلانش وهى تضحك قائلة :

— هل سمعت هذا ياجيوم . إنه يعتقد أنى أتملقه !

وقال روسو :

— سأعزف لكم الآن قطعة أخرى من تأليفى .

— بل غن لنا أغنية من شعرك ياهنرى ولا شك أنك تعرف قصائد عديدة .

فكشر روسو عن أنيابه فى خفة كالأطفال وذهب إلى المنضدة وتناول حزمة من القصائد المكتوبة وعبث فيها بأصابعه ثم انتقى منها واحدة وجلس إلى البيانو وبدأ يعزف وكانت الموسيقى جيدة فى نظر فنسنت واستطاع من خلال السطور القليلة التى استمع إليها أن يتبين أن القصيدة ساحرة وجذابة ولكن تأثير الاثنين معا كان مضحكا وصرخت الجماعة وأخذوا يضربون بيل على ظهره .

— أواه ياجيوم ـ أنت كلب . ما أشد مكرك !

وبعد أن انتهى روسو من عزفه ذهب إلى المطبخ وعاد يحمل عددا من أقداح القهوة السميكة الخشنة ووزعها على ضيوفه فالتقطوا حبات الكراوية من الكعك وألقوا بها فى قهوة كل منهم بينما أخذ فنسنت يدخن غليونه وقد انزوى فى ركن الحجرة .

— هيا يا هنرى أرنا آخر لوحاتك فقد أتينا لهذا . يجب أن نراها هنا فى مرسمك قبل أن يذهبوا بها لمتحف اللوفر .

فقال روسو

— لقد رسمت بعض اللوحات الجميلة الجديدة وسوف أنتزعها لكم من الحائط .

وتجمع الحاضرون حول المنضدة وكل منهم يحاول أن يفوق الآخر فى إسرافه فى المجاملات .

وشهقت بلانش وقالت :

— هذا تصوير رائع جدا ورسم رفيع . يجب أن أحصل على إحدى اللوحات لأزين بها مخدعى ولن أستطيع أن أعيش يوما آخر دون أن أحصل عليها ، سيدى العزيز كم تطلب ثمناً لهذه التحفة الخالدة ؟

— خمسة وعشرون فرنكا .

— خمسة وعشرون فرنكا ! تصوروا ! خمسة وعشرون فرنكا فقط ثمناً لهذه التحفة الفنية العظيمة ! وهل ستهديها إلى !

— هذا يشرفنى .

وقال بيل

— لقد وعدت أن أشترى واحدة لفرانسواز . سآخذ هذه لخطيبتى ياهنرى ولا بد أنها أجمل اللوحات التى رسمتها .

— إنى أعرف مايروقك يا سيد بيل .

وأنزل لوحة لحيوان غريب الخلقة يعيش فى دغل كذلك الذى ورد ذكره فى إحدى القصص الخيالية فولول الكل صارخا على بيل وقالوا :

— ماهذا ؟

— إنه أسد

— لابل هو نمــــر .

— وأقول لك إنها المرأة التى تغسل ملابسى فقد تعرفت عليها .

وقال روسو بلهجة تقطر عذوبة .

— ولكن هذه أكبر قليلا ياسيدى وسوف تكلفك ثلاثين فرنكا .

إنها تستحق ذلك ياهنرى ، لعمرى إنها تستحق هذا الثمن . . ولا شك أن أحفادى سيبيعون هذه اللوحة البديعة يوما بثلاثين ألفا من الفرنكات!

وصاح كثير من الآخرين .

— وأنا أريد واحدة . أريد واحدة . يجب أن آخذ واحدة لأصدقائى فهذا أحسن معرض فى هذا الموسم .

وصاح بيل

— هلموا بنا جميعا وإلا تأخرنا عن حضور الحفلة الراقصة وهاتوا معكم لوحاتكم ولا شك أن هذه الأشياء ستكون سبباً فى حدوث ثورة فى منزل الأميرة دى بروجلى . إلى اللقاء ياهنرى ، لقد أمضينا معك وقتاً ممتعاً للغاية ونحن نتوقع منك أن تقيم لنا حفلة أخرى قريبا .

وقالت بلانش وهى تسد أنفها بمنديلها المعطر .

— إلى اللقاء يا أستاذى العزيز — لن أنساك قط وسوف تعيش للأبد فى ذاكرتى .

وصرخ أحد الرجال قائلا :

— دعيه وشأنه يا بلانش وإلا فإن الرجل المسكين لن يغمض له جفن طوال الليل .

واحتشدوا وأخذوا يهبطون الدرج فى صخب ويطلقون على بعضهم النكات مخلفين وراءهم سحابة من العطر الثمين ليمتزج برائحة البناء النتنة .

وسأله فنسنت فى هدوء .

— ألديك مانع ياثيو من العودة وحدك للمنزل ؟ فبودى أن أبقى لأتعرف بالسيد . وانصرف ثيو ولم يلحظ روسو فنسنت وهو يغلق خلفه الباب ثم يستند إليه واستمر يعد النقود المكومة فوق المائدة .

— ثمانون فرنكا — تسعون فرنكا — مائة . مائة وخمسة .

ثم نظر لأعلى ورأى فنسنت يرقبه فعاد إلى عينيه تعبير الطفولة وبساطتها ودفع النقود جانبا ووقف هناك وهو يبتسم فى بلاهة .

فقال فنسنت .

— هلا خلعت هذا القناع عن وجهك ياروسو فلست إلا فلاحا ورساما مثلك . فترك روسو المنضدة وسار إلى فنسنت وضغط على يده بحرارة وقال :

— لقد أرانى أخوك صورك عن الفلاحات الهولنديات وهى جيدة بل إنها أحسن من صور ميليه وقد تأملتها مرارا عديدة وإنى لمعجب بك ياسيدى !

— وأنا كنت أتأمل لوحاتك ياروسو وهؤلاء يهزءون بأنفسهم وإنى لمعجب بك أيضاً .

— أشكرك . ألا تجلس وهلا ملأت غليونك بتبغى ؟ لقد جمعت مائة وخمسة من الفرنكات وسوف أستطيع أن أشترى تبغا وطعاما وقماشا لرسم لوحاتى . وجلسا إلى المائدة متقابلين وأخذا يدخنان فى مودة وأخلدا إلى الصمت واستغرقا فى التفكير .

— أظن أنهم يقولون إنك مجنون ياروسو ؟

— أجل وإنى لأعرف هذا وقد سمعتهم فى لاهاى يقولون إنك مجنون أيضاً .

— أجل إن الأمر كذلك .

— فليظنوا بى مايشاءون فنى يوم ما سوف تعلق لوحاتى فى لكسمبورج .

وقال فنسنت :

— أما لوحاتى فسوف تعلق فى متحف اللوفر .

وكان كل منهما يقرأ مايجول فى ذهن الآخر فى عينيه وانفجرا فى ضحكة تلقائية من القلب . وقال فنسنت :

— لعمرى إنهم على حق ياهنرى فنحن مجنونان !

— فسأله روسو .

— إذن فهل لنا أن نشرب نخب هذا ؟

* * *

(٧)

وفى يوم الأربعاء التالى طرق جوجان باب الشقة وقت العشاء وقال :

ـــ طلب منى أخوك أن آخذك إلى مقهى باتينيول هذا المساء لأنه سيتأخر فى العمل فى قاعة الفنون . لعمرى إن هذه اللوحات لذيذة . أيمكن أن أراها ؟

ـــ بالتأكيد . لقد رسمت بعضها فى البرابانت والبعض فى لاهاى .

وحملق جوجان فى الصور طويلا ورفع يده بضع مرات وفتح فمه كما لو كان يهم بالكلام ولكن يبدو أنه لم يستطع ترتيب أفكاره وأخيرا قال :

ـــ أرجوك معذرة لسؤالى يافنسنت ولكن هل يمكن اتفاقا أن تكون مصابا بالصرع ؟

وكان فنسنت يرتدى سترة من جلد الغنم سبق أن أثارت هلع ثيو وكان قد عثر عليها فى متجر للأشياء المستعملة وأصر على ارتدائها .

والتفت إلى جوجان وحملق فيه ثم قال :

ـــ مصاب بماذا ؟

ـــ بالصرع . أقصد أنك واحد من هؤلاء الناس الذين يتعرضون لنوبات عصبية .

ـــ لست منهم فيما أعرف ياجوجان ، ولكن لم تسأل ؟

ـــ حسناً . إن صورك هذه تبدو كما لو كانت توشك على الانفجار من لوحاتك . وعندما أتأمل فى عملك وليست هذه أول مرة أقوم فيها بهذا فإنى أحس بأنها تثير أعصابى فلا أكاد أستطيع أن أسيطر عليها وأحس

بأنه إذا لم تنفجر الصورة فإن هذا بلا شك سوف يحدث لى ! أتعرف أى جزء من جسمى يتأثر أكثر بلوحاتك ؟

ـ لا ، أى جزء ؟

ـ أمعائى فكل مافى داخل جسمى يبدأ فى الارتجاف وأحس بشعور ينتابنى من الاهتياج والانزعاج بحيث أكاد لا أستطيع كبح جماح نفسى .

ـ إذن لعل فى استطاعتى أن أبيعها كعقاقير ملينة . ولم لا تعلق إحداها فى دورة المياه وتتطلع إليها فى ساعة معينة كل يوم ؟

ـ ولكنى أتكلم جاداً يا فنسنت فأنا لا أعتقد أن فى استطاعتى أن أعيش مع لوحاتك لأنها كفيلة بأن تثير كوامن جنونى فى خلال أسبوع .

ـ هل لنا أن ننصرف ؟

وسارا فى شارع مونمارتر إلى بوليفار كليش .

وسأله جوجان

ـ هل تناولت عشاءك

ـ لا ، وهل تناولته أنت ؟

ـ لا . إذن فهل لنا أن نذهب إلى مطعم باتاى ؟

ـ فكرة صائبة ولكن هل معك أية نقود ؟

ـ ليس معى سنتيم واحد . وكم معك أنت ؟

ـ إنى مفلس كالعادة وكنت أنتظر ثيو ليأخذنى معه إلى الخارج .

ـ يا للأسى ! إذن فلن نجد شيئا نأكله .

ـ هيا بنا نذهب ونرى طبق اليوم على أية حال .

وسارا فى شارع ليبيك نحو أعلى التل ثم استدارا يمينا إلى شارع ديزابيس وكانت مدام باتاى قد أعدت قائمة للطعام كتبت بالحبر على عجل وسمرتها على إحدى أشجارها المغروسة فى قدور مقلدة أمام المطعم .

وقال فنسنت :

— أم م م — ضلع عجل بالبسلة . هذا طبق المفضل .

فقال جوجان :

— ولكننى أكره لحم العجل ولهذا فإنى مسرور لأننا لن نأكل .

— ياللسخف !

وأخذا يضربان على غير هدى فى الشارع وفى المتنزه الصغير المثلث الشكل عند سفح التل .

وقال جوجان

— هالو ! هذا بول سيزان نائم على مقعد — لست أدرى لماذا يستخدم هذا الأبله حذاءه كوسادة — هيا بنا نوقظه .

وجذب من سراويله الحزام وطواه ثم جلد به بشدة قدمى الرجل النائم اللتين لا يغطيهما سوى جواربه فقفز سيزان وهو يصرخ من الألم وقال :

— ويحك يا جوجان أيها الصادى الجهنمى ! أهذا مزاح فى رأيك ؟ سأضطر يوما إلى سحق جمجمتك .

— لعل فى هذا درسا لك حتى لا تترك قدميك مكشوفتين . ولم تضع هذا الحذاء الريفى القذر تحت رأسك ؟ أعتقد أنه أسوأ من ألا تضع وسادة على الإطلاق .

وأخذ سيزان يفرك باطن كل قدم على حدة ثم ارتدى حذاءه فى تأفف وقال :

— إنى لا أستخدمهما كوسادة بل أضمهما تحت رأسى خشية أن يسرقهما أحد وأنا نائم .

والتفت جوجان إلى فنسنت وقال :

— قد تظن أنه فنان يوشك أن يموت جوعا ولكن والده يملك مصرفا ونصف مقاطعة إكس أن بروفانس . بول أقدم لك فنسنت فان جوخ شقيق ثيو .

فتصافح سيزان وفنسنت

وقال جوجان

— مما يؤسف له أننا لم نقابلك منذ نصف ساعة ياسيزان فقد كان يمكنك أن تنضم إلينا وتتناول طعام العشاء فى مطعم باتاى حيث يقدمون لك أحسن طبق من لحم ضلع العجل بالبسلة ذقته فى حياتى .

وسأله سيزان

— أكان حقا طيبا ؟

— طيبا ؟ لقد كان لذيذا شهيا . أليس كذلك يا فنسنت ؟

— بلى .

— إذن أظن أنه ينبغى أن أذهب لأصيب منه شيئا . هل لكم أن تأتوا معى ؟ .

— لا أدرى إذا كان فى استطاعتى أن آكل قطعة أخرى — أتستطيع ذلك يا فنسنت ؟

— أظن هذا من الصعب ومع ذلك فليس لدى مانع إذا أصر سيزان .

— كن لطيفا ياجوجان فأنت تعلم أنى لا أحب تناول الطعام وحدى وخذ شيئا آخر إذا كنت قد نلت كفايتك من لحم العجل .

— حسن . لامانع من أجل خاطرك . هلم بنا يافنسنت .

وعادوا من شارع ديزابيس إلى مطعم باتاى .

وقال الساقى :

— طاب مساؤكم ياسادة ، هل اخترتم ما تطلبون ؟

— أجل أحضر لنا ثلاثة من طبق اليوم .

— حسنا وأى نوع من النبيذ .

— اختر النبيذ أنت ياسيزان لأنك خبير بهذه الأشياء أكثر منى .

فلنر ما هنالك . ساقت استيف وبوردو وسوترن وبون .

فقاطعه جوجان فى لهجة صادقة .

— هل جربت شراب البومارد ؟ أعتقد أنه خير ماعندهم من النبيذ .

فقال سيزان للساقى .

— إذن فهات لنا زجاجة من شراب البومارد .

والتهم جوجان طعامه من لحم العجل والبسلة الخضراء فى لمح البصر ثم التفت إلى سيزان وكان الأخير لم ينته بعد من تناول نصف عشائه وقال :

— سمعت يا بول أن كتاب زولا الأخير بيع منه آلاف النسخ .

فألقى عليه سيزان نظرة تقطر بالمرارة والحزن ودفع طعامه فى امتعاض والتفت إلى فنسنت وقال :

— هل قرأت هذا الكتاب يا سيدى ؟

— كلا ولكنى انتهيت من قراءة « جرمينال »

فقال سيزان :

— إنه كتاب ردىء بل كتاب كل ما فيه زيف وافتراء وفضلا عن هذا فإن سطوره تنطق بأحط خيانة يمكن أن ترتكب باسم الصداقة . فهذا الكتاب يا سيد فان جوخ عن مصور ، عنى أنا ! وإميل زولا من أقدم أصدقائى فقد نشأنا معا فى أكس ودخلنا المدرسة معا وما أتيت إلى باريس إلا لأنه كان هنا وكنا أنا وإميل أقرب إلى بعضنا من الأشقاء وكنا خلال أيام حداثتنا قد وضعنا الخطة لأن نمضى معا حتى نصبح من كبار الفنانين . والآن انظر كيف يفعل معى هذا .

فقال فنسنت :

— ولكن ماذا فعل بك ؟

ـ لقد سخر منى وهزأ بى وجعل منى أضحوكة القوم فى كل باريس . كنت أنبئه يوما بعد يوم بنظرياتى فى الضوء ونظرياتى فى تمثيل الأشياء الجامدة تحت المظاهر السطحية وأبلغته بآرائى عن لوحة الألوان الثورية وكان يصغى إلى ويشجعنى ويستجوبنى ولكنه كان طوال الوقت يجمع المواد اللازمة لنشر كتابه ولأتبين كم كنت أحمق .

وتجرع كأسه المترعة بالنبيذ والتفت إلى فنسنت واستأنف كلامه قائلا وعيناه الصغيرتان تتألمان وتشتعلان بنيران الحقد والضغينة .

ـ وقد جمع زولا منا ثلاثة فى هذا الكتاب يا سيد فان جوخ وهم أنا وبازيلى وصبى مسكين تعس اعتاد أن ينظف مرسم مانيه وكان لهذا الصبى مطامح فنية ولكنه أخيرا شنق نفسه فى لحظة تملكه فيها اليأس . وقد صورنى زولا كشخص مغرق فى الخيال وتعس تائه فى بيداء الضلال يظن أنه سيحدث ثورة فى الفن ولكنه لا يرسم بالطريقة التقليدية لسبب واحد هو افتقاره إلى موهبة الرسم ثم يجعلنى أشنق نفسى من فوق الصقالة التى أصور عليها تحفتى الرائعة لأنى أدرك فى النهاية أن ما ظننته عبقرية لم يكن إلا تخاريف مجنون بل ويضع فوقى فنانا آخر من أكس ، وهو نحات ينتج أعظم النفايات الأكاديمية ابتذالا ويجعل منه فنانا عظيما .

فقال جوجان :

ـ هذا أمر يبعث حقا على التسلية خصوصا وكلنا نذكر أن زولا كان أول من هلل وكبر لثورة إدوار مانيه فى التصوير . لقد فعل إميل للتصوير الانطباعى أكثر مما فعل أى رجل آخر على قيد الحياة .

ـ أجل ، إنه يعبد مانيه لأن إدوار تغلب على أنصار المدرسة الأكاديمية ولكنى عندما أحاول أن أتجاوز نطاق الانطباعيين يقول عنى إنى أحمق وأبله أما إميل فإنه متوسط الذكاء وصديق مكروه ومنذ مدة طويلة امتنعت راغما عن الذهاب لبيته وهو يعيش مثل أى بورجوازى لعين ، طنافس ثمينة

تكسو الأرض وقفازات فوق طنف الموقد وخدم ومكتب محفور ومنحوت من الخشب يكتب عليه روائع أعماله . اف ! لعمرى إنه لينتمى إلى الطبقة المتوسطة أكثر من مانيه وقد كان هذان الاثنان بورجوازيين توأمين ولهذا اتفقت أهواؤهما ولما كنت قد أتيت من نفس المدينة التى جاء منها إميل ولأنه يعرفنى منذ كنت صبيا فإنه يعتقد أنى لا يمكن أن أقوم بأى عمل ذى بال .

— ولكنى سمعت أنه كتب (كتالوجا) لصورك التى عرضت فى صالون اللوحات المرفوضة منذ بضع سنوات فماذا كان من أمره ؟

— لقد مزقه إميل يا جوجان قبل أن يرسله للمطبعه .

وسأله فنسنت

— ولكن لم فعل هذا ؟

— لعله خشى أن يظن النقاد أنه لم يكفلنى إلا بدافع صداقتى القديمة له ولو كان قد نشر هذا الكتيب لرسخت أقدامى ولكنه بدلا من ذلك نشر هذه الرواية .

وهذا كثير بالنسبة لصداقتنا فقد أصبحت لوحاتى فى صالون « اللوحات المرفوضة » يسخر منها تسع وتسعون فى المائة من الناس وهذا دوارند رويل يعرض لديجاه ومونيه وصديقى جيومان ولكنهم يرفضون أن يمنحونى مساحة قدرها بوصتان وحتى أخوك ياسيد فان جوخ يخشى أن يضع لوحاتى فى طابقه الأرضى ولعل التاجر الوحيد فى باريس الذى قبل أن يعرض لوحاتى فى نافذته هو الأب تانجى وهذا المسكين لم يستطع أن يبيع كسرة خبز لمليونير جائع .

وسأل جوجان ..

— ألا يزال فى الزجاجة شىء من شراب البومار يا سيزان ؟ شكرا . ولعل ما آخذه على زولا أنه يجعل غسالاته يتحدثن كما تفعل الغسالات الحقيقيات وعند ما يتركهن ينسى أن يغير أسلوبه .

— حسنا ، لقد سئمت باريس وسوف أعود إلى أكس وأقضى هناك بقية

عمرى وأنعم بالتل الذى يصعد من ألمادى ويطل على جانب البلد بأكمله فنى الريف تجد ضوء الشمس الساطع واللون الصافى وياله من لون ! وإنى لأعرف أن هناك رقعــــة من الأرض قرب قمة التل معروضـة للبيع وتكسوها أشجار الصنوبر وهناك سوف أشـيد لنفسى مرسما وأزرع بستان تفاح وأبنى حائطا حجريا كبيرا حول الأرض وأمزج الزجاج المكسور بالأسمنت أعلى الحائط لأحجب عنى الناس وأصبح فى عزلة عن العالم ولن أغادر الريف ما حييت أبدا . . أبدا . .

فغمغم جوجان وهو يحتسى كأسه من شراب البومار . .

ــ ويحك أتريد أن تقضى حياتك ناسكا ؟

ــ أجل . . سأقضيها ناسكا . .

ــ ناسك أكس . . ما أجمله من عنوان . . يحسن بنا أن نذهب إلى مقهى باتينيول فسوف نجد الكل هناك الآن . .

* * *

(٨)

وكان الكل هناك تقريبا وكان أمام لوتريك كوم عال من الأطباق حتى إنه كان يريح عليها ذقنه وكان جورج سيرا يتحدث فى هدوء مع انكيتان وهو مصور نحيف طويل القامة حاول أن يمزج بين طريقة الانطباعيين وطريقة الرسوم اليابانية وكان هنرى روسو يخرج من جيبه بعض الكعك ويغمسه فى قهوة باللبن بينما انهمك ثيو فى مناقشة حادة مع اثنين من نقاد الفن الحديث من باريس .

وكانت باتينيول فيما سبق ضاحية تقع عند مدخل بوليفار كليش وهناك جمع إدوارمانيه حوله مريديه من سكان باريس وقبل وفاة مانيه اعتاد تلاميذ مدرسة باتينيول أن يجتمعوا مرتين فى المقهى كل أسبوع وتقابل هناك ليجرو وفانتان لاتور وكوربيه ورينوار كلهم وتوصلوا إلى نظرياتهم فى الفن ولكن الآن أصبح يدير المدرسة الفنانون الشبان .

ورأى سيزان إميل زولا فسار إلى مائدة نائية وطلب قهوة وجلس بعيدا عن الناس وقدم جوجان فنسنت لزولا ثم تهالك جالسا فى مقعد بجانب تولوز لوتريك وترك زولا وفنسنت وحدهما أمام مائدتهما .

— لقد رأيتك قادما مع بول سيزان يا سيد فان جوخ ولا شك أنه قال لك عنى شيئا أليس كذلك ؟ . . .

— بلى . .

— وماذا قال ؟

— أخشى أن أقول إن كتابك أصابه بجرح عميق .

فتنهد زولا ودفع المائدة بعيدا عن المقعد الجلدى ليفسح مكانا لكرشه الضخم وسأله . .

— هل سبق لك أن سمعت عن علاج شفا ينتجر ؟ يقولون إن الرجل الذى لا يشرب شيئا مع وجبات الطعام يمكنه أن يفقد فى خلال ثلاثة شهور ثلاثين رطلا من وزنه . .

— لم أسمع به من قبل . .

— لقد آلمنى كثيرا أن أكتب هذا الكتاب عن بول سيزان ولكن كل كلمة وردت به حقيقة لامراء فيها . هل يمكنك وأنت مصور أن تزيف صورة شخصية لصديق . . لا لشىء إلا لأنها كانت سبب تعاسته ؟ لا شك أنك لن تفعل هذا وبول شاب عظيم وكان أعز أصدقائى إلى أن أغلق على لوحات بول فى صيوان حتى لا يكون موضعا لسخريتهم .

— ولكن لا شك أن عمله لا يمكن أن يكون رديئا لهذا الحد . .

— بل إنه أسوأ ياعزيزى فان جوخ . . أسوأ . . هل رأيت شيئا من أعماله ! هذا يفسر سذاجتك لأنه يرسم كما يفعل طفل فى الخامسة من عمره وصدقنى أصبحت أعتقد أنه قد جن تماما . .

— ولكن جوجان يحترمه . .

واستأنف زولا كلامه قائلا . .

— ومما يسحق قلبى أن أرى سيزان يضيع عمره فى رسم هذه اللوحات الخيالية وأرى أنه يجب عليه أن يعود إلى إكرو يخلف أباه فى وظيفته فى المصرف ولعله بهذا يمكن أن يكون له شأن فى حياته ولا شك أن الأمور إذا سارت على هذا النحو فإنه سيشنق نفسه يوما ما كما تنبأت بذلك هل قرأت هذا الكتاب ياسيدى !

— لا . . ولكننى انتهيت من قراءة جرمينال . .

— حقا . . ! وما رأيك فيه ! . .

— أعتقد أنه خير ما كتب منذ عهد بلزاك . .

— أجل ، إنه تحفتى الرائعة وقد ظهر فى جلبلاس فى العام الماضى وحصلت فى مقابل هذا على مبلغ لا بأس به من المال وقد بيع من هذا الكتاب حتى الآن أكثر من ستين ألف نسخة ولم يكن دخلى فى حياتى كبيرا كما هو اليوم .. ولهذا سأضيف لمنزلى جناحا جديدا فى «مدان» . وهذا الكتاب تسبب فى حدوث ثورة هائلة وعندما تحدث فعلى الرأسمالية السلام! ولكن أى نوع من اللوحات تصور ياسيدى ! لقد أخبرنى جوجان باسمك الأول . . ترى ما هو !

— فنسنت . . فنسنت فان جوخ . . وثيوفان جوخ شقيق . .

فوضع زولا القلم الذى كان ينكث به فى الحجر الرخامى الذى يعلو المائدة وأخذ يحملق فى فنسنت . . ثم قال . .

— هذا غريب . .

— ما هو هذا الغريب ! . .

— اسمك لقد سمعت به من قبل فى مكان ما . .

— ربما يكون ثيو قد ذكره أمامك . .

— لا شك أنه فعل هذا ولكن الأمر ليس كذلك . . انتظر قليلا ! إنه « جرمينال » هل ذهبت إلى مناطق مناجم الفحم .

— نعم وقد عشت سنتين فى البوريناج البلجيكية . .

— البوريناج — بيتى وازم ! ماركاس !

وفجأة اتسعت عينا زولا الكبيرتان فى وجه الملتحى المستدير وقال . .

— إذن فأنت خليفة المسيح !

فتورد وجه فنسنت خجلا وقال :

— ماذا تقصد بهذا !

— لقد قضيت خمسة أسابيع فى البوريناج وأنا أجمع المواد لكتاب «جرمينال» وقد حدثنى عمال المنجم عن رجل مسيحى عمل بينهم كقس إنجيلى . .

— أرجوك أن تخفض صوتك . .

فطوى زولا يديه ووضعهما فوق كرشه ثم دفعه للداخل وقال :

— لا داعى للخجل يافنسنت . . فإن ما حاولت أن تقوم به هناك شىء يستحق هذا الجهد ولكنك اخترت بيئة غير صالحة فالدين لا يؤثر فى الناس فى كل مكان ولا يقبل العيش فى بؤس فى هذه الحياة الدنيا إلا الناس ذوو النفوس الوضيعة الذين يحلمون بالنعيم فى الحياة الآخرة .

— لقد اكتشفت هذا ولكن متأخرا جدا . .

— لقد قضيت سنتين فى البوريناج يافنسنت وزهدت فى طعامك ومالك بل

وتخليت عن ملابسك وعملت حتى أشرفت على الهلاك فماذا أخذت من هذا؟
لا شيء وقد وصفوك بأنك رجل معتوه وطردوك من الكنيسة ولم تكن
الأحوال عندما رحلت بأحسن منها عندما أتيت ..

— بل لعلها كانت أسوأ . .

— ولكنى سأنجح فيما فشلت فيه فإن الكلمة المكتوبة سوف تحدث
ثورة ولا شك أن كل عامل يجيد القراءة فى بلجيكا وفرنسا قد قرأ كتابى
وليس فى كل الإقليم مقهى أو كوخ حقير لا يملك نسخة من كتاب «جرمينال»
ولاشك أن هؤلاء الذين لا يعرفون القراءة قد استمعوا إليه وهو يتلى عليهم
المرة تلو المرة وقد قاموا حتى الآن بأربعة إضرابات وهناك عشرات غيرها
فى الطريق . إن البلد كلها تنهض وسوف يخلق « جرمينال » مجتمعا جديدا
لم يستطع دينك أن يحققه فبماذا كوفئت على هذا؟ .

— بماذا ؟

— ببضع فرنكات . . آلاف وآلاف منها . . هل لك أن تشاركنى
الشراب ؟ . .

واحتدت المناقشة حول مائدة لوتريك وأثارت انتباه كل واحد من
الحاضرين وسأل لوتريك وهو يفرقع أصابعه واحداً إثر الآخر ..

— ما رأيك فى طريقتى ياسيرا ؟

وتجاهل سيرا هذا التعريض وكانت تقاطيع وجهه الجميلة الهادئة الجامدة
التعبير لا توحى بوجه رجل فحسب بل بجوهر جمال الرجولة وقال :

— هناك كتاب جديد عن انكسار الألوان ألفه أمريكى يدعى أوجدين
رود وأعتقد أنه دراسة متقدمة عن هلمولتز وشيفرال ولو أنه لا يشجع على
قراءته مثل كتاب دى سوبر فيل وكلكم تستطيعون قراءته وتستفيدون منه
فقال لوتريك :

— أنا لا أقرأ كتبا فى التصوير وأترك هذا الأمر للعامة .

ففك سيرا أزرار سترته المخططة بخطوط سوداء وبيضاء وعدل من وضع
رباط رقبته الأزرق العريض المنقط وقال :

— ولكنك أنت نفسك من العامة طالما أنك تخمن سلفا أى لون ستستخدم .

— إنى لا أخمن بل أعرف بالسليقة . .

وقال جوجان :

— ولكن العلم ليس إلا منهجا نسلكه ياجورج وقد أصبحنا نطبق استخدام الألوان بطريقة علمية بعد سنوات من العمل الدائب والتجربة .

— هذا لا يكفى ياصديق فعصرنا يميل إلى الإنتاج الهادف وقد ولت إلى الأبد ايام الإلهام والتجربة الخطأ .

وقال ووسو :

— أنا لا أستطيع قراءة هذه الكتب فهى تسبب لى صداعا ومن ثم اضطر إلى التصوير طول اليوم كى أتخلص منه .

فضحك الجميع والتفت انكيتان إلى زولا وقال :

— هل قرأت الهجوم الذى شنته هذه الصحيفة المسائية على كتاب « جرمينال » . .

— لا وماذا قالت ؟

— لقد وصفك الناقد بأنك أسوأ كاتب لا أخلاقى ظهر فى القرن التاسع عشر . .

— تلك هى صيحتهم القديمة . . ألا يمكنهم أن يجدوا شيئاً آخر يقولونه ضده ؟ .

فقال لوتريك :

— ولكنهم على صواب يازولا فأنا أرى أن كتبك جنسية قذرة ولاشك أنك خليق بأن تعرف القذارة عندما تراها . .

— لقد أثرتك هذه المرة بالوتريك . .

وصاح زولا مناديا . .

— ياناادل دورة أخرى من الشراب . .

فغمغم سيزان قائلا :

— علينا الآن أن نوطن النفس على قبول منهج معين فعندما يطلب إميل

شرابا فهذا معناه أنك مضطر لسماع محاضرة تستغرق ساعة ..

وأحضر الساقى كئوس الشراب وأشعل المصورون غلايينهم وضاقت الحلقة التى تجمعوا حولها .. وكانت المصابيح الغازية ترسل فى الحجرة أشعة حلزونية ولم يكن يسمع من حديث الجالسين إلى الموائد الأخرى إلا همهمة خافتة وكلمات تتبادل فى مودة .

وقال زولا :

— يقولون إن كتبي منافية للآداب لنفس السبب الذى يلصقون من أجله هذه الصفة بلوحاتك ياهنرى والجمهور لا يمكن أن يفقه أنه لا مجال فى الفن للأحكام الأخلاقية لأن الفن منفصل عن الأخلاق بل وعن الحياة وأنا أرى أنه ليس ثمة صور فاحشة أو كتب بذيئة بل هناك صور لا نفقه مغزاها أو كتب لم نفهم معانيها .. فلوحة « العاهرة » لتولوز لوتريك لا تنافى الآداب لأنها مثيرة للأحاسيس وحلوة للغاية لدرجة أنه يكفيك أن تنظر إليها مرة واحدة فتصاب بالغثيان ..

فأومأ ثيو برأسه موافقا وقال ..

— أجل .. هذا حق..

ورأى فنسنت أن المصورين كانوا يحترمون زولا لا لأنه كان ناجحا فحسب ..فهم يزورون مفاهيم النجاح العادية — بل لأنه كان يطرق مجالا يبدو لهم صعبا وغامضا وكانوا يصغون له وهو يقول :

— وذهن الإنسان العادى يفكر فى تعبيرات ثنائية ،الضوء والظل والحلو والمر والخبيث والطيب ، وهذه الثنائية لا توجد فى الطبيعة فليس هناك خير ولا شر فى هذه الحياة الدنيا بل هناك فقط وجود وتصرف وعند ما نصف فعلا فإننا نصف مظهراً للحياة وعندما نطلق أسماء على هذه التصرفات مثل الغواية أو الفحش فإننا ندخل فى نطاق الهوى الشخصى ..

وقال ثيو ..

— ولكن ماذا يفعل الجمهور يا إميل بدون معيار للأخلاق ؟

فهب تولوز لنجدته وقال :

— الأخلاق ليست إلا منوما ليغمض الناس عيونهم عن تبين فساد دون زخرف الحياة الدنيا ..

وقال سيرا ..

— إن ثورتك يازولا على الأخلاق ليست إلا فوضى بل هى فى هذا فوضى تؤدى إلى عدم وقد جربت من قبل ولم تنجح ..

وقال زولا موافقا :

— لا بد بالطبع أن نخضع لبعض القوانين لخير الجماعة يتطلب بذل تضحيات من الفرد وأنا لا أعترض على التمسك بالأخلاق ، بل أعترض فقط على الحياء والخفر الذى يصمق على لوحة « أوليمبيا » ويريد أن يصادر أعمال موباسان وأقول لكم إن الأخلاق فى فرنسا تنحصر اليوم فى أضيق نطاق .. ألا فلندع الناس يبيتون مع من يعشقون فإنى لأعرف أن هناك خلقا أسمى من هذا ..

فقال جوجان :..

— وهذا يذكرنى بحفلة عشاء أقمتها منذ بضع سنوات إذ قال لى رجل من المدعوين .. « لعلك تدرك ياصديقى أنى لا استطيع أن أصحب زوجتى لحفلات العشاء التى تقيمها إذا حضرتها عشيقتك » . « فأجبته قائلا .. حسن جدا سأرسلها هذا المساء لتبيت فى الخارج » .

وعند ما انتهينا من تناول العشاء وانصرفوا جميعا إلى منازلهم نهضت السيدة الشريفة التى أمضت الليل كله وهى تتثاءب ثم كفت عن التثاؤب وقالت لزوجها : « هلا تحدثنا حديثا شائقا قبل أن نفعلها .. فقال لها زوجها ، بل دعينا لا نفعل شيئا سوى الحديث فقد أكلت كثيرا هذا المساء » .

وصاح زولا وسط الضحكات ..

— وهذا ينبئنا بالقصة كلها .

وقال فنسنت :

— هلا تركنا الحديث عن الأخلاق لحظة وعدنا إلى الخلاعة فى الفن فلم يصف أحد صورى بأنها بذيئة ولكنى اتهمت اتهاما لا يتبدل يفوق فى شناعته الخلاعة والقبح ..

فقال تولوز لوتريك :

— لعمرى لقد أصبحت الهدف هذه المرة يافنسنت . .

وقال جوجان موافقا :

— أجل هذا هو جوهر الخلاعة الجديد عند الجمهور . . هل قرأت ما كتبته عنا هذا الشهر جريدة مركيزدى فرانس ؟ عبادة القبح . .

فقال زولا :

— لقد وجهت إلى سهام هذا النقد نفسه فبالأمس قالت لى كونتيسة :

«مسيو» زولا ياعزيزى . . لماذا يعمد رجل له مثل موهبتك الفذة إلى تقليب الأحجار ليرى أى نوع يزحف تحتها من الحشرات القذرة؟ »

وتناول لوتريك صحيفة قديمة أخرجها من جيبه وقال :

— اسمعوا لما قاله الناقد عن لوحاتى التى عرضت فى آخر صالون للمصورين المستقلين ..

« قد يكون تولوز لوتريك حقيقا باللوم لابتهاجه برسم الخلاعة التافهة والمتع الفظة والموضوعات الحقيرة ولكن يبدو أنه لايحس بجمال الطلعة وتناسق الشكل ورشاقة الحركة وقد يكون حقا قد صور بفرشاته الرقيقة كائنات سقيمة التكوين مبتورة الأعضاء كريهة لفرط قبحها ولكن أى فائدة فى هذا الانحراف ؟ »

فغمغم فنسنت قائلا :

— هذه خيالات فرانز هالس ..

وقال سيرا :

— حسناً ، لعمرى إنه على حق لأنكم معشر الرجال إذا لم تكونوا قد انحرفتم فإنكم على الأقل قد ضللتم الطريق.. فالفن يجب ألا يتناول إلا الأشياء المجردة كاللون والزخرفة .. ودرجة اللون (التون) ولا يجوز أن نستخدمه لتحسين الأحوال الاجتماعية أو إبراز القبح فالتصوير ينغى أن يكون كالموسيقى شيئا منفصلا عن عالمنا كل يوم .

وقال زولا :

— فى العام الماضى توفى فكتور هيجو ودفنت معه حضارة كاملة .. حضارة كانت تقوم على الإيماءات الجميلة والخيال البارع والأكاذيب الخبيثة والمهارة فى الاحتيال ولكن كتبى تمثل الحضارة الجديدة ، حضارة القرن العشرين البعيدة عن الآداب العامة وبالمثل لوحاتكم وقد كان بورجيرو يجر جيفته حول باريس ولكن يوم عرض إدوارد مانيه لوحته « نزهة على الحشائش »أصابه النحس ومات يوم انتهى مانيه من تصوير لوحته «أوليمبيا»

— حسنا . . إن مانيه قد مات الآن وكذلك دومييه ولكن مايزال ديجا ولوتريك وجوجان أحياء ليتابعوا أعمالهم . .

وقال تولوز لوتريك :

— لا تنس أن تدرج اسم فنسنت فان جوخ فى هذه القائمة . .

وقال روسو :

— بل ضعه فى رأس القائمة . .

فقال زولا :

— حسنا جدا يافنسنت ، إنك مرشح لزعامة مدرسة القبح فهل تقبل هذا الترشيح ؟

فقال فنسنت :

— بل إنى أخشى للأسف أن أكون قد ولدت فى دنياه . .

وقال زولا :

— أيها السادة لنقم بصياغة منشورنا فأولا نحن نعتقد أن كل حقيقة جميلة مهما بدا وجهها كالحا ونحن نقبل الطبيعة على علاتها دون جحود ونؤمن بأن فى الحقيقة القاسية جمالا يفوق ما فى الأكذوبة اللطيفة وأن هناك فى الدنيا من الشاعرية أكثر مما فى كل صالونات باريس .. ونحن نعتقد أن الألم خير لأنه أعمق المشاعر البشرية جميعا ونحن نعتقد أن الجنس شىء جميل حتى عندما نرسم صورة شخصية لبغى وقواد ونحن نضع الحق فوق القبح والألم فوق الجمال والحقيقة القاسية الساذجة فوق كل ما فى فرنسا من ثروات ونحن نتقبل الحياة على علاتها دون أن نصدر عليها أحكاما ونحن نعتقد أن المومس فاضلة كأى كونتيسه وأن حارس الباب نافع كالقائد وأن الفلاح صالح كالوزير لأنهم جميعا يصلحون نماذج للطبيعة ونحن جميعا نسيج من تصميم الحياة ..

وصاح تولوز لوتريك ..

— لنرفع كئوسنا أيها السادة ونشرب نخب منافاة الآداب وعبادة القبح ولعل هذا يزيد فى جمال وإبداع العالم ..

وقال سيزان :

— نخب اللغو !

وقال جورج سيرا :

— ومرة أخرى نخب اللغو ....

* * *

(٩)

وفى غرة شهر يونية انتقلا إلى شقتهما الجديدة بالمنزل رقم ٥٤ بشارع ليبيك بمونمارتر . وكان المنزل لا يبعد عن شارع لافال إلا قليلا . . وما كان عليهما إلا أن يسيرا فى شارع مونمارتر إلا مسافة لا تزيد عن بضع مبان إلى بوليفار كليش ثم يتخذا شارع ليبيك الملتوى ويمرا بالمولان دى لا جاليت تقريبا فى الجزء الريفى من التل .

وكانت شقتهما تقع فى الطابق الثالث وتتكون من ثلاث حجرات وغرفة صغيرة ومطبخ وكانت حجرة المعيشة مريحة بفضل مافيها من أثاث ثيو القديم الجميل من طراز لويس فيليب والمدفأة الكبيرة التى كانت تقيهم شر برد باريس . وكان ثيو بارعا فى شئون تدبير المنزل ويحب أن يرى كل شىء فى موضعه واتخذ الحجرة المجاورة لغرفة المعيشة حجرة لنومه بينما كان فنسنت ينام فى الحجرة الصغيرة التى يقع خلفها مرسمه وكان عبارة عن حجرة عادية الاتساع ولها نافذة واحدة . .

وقال ثيو :

— لا داعى لأن تعمل بعد ذلك فى استوديو كورمان يافنسنت . .

وكانا يرتبان قطع الأثاث فى حجرة المعيشة ثم يعيدان تنظيمها . .

— لا ، وشكرا فمازلت فى حاجة إلى تصوير بعض الفتيات العاريات .

فوضع ثيو الأريكة عبر الحجرة المجاورة للغرفة الصغيرة ثم قاس الحجرة بعين الناقد وسأله .

— ولكنك لم تتم لوحة واحدة بالألوان منذ وقت طويل أليس كذلك ؟

— نعم

— ولم لم تفعل ؟

— وما الفائدة ؟ إلى أن أستطيع مزج الألوان .. أين تريد أن أضع هذا المقعد المريح يا ثيو ؟ تحت المصباح أو بجوار النافذة ! أما الآن وأنا أملك مرسما خاصا بي . . . »

واستيقظ فنسنت فى صباح اليوم التالى مع شروق الشمس ووضع حامل الصور فى مرسمه الجديد ووضع قطعة من القماش فوق إطار ثم وضع الملون (البالت) الجديد المتألق والذى اشتراه له ثيو وأخذ فى تليين أطراف فراجينه وما إن حان الوقت حتى وضع القهوة وذهب إلى المخبز لشراء بسكوت هش .

وكان ثيو يستطيع أن يحس بانفعال فنسنت واضطرابه وهما على مائدة الإفطار فقال له :

— حسنا يا فنسنت . لقد أمضيت فى المدرسة ثلاثة شهور — أوه . لا أقصد مرسم كورمان بل أقصد مدرسة باريس ! ولقد رأيت أهم تصوير تم فى أوربا فى خلال ثلاثمائة سنة والآن أنت على استعداد لأن . . .

فدفع فنسنت بإفطاره الذى أكل منه نصفه ثم وثب واقفا على قدميه وقال :

— أعتقد أنى سأبدأ .

— اجلس وانته من إفطارك فلديك متسع من الوقت ولا داعى للقلق فسوف أشترى لك الألوان والقماش بالجملة فيكون منها تحت تصرفك كمية كبيرة ويحسن بك أن تجرى جراحة لأسنانك فإنى أريد أن تكون دائما فى صحة تامة ولكن بالله عليك اشرع فى عملك بعناية وبطء !

وعندما عاد ثيو لبيته هذا المساء وجد أن فنسنت قد جلد نفسه فى

سورة غضبه . لقد كان يعمل فى تقدم مطرد فى حرفته مدى ست سنوات فى ظروف سيئة تثبط الهمة وتسحق الفؤاد والآن وقد أصبح كل شيء له مهيئا اكتشف أنه فى حالة عجز أذل كبرياءه .

وبلغت الساعة العاشرة ولما يستطع ثيو أن يهدئه ولكن عندما خرجا لتناول طعام العشاء عادت إلى فنسنت بعض ثقته بنفسه وكان ثيو يبدو شاحبا ومتعبا .

وكانت الأسابيع التالية بمثابة عذاب لهما معا وعندما كان ثيو يعود من عمله فى قاعة الفنون كان يجد فنسنت فى إحدى الحالات المائة المختلفة التى يعانى فيها من سورات غضبه ولم تكن ثمة فائدة على الإطلاق للقفل القوى الذى وضعه على بابه وكان فنسنت يجلس على حافة سريره ويجادله حتى الساعات الأولى من الصباح وإذا حدث أن استغرق ثيو فى النوم فإن فنسنت كان يهزه من كتفيه ويوقظه .

وفى ليلة توسل إليه ثيو وقال :

— هلا كففت عن السير لحظة وجلست ساكنا . وبالله لا تشرب هذا الأبسنت اللعين ولا تظن أن جوجان قد طور ألوانه بهذه الوسيلة . والآن استمع إلى أيها الأبله اللعين . ينبغى أن تمنح نفسك إجازة لمدة عام على الأقل قبل أن تبدأ فى النظر إلى عملك بعين الانتقاد . وما الفائدة فى أن تهلك نفسك فى العمل حتى تسقط مريضا ! لعمرى إنك لتزداد نحافة وتغدو أكثر عصبية ولا شك أنك تعرف أنه لن يكون فى وسعك أن تنتج أروع أعمالك وأنت بهذا الحال .

وأقبل صيف باريس بموجاته الحارة وكانت الشمس تصلى الشوارع بشواظ من نار فكان الناس يجلسون فى باريس أمام مقاهيهم المفضلة حتى الساعة الواحدة أو الثانية صباحا ويحتسون المشروبات الباردة . وتفتحت

الأزهار فى تل بوت بمونمارتر وتألقت بألوانها الزاهية للصارخة وكان نهر السين يتعطف خلال المدينة فى طريقه المتلألئ وعلى شاطئيه ثمة أشجار مورقة وأجزاء ظليلة من الحشائش الخضراء .

وكان فنسنت يرفع على ظهره حامل اللوحات صباح كل يوم وينطلق باحثا عن منظر يصوره ولم يعرف قط مثل هذه الحرارة عندما كان يقيم فى هولندا ولم ير قط من قبل مثل هذا اللون الأساسى العميق وكان يعود من جولاته التصويرية مساء كل يوم فى الوقت المناسب تقريبا ليشترك فى المناقشات الحادة فى الطابق الأرضى من محل جوبيل .

وجاءه جوجان يوما ليعاونه فى مزج الألوان وسأله

— من أين تشترى هذه الألوان ؟

— إن ثيو يشتريها بالجملة .

— يجب أن تعاضد الأب تانجى وتشترى منه فأسعاره أقل الأسعار فى باريس كما أنه يأتمن الرجل عندما يكون مفلسا .

— ومن هو هذا الأب تانجى ! لقد سمعتك من قبل تذكر اسمه .

— ألم تقابله بعد ! رباه ! إذن ينبغى ألا تتردد لحظة أخرى فأنته والأب الرجلان الوحيدان اللذان قابلتهما ووجدت أنهما شيوعيان حقا من كل قلبيهما . هيا والبس قلنسوتك الجميلة المصنوعة من فراء الأرنب فسوف نذهب إلى شارع كلوزيل .

وبينما كانا ينعطفان فى شارع ليبيك أخبره جوجان بقصة الأب تانجى فقال له :

— قبل أن يأتى إلى باريس كان يعمل فى الطلاء والتجصيص ثم عمل طحانا للألوان فى محل إدوارد وبعدها شغل وظيفة حارس باب فى مكان ما بالتل .

وتفرغت زوجته للعناية بشئون المنزل فبدأ الأب يتجر بالألوان فى الحى وقابل بيسارو ومونيه وسيزان فأحبوه منذ ذلك الوقت وبدأنا كلنا نشترى منه حاجتنا من الألوان وانضم إلى الشيوعيين مع الطليعة الأخيرة وبينما كان يوما وهو يقوم بواجب الحراسة هبطت إلى موقعه الحربى عصابة من فرساى ولم يستطع الرجل المسكين أن يطلق الرصاص على إنسان آخر من البشر وألقى بغدارته فحكم عليه بعامين يقضيهما فى الخدمة فى القواديس فى برست بسبب خيانته ولكننا أنقذناه منها. وكان قد استطاع أن يوفر بضع فرنكات ففتح محله الصغير فى شارع كلوزيل وقام لوتريك بطلاء واجهته باللون الأزرق وكان أول رجل يعرض لوحة لسيزان فى باريس ومنذ ذلك الحين ونحن نعرض بضاعتنا هناك . وليس هذا كى يبيع لوحة . آه لا ! فالحق أن الأب محب عظيم للفن ولما كان فقـــيرا وموارده لا تسعفه بشراء اللوحات فإنه يعرضها فى حانوته الصغير حيث يمكنه أن يعيش بينها طوال اليوم.

— أتعنى أنه لن يبيع لوحة حتى لو تلقى عرضا طيبا لشرائها ؟

— لا قطعا . فهو لا يأخذ إلا اللوحات التى تروق له وعندما يتعلق بلوحة فلن تستطيع أن تنتزعها من محله . وقد كنت هناك يوما عندما حضر رجل حسن البزة وأعجب بلوحة لسيزان فسأله عن ثمنها ولعل أى تاجر سواه فى باريس كان يطير جذلا لو باعها بستين فرنكا ولكن الأب تانجى تطلع إلى اللوحة طويلا ثم قال «آه . هذه اللوحة . إنها لوحة رائعة لسيزان ولا يمكن أن أفرط فيها بأقل من ستمائة فرنك» ولما هرول الرجل خارجا تناول الأب اللوحة من فوق الحائط وأمسكها أمامه ودموعه تتساقط من عينيه .

— إذن مافائدة عرض أعمالكم فى محله ؟

— حسنا ! إن الأب تانجى شخص غريب ولا يعرف عن الفن إلا طحن الألوان ومع ذلك فإن له حاسة فنية قلما تخطىء يميز بها اللوحة الأصيلة

فإذا طلب منك إحدى لوحاتك فلا تتردد فى إعطائها له لأنها ستكون بداية رسمية لك فى ميدان الفن الباريسى . هاهو شارع كاوزيل . لننثن وندخل فيه.
وكان شارع كلوزيل طريقا واحدا يصل شارع دى مارتير بشارع هنرى مونييه وكان حافلا بالمحلات الصغيرة التى تقع تحت طابقين أو ثلاثة من المساكن المغلقة وكان محل الأب تانجى يقع عبر الشارع بجانب مدرسة ابتدائية للبنات .

وكان الأب تانجى يتطلع إلى بعض الرسوم اليابانية وكانت وقتئذ أحدث ماورد لباريس .

— أيها الأب — لقد أحضرت لك صديقا هو فنسنت فان جوخ وهو شيوعى متحمس فقال الأب تانجى فى صوت ناعم كصوت النساء تقريبا .

— يسرنى أن أرحب بك فى محلى .

وكان تانجى رجلا صغير الجسم له وجه مكتنز وعينان تواقتان كعينى كلب أليف وعلى رأسه قبعة من القش لها حافة عريضة وكان يجذبها إلى ماتحت مستوى حاجبيه وكانت له ذراعان قصيرتان ويدان بتراوان ولحية خشنة وكان يفتح عينه اليمنى نصف فتحة عينه اليسرى . وسأل فى حياء .

— أحقا أنت شيوعى ياسيد فان جوخ ؟

— لست أدرى ماذا تقصد بالشيوعية أيها الأب تانجى ولكنى أعتقد أن كل إنسان يجب أن يعمل فى المهنة التى يحبها أكثر ما استطاع إلى ذلك سبيلا وفى مقابل هذا يحصل على كل ماهو فى حاجة إليه .

فضحك جوجان وقال :

— هكذا بهذه البساطة .

فقال الأب تانجى :

— آه لقد عملت فى بورصة العقود يابول . أليس المال هو الذى يحيل الرجال إلى وحوش ضارية ؟

— بلى ولكن هذا يصدق أيضا على الافتقار إلى المال .

— لا إن الافتقار إلى المال لا يمكن أن يفعل هذا ولعلك تقصد الافتقار إلى الطعام وضروريات الحياة .

فقال فنسنت :

— صدقت أيها الأب تانجى فالأمر كذلك تماما .

فقال الأب تانجى :

— إن صديقنا بول يزدرى الرجال الذين يربحون المال ويستخف بنا لأننا لا نستطيع أن نكون ثروة ولكنى أفضل أن أنتمى للطبقة الأخيرة ولا شك أن أى رجل يعيش على دخل يزيد عن خمسين سنتيما فى اليوم أفاق.

فقال جوجان :

— وإذن فالفضيلة قد حلت عندى بحكم الحاجة فهل لك أن تأتمنى أيها الأب تانجى وتعطينى قليلا من اللون ؟ وإنى لأعرف أنى أدين لك بمبلغ كبير من المال ولكنى سأعجز عن العمل مالم . . .

— نعم يا بول . . سأعطيك شيئاً على الحساب ولو كنت أقل ثقة بالناس وكنت أنت أعظم ثقة لتحسنت حالنا معا . ولكن أين اللوحة التى وعدتنى بها ؟ قد أستطيع أن أبيعها وأسترد ثمن ألوانى .

فغمز جوجان بعينه لفنسنت وقال :

— سأحضر لك لوحتين أيها الأب لتعلقهما جنبا إلى جنب والآن هلا سمحت لى بأنبوبة من اللون الأسود وأخرى من اللون الأصفر .

— ادفع ماعليك تحصل على مزيد من الألوان !

والتفت الرجال الثلاثة فى وقت واحد وكانت مدام تانجى قد دخلت إلى المحل بعد أن صفقت الباب المؤدى إلى مسكنهم وكانت امرأة نحيلة صغيرة الجسم لها وجه هزيل قاسى الملامح وعينان تفيضان بالمرارة وقالت لجوجان وهى تصخب :

— أتظن أننا نعمل لوجه الله ؟ هل تعتقد أننا نستطيع أن نأكل شيوعية

تانجى ؟ هيا وادفع هذا الحساب أيها المحتال وإلا أبلغت عنك الشرطة !

فابتسم جوجان ابتسامة تأخذ بمجامع القلوب وتناول يد مدام تانجى وقبلها فى لطف وكياسة وقال :

— آه يا اكسانتيب . كم تبدين ساحرة هذا الصباح !

ولم تفهم مدام تانجى لماذا كان هذا الحيوان الجميل يصر على أن يدعوها باسم اكسانتيب ولكنها كانت تحب سماعه وتطرب لهذا الثناء .

— لا تظن أنك تستطيع خداعى أيها الكسول البليد فإنى أعمل كالرقيق فى طحن هذه الألوان القذرة ثم تأتى أنت وتسرقها .

— لا تقسى على ياعزيزتى اكسانتيب الغالية بإن لك روح فنانة وإنى لأستطيع أن اتبين هذا بين تقاطيع وجهك الجميل .

فرفعت مدام تانجى ميدعتها كما لو كانت تهم بمسح روح الفنانة عن وجهها وصرخت قائلة :

— أف ! يكفينا وجود فنان واحد فى العائلة ولعله قال لك إنه يريد أن يعيش بخمسين سنتيما فى اليوم فبالله من أين تعتقد أنه سيحصل على هذه السنتيمات الخمسين إذا لم أكسبها له !

— إن كل باريس تتحدث عن سحرك ومهارتك ياسيدتى العزيزة .

وانحنى ومرة أخرى مس بشفتيه يدها المجعدة فلانت وقالت :

— حسنا ، إنك أفاق تحسن المداهنة ولكنك تستطيع أن تحمل هذه الدفعة على بعض اللون بشرط أن تحاول سداد ما عليك .

— واعترافا منى بهذا الجميل يا اكسانتيب الجميلة سأرسم لك صورة شخصية سوف تعلق يوما فى متحف اللوفر وتخلد ذكرانا معا .

وجلجل الجرس الصغير على الباب الأمامى ودلف منه رجل غريب وقال :

— لمن هذه الصورة المعلقة فى نافذتك . تلك الطبيعة الصامتة !

— لبول سيزان .

— سيزان ! لم أسمع عنه من قبل أهى للبيع ؟

— آه لا . للأسف فهى قد . . .

فألقت مدام تانجى بمئزرتها ودفعت تانجى من طريقها وهرولت فى اهتمام نحو الرجل وقالت :

— ولكنها للبيع طبعا . إنها صورة جميلة . طبيعة صامتة . أليست كذلك ياسيدى ! هل رأيت من قبل مثل هذه التفاحات! سنبيعها لكم بثمن رخيص ياسيدى ما دامت تعجبك .

— وكم تطلبون !

فقالت المدام بصوت فيه نبرة التهديد .

— ما ثمنها ياتانجى !

فابتلع تانجى ريقه بصعوبة وقال :

— ثلاث . . .

— تانجى !

— مائة . . .

— تانجى !

— حسنا ، مائة فرنك . .

فقال الغريب :

— مائة فرنك ؟ مقابل لوحة لمصور من النكرات ؟ أخشى أن تكون قد غاليت فى الثمن . لقد كنت على استعداد أن أنفق حوالى خمسة وعشرين فرنكا .

فانتزعت مدام تانجى اللوحة من النافذة وقالت :

— تأمل ياسيدى . إنها لوحة كبيرة وهناك أربع تفاحات — أربع

تفاحات بمائة فرنك . وأنت تريد أن تدفع خمسة وعشرين فرنكا فقط .
إذن لم لا تأخذ تفاحة واحدة ؟

فأخذ الرجل يدرس اللوحة لحظة ثم قال :

— نعم — بوسعى أن أفعل هذا . اقطعى هذه التفاحة بطول اللوحة وسوف آخذها .

فهرولت المدام عائدة إلى شقتها وأحضرت مقصا وقطعت التفاحة التى فى الطرف ولفتها فى قطعة من الورق وناولتها للرجل وأخذت منه الخمسة والعشرين فرنكا وسار خارجا وهو يحمل اللفافة تحت ذراعه .

وقال تانجى وهو يئن .

— لوحة سيزان الأثيرة عندى . لقد وضعتها فى النافذة ليراها الناس لحظة ثم ينصرفون وهم سعداء .

ووضعت السيدة اللوحة المشوهة على المائدة وقالت :

— فى المرة القادمة إذا أراد شخص شراء لوحة لسيزان ولم يكن معه ما يكفى من النقود فبع له تفاحة خذ مقابلها أى شىء يمكنك الحصول عليه فإنها لاقيمة لها على أى حال وهو يصور منها الكثير . لاداعى لأن تضحك يا بول جوجان فسوف يحدث لك نفس الشىء وسوف أنتزع لوحاتك هذه من الحائط وأبيع كل واحدة من فتياتك العاريات لقاء خمسة فرنكات للصورة .

فقال جوجان :

— عزيزتى أكسانتيب . مما يؤسف له أننا تقابلنا بعد فوات الأوان . فلو كنت شريكتى فى بورصة العقود لكنا الآن نملك فرنسا .

وعندما انسحبت السيدة إلى مسكنها الواقع خلف المحل قال الأب تانجى لفنسنت :

— هل أنت مصور ياسيدى ! أرجو أن تشترى من محلى ألوانك وربما تسمح لى برؤية بعض لوحاتك !

— يسعدنى أن أفعل هذا . هذه رسومات يابانية بديعة . أهى للبيع ؟

— أجل لقد أصبحت طرازاشائعا فى باريس منذ أخذ إخوان كونكور فى جمعها وهى تؤثر فى مصورينا الشبان إلى حد كبير .

— تعجبنى هاتان الاثنتان وأود أن أدرسهما فكم تريد ثمنا لهما ؟

— ثلاثة فرنكات لكل واحدة .

— سآخذهما ـ أواه يا إلهى لقد نسيت . فقد أنفقت آخر فرنك معى هذا الصباح . أمعك ست فرنكات يا جوجان ؟

— بالله لا تسخر منى .

فوضع فنسنت الرسوم اليابانية على المائدة وهو آسف وقال :

— أرانى مضطرا لتركهما أيها الأب تانجى .

فوضع الأب الرسوم فى يد فنسنت وتطلع إليه وقد ارتسمت على وجهه البائس ابتسامة تنم بالود والحياء وقال :

— إنك فى حاجة إليهما لعملك فأرجوك أن تأخذهما وسوف تدفع لى ثمنهما فيما بعد .

☆ ☆ ☆

(١٠)

وقرر ثيو أن يقيم حفلا لأصدقاء فنسنت فأعد أربعا وعشرين بيضة مسلوقة تماما واشترى برميلا صغيرا من البيرة وملأ أطباقا لا تحصى بالبسكوت والفطائر وكان دخان التبغ فى حجرة المعيشة كثيفا لدرجة أن جوجان كان يبدو كإحدى السفن من عابرات المحيط تبرز من بين الضباب وذلك كلما تحرك بدنه الضخم من طرف ، إلى آخر وجثم لوتريك فى ركن وأخذ يكسر البيض على ذراع مقعد ثيو الأثير ويبعثر القشر فوق السجادة وكان روسو بالغ الانفعال بسبب رسالة معطرة تلقاها فى هـــذا اليوم من إحدى السيدات المعجبات وكانت تريد أن تقابله وأخذ يردد عليهم القصة وقد اتسعت عيناه من فرط الدهشة وكان سيرا قد استخلص نظرية جديدة وأكره سيزان على أن يتسمر بجانب النافذة ليشرحها له بينما أخذ فنسنت يصب البيرة من البرميل الصغير ويضحك على نكات جوجان البذيئة ويتساءل مع روسو عما عساه تكون السيدة صديقته ويجادل لوتريك أيهما أعظم تأثيرا فى الفنان الانطباعى ويستحوذ على اهتمامه أهى الخطوط أم نقط اللون. وأخيرا أنقذ سيزان من براثن سيرا .

وكانت الحجرة تتفجر من فرط الانفعال الذى كان يتملك من فيها من الرجال وكانوا كلهم من الشخصيات القوية الشديدة الأنانية الذين تسيطر عليهم فكرة تحطيم الأصنام المهتزة ،وكان ثيو يطلق عليهم اسم المساسيين فقد كانوا يحبون الجدل والعراك والسباب ويدافعون عن نظرياتهم الخاصة ويدحضون كل ماعداها وكانت لهم أصوات جهورية خشنة ولعل جوا يبلغ حجمه عشرين ضعفا لغرفة جلوس ثيو خليق بأن يضيق ذرعا بمثل هـذه القوة الدينامية لهؤلاء المصورين المغرمين بالصخب والعراك .

وقد كان الهرج الذى ساد الحجرة وملأ فنسنت حماسا وحركة وأطلق

لسانه من عقاله سببا فى إصابة ثيو بصداع مؤلم إذ كان هذا الطنين غريبا على طبيعته الهادئة ولا شك أنه كان يحب هؤلاء الرجال الذين يملأون الغرفة حبا جما . ألم يدخل من أجلهم فى معركة هادئة لا تنتهى مع آل جوبيل ولكنه وجد أن هذا الصخب والضجيج غير المألوف لهذه الشخصيات شيء يخالف طبيعته الهادئة وكان فى شخصية ثيو شيء من رقة الأنثى ولاحظ تولوز ذلك فقذفه مرة بإحدى دعاباته الثقيلة المعتادة وقال:

— مما يؤسف له أن ثيو شقيق لفنسنت فقد كان يصلح ان يكون له زوجة رائعة . .

ووجد ثيو أن بيع لوحات بورجيرو أمر مقيت لنفسه وأنه من السخف أن يصور فنسنت مثلها ومع ذلك فقد كان يدرك أنه لو باع لوحة لبورجيرو لسمح له فالودون بعرض لوحات ديجا ولعله يستطيع يوما أن يغرى فالودون بعرض لوحه لسيزان ثم لجوجان أو لوتريك وأخيرا لعله يستطيع فى يوم بعيد أن يعرض لوحة لفنسنت فان جوخ .

وألقى نظرة أخيرة على الغرفة المشحونة بالدخان والضجيج والعراك ثم انسل خارجا من الباب الأمامى دون أن يلحظه احد وسار فى التل وحيدا حيث أخذ يحملق فى أضواء باريس المنتشرة أمام عينيه .

واخذ جوجان يحاور سيزان ويلوح بإحدى يديه الى يقبض بها على بيضة مسلوقة وبسكوتة بينما يمسك بيده الأخرى كأساً من البيرة وكان يفخر بأنه الرجل الوحيد فى باريس الذى يستطيع أن يشرب البيرة والغليون فى فمه .

وصاح قائلا :

— لأن لوحاتك باردة ياسيزان . باردة كالثلج وهى تدفع الدم جامدا فى عروقى عندما أتطلع إليها وليس فى اللوحات القماشية الطويلة التى نشرتها للتصوير ذرة واحدة من العاطفة .

فأفحمه سيزان قائلا :

— إنى لا أحاول رسم العاطفة بل أدع هذا وأنت ترسم ماتراه بعينيك، وهذا هو ماترسم به .

— وبم يرسم اى شخص آخر ؟

فألقى جوجان نظرة سريعة على الحجرة وقال :

— بكل شيء فلوتريك يرسم هناك بطحاله وفنسنت فان جوخ يرسم بقلبه وسيرا يرسم بعقله وهو لعمرى أمر سيء كرسمك بعينيك وروسو يرسم بخياله .

— وبم ترسم ياجوجان ؟

— من . . أنا ؟ لا أدرى فلم أفكر من قبل فى هذا الأمر .

فقال لوتريك :

— إذن دعنى أخبرك — إنك ترسم بصورتك !

وعندما تلاشت ضحكات القوم على جوجان جثم سيرا بجسمه على ذراع أريكة وصاح قائلا :

— تستطيع أن تهزأ برجل يرسم بعقله ولكن هذا كان عنوانا لى فى أن أكتشف كيف يمكن أن أجعل لوحاتنا مزدوجة الأثر .

فتأوه سيزان وقال :

— أينبغى أن أصغى لهذا الهراء مرة أخرى ؟

— اخرس ياسيزان ! وأنت ياجوجان هلا جلست فى مكان ما حتى لا تفسد نظام الحجرة كلها وأنت ياروسو هلا كففت عن ترديد هذه القصة اللعينة عن تلك السيدة المعجبة بك وأنت يالوتريك ناولنى بيضة ، ويافنسنت هل لك أن تناولنى بسكوتة . والآن استمعوا إلى جميعا !

— ماذا بك ياسيرا ؟ لم يسبق أن رأيتك ثائرا هكذا منذ أن بصق ذلك الرجل على لوحتك فى صالون اللوحات المرفوضة !

اسمعوا ! ماهو التصوير اليوم ؟ الضوء . وأى نوع من الضوء ؟ الضوء المتدرج . نقط من اللون تنساب إحداها فى الأخرى .

— هذا ليس تصويرا بل ترقيمية !

— بالله ياجورج أتريد أن تتعالى علينا مرة أخرى بسموّ وأدوارك ؟

— اخرس ! إننا فنتهى من رسم لوحة فماذا تفعل ؟ ننقلها إلى أحد الأغبياء ليضعها فى إطار ذهبى بشع ويقضى بذلك على آخر أثر لنا — والآن أقترح الا ندع صورة تفلت من أيدينا حتى نضعها فى إطار وندهن الإطار بحيث يصبح جزءا مكملا للصورة .

— ولكنك لن تمضى فى هذا الأمر طويلا ياسيرا فكل صورة يجب أن تعلق فى حجرة فإذا كانت الحجرة قد طليت جدرانها بلون خاطىء فإن هذا كفيل بأن يقضى على الصورة والإطار معا .

— هذا صحيح ولكن لم لاتطلى الحجرة بحيث تتلاءم مع الإطار ؟

فقال سيرا :

— هذه فكرة صائبة .

— وما قولك فى البيت الذى تقع فيه الحجرة ؟

والمدينة التى يقع فيها هذا البيت ؟

اواه ياجورج ! إنك لاتخطر لك إلا أسوأ الأفكار ياجورج !

وهذا ناشىء من تصويرك بذهنك .

إنكم لا تصورون لأن بأذهانكم رءوسا خاوية !

— لينظر كل واحد منكم إلى وجه جورج — بسرعة ! لقد استطعنا أن نثير غضب العالم تماما هذه المرة .

وسألهم فنسنت .

— لماذا تتعاركون أيها الرجال ؟ لم لاتعملون معاً .

فقال جوجان :

— إنك الشيوعى فى هذه المجموعة . فهلا أخبرتنى بما يعود علينا إذا عملنا معا ؟

فقال فنسنت وهو يلقى فى فمه بصفار بيضة مسلوقة .

— حسناً جداً . سأخبركم فقد توصلت إلى خطة . نحن جماعة من النكرات وقد مهد الطريق أمامنا مانيه وديجا وسيسلى وبيسارو واعترف بهم كفنانين وعرضت أعمالهم فى أكبر قاعات الفن وأصبحوا مصورى الجراند بوليفار وأما نحن فليس لنا إلا أن نذهب إلى الشوارع الجانبية البيتى بوليفار فلم لانعرض لوحاتنا فى المطاعم الصغيرة فى الشوارع الجانبية والمطاعم التى يتناول فيها العامل طعامه ؟ وسوف يسهم كل منا بخمس لوحات مثلا وسوف نضعها عصر كل يوم فى مكان جديد ونبيع اللوحات بأى ثمن يكون فى طاقة العمال دفعه فضلا عن أن فى هذا فرصة لعرض أعمالنا دائماً أمام أنظار الجمهور فإننا سنعمل على أن يكون فى وسع الفقراء من سكان باريس مشاهدة الفن الأصيل وشراء لوحات جميلة مقابل لاشىء تقريباً .

ولهث روسو وقال وقد اتسعت عيناه من فرط الإثارة :

— هذا رائع .

ودمدم سيرا متأنفاً وقال :

— إنى لأستغرق عاما حتى أنتهى من تصوير لوحة . فهل تظن أنى سأبيعها لتاجر قذر لقاء خمسة فلسات ؟

— تستطيع أن تسهم بدراساتك الصغيرة .

— نعم ولكن لنفرض أن المطاعم لم تقبل عرض لوحاتنا ؟

— بل ، إنهم سيقبلون ولا ريب .

— ولم لا ؟ إنها لن تكلفهم شيئاً وسوف تضفى على مطاعمهم جمالا .

— وكيف تدبر هذا الأمر ؟ ومن سيجد المطاعم ؟

فصاح فنسنت قائلا :

— لقد فكرت فى هذا . سنعين الأب تانجى مديراً لأعمالنا وعليه أن يجد المطاعم ويعلق الصور ويحصل النقود .

— لعمرى إنه رجلنا ولا ريب .

— هيا ياروسو تكرم وأسرع إلى محل الأب تانجى وقل له إنه مطلوب للقيام بعمل هام .

فقال سيزان :

— يمكنكم اعتبارى من الخارجين على هذه الخطة .

فسأله جوجان :

— ماذا بك ؟ أتخشى أن تتلوث لوحاتك الجميلة بنظرات العمال ؟

— ليس هذا هو الأمر ولكنى عائد إلى إكس فى نهاية هذا الشهر .

فقال فنسنت وهو يحثه :

— هلا جربتها مرة ياسيزان وإذا لم تنجح فلن تخسر شيئاً .

— أوه — حسن جدا .

وقال لوتريك :

— وعندما ننتهى من المطاعم نستطيع أن نبدأ فى المواخير وأنا أعرف السيدات فى مونمارتر ولهن عملاء أحسن وأعتقد أننا سنحصل منهم على أعلى الأثمان .

وجاء الأب تانجى يهرول متلهفاً واستطاع روسو أن يروى له ماحدث

فى اقتضاب وكانت قبعته المستديرة المصنوعة من القش تميل بزاوية على رأسه ،ووجهه المكتنز الصغير يشع بالحماس وينطق بالتلهف، وعندما سمع الخطة صاح قائلا :

— نعم . نعم إنى لأعرف خير مكان يصلح لهذا . إنه مطعم نورفينز وصاحبه صديق لى وجدرانه عارية وسوف يسره هذا ولاريب وعندما تنتهى من هناك فإنى أعرف مطعما آخر فى شارع بيير — أوه إن هناك آلافا من المطاعم فى باريس .

وسأل جوجان :

— ومتى سيقام أول معرض لنادى البيتى وليفار .

وسأل فنسنت:

— ولم نؤجله ؟ لم لانبدأ به غدا ؟

وأخذ تانجى يحجل على قدم واحد ونزع قبعته ثم كبسها ثانية فى رأسه وقال :

— أجل . أجل — غدا ! هاتوا لوحاتكم صباحا وسوف أعلقها عصرا فى مطعم نورفينز وسوف تكون حدثا تهتز له مشاعر الناس عندما يأتون لتناول طعام العشاء . لسوف تبيع اللوحات كما نبيع الشموع المقدسة فى عيد الفصح . ماهذا الذى تعطونه لى ، كأسا من البيرة ! حسناً ! أيها السادة نخب تفادى الفن الشائع فى البيتى بوليفار وتمنياتى لأول معرض له بالنجاح .

* * *

(١١)

وعصر اليوم التالى طرق الأب تانجى باب شقة فنسنت ثم قال :

ــ لقد طفت بالآخرين وأنبأتهم أننا لن نستطيع أن نعرض لوحة فى مطعم نورفينز مالم نتناول هناك عشاءنا .

ــ لا بأس

ــ حسنا لقد وافق الآخرون ولن يتيسر لنا أن نعلق اللوحات قبل الرابعة والنصف فهل يمكنك أن تحضر إلى محلى فى الساعة الرابعة ؟ لسوف نذهب كلنا معا .

ــ سأكون هناك .

وعندما وصل إلى المحل الأزرق فى شارع كلوزيل كان الأب تانجى يحمل اللوحات على عربة يد وكان الآخرون يدخنون فى الداخل ويتناقشون فى الرسوم اليابانية وصرخ الأب قائلا :

ــ هانحن أولاء على استعداد.

وسأله فنسنت :

ــ ايمكننى أن أعاونك فى دفع العربة .

ــ لا . لا فأنا المدير.

ودفع العربة إلى وسط الشارع وبدأ صعوده الطويل وسار خلفه المصورون اثنين اثنين فسار أولا جوجان ولوتريك فقد أرادا أن يكونا معاً بسبب اللوحة الهزلية التى رسمها وكان سيرا يستمع إلى روسو الذى كان بالغ الانفعال بسبب رسالة معطرة أخرى تلقاها عصر هذا اليوم وسار فى المؤخرة فنسنت وسيزان وكانا عابسين وأخذا يتمتمان بكلمات مثل الوقار والحشمة .

وقال جوجان بعد أن مالوا إلى طريق التل :

— قف أيها الأب تانجى فهذه العربة ثقيلة ومحملة بتحف رائعة خالدة — دعنى أدفعها لك قليلا .

فصاح الأب تانجى وهو يجرى .

— لا لا فأنا حامل العلم فى هذه الثورة وعند ما تنطلق أول رصاصة سأكون أول شهيد يسقط فى الميدان .

وكان هؤلاء الرجال بملابسهم غير المتجانسة الغريبة الشكل يسيرون فى موكب مضحك وسط الشارع خلف عربة يد عادية . ولم يعبأوا بنظرات المارة المتفكهين بل أخذوا يضحكون ويتحدثون فى حماس .

وصاح روسو :

— هل أخبرتك يافنسنت بنبأ ذلك الخطاب الذى تلقيته عصر هذا اليوم ؟ وأنه معطر أيضا ومن السيدة نفسها .

وهرول يجرى بجانب فنسنت وهو يلوح له بذراعه وأخذ يردد له نفس القصة التى لاتنتهى وما أن انتهى منها حتى عاد ليسير مع « سيرا » ونادى لوتريك على فنسنت وسأله .

— أتعرف من هى السيدة التى يتحدث عنها روسو ؟

— كلا وأنى لى أن أعرف ؟

فتصنع لوتريك الابتسام وقال :

— إنها من وحى خيال جوجان فقد شاء أن يتيح لروسو أن يعيش فى قصة غرام لأن الفتى المسكين لم يعرف من قبل امرأة ولسوف يزوره جوجان بالرسائل المعطرة شهرين ثم يضرب له موعدا ويرتدى ملابس امرأة ويقابل روسو فى إحدى حجرات مونمارتر التى لها ثقوب يمكن منها اختلاس النظر وسوف نكون كلنا عند الثقب نرقب روسو وهو يطارح الغرام لأول مرة ولا ريب أنه سيكون منظراً رائعا .

— لعمرى إنك شيطان مريد ياجوجان .

فقال جوجان :

— أوه — هون عليك يافنسنت فإنى أعتقد أنها ستكون دعابة جميلة .

وأخيراً وصلوا إلى مطعم نورفين وكان مكانا متواضعا منزويا بين متجر للأنبذة ومخزن للمهمات الخاصة بالخيول وطليت واجهته الخارجية بورنيش أصفر بينما طليت جدرانه الداخلية بلون أزرق فاتح وكانت هناك نحو عشرين مائدة مربعة مغطاة بمفارش مخططة بخطوط بيضاء وحمراء وفى الخلف قرب باب المطبخ كان هناك خباء لصاحب المطعم .

وظل المصورون يتشاجرون ساعة كاملة حول أيهم أحق بأن تعلق لوحاته وكان الأب تانجى فى حالة ارتباك تقريباً وبدا الغضب يتملك صاحب المطعم لأن ساعة تقديم العشاء قد اقتربت والمطعم ما يزال فى حالة يرثى لها من الاضطراب ورفض سيرا مطلقا أن تعرض لوحاته لأن زرقة الجدران ستقضى على زرقة سماواته ولم يسمح سيزان بتعليق لوحاته عن الطبيعة الصامتة بجانب ملصقات لوتريك التعسة وتضايق روسو لأنهم أرادوا أن يلصقوا لوحاته على الحائط الخلفى قرب المطبخ وأصر لوتريك على تعليق لوحاته الكبيرة فى دورة المياه

وقال : هذه أعظم لحظة جديرة بالتأمل فى حياة الإنسان .

وأقبل الأب تانجى إلى فنسنت وقد أوشك أن يحطمه اليأس

وقال : إليك هذين الفرنكين وأضف إليهما ما استطعت ثم أسرع بدعوة الكل إلى ذلك البار عبر الشارع فلو استطعت فقط أن أتفرغ خمس عشرة دقيقة لا ستطعت أن أنتهى من كل شىء .

وأفلحت الحيلة فعندما عادوا إلى المطعم كان المعرض قد انتظم فكفوا عن العراك وجلسوا إلى مائدة كبيرة بجانب باب الشارع وكان الأب تانجى قد وضع بطاقات غطى بها الجدران كتب فيها :

هذه اللوحات للبيع بثمن رخيص — خابروا صاحب المطعم .

وبلغت الساعة الخامسة والنصف ولم يكن طعام العشاء يقدم إلا فى الساعة السادسة وبدأ الرجال يتململون كالتلميذات ،وفى كل مرة كان يفتح فيها الباب الأمامى كانت العيون كلها تتحول إليه يحدوها الرجاء ولم يحضر عملاء مطعم نورفينز حتى دقت الساعة الخامسة .

وهمس جوجان فى أذن سيرا :

— انظر إلى فنسنت . لعمرى إنه لأشد قلقاً من الممثلة الأولى .

وقال لوتريك :

— أتريد ان تعرف ماسوف أصنع ياجوجان ؟ أراهنك على ثمن العشاء بأنى سأبيع لوحة قبلك .

— وأنا قبلت الرهان .

فقال لوتريك :

— أما أنت ياسيزان فإنى أراهنك بثلاثة مقابل واحد

فغضب سيزان لهذه الإهانة بينما ضحك منها الجميع .

وقال فنسنت :

لاتنسوا أن الأب تانجى هو الذى يقوم بالبيع فإياكم أن يحاول أحدكم مساومة المشترين .

وسأل روسو

— ولكن لم لا يأتون ؟ لقد تأخر الوقت .

وكلما اقتربت ساعة الحائط من السادسة ازدادت أعصاب الجماعة توتراً ونفوسهم قلقاً وأخيراً كفوا عن الهذر والمجون وتعلقت أنظار الرجال بالباب وجثم فوق صدورهم شعور متوتر . وغمغم سيرا قائلا :

— إن هذا الشعور لم يخالجنى عندما عرضت لوحاتى مع المستقلين أمام أنظار كل النقاد فى باريس .

وهمس روسو قائلا :

— انظروا انظروا ! هذا الرجل يعبر الطريق فى طريقه إلى هنا ولاريب أنه من العملاء ولكن الرجل مر بمطعم نورفينز ثم اختفى ودقت ساعة الحائط ست مرات وما أن انتهت الدقة الأخيرة حتى فتح الباب ودخل أحد العمال وكانت ملابسه رثة وقد ارتسمت عليه خطوط الشقاء فقوست ظهره وكتفيه

وقال فنسنت :

— سوف نرى الآن مايفعل .

ولكنه سار مطرقا إلى مائدة فى الجانب الآخر من الحجرة ثم ألقى بقبعته على مشجب وجلس وأشرأبت أعناق الستة وأخذوا يرقبونه ، وأمعن الرجل النظر فى قائمة الطعام وطلب طبق اليوم وبعد لحظة أخذ يرشف حساءه بملعقة كبيرة ولم يرفع عينيه عن طبقه .

وقال فنسنت :

حقاً هذا غريب .

ودخل عاملان يشتغلان بطرق المعادن فألقى عليهما صاحب المطعم تحية المساء فتمتما بصوت كالخوار وتهالكا جالسين فى أقرب مقعدين ثم انهمكا فى الحال فى عراك شديد حول شيء حدث لهما فى خلال هذا اليوم .

وأخذ المطعم يمتلىء بالتدريج وأقبلت بعض السيدات مع أزواجهن وبدا كما لو كان كل واحد يعرف أين مائدته التى اعتاد الجلوس إليها وكان أول مانظروا إليه هو قائمة الطعام وعندما قدم لهم الطعام انهمكوا فى تناول طعامهم ولم يرفعوا عنه عيونهم قط وبعد أن انتهوا من تناول طعام العشاء أشعلوا غلايينهم وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث ونشروا نسخاتهم المطوية من جريدة المساء وبدأوا يطالعونها .

وحوالى الساعة السابعة أقبل الساقى وسألهم :

— أيريد السادة أن أقدم لهم الآن طعام العشاء ؟

فلم يحر أحدهم جواباً فانصرف الساقى ودخل رجل وامرأة وبينما كان يقذف بقبعته على المشجب لاحظ الرجل صورة لروسو تمثل نمراً يبرز من خلال الأدغال فأشار إليها وأخذ يحدث زميلته وتصلبت عضلات كل واحد حول مائدة المصور ونهض روسو نصف قيام وقالت المرأة شيئاً فى صوت خفيض وضحكت ثم جلسا ورأسهما متقاربان وبدآ يلتهمان طعامهما فى نهم.

وحوالى الساعة الثامنة إلا ربعاً قدم لهم الساقى الحساء دون أن يطلبوها فلم يمسها أحد منهم ولما بردت رفعها الساقى وأحضر لهم طبق اليوم فأخذ لوتريك يرسم بشوكته صورا فى المرق ولم يستطع أحد أن يصيب شيئاً من الطعام غير روسو ونزع كل منهم حتى سيرا زجاجة من النبيذ الأحمر الحاذق وكان المطعم يشيع فيه الدفء من رائحة الطعام وعبير الناس الذين اشتغلوا وعرقوا فى حرارة الشمس .

وأخذ العملاء يدفعون حسابهم الواحد تلو الآخر ثم يلقون تحية عاجلة على صاحب المطعم وينصرفون .

وقال الساقى :

— آسف أيها السادة فقد بلغت الساعة الثامنة والنصف وحان وقت إغلاق المطعم فانتزع الأب تانجى اللوحات من الجدران وحملها إلى الشارع ثم دفع العربة عائداً لبيته وأخذ يخترق ظلام الليل الذى أسدل أستاره .

* * *

(١٢)

واختفت من قاعات الفنون ربح جو بيل العجوز عم فنسنت فان جوخ للأبد وحلت محلها سياسة تقوم على بيع اللوحات كأى سلعة أخرى كالأحذية أو أسماك الرنجة وكان ثيو ينهك نفسه ليربح مزيداً من النقود ويبيع لوحات رخيصة .

وقال فنسنت :

— قل لى ياثيو لم لا تترك آل جو بيل ؟

فأجاب ثيو فى صوت متعب .

— إن تجار الفن الآخرين لايقلون عنهم سوءا وفضلا عن هذا فقد أمضيت معهم وقتاً طويلا وخير لى ألا أغير عملى .

— ولكن يجب أن تغيره ، إنى أصر على أن تفعل هذا فأنت تزداد تعاسة كل يوم هناك — لاتهتم بى ! فأنا أستطيع أن أذهب إذا أحببت ولعمرى لأنت ياثيو أحسن وأحب من عرفت من تجار الفن فى باريس فلم لا تفتح لنفسك محلا ؟

— أواه ياآلهى ! أينبغى أن نتحدث فى هذا مرة أخرى ؟

— اسمع ياثيو فقد خطرت لى فكرة رائعة . سنفتتح محلا على الشيوع لبيع اللوحات الفنية وكلنا سوف نعطيك لوحاتنا ونعيش على قدم المساواة بما نحصل عليه من المال ونستطيع أن نسهم معاً فى جمع مايكفى من المال لفتح محل صغير فى باريس وسوف نستأجر منزلا فى الريف لنعيش ونعمل فيه . لقد باع بورقيبة أمس لوحة للوتريك وباع الأب تانجى بضع لوحات لسيزان وأنا على يقين بأن فى وسعنا اجتذاب المشترين الشبان للوحات الفنية فى باريس ولن نكون فى حاجة إلى كثير من المال لتدبير أمورنا فى هذا المنزل فى الريف بل سنعيش معاً فى بساطة بدلا من أن نحتفظ باثنى عشر بيتاً فى باريس .

— إنى لأحس بصداع فظيع يافنسنت فهلا تركتنى الآن أذهب لأنام

— لا تستطيع أن تنام يوم الأحد . اصغ إلى ياثيو . إلى أين أنت ذاهب ؟ لا بأس . اخلع ملابسك إذا أردت ولكنى سأتحدث إليك على أية حال وسوف أجلس على طرف فراشك. والآن أنت تحس بالتعاسة لعملك مع جوبيل وكل المصورين الشبان فى باريس قد عقدوا العزم على النجاح وفى استطاعتنا أن نحصل معاً على بعض المال . . .

وفى الليلة التالية أقبل الأب تانجى ولوتريك مع فنسنت وكان ثيو يراوده الأمل فى أن يكون فنسنت قد خرج هذه الليلة وكانت عينا الأب تانجى ترقصان من فرط الانفعال وقال :

— ياسيد فان جوخ هذه فكرة رائعة يا سيد فان جوخ وينبغى أن تنفذها . لسوف أتخلى عن محـــلى وأنتقل معكم إلى الريف وسوف أطحن الألوان وأقوم بفرد لوحات القماش وأصنع الإطارات ولن أطلب منكم إلا الطعام والمأوى . فوضع ثيو كتابه وهو يتنهد وقال:

— ومن أين لنا بالمال لنبدأ المشروع ؟ مال لنفتح به محلا ونستأجر منزلا ونطعم الرجال ؟

فصاح الأب تانجى قائلا :

— إليك فقد أحضرت معى مائتين وعشرين فرنكا وهى كل ما ادخرته خذها ياسيد فان جوخ فسوف نتعاون فى إقامة مستعمراتنا .

— إنك رجل عاقل يالوتريك فما رأيك فى كل هذا الهراء ؟

— أعتقد أنها فكرة صائبة جدا فإن الأمور وهى تسير الآن هكذا تجعلنا لا نكافح باريس كلها فحسب بل تجعلنا نحارب أنفسنا فلو استطعنا أن نكون جبهة متحدة .

— حسنا جدا . إنك غنى فهل أنت على استعداد لمعاونتنا .

— أوه كلا . . . إذا كانت المستعمرة ستقوم على تمويلها بالإعانات فإنها سوف تفقد أغراضها . ولسوف أساهم بمبلغ مائتين وعشرين فرنكا مثل الأب تانجى .

— ولكنها فكرة مجنونة ! وإذا عرفتم أيها السادة شيئا عن دنيا الأعمال فأسرع الأب تانجى إلى ثيو ولوى يده وقال :

— أتوسل إليك ياعزيزى السيد فان جوخ ألا تصفها بأنها فكرة مجنونة ولعمرى إنها لفكرة جليلة وينبغى عليك فقط أن ...

— لا مجال للتراجع الآن ياعزيزى ثيو . لقد تغلبنا عليك ! وسوف نزيد مبلغ المال ، ونعينك رئيسا لنا . لقد ودعت عملك عند آل جوبيل وتخلصت من براثنهم وأنت الآن مدير لمستعمرة الفن على الشيوع .

فغطى ثيو عينيه بيده وقال :

— بوسعى أن أرى نفسى أدير أعمالكم يامعشر الطفحة من الحيوانات المتوحشة وعند ماعاد ثيو فى الليلة التالية وجد بيته يعج بمصورين تملكهم الانفعال وكان الجو يعبق بدخان التبغ الرخيص بالأصوات والجلبة وكان فنسنت نجم الحفل وقد جلس على مائدة غير صلبة فى وسط غرفة المعيشة .

وصاح قائلا :

— كلا ، كلا لن يكون هناك دفع — لا نقود مطلقاً . سوف لا نرى النقود عاما بعد آخر وسوف يبيع ثيو اللوحات ويوفر لنا الطعام والمأوى ومواد الرسم .

وسأل سيرا !

— وما قولك فى الرجال الذين لن تباع أعمالهم ؟ إلى متى سنعولهم ؟

— طالما راق لهم أن يبقوا معنا ويعملوا .

فصاح جوجان مزمجرا :

ـــ ما أروع هذا لسوف نرى كل المصورين الهواة في أوربا يقفون على أعتاب أبوابنا !

ـــ يعيش ثيو ! يعيش ثيو ! يعيش ثيو

واشتد انفعال كل منهم إلى حد كبير وأراد روسو أن يعرف ما إذا كان في استطاعته أن يلقى دروسا في عزف الكمان وهو في المستعمرة وقال انكيتان إنه مدين بأجرة منزله من ثلاثة شهور وإنه يحسن بهم أن يعثروا على المنزل الريفي في أقرب فرصة ، وأصر سيزان على أن يسمح لأي رجل يصرف نقوده الخاصة إذا كان عنده شيء منها .

فصاح فنسنت قائلا :

ـــ لا فهذا سيقضي على تضامننا المشترك ويجب أن نتقاسم كل شيء بالتساوي وأراد لوتريك أن يعرف ما إذا كان يمكنهم استضافة نساء في البيت وأصر جوجان على إكراه كل واحد على الإسهام بلوحتين على الأقل كل شهر .

وصرح سيرا قائلا :

ـــ إذن لن أشترك معكم فأنا لا أنتهي إلا من لوحة واحدة كل عام .

وسأل الأب تانجي :

ـــ وما قولكم في مواد الرسم ؟ هل أعطي لكل واحد نفس الكمية من الألوان والقماش كل أسبوع ؟

فصرخ فنسنت قائلا :

ـــ كلا ، كلا ولا ريب فكلنا نحصل على قدر مانحتاج إليه من المواد لا أكثر ولا أقل تماماً كالطعام .

ـــ نعم ولكن مامصير الفائض من المال ؟ بعد أن نبدأ في بيع لوحاتنا ؟ ومن يجني الأرباح ؟

فقال فنسنت :

ـ لا أحد يجنى الأرباح وحالما يتوافر لنا مبلغ صغير من النقود سنفتتح بيتا فى بريتانى ثم نفتح بيتا آخر فى بروفنس وقريبا ستكون لنا بيوت فى كل أنحاء الريف وعندها سوف ننتقل من مكان لآخر .

ـ ومن أين ندفع أجر السفر بالقطار ؟ أندفعها من الأرباح ؟

ـ نعم ؟ وكم مرة يمكننا أن نسافر؟ومن الذى يقرر هذا ؟

ـ ولنفرض أن هناك عدة مصورين لا يكفيهم منزل واحد فى خلال أحسن الفصول فهل لك أن تخبرنى من ستتركه فى زمهرير البرد ؟

ـ ثيو ، ثيو إنك مدير هذا العمل فهلا أخبرتنا عن كل هذا . هل يستطيع أى واحد أن ينضم ؟ وهل هناك حد لعدد الأعضاء ؟ وهل ينبغى علينا أن نصور طبقا لأسلوب معين وهل سيتاح لنا الحصول على نماذج (موديلات) فى البيت ؟

وانفض الاجتماع عند الفجر وكان الناس تحتهم قد أنهكوا أبدانهم وهم يكنسون بمقشاتهم وذهب ثيو لينام فى نحو الساعة الرابعة بينما أحاط بفراشه فنسنت والأب تانجى وبعض الفنانين الذين ازدادوا حماسا وأخذوا يحثونه على أن يسلم آل جوبيل إشعارا بأنه سيتركهم أول الشهر .

وازداد الانفعال والتلهف شدة بمرور الأسابيع وكانت دنيا الفن فى باريس منقسمة إلى معسكرين وتحدث المصورون الراسخون عن هؤلاء الفتية المجانين من إخوان فان جوخ وثار الجدل بين الآخرين دون انقطاع حول التجربة الجديدة .

وأخذ فنسنت يتحدث ويعمل بجنون ليلا ونهارا وكان عليه تصفية كثير من التفاصيل . كيف يحصلون على المال وأين يستأجرون المحل وكيف يتقاضون الأثمان وأى الرجال يمكنهم الانتساب ومن الذى يدير المنزل فى الريف وكيف يديره . ووجد ثيو نفسه منجذبا رغم إرادته تقريبا فى هذه الثورة المحمومة وكانت شقته فى شارع لبيك تزدحم كل ليلة من ليالى الأسبوع وأقبل رجال الصحافة لتسقط الأنباء وجاء النقاد الفنيون لمناقشة الحركة

الجديدة وهرع المصورون من كافة أنحاء فرنسا إلى باريس كى ينضموا إلى المنظمة .

ولو قدر لثيو أن يكون ملكا لكان فنسنت مستشارا ملكيا فقد كان يرسم الخطط ويضع القوانين الأساسية ويعد الميزانيات ويختلق الأعذار لجمع المال ويسن القواعد واللوائح ويصدر المنشورات للصحف ويوزع عجالات لتعريف أوربا بأهداف مستعمرة الفن على الشيوع وشغل بهذا حتى نسى أنه مصور .

وتدفقت إلى خزائن المنشأة حوالى ثلاثة آلاف فرنك وأسهم المصورون بآخر فرنك استطاعوا أن يقتصدوه وأقيم سوق على قارعة الطريق فى بوليفار كليش وأخذ كل رجل ينادى على لوحاته ووصلتهم من جميع أنحاء أوربا رسائل تحوى أوراقا مالية من الفرنكات قذرة ومغضنة وأقبل إلى الشقة محبو الفن فى باريس وشهدوا ذلك الحماس للحركة الجديدة ولم ينسوا أن يلقوا بورقة مالية فى الصندوق المفتوح قبل أن ينصرفوا وكان فنسنت يعمل سكرتيرا وأمينا للصندوق .

وأصر ثيو على ضرورة الحصول على خمسة آلاف فرنك قبل أن يستطيعوا البدء وكان قد استأجر محلا فى شارع ترونشيه رأى أنه حسن الموقع واكتشف فنسنت قصرا ريفيا قديما فاخرا فى غابة سان جرمان آن لى يمكنهم الحصول عليه مقابل لاشىء تقريبا . واستمر تدفق لوحات المصورين الذين رغبوا فى الانضمام إلى شقة شارع ليبيك حتى لم يعد ثمة مكان يمكن أن تطأه قدم وكان مئات من الناس يدخلون ويخرجون من الشقة الصغيرة وكانوا يتجادلون ويتعاركون ويتبادلون السباب ويأكلون ويشربون ويشيرون بأيديهم فى وحشية وأخطر ثيو بالانتقال .

وبعد مضى شهر كانت قطع الأثاث من طراز لويس فيليب قد تمزقت إربا إربا .

ولم يجد فنسنت الآن وقتا للتفكير حتى فى لوحة ألوانه فقد كان عليه أن

يدبج الرسائل ويقابل الناس ويعنى بأمر المنازل ويضرم نيران الحماس فى قلب كل من يقابله من المصورين الجدد والهواة وكان يتحدث حتى يبح صوته وكانت عيناه محمومتين من فرط الجهد ولم يكن يتناول طعامه بانتظام ولم يجد فرصة للنوم فقد كان يعمل باستمرار ويعمل ويعمل .

وعند ما حل الربيع تم جمع خمسة الآلاف فرنك وكان ثيو ينوى إخطار آل جوبيل بأنه سيتركهم أول الشهر وقد قرر أن يستأجر محلا فى شارع ترونشيه وأودع فنسنت تأميناً صغيراً لاستئجار المنزل الواقع فى شارع سان جرمان وقام ثيو وفنسنت والأب تانجى وجوجان ولوتريك بإعداد قائمة بالأعضاء الذين سيفتتحون المستعمرة . ومن أكداس اللوحات التى تجمعت فى الشقة انتقى ثيو ماسيعرضه فى معرضه الأول وقام بين روسو وانفيكان شجار مرير فقد اختلفا : أيهما يقوم بعمل الديكور لواجهة المحل وأيهما يقوم به داخله ؟

ولم يعد ثيو يعبأ بأن أطاروا النوم من عينيه فقد غلب عليه الحماس كما حدث لفنسنت فى البداية وأخذ يعمل بهمة لتنظيم كل شىء حتى يتيسر افتتاح المستعمرة فى الصيف وكان يجادل فنسنت باستمرار ويحاوره فيما إذا كان ينبغى استئجار المنزل الثانى على شاطىء المحيط الأطلسى أو على شاطىء البحر الأبيض المتوسط .

وذهب فنسنت لينام فى الساعة الرابعة صباح يوم وقد أنهكت قواه تماما ولم يوقظه ثيو فنام حتى الظهر وقد تجددت قواه وأخذ يتجول فى مرسمه وكانت اللوحة المثبتة على الحامل قد مضى عليها عدة أسابيع وجف الطلاء من لوحة الألوان وتشقق وغطاه التراب وتبعثرت أنابيب الألوان فى أركان الحجرة وتصلبت فراجينه من أثر الطلاء القديم .

وسمع صوتاً يتردد فى داخله ويسأله فى لطف :

— صبراً لحظة يا فنسنت . هل أنت مصور ؟ أم أنك متعهد عام .

وتناول أكداس اللوحات التى يعوزها التجانس من حجرة ثيو وكومها

على سريره ولم يترك فى المرسم إلا لوحاته الخاصة فأوقفها على الحامل واحدة واحدة وأخذ يقضم أظافره ويحملق فيها .

نعم لقد أحرز تقدما كبيراً وخفت ألوانه بالتدريج وبدأت تكافح لتحقق إضاءة تتألق كالبلور ولم تعد محاكاة للغير ولا يمكن أن تكشف فى لوحاته أثراً من آثار أصدقائه وأدرك لأول مرة أنه كان فى سبيله لتنمية تنوع خاص من التكنيك الحقيق فقد كان لا يشبه أى شىء آخر رآه من قبل ولم يعرف كيف توصل إلى هذا .

لقد قام بتصفية الانطباعية حسب طبيعته وكان يوشك أن يصل إلى أسلوب قريب للتعبير وفجأة توقف .

ووضع لوحاته التى هى أحدث عهداً على الحامل وأوشك مرة أن يصرخ بأعلى صوته فقد اكتشف تقريباً شيئاً ! كانت صوره قد بدأت تكشف عن أسلوب محدد وأنه بدأ يهاجم بأسلحة ابتدعها فى الشتاء .

لقد منحته الأسابيع الكثيرة التى قضاها فى الراحة إدراكاً لرسم المنظور فى لوحاته ورأى أنه كان ينمى تكنيكا انطباعياً من ابتكاره .

وألقى على صورته فى المرآة نظرة تمعن . وكانت لحيته فى حاجة إلى التهذيب وشعر رأسه فى حاجة إلى القص واتسخ قميصه وتهدلت سراويله كخرقة مهلهلة فضغط على سترته بمكواة ساخنة وارتدى أحد قمصان ثيو وأخذ من الخزانة ورقة مالية من مئة خمسة الفرنكات وذهب إلى الحلاق وعندما أصبح نظيفاً منسقا سار وهو يفكر إلى محل جوبيل فى بوليفار مونمارتر وقال :

— هل يمكن يا ثيو أن تأتى معى برهة قصيرة ؟

— ماذا هناك ؟

— ارتد قبعتك — أهناك مقهى لا يمكن أن يرانا فيه أحد ؟

وجلسا فى الناحية الخلفية من المقهى فى ركن منعزل وقال ثيو :

ـــ أتعرف يا فنسنت أن هـــذه أول مرة منذ شهر أحادثك فيها على انفراد؟

ـــ أعرف هذا يا ثيو واخشى أن أكون قد تصرفت تصرف الحمق

ـــ وكيف كان ذلك ؟

خبرنى بصراحة يا ثيو هل أنا مصور أم متعهد عام ؟

ـــ ماذا تقصد أن تقول؟

ـــ لقد انشغلت جداً بتنظيم هذه المستعمرة ولم يتسع لى الوقت للرسم وعندما يبدأ العمل بالمنزل ان تتيسر لى لحظة فراغ واحدة .

ـــ هذا صحيح .

ـــ إنى أريد أن أصور يا ثيو فلم أجهد نفسى فى العمل طوال هذه السنوات السبع لأصبح مديرا لبيت يقيم به مصورون آخرون وأقول لك إنى جد مشتاق لفرشاتى وإن الشوق قد برح بى بحيث أريد أن أفر من باريس وأسافر فى أول قطار .

ـــ ولـكن كيف تفعل هذا يا فنسنت الآن بعد كل ما .. ..

ـــ لقد أخبرتك بأنى كنت غبياً ـ اتستطيع أن تتحمـــل سماع اعتراف ثيو .

ـــ نعم ؟

ـــ لقد سئمت من كل قلبي رؤية المصورين الآخرين وضقت ذرعا بأحاديثهم ومللت سماع نظرياتهم ومشاهدة عراكهم الذى لا ينتهى . أوه لاداعى لأن تبتسم فإنى أعلم أنى أسهمت فى هذا العراك وهذا هو بيت القصيد ماذا اعتاد موف أن يقول : « إن الرجل يستطيع إما أن يصور وإما أن يتحدث عن التصوير ولـكنه لا يستطيع أن يفعل كلا الأمرين فى وقت واحد » حسناً ياثيو . أكنت تعولنى طوال السنوات السبع الماضية لـكى تسمعنى أجتر هذه الأفـكار ؟

— لقد قمت يافنسنت بالكثير من العمل الطيب لصالح المستعمرة .

— أجل ولكن الآن ونحن على أهبة الانتقال ، هناك أدرك أنى لا أريد الذهاب، فلن أستطيع العيش هناك والقيام بأى عمل، وإنى لأتساءل ياثيو عما إذا كان فى وسعى أن أجعلك تفهم هذا .. ولكن هذا فى استطاعتى ولاريب فعندما كنت وحيدا فى البار بانت ولاهاى كنت أظن أنى شخصية مهمة وأنى رجل يستطيع أن يقف وحده أمام العالم كله ولكنى كنت فنانا بل لعلى كنت الوحيد بين الفنانين الأحياء وأن كل ما أرسمه نفيس وكنت أعتقد أن لى مقدرة كبيرة وأن الناس سيقولون أخيرا « إنه لمصور رائع »

— والآن ؟

— والآن فإنى واحد من كثيرين للأسف فهناك حولى المئات من المصورين وإنى لأرى نفسى صورة هزلية من كل هذه اللوحات التافهة المكدسة فى شقتنا والتى بعث بها المصورون الذين يريدون الانضمام إلى المستعمرة . إنهم أيضا يظنون أنهم سيكونون مصورين عظماء . حسنا ربما كنت مثلهم وأنى لى أن أعرف ؟ وماذا عساى أن أفعل لأستجمع شتات شجاعتى الآن ؟ قبل أن أحضر لباريس لم أعرف أن هناك حمقى لا أمل فيهم ويخدعون أنفسهم طوال حياتهم ولكن الآن أدرك وهذا مايؤلم .

— ولكن لا شأن لك بهذا .

— قد يكون الأمر كذلك ولكنى لن أستطيع انتزاع بذور الشك من نفسى وربما عندما أكون وحدى بالريف أنسى أن هناك آلافا من اللوحات ترسم كل يوم وأتخيل أن لوحتى هى الوحيدة وأنها تحفة جميلة فى هذا العالم وقد أستمر فى التصوير حتى لو عرفت أن عملى أثيم ولكن هذا . . . قد يهاون .. أتفهم ما أقول !

— أجل .

— وفضلا عن هذا فلست مصورا من سكان المدينة فأنا غريب هنا . أنا مصور فلاح وأريد أن أعود إلى حقولى. أريد شمسا شديدة الحرارة تحرق فى كل شىء إلا الرغبة فى التصوير !

— وإذن ... فأنت تريد أن ... تغادر .... باريس ؟

— أجل ، وينبغى أن أفعل .

— وماذا بشأن المستعمرة ؟

سأنسحب ولكنك يجب أن تنفذ المشروع .

فهز ثيو رأسه وقال :

— لا ، لا يمكن بدونك .

ولم لا ؟

— لا أدرى ولكنى كنت أعمل هذا إكراما لك .. لأنك أردت هذا .. وران عليهما الصمت بضع لحظات .

— ألم تخطرهم بعد ياثيو ؟

— لا ، كنت أنوى أن أفعل هذا فى أول الشهر .

— أعتقد أننا نستطيع أن نعيد النقود لأربابها !

— أجل عند ما نكون على يقين بأنك سترحل .

— ليس قبل أن تصفو لوحة ألوانى .

— فهمت .

— وبعدها أرحل . وقد يكون هذا إلى الجنوب فأنا لا أدرى أين أذهب وهذا حتى يتيسر لى الانفراد بنفسى فأصور ثم أصور لنفسى وألقى بذراعه حول كتف ثيو فى مودة شديدة وقال :

— قل لى ياثيو إنك لن تزدرينى بعد أن نبذت كل شىء بهذه الطريقة وبعد أن أتممت الكثير .

أزدريك !

وابتسم ثيو فى حزن لا مزيد عليه وتقدم وربت على اليد الموضوعة فوق كتفه وقال :

لا ، لا فإنى ولا ريب أقدر موقفك وأعتقد أنك على صواب .

حسنا يا بنى العزيز . يحسن بك أن تنهى شرابك فعلى أن أعود إلى جوبيل

* * *

(١٣)

وعمل فنسنت شهرا آخر ولكن رغم ان الوانه قد أصبحت الآن صافية وفاتحة كألوان اصدقائه فإنه لم يبد أنه استطاع الوصول إلى سذاجة رسمه فحاول أن يعمل فى بطء وبأعصاب هادئة وكانت وسوسته فى عملية وضع الألوان بمثابة عذاب له ولكن تطلعه إلى اللوحات فيما بعد كان عذابا أشد وأنكى، وحاول ان يخفى ضربات فرشاته فى مساحات مسطحة وجرب أن يعمل بلون رقيق بدلا من استخدام ألوان صارخة ولكن كل هذا لم يجده فتيلا ومرة بعد مرة أحس بأنه كان يضرب على غير هدى بحثا وراء أسلوب لن يكون فريداً فى نوعه فحسب بل سيمكنه من الإفصاح عن كل مايريد أن يقوله ومع ذلك لم يفلح فى أن يدرك كنهه وفى مساء يوم وهو فى شقته غمغم يقول :

— لقد توصلت إليه تقريبا فى هذه المرة . تقريبا ولكن ليس تماما . آه لو استطعت فقط أن أجد ما يقف فى طريقى .

فقال ثيو وهو يتناول اللوحة من شقيقه :

— أعتقد أن فى استطاعتى أن اخبرك .

— حقا ؟ ماهو ؟

إنها باريس .

— باريس ؟

— اجل — فقد كانت باريس ميدانا لتمرينك وطالما بقيت هنا فلن تكون شيئا آخر سوى مجرد تلميذ — أتذكر مدرستنا فى هولندا يافنسنت ؟ لقد كانت تعلمنا كيف صنع غيرنا من الناس الأشياء وكيف يجب ان نصنع ولكننا لم نصنع قط شيئا لأنفسنا

— أتقصد أن تقول إنى لا أجد هنا تجاوبا وتعاطفا مع الموضوعات ؟

— لا بل أقصد أن أقول إنك لاتستطيع أن تتخلص من تأثير أساتذتك . لسوف أشعر بالوحدة القاسية بعدك يافنسنت ولكن أعرف أنه ينبغي أن ترحل . ولا بد أنك ستعثر على بقعة فى مكان ما من هذا العالم تستطيع أن تكون ملكك ، ولست أدرى أين هذه البقعة ، ولكن عليك أنت — إن تجدها — أن تقطع صلتك بمدرستك حتى يمكنك أن تصل إلى درجة النضوج .

— أتعرف يا بنى العزيز فى أى بلد كنت أفكر كثيرا أخيرا .

— لا .

— إفريقيا .

—إفريقيا .. حقاً ؟

— أجل لقد كنت أفكر فى شمسها المحرقة التى تسبب البثور التى لاتغيب طوال الشتاء البارد الممل الطويل ، هناك عثر ديلاكروا على لونه ومن يدرى ؟ ، فقد أستطيع أن أجد هناك لونى الآخر .

فقال ثيو بعد تفكير طويل :

—ولكن إفريقيا بعيدة جدا يافنسنت

— ربما ولكنى اريد الشمس ياثيو . أريدها لحرارتها الفظيعة وقوتها الهائلة، ولقد كنت أشعر بها وهى تجذبنى نحو الجنوب طوال فصل الشتاء كما لو كانت مغناطيسا ، ولم أعرف حتى غادرت هولندا أن هناك شيئا يمكن أن يفوق الشمس. وإنى لأعرف الآن أن التصوير بدونها لا يمكن أن يستقيم . وربما كان الشيء الذى أنا فى مسيس الحاجة إليه للوصول إلى مرحلة النضوج هو الشمس الحارة . وإنى لأحس ياثيو بالبرد يحترم عظامى من شتاء باريس، وأعتقد أن شيئا من هذا البرد قد تسلل إلى لوحة الوانى وفراجينى، ولم أكن

يوما بالرجل الذى يفعل شيئا وهو نصف راغب ، وعندما أستطيع أن أجعل شمس إفريقيا تبدد البرد من نفسى وتشعل اللهيب فى ألوانى .

فقال ثيو :

— أم م م سوف نفكر فى هذا مليا فربما كنت على صواب .

— وأقام بول سيزان مأدبة وداع لأصدقائه جميعا وكان قد رتب الأمر مع أبيه على شراء رقعة من الأرض فوق التل تطل على « أكس » والعودة لوطنه لبناء مرسم . وقال :

— اخرج يافنسنت من باريس وتعال إلى بروفنس ولكن ليس إلى أكس فهذه أرضى أنا بل اذهب لمكان آخر بالقرب منها فهناك الشمس أشد حرارة ونقاء من أى مكان آخر فى العالم . وفى بروفنس ستجد الضوء واللون الصافى كما لم تشهدها من قبل ولسوف أبقى هناك ما حييت .

وقال جوجان :

— سأكون ثانى من يخرج من باريس وسوف أذهب إلى المناطق الاستوائية ، وإذا كنت تعتقد حقا ياسيزان أنك واجد شمسا فى بروفنس فينبغى أن تأتى إلى مار كيزاس فهناك الشمس واللون كلاهما بدائى كالناس تماما .

فقال سيرا :

— أولى بكم أيها الرجال أن تنضموا إلى زمرة عابدى الشمس .

فقال فنسنت :

— أما أنا فإنى ذاهب إلى إفريقيا .

فغمغم لوتريك :

— حسنا حسنا هاهو ديلا كروا آخر بيننا .

وسأل جوجان

— أتعنى هذا حقا يافنسنت ؟

— أجل — أو قد لا أذهب إلى هناك مباشرة بل أعتقد أنه ينبغى أن أتوقف فى مكان ما فى بروفنس حتى اعتاد على الشمس .

فقال سيرا :

— إنك لا تستطيع أن تتوقف فى مارسيليا فهذه المدينة ملك مونتيشلى

فقال فنسنت :

— ولن أستطيع أن أذهب إلى أكس لأنها ملك سيزان وأصبحت أنتيب ملكا لمونيه وإنى لأتفق معك فى أن مارسيليا مخصصة لفادا فهل لأحدكم أن يشير على أين يمكن أن أذهب ؟

فصاح لوتريك :

— صبرا ! إنى اعرف المكان المناسب — ما رأيك فى آرل ؟

— آرل ؟ إنها مستعمرة رومانية . أليس كذلك ؟

— بلى تقع على نهر الرون على بعد ساعتين من مارسيليا وقد ذهبت مرة إلى هناك ولا ريب أن لون الريف الذى يحوطها يجعل مناظر ديلاكروا الإفريقية تبدو شاحبة .

— أحقا ماتقول ؟ وهل هناك شمس ساطعة ؟

— شمس ؟ هناك منها مايكفى لأن يدفعك للجنون . ويجب أن ترى نساء آرل . إنهن أشد النساء فتنة فى العالم ولا زلن يحتفظن بدقة تقاطيع أسلافهن من الإغريق إلى جانب ذلك من القوام الفارع الذى امتاز به الغزاة الرومان ، ورغم ذلك فإنه من الغريب حقا أن تجد أن عبيرهن شرقى واضح ولعل هذا نتيجة لغزو المشارقة لبلادهم فى القرن الثامن . وفى آرل عثر يافنسنت على تمثال فينوس الحقيقى وكان النموذج امرأة من آرلى

فقال فنسنت :

— يبدون أنهن فاتنات .

— إنهن كذلك وصبرا حتى تحس بالمستراك .

فسأله فنسنت

— وماهى المستراك ؟

فأجاب لوتريك وهو يبتسم ابتسامة ملتوية

— ستكشف ذلك عندما تصل إلى هناك .

— وكيف الحال بالنسبة لتكاليف العيش هناك ؟ أهي رخيصة ؟

— ليس هناك ماتنفق عليه نقودك سوى الطعام والمأوى وهما لايكلفان كثيرا، فإذا كنت حقا ترغب فى الابتعاد عن باريس فلم لاتجربها؟

فغمغم فنسنت لنفسه قائلا :

— آرل آرل، وفاتنات آرل كم أود لو رسمت واحدة من هؤلاء النساء !

وكانت باريس قد أثارت أعصاب فنسنت بجرع الكثير من زجاجات الأبسنت ودخن من التبغ ما يملأ الكثير من الغلايين واشتغل كثيرا بمظاهر النشاط الخارجى وكان يحس بغصة فى حلقه ويشعر برغبة هائلة فى الرحيل وحده إلى مكان ماينعم بالهدوء ويستطيع أن يصب فى فنه طاقته العصبية المائلة ، وكان لاتعوزه إلا شمس حامية تدفعه إلى بلوغ الأمل وكان يراوده إحساس بأن ذروة حياته بل والقوة المبدعة الكاملة التى كافح طوال هذه السنوات الثمانية الطويلة للوصول إليهاقد غدت قريبة المنال دانية القطوف وأدرك أنه لاقيمة حتى الآن لأى شىء صوره وربما كان به بعض الجهد الذى يمضى به قدما لإبداع تلك اللوحات القليلة التى تبرر وجوده فى الحياة .

ترى ماذا قال مونتشيلى؟ يجب أن نعمل ونكدح عشر سنوات حتى نستطيع فى النهاية أن نصور لوحتين أو ثلاث لوحات أصيلة .

حقا لو عرف فى باريس الطمأنينة ونعم بالصداقة والحب وتوافر له مع ثيو المنزل السعيد ولم يتركه شقيقه نهبا لآلام الجوع ولم يدعه يطلب مواد الرسم مرتين ولم يبخل عليه فى طاقته أن يعطيه ووجدمنه على الأقل كل عطف، وأدرك أن متاعبه ستبدأ فى اللحظة التى يغادر فيها باريس فلن يستطيع

أن يدبر أمور معاشه بعيدا عن ثيو ولسوف يضطر نصف يومه إلى الخروج دون أن يصيب شيئا من الطعام بل سوف يضطر إلى أن يعيش فى المقاهى الحقيرة وأن يتشرد أحيانا لأنه لن يستطيع شراء الألوان وسوف يختنق صوته فى حلقه لأنه لن يجد صديقا للروح يستطيع أن يحادثه وقال له تولوز لوتريك فى اليوم التالى :

— لسوف تحب آرل فهى بلدة هادئة ولن يضايقك فيها أحد والحرارة جافة واللون رائع وهى البقعة الوحيدة فى أوربا التى يمكنك أن تجد فيها الصفاء اليابانى الخالص، إنها جنة الأحلام للمصور، ولعمرى لو لم أكن متعلقا بباريس لذهبت إليها أنا نفسى .

وفى مساء هذا اليوم ذهب ثيو وفنسنت لحضور حفلة كونسرت لفاجنر وعادا إلى بيتهما مبكرين وأمضيا ساعة يجتران ذكريات طفولتهما فى زوندرت وفى صباح اليوم التالى أعد فنسنت القهوة لثيو وعندما انصرف شقيقه إلى محل جوبيل قام بتنظيف الشقة الصغيرة كما لم يفعل من قبل منذ انتقلا إليها ووضع على الجدران لوحة تمثل جواد البحر القرنفلى ولوحة أخرى تمثل الأب تاجى وهو فى قبعته المستديرة المصنوعة من القش وثالثة للمود لان دى لاجاليت ولوحة لامرأة عارية الظهر ودراسة لحدائق الشانزيلزيه

وعندما عاد ثيو مساء إلى بيته وجد رقعة على المائدة فى غرفة المعيشة هذا نصها :

عزيزى ثيو

لقد ذهبت إلى آراز وسوف أكتب لك حالما أصل إلى هناك وقد وضعت على الحائط بعض لوحاتى حتى لا تنسانى

تحياتى وسلامى .

فنسنت

* * *

الکتاب السّادس

آرلو

(١)

لفحت الشمس الآرلزية « فنسنت » فيما بين عينيه ، فأيقظته من نومه .
لقد كانت هالة ، أو كرة سائلة ذات وهج ليمونى أصفر ، تنفذ خلال سماء زرقاء قاتمة ، وتملأ الجو بضوء مبهر للعيون. لقد خلقت تلك الحرارة المخيفة وصفاء الجو الناصع عالما جديداً غير مألوف .

لقد نزل من إحدى عربات الدرجة الثالثة فى الصباح الباكر ثم سار عبر طريق ملتو يمتد من المحطة حتى « ميدان لامارتين » وهو عبارة عن ميدان تقام فيه السوق ، يحده من أحد جانبيه شاطىء نهر « رون » ويحده من الجانب الآخر مقاه وفنادق حقيرة . وتقع « آرلز » إلى الأمام مباشرة ، وتغفو تحت الشمس المدارية الساخنة .

وكان يشعر فنسنت بعدم الاكتراث إذا ما واجه موضوع البحث عن مكان للعيش فيه . إذ إنه سار مباشرة إلى أول فندق مر عليه فى هذا الميدان وكان عنوانه « فندق المحطة » واستأجر حجرة فيه . وكانت تحتوى تلك الحجرة على سرير نحاس لامع ، وجرة مياه مشقوقة فى حوض للاغتسال ، وكرسى غريب . كما أحضر المستأجر منضدة بلا طلاء ، ولكن لم يكن بها مكان خال يمكن أن يوضع فيه حامل من الخشب ، ولهذا نوى فنسنت أن يرسم طوال اليوم فى الخارج .

وبعد أن ألقى بحقيبته الصغيرة على السرير ، اندفع خارج الحجرة ليرى المدينة ، وكان هناك طريقان للوصول إلى قلب «آرلز» من «ميدان لامارتن» أولهما الطريق الدائرى الواقع فى الناحية اليسرى وهو مخصص للقطارات ، ويحوط هذا الطريق حافة المدينة ، ويلف ببطء حتى قمة التل ، مارا فى طريقه بالساحة الرومانية والمدرج الرومانى . ولكن فنسنت سار فى الطريق

المباشر ، وهو طريق يقود إلى متاهات وشوارع ضيقة مرصوفة بالحجارة . وبعد تسلق طويل وصل إلى «ميدان لاميرى» الذى جرته الشمس . ولكنه حينما كان صاعداً فى طريقه إلى أعلى مر على بعض الردهات الباردة المبنية من الحجارة ، وبعض الأعمدة الرباعية التى بدت وكأنها قد جاءت لتوها من العصور الرومانية الأولى دون أن يمسها أحد . ولقد بنيت « الحوارى » ضيقة جداً لكى تمنع وهج الشمس المجنونة (الحارقة) ، لدرجة أن فنسنت كان يلمس صفى المنازل التى على الجانبين بطرفى أصابع يديه الممتدتين . ولكى يصدوا ريح الشمال الباردة ، جعلوا الشوارع ملتوية على جانب التل فى شكل يبعث على الحيرة التى لا مخرج منها ، ولا تسير مستقيمة أكثر من مسافة عشر ياردات . كما كانت القاذورات ملقاة فى الشوارع والأطفال القذرون يجلسون على عتبات المنازل ، وكان يحوط كل شىء سمة شؤم ونحس .

وترك فنسنت ميدان « دى لاميرى » وسار خلال حارة قصيرة إلى طريق السوق الرئيسية فى مؤخرة المدينة ، ثم تجول خلال الحديقة الصغيرة ، وبعدها نزل من فوق التل حتى ساحة المصارعة الرومانية . وأخذ يقفز من مدرج لآخر مثل الماعز حتى وصل أخيراً إلى القمة . فجلس على كتلة من الحجر ، ودلى قدميه من فوق ارتفاع يربو على مئات الأقدام ، وأشعل « بيبته » ، وأخذ يعاين المنطقة التى عين من نفسه سيداً وحاكما لها .

وتنحدر المدينة التى بأسفله انحداراً مباشراً إلى « الرون » فى شكل شلال متغير الألوان. أما سقوف المنازل فقد تداخلت فى بعضها البعض فى شكل تصميم متشابك . وكانت كلها مطلية بما كان أصلا لونا أحمر ، ولكن الشمس المحرقة التى لا تخبو مطلقاً قد لفحتها فحولتها إلى طيف من ألوان مختلفة ، تبتدئ من لون ليمونى فاتح وأرجوانى رقيق إلى لون أحمر داكن وبنى .

وينحدر نهر الرون الواسع بسرعة عظيمة عند حافة التل الذى تتاخمه « آرلز » ، ثم يندفع إلى البحر المتوسط وكان يحوط جانبي النهر جسر من الحجارة . أما فى الجهة الأخرى من النهر فكانت تلمع مدينة « ترينكتاى » كما لو أنها مدينة مرسومة . وكانت الجبال تقف خلف ظهر « فنسنت » فى شكل سلاسل ملتصقة قممها بالضوء الأبيض الصافى ، أما أمامه فكانت تترامى أراضى حقول محروثة، وحدائق يانعة ، وسطها قمة أكمة « مونتاجور » العالية ، وحقول خصبة حرثت فى شكل آلاف من الخطوط كلها عند نقطة بعيدة فى اللانهائية .

ولكن لون الريف جعـله يمسح بيده على عينيه المأخوذتين . فالسماء كانت زرقاء قاتمة ، بشكل لايتغير لدرجة جعلتها تبدو وكأنها ليست زرقاء بالمرة ، بل كانت بلالون . وأما خضرة الحقول التى كانت تمتد بأسفله فهى روح اللون الأخضر نفسه . وأما لون الشمس الليمونى الأصفر المتوهج ، ولون التربة التى فى احمرار الدماء ، وبياض السحب الوحيدة الوضاءة التى تكسو مونتاجور ، قد أعادت جميعها ورد الحدائق إلى الحياة . . إن تلك الألوان لايكاد يصدقها إنسان . كيف يمكنه رسمها ؟ وكيف يمكنه ان يجعل أى فرد يؤمن بوجودها حتى ولو نقلهم إلى مقصورته؟ ليمونى ، وأزرق ، وأخضر ، وأحمر ، وورى ، إن الطبيعة تعبر عن نفسها فى خمسة ألوان أخاذة تفشت فى كل مكان .

وسار « فنسنت » عبر طريق القطارات قاصدا ميدان « لامارتين » وهو ممسك بحامل اللون والخيش ، مندفعاً على طوال « الرون » . وكانت أشجار الليمون فى كل مكان قد ابتدأت فى الإزهار . أما وهج الشمس الأبيض الذى كان ينعكس على المياه فقد أرسل طعنات ألم فى عينيه ، لأنه كان قد ترك قبعته فى الفندق . وتوهجت الشمس خلال شعره الأحمر ، فامتصت منه كل برد باريس ، وكل متاعبه ، ومبعث يأسه ، وكل رضاء كانت أتخمت به حياة المدينة روحه .

وعلى مسيرة كيلومتر إلى أسفل النهر وجد جسراً متحركا وعليه عربة يد صغيرة مرسومة فى وسط سماء زرقاء . وكان النهر فى زرقة البئر ، أما جسوره فكانت ذات لون برتقالى تكسوها حشائش خضراء . ونشرت مجموعة من السيدات الغسالات اللاتى كن يرتدين قصانا وأغطية راس ملونة، نشرت ملابس بيضاء قذرة فى ظلال شجرة كانت تقف وحيدة .

ونصب « فنسنت » حامل لوحاته ، واستنشق نفسا طويلا ، ثم أغمض عينيه . فلم يكن من الممكن لأى إنسان أن يرى كل هذه الألوان بعينين مفتوحتين . وكان يوجد على بعد منه حديث « سيوارت » عن العقم العلمى، وخطب « جوجين » عن الديكور البدائى ، ورؤيا « شيزان » تحت الأسطح الصلبة ، وطيف الألوان وخطوط ضغينة الحقد التى رسمها « لا وترك »

ولم يبق هناك إلا فنسنت وحده .

وعاد إلى فندقه قبل وقت الغداء بقليل . وجلس أمام منضدة صغيرة فى البار وطلب قدحا من الجعة . لأنه كان منفعلا جداً وراضياً كلية لدرجة لا تجعله يفكر فى أى طعام . ولاحظ شخص ما كان يجلس أمام منضدة مجاورة ، أن الألوان كانت تتناثر على يدى فنسنت ووجهه وملابسه ، فابتدأ فى الحديث معه.

فقال له : « إننى صحفى باريسى ، جئت هنا منذ ثلاثة شهور لأجمع بعض المواد لكتاب عن « لغة البروفنسال » فرد عليه فنسنت : « ولقد حضرت لتوى من باريس فى هذا الصباح » .

— هذا « مالاحظته . هل تنوى البقاء طويلا ؟ »

— « نعم — أعتقد هذا » .

« حسنا — فلتأخذ نصيحتى ولاتمكث هنا طويلا، لأن آرلز هى أكثر بقعة على وجه البسيطة جنونا » .

— « وما الذى يدعوك إلى الاعتقاد فى هذا ؟ »

— « إنى لا أعتقد ذلك . ولكننى أعرفه جيداً . لقد كنت أراقب هؤلاء الناس منذ ثلاثة أشهر ، وإنى أقولها لك، إنهم جميعاً مرضى بمرض نفسى ،انظر إليهم ، وراقب أعينهم . فلن تجد شخصا طبيعيا عاقلا فى كل هذه الأرض المجاورة لتاراسكون !

فعلق فنسنت على هذا بقوله : « إن هذا الشيء عجيب حقا » .

— « إنك ستتفق معى فى الرأى لمدة أسبوع واحد ، فالقرية التى تحيط «بآرلز» من أكثر المناطق مرضاً وبؤساً فى «بروفنس» . إنك كنت فى الخارج تحت الشمس ، فهلا يمكنك أن تتصور تأثير هذه الشمس على هؤلاء الناس ، الذين وقعوا فريسة لضوئها الباهر يوما بعد يوم ؟ إنى أقولها لك بصراحة إنها تحرق العقول وتخرجها من رءوسهم — أضف إلى ذلك الريح الشمالية الباردة ، هل شعرت بالريح الشمالية الباردة ؟ آه ، ياعزيزى . انتظرنى حتى أخبرك بها ، إنها تضرب هذه المدينة بسوط محموم مائتى يوم من كل عام . فإذا ما أردت أن تسير فى الشوارع فهى تقذف بك فى جدران المبانى ، وإذا ما كنت فى الحقول ، ألقت بك على وجهك وطعنتك فى وسط القاذورات ، إنها تجعل كل ما فى داخلك يتلوى لدرجة أنك تعتقد أنك لن تستطيع تحملها دقيقة بعد ذلك . لقد رأيت الريح الملعونة وهى تنتزع النوافذ ، وتقتلع الأشجار، وتسقط الأسوار الشجرية، وتضرب بسوطها بنى الإنسان والحيوان فى الحقول لدرجة جعلتنى أومن بأنهم سيتحطمون حتما إربا إربا . إننى فى هذا المكان منذ ثلاثة أشهر فقط ، وأنا أحاول أن أجعل من نفسى رجلا أحمق ، ولكننى سأغادرها فى صباح الغد ! .

فسأله فنسنت : « من المؤكد أنك تبالغ ؟ فلقد بدا الآرلزيون على مايرام أمام عينى ، على الرغم من ضآلة ماعرفته اليوم عنهم . »

— « ضآلة ماعرفته عنهم هذا جميل ، ولكن انتظر حتى تعرفهم جيدا — انصت إلى ، هل تعرف ماهو رأيي الخاص ؟ . »

— كلا — ماهو ؟ هل تشاركني في قدح من الجعة ؟ .

— أشكرك . في رأيي الخاص ، إن آرلز تعانى صرعا . إنها تضرب نفسها بسوط لدرجة عظيمة من الاستثارة العصبية لدرجة تجعلك تجزم بأنها ستنفجر في نوبة عنيفة وترغى وتزبد في فمها .

— وهل تفعل ماتقوله ؟

— كلا . وهذا هو وجه الغرابة فيها . فهذه المدينة تندفع دائماً نحو الذروة ولكنها لاتصل لها مطلقا . لقد كنت أنتظر منذ ثلاثة أشهر لأرى ثورة ، أو بركانا يندفع من « ميدان لاميرى » ، وظننت لعشرات المرات أن السكان سيجن جنونهم ويقطعون رقاب بعضهم البعض ! ولكن في اللحظة التي يكونون فيها على وشك الانفجار ، تخبو رياح الشمال الباردة لمدة يومين ، وتختفي الشمس وراء السحب .

فضحك فنسنت قائلا : « حسنا ، مادامت آرلز لم تصل مطلقا إلى الذروة فلا يمكنك أن تطلق عليها بحق مدينة الصرع — والآن هل يمكنك هذا ؟

فأجاب الصحفي : « كلا ! ولكنني أستطيع أن أسميها « مستصرعة »

— « ماهذا بحق الشيطان ؟ .

— « إنني أعد موضوعا لجريدتي في باريس ، ولقد كان ذلك الموضوع الألماني هو الذي أعطاني هذه الفكرة » .

وأخرج مجلة من جيبه وألقاها على المنضدة إلى فنسنت .

« لقد قام هؤلاء الأطباء بدراسة حالة مئات عديدة ممن يعانون من أمراض عصبية تشبه الصرع ، ولكنها لم تنجم عنها نوبات مطلقا . وسترى في هذه الوثائق كيف استطاعوا أن يرسموا منحنى العصبية والاستثارة الذي

فى طريقه إلى الارتفاع ، وهو ما يسميه الأطباء « التوتر الإرادى » ، حسنا ، لقد كان المرضى الموضوعون تحت البحث فى أواخر أيامهم يمرون بمرحلة متزايدة من الحمى حتى يصلوا إلى الخامسة والثلاثين أو الثامنة والثلاثين وعندما يصلون إلى السادسة والثلاثين فى المتوسط ينفجرون فى نوبة صرع شديدة . وبعد ذلك يعانون حالة من التشنجات العصبية التى قد تصل إلى ست نوبات أو أكثر، ثم يرحلون إلى العالم الآخر فى خلال عامين» .

فرد فدسنت : « إنهم صغار جداً على الموت فى مثل هذا العمر — لأن الإنسان فى مثل هذه السن يكون مبتدئا فى السيطرة على نفسه » .

واعاد الصحفى الجريدة الى جيبه .

وسأل قائلا : « هل ستظل فى هذا الفندق لفترة من الوقت ؟ — إن مقالتى على وشك الانتهاء ، وسأرسل إليك بالبريد الجوى نسخة منها بمجرد نشرها . وموضوعى هو : « آرلز مدينة مستصرعة » إن نبضها يعلو ويتزايد منذ قرون — إنها تقترب من كارثتها الأولى . ومن المحتمل وقوع هذه الكارثة فى فترة قصيرة ، وحينما تقع سنشاهد مصيبة مخيفة . سنرى الاغتيال وجرائم الحرق عمداً، واغتيال النساء، بل والتحطيم والتخريب الملكى! فلا يمكن لهذه البلدة أن تستمر إلى الأبد فى حالة من العذاب والكرب . فيجب أن يحدث شىء ولا بد أن يحدث . إننى سأخرج منها قبل أن يبتدئ الناس فى الإرغاء والإزباد فى أفواههم ! وإلى متى أنصحك بالمجىء معى!» .

فقال فدسنت : « أشكرك ـ فأنا أحب هذا المكان . وأعتقد أننى يجب أن أدخل الفندق الآن . فهل يمكننى رؤيتك فى صباح الغد ؟ كلا ؟ إذن أتمنى لك حظا سعيداً . ولا تنس أن ترسل إلى نسخة من موضوعك» .

* * *

(٢)

كان « فنسنت » يستيقظ كل صباح عند إشراق الفجر ، ويلبس ملابسه ، ثم يسير بضعة كيلومترات بجوار النهر ، أو فى داخل البلدة لكى يجد مكانا يستثيره وكان يعود كل يوم بلوحة مرسومة ، إنها مرسومة فعلا لأنه لم يكن يجـــد شيئا يضيفه إليها . وكان يذهب لنومه بعد تناول عشائه مباشرة .

لقد أصبح ما كينة رسم عمياء . وهو ينهى اللوحة بعد اللوحة دون أن يعرف حتى ما فعله . وكانت حدائق فاكهة البلدة مزدهرة يانعة ، فاجتاحته رغبة جامحة لرسمها جميعا . ولم يعد يفكر فى رسمه ، بل كان يرسم ما يراه فقط .

لقد عبرت السنوات الثمانية التى قضاها فى مشقة بالغة فعند ما كان يبتدئ عمله ـ أحيانا ـ مع إشراق الفجر ، كان ينتهى منه عند الظهر . فكان يقفل عائداً إلى المدينة ليتناول قدحا من القهوة ثم يعود فى اتجاه آخر حاملا بعض لوحات جديدة .

ولم يكن يعرف .ا إذا كانت رسوماته جيدة أم روتينية ، كما أنه لم يكن يعبأ بهذا . فلقد أثمله اللون .

ولم يكن يتحدث أحد إليه ، أو يتحدث هو إلى أحد ، وكانت القوه الضئيلة التى تتركها له رسوماته كان يقضيها فى صراعه ضد ريح الشمال الباردة . وقد كان مضطراً إلى أن يربط حامل اللوحات فى لوحات ثبتها فى الأرض ثلاثة أيام من كل أسبوع . ولكن الحامل كان يتأرجح إلى الخلف وإلى الأمام فى وسط الرياح وكأنه قطعة قماش منشورة على حبل غسيل . وكان يشعر فى المساء بكدمات ورضوض وكأنه قد ضرب ضرباً شديدا .

إنه لم يلبس قبعة مطلقاً . وكانت الشمس اللافحة تحرق شعره ببطء فتسقطه من قمة رأسه . وحينما كان يرقد على سريره النحاسى فى الفندق الصغير ليلا يشعر وكأن رأسه موضوع فى كرة من النار . لقد ضربته الشمس ضربة أعمته تماما . لدرجة أنه أصبح لا يميز بين خضرة الحقول وزرقة السماء ، ولكنه حينما كان يعود إلى الفندق وينظر إلى لوحاته كان يجدها نقلا براقا ووضاء للطبيعة .

وذات يوم عمل فى داخل حديقة بنفسج يحوطها سياج من الورود الحمراء ، وبها أشجار خوخ ذات لون وردى ترتفع فى سماء ذات لون أزرق وأبيض ناصع .

وتمتم لنفسه قائلا : « من المحتمل أن هذا أجمل منظر طبيعى قمت برسمه » .

وحينما عاد إلى الفندق وجد خطابا يخبره بأن انطون موف قد توفى فى « هاج » .

فكتب تحت أشجار الخوخ :

« ذكرى موف — فنسنت وثيو » . ثم أرسلها مباشرة إلى المنزل الواقع على « أوپليپومن » .

وفى صباح اليوم التالى شاهد حديقة أشجار برقوق مزدهرة وبينما كان يعمل ، هبت رياح عاتية سيئة كانت تعود مرات ومرات مثل أمواج البحر . وكانت تشرق الشمس ، بين عودتها ومجيئها ، وكانت كل الزهور البيضاء تتوهج على الأشجار . واستمر فنسنت فى رسمه ، مجازفا يرى بين غمضة عين وانتباهتها كل ما رسمه ملقى على الأرض ، ولقد ذكره بأيام شيفيننجن حينما تعود على الرسم عند تساقط الأمطار وفى وسط العواصف الرملية ، وتحت رذاذ مياه المحيط الذى كان يندفع إليه وإلى حامل لوحاته وكانت لوحاته

مطلية بلون أبيض كما أن بها قدرا كبيرا من اللون الأصفر والأزرق والبنفسجي . وحينما انتهى رأى شيئاً على لوحته لم يكن يعنى مطلقاً أن يرسمه ، إنه رياح الشمال الباردة .

وسخر من نفسه قائلا : « حينما يرى الناس هذا سيعتقدون أنى كنت ثملا حينما رسمت هذا » .

وحينئذ خطر على باله سطر من خطاب « ثيو » الذى وصل إليه فى اليوم الماضى . وهو : أن ميجنهير تيرستيج حينما كان فى زيارة إلى باريس وقف أمام « سيزلى » وتكلم بصوت خفيض إلى ثيو . « لا يمكننى أن أساير الاعتقاد فى أن الفنان الذى رسم هذا كان ثملا إلى حد ما » .

وفكر فنسنت مليا : « لو استطاع « تيرستيج » أن يرى لوحاتى « الآرلزية » هذه لقال إننى كنت فى هذيان وصل إلى منتهاه » .

وأعطى شعب آرلز فرصة عمل عظيمة لفنسنت ، لقد كانوا يرونه وهو يندفع خارج المدينة قبل شروق الشمس وهو يحمل حاملا ثقيلا على ظهره ، وذقنه ممتد إلى الأمام برغبة وشغف ، وعيناه ممتلئتان باضطراب محموم . ورأوه وهو يعود وفى وجهه ثدغان ناريان ، كما أن قمة رأسه كانت حمراء مثل قطعة اللحم قبل الشواء ، وهو يحمل تحت إبطه لوحة مبتلة ، وهو يكلم نفسه .

فأطلقت عليه المدينة اسما كان كل واحد يدعوه به .

« فو — رو » .

وكان يقول لنفسه: « ربما كنت رجلا مجنونا ذا رأس حمراء ولكن ماذا أستطيع فعله ؟

وكان مالك الفندق يبتز من فنسنت كل فرنك ما استطاع إلى ذلك

سبيلا ، ولم يكن فى مقدور فنسنت أن يحصل على شيء ليأكله ، لأن كل فرد فى آرل تقريباً كان يتناول طعامه بمنزله ، وكانت المطاعم غالية جداً . وجرب فنسنت تناول طعامه فى جميع المطاعم لكى يجد شربة دسمة ولكن لم يجد عند أى منهم ما أراده .

وسأل فى أحد المطاعم قائلا : « هل من الصعب طهى البطاطس يامدام؟

فأجابت : « مستحيل ياسيدى » .

— « إذن هل عندك بعض الأرز » .

— « هذا صحن الغد » .

وهل توجد مكرونة ؟ .

لا يوجد أى مكان فى قائمة الطعام لوضع المكرونة .

وأخيراً كان عليه أن يلقى جانباً كل فكرة جدية عن الطعام ، وأن يعيش على كل مايصادفه . لقد عملت الشمس الحارة على بناء حيويته ، على الرغم مما تحصل عليه معدته من طعام قليل . وأحل مكان الطعام الصحى أكواب القهوة ، والطباق ، وقصص « داوديت » عن « تارتارين » وكانت الساعات العديدة التى يقضيها فى تركيزه أمام حامل اللوحات ، تصقل أعصابه فتعيدها إلى حالتها الأولى . ولكنه كان يريد بعض المنبهات ، فكانت الجعة تجعله أكثر استثارة لاستقبال اليوم التالى ، لقد كانت استثارة يضربها سوط الرياح الشمالية الباردة ، وتطهيها بداخله حرارة الشمس . وحينما اقترب الصيف رأى كل شيء حوله محروقا فلم ير حوله إلا ذهبا قديما ، وبرونزا ، ونحاساً تكسوه سماء لازوردية مخضرة ذات حرارة مبيضة ، وكانت لوحاته عبارة عن كتل من الصفار الناصع المحترق . وكان يعرف جيداً أن اللون الأصفر لم يستخدم فى الرسم الأوربى منذ عصر النهضة ، ولكن ذلك لم يعقه بالمرة . وكانت الصبغة الصفراء تخرج من الأنابيب إلى

اللوحات حيث تستقر عليها . وكانت لوحاته تلوحها الشمس الحارقة ويدبغها الهواء . لقد آمن بأنه لم يعد من السهل رسم لوحة جميلة أكثر من أن يجد الإنسان لؤلؤة أو ماسة . ولم يكن راضيا عن نفسه على ما يفعله ، ولكنه كانت تراوده ومضة من الأمل بأن الحالة ستتحسن فى النهاية . ولكن فى بعض الأحيان كان هذا الأمل نفسه يبدو «فاتامورجانا» ، ولكن الوقت الوحيد الذى كان يشعر به بالحياة هو ذلك الذى كان يكدح فيه فى عمله . أما عن حياته الشخصية ، فلم تكن له حياة ، لقد كان مجرد آلة متحركة عمياء يصب فيها كل صباح طعاما ، وشرابا ، وألوانا فتخرج عند مغيب الشمس لوحات مرسومة . ولكن لأى غرض ؟ وبأى ثمن ؟ مقابل لا شىء بكل تأكيد ! لقد كان يعلم أن أحدا لا يريد شراء لوحاته . إذن لماذا العجلة ؟ ولماذا يدفع بنفسه ويثير نفسه لكى يرسم عشرات وعشرات من اللوحات حتى أصبح الفراغ الذى تحت سريره النحاسى ممتلئا باللوحات ؟

لقد هجرت رغبة النجاح فنسنت . فقد كان يعمل لأنه كان يحب أن يعمل ، ولأن هذا كان يحميه من آلام عقلية كثيرة ، ولأن هذا كان يشتت أفكاره وذهنه . إنه يستطيع أن يحيا بلا زوجة ، وبلا منزل بلا أطفال إنه يستطيع أن يحيا بلا حب وبلا صداقة ، وبلا صحة . وبل إنه يستطيع أن يحيا بلا إله . ولكنه لا يستطيع أن يحيا بدون شىء أعظم من نفسه هو حياته إنه القوة والقدرة على الخلق .

* * *

(٣)

وصل فنسنت إلى النتيجة أنه كلما سحق اللون إلى درجة كبيرة تشبع أكثر بالزيت . فالزيت كان فقط الوسيط الناقل للون ، ولم يهتم به كثيراً وخصوصاً أنه لم يكن يعترض على أن يكون لون لوحاته جافا . وبدلا من أن يشترى لونا لا يعلم إلا الله عدد الساعات التى سحق فيها بباريس قرر أن يكون هو نفسه صانع ألوان نفسه . وطلب ثيو من « بيريه تانجوى » أن يرسل لفنسنت معادن الكروم الثلاثة ، والمالاشيت ، والسلقون (لون قرمزى) والرصاص البرتقالى ، والكوبالت ، والأزرق — اللازوردى وسحقهم فنسنت فى حجرة فندقه الصغير ، وبعد هذا لم تكلفه ألوانه أثمانا رخيصة فحسب بل أيضاً كانت أكثر بهاء وبقاء .

لكنه شعر بعد ذلك بعدم الرضاء عن لوحاته الماضية التى كان يرسم عليها — إذ إن طبقة الجبس الرقيقة التى كانت مكسوة بها لم تمتص ألوانه الفنية فأرسل إليه ثيو لفافات من الخيش غير المعد ولهذا كان فنسنت يمزج الجبس ليلا فى إناء صغير ثم يغطى به الخيش الذى ينوى رسمه فى الصباح التالى . لقد جعله جورج سيورات حساسا بنوع الإطار الذى سيظل عليه رسمه . وحينما أرسل أول لوحات آرلزية إلى ثيو عبر له عن أى نوع من الأخشاب يجب استخدامها ، وأى لون يجب طلاؤها به .

ولكنه لم يشعر بالسعادة إلا بعد أن صنع الإطارات بنفسه . فكان يشترى قطع أخشاب طويلة من النجار ثم يقطعها إلى الحجم الذى يريده ثم يطليها بحيث تناسب موضوع الصورة .

لقد صنع ألوانه ، وبنى محفاته ، وطلى خيشه بالجبس ، ورسم صوره ، وقطع إطاراته ثم لونها ثم تمتم لنفسه بصوت مرتفع : « من السيء جدا أنى لا أستطيع شراء لوحاتى حتى أكون مكتفياً — ذاتياً تماماً » .

وعادت رياح الشمال الباردة . وبدت الطبيعة كلها وكأنها فى ثورة ،

وكانت السماء بلا سحب ، وكانت الشمس المتوهجة مصحوبة بجفاف شديد وبرد نفاذ . وقضى فنسنت حياة خاملة فى حجرته على أبريق من القهوة ذى طلاء خزفى ، وكوب ذات لون ملكى أزرق وذهبى ، وأريق لبن مقسم إلى مربعات زرقاء وبيضاء وقارورة خزفية زرقاء ذات رسوم حمراء وخضراء وبنية ، وبرتقالتين وثلاث ليمونات .

وحينما خبت الريح خرج ثانية ورسم منظرا على الرون ، والجسر الحديدى المقام على « ترنكيتاى » حيث كانت السماء ذات لون يشبه الجعة ، أما مراسى السفن فكانت ذات ظلال بنفسجية وأما الأشخاص فكانوا يتكئون على سور أسود ، أما الجسر الحديدى نفسه فكان ذا لون أزرق غامق حوله بعض الرتوش البرتقالية اللامعة على الأرضية السوداء . وكذلك بعض الرتوش الخضراء . لقد كان يحاول الوصول إلى شىء يحطم قلبه نهائياً ومن ثم كان يحطم قلب كل من يراه .

وبدلا من أن يرسم بالضبط ما كان أمام ناظريه كان يستخدم اللون عن قصد لكى يعبر عن نفسه بقوة أعظم . لقد أدرك أن ما أخبره به «بيسارو» فى باريس كان حقيقيا : « يجب عليك أن تبالغ فى التأثيرات بجرأة سواء أكان ذلك فى التناسق أم فى التناقض ، وها هو ذا ما تحدثه الألوان » . ولقد وجد فى مقدمة « لموباسان » « عن بيبروجان » شعوراً مشابها لهذا . « للفنان الحرية فى المبالغة لكى يخلق فى قصصه عالما أكثر جمالا ، وأكثر بساطة وأكثر سلوى من عالمنا » .

لقد قضى يوما بأكمله فى عمل شاق بين حقول القمح تحت الشمس المحرقة . وكانت النتيجة حقلا محروثا ، وحقلا كبيراً مليئا بطينة جامدة فى أرض بنفسجية صاعدة نحو الأفق . وحبا مبذور ذا لون أزرق وأبيض ، أما فى الأفق فكان يوجد حقل به قمح قصير ناضج ، ويعلو كل هذا سماء صفراء ذات شمس صفراء .

وكان يعلم فنسنت أن النقاد البارسيين قد يعتقدون أنه يعمل بسرعة جداً . ولكنه لم يوافق على هذا . ألم تكن عاطفته هى التى تدفعه ، وألم يكن إخلاصه للطبيعة الذى يرغمه على هذا ؟ وماذا لو أن عاطفته كانت قوية جداً لدرجة أنه كان يعمل ، وماذا لو أن ضرباته جاءت متتالية متسقة ومتناسقة كمثل الكلمات فى أثناء الحديث ، وأنه سيتلوها أيضا الوقت الذى تمر به أيام عصيبة خالية من الإيحاء . إنه يجب أن يقرع والحديد ساخن ، ويضع القضبان المصورة على جنب واحد .

وربط حمالته إلى ظهره ، وسار فى الطريق الذى يقوده من المنزل بممر « مونتماجور » لقد كان يسير سريعاً جداً لدرجة أنه سرعان ما سبق رجلا وولدا كان يتسكعان أمامه . وقد تعرف على هذا الرجل المسمى رولان العجوز صانع « طوابع البريد الآرليزى » . وكثيراً ما كان يجلس بالقرب من رولان فى المقهى ، وكان يود التحدث إليـــه ولكن لم تواته الفرصة مطلقاً .

فقال : صباح الخير — ياسيد رولان .

فرد عليه رولان : آه ! إنه أنت الرسام ، صباح الخير ، لقد كنت أصطحب ابنى فى نزهة عصرية قصيرة .

— لقد كان يوما عظيما — أليس كذلك ؟

— آه بالطبع ، يكون الجو جميلا حينما لا تهب تلك الرياح الشمالية الملعونة — هل رسمت اليوم لوحة ياسيدى؟

— نعم .

— إننى جاهل ياسيدى ولا أعرف شيئاً عن الفن ، ولكن سيغمرنى الشرف لو أنك سمحت لى بالنظر إليها .

— بكل سرور .

وجرى الولد أمامهم وهو يلعب ، فى حين أن فنسنت ورولان سارا

جنبا إلى جنب، وبينما كان رولان ينظر إلى اللوحة درسه فنسنت . وكان رولان يلبس قبعة رجل البريد الزرقاء . وكان له عينان رقيقتان متسائلتان ، ولحية طويلة مجعدة ومربعة كانت تكسو رقبته وياقته ، واسترخت أخيرا على حلة رجل البريد الزرقاء الداكنة . ولقد شعر فنسنت بنفس الروح الرقيقة الحائمة التى جذبته من قبل إلى بيريه تانجوى ، فى رولان . لقد كان ساذجاً بطريقة تدعو للرثاء وكان يبدو وجهه المنبسط وكأنه لا يناسب تلك اللحية اليونانية العظيمة .

وكرر رولان قوله : « إننى رجل جاهل ياسيدى ، وسامحنى لما سأقوله . إن حقول قمحك حية جداً ، إنها حية مثل الحقول التى مررنا بها هناك فأين رأيتك مثلا وأنت تعمل ؟ » .

— إذن فأنت تحبها ؟

— أما عن ذلك فلا أستطيع قوله ، ولكنى أعرف أنها تجعلنى أشعر بشىء هنا .

ثم مرر يده على صدره .

وصمتا لحظة على قاعدة «مونتماجور» بينما كانت الشمس تغرب فى لون أحمر فوق الدير القديم ، وكانت أشعتها تنعكس على جذوع أشجار السنط وأوراقها النامية بين كومات من الصخور فتلون الأجذع والأوراق بلون برتقالى نارى ، بينما كانت السنطيات البعيدة تقف متخذة لونا أزرق روسيا وخلفها سماء ذات لون أزرق سماوى فى مخضر رقيق . أما الرمال البيضاء وطبقات الصخور البيضاء الراقدة تحت الأشجار فقد تشكلت بلون أزرق .

فسأل رولان : إن هذه حية أيضاً — أليس كذلك ياسيدى ؟ .

— إنها ستظل حية حتى بعد أن تموت يارولان .

وسارا سويا ، وهما يتجاذبان أطراف الحديث بطريقة ودية لا توجد

شيئاً من طريقة التحطيم التى يستخدمها رولان . ولقد كان عقله بسيطاً ، وأفكاره بسيطة أيضاًوعميقة ، إنه كان يعول نفسه وزوجته وأربعة أطفال بمائة وخمسة وثلاثين فرنكا يتقاضاها شهريا ، لقد عمل ساعيافى البريد لمدة أربع وعشرين ساعة دون أن ينال ترقية مع زيادة راتبه بعلاوات طفيفة جداً . وقال فنسنت : «حينما كنت شابا ، ياسيدى ، كنت أفكر كثيرا فى الرب. ولكنه يبدو أنه أصبح نحيفاً بمرور الأعوام، إنه مازال فى حقل القمح الذى رسمته ، وفى غروب الشمس عند «مونتماجور» ولكننى حينما أفكر فى الرجال ... وفى العالم الذى صنعوه ... ، إننى أعرف يا رولان ولكننى أشعر أننا يجب ألا نحكم على الله بهذا العالم . فإن هذا مجرد دراسة لم تصل بعد إلى نهاية ، ماذا يمكنك أن تفعل فى دراسة خاطئة إذا كنت مغرما بالفنان ؟ إنك لن تجد الكثير لتنقده ، ولهذا ستمسك لسانك عن الكلام ، ولكن لك الحق فى أن تسأل عن شىء أفضل » .

فصاح رولان : نعم هو هذا ، شىء أفضل من هذا بمقدار ضئيل .

— إننا يجب أن نرى أعمالا أخرى صنعتها نفس اليدين قبل أن نحكم عليه .

وكان الغسق قد غطى شارع البلدة الملتوى ، ونفذت الإشعاعات الأولى من النجوم خلال غطاء الليل الأسود الثقيل . وأخذت عينا رولان الجليلتان البريئتان تبحثان فى وجه فنسنت .

— إذن أنت تعتقد بوجود عالم آخر غير هذا العالم ياسيدى .

— إننى لا أعرف يارولان . فلقد كففت عن التفكير فى مثل هذه الأشياء حينما أصبحت منغمسا فى عملى . ولكن هذه الحياة تبدو غير كاملة ـ أليس كذلك ؟ . ففى بعض الأحيان أعتقد أنه مثلما تعتبر القطارات والعربات وسائل لنقلنا من آن لآخر على هذه الأرض ، فكذلك التيفود والسل هما وسيلتان لنقلنا من عالم لآخر .

— آه ، إنكم تفكرون فى هذه الأشياء ، أيها الفنانون !

— رولان ! هل يمكنك أن تصنع لى معروفا ؟ دعنى أرسم صورتك. لأن شعب آرلز لا يحبون الوقوف أمامى .

— إنك ستضفى على شرفا بهذا يا سيدى . ولكن لماذا تريد رسمى ؟ إننى مجرد رجل كريه .

— لو أن هناك الايا رولان ، فإننى أعتقد أنه ستكون لديه لحية وعينان يشبهان عينيك تماما .

— إنك تسخر منى ياسيدى .

— كلا بل العكس ، فأنا جاد فيما أقول .

— هل تأتى وتشترك معنا فى العشاء فى مساء الغد ؟ فعندنا مائدة بسيطة جداً ولكن يسعدنا أن تكون معنا .

وبرهنت مدام رولان على أنها امرأة ريفية ذكرته إلى حد ما بمدام دنيس. وكان يوجد على المائدة مفرش ذو لون أحمر وأبيض ، ووعاء صغير من البطاطس ، وخبز محمر بفرن المنزل وزجاجة خمر مزة وبعد العشاء رسم فنسنت مدام رولان بينما تبادل أطراف الحديث مع ساعى البريد وهو يرسمها ، وقال رولان : « كنت من الحزب الجمهورى فى أثناء الثورة ولكننى أرى الآن أننا لم نكسب شيئاً فسواء أكان حكامنا ملوكا أم وزراء فنحن الفقراء مازلنا نكسب القليل كما كنا فى الماضى .

ولقد اعتقدت أننا حينما كنا جمهورية كان كل فرد يشترك مثل الآخر تماماً .

— آه — كلا ... يارولان .

— قضيت حياتى كلها محاولا أن أفهم ياسيدى ، لماذا يجب أن يحصل

إنسان ما على أكثر مما يحصل عليه الآخر. ولماذا يجب أن يعمل إنسان بكل ما لديه من قوة بينما يجلس جيرانه عاطلين بلا عمل ربما أنني جاهل جداً لدرجة لا تمكنني من الفهم . فهل تعتقد ياسيدى لو أنني كنت متعلما لاستطعت أن أفهم هذا من ذاك ؟

ونظر فنسنت نظرة خاطفة إلى أعلى ليرى إذا كان رولان يتحدث بسخرية أم لا . ولكنه ألقى نظرة البراءة السذجة على وجهه .

فقال له : نعم ياصديقى . فمعظم المتعلمين يفهمون هذه الحالة جيداً . ولكننى جاهل مثلك ، ولن يمكننى أبدا أن أفهم أو أتقبل هذه الحالة .

* * *

(٤)

وكان يستيقظ فى الرابعة صباحا ، ويسير لمدة ثلاث أو أربع ساعات ليصل إلى المكان الذى يريده ثم يستمر فى الرسم حتى يحل الظلام . ولم يكن جميلا بالمرة أن يسير عشرة أو اثنى عشر كيلو مترا بمفرده إلى المنزل ولكنه كان يحب اللمسات التأكيدية للوحات المبتلة التى كانت تحت إبطه لقد رسم سبع صور كبيرة فى سبعة أيام . وعند نهاية الأسبوع كان قد قارب الموت ؛ لقد كان صيفاً عظيماً ولكنه اقترب الآن من نهايته : إذ هبت عاصفة شمالية باردة عنيفة وارتفعت معها سحب من التراب جعلت الأشجار مبيضة . ولقد اضطر فنسنت إلى البقاء بلا عمل حتى إنه نام ست عشرة ساعة متمددا .

ولكنه لم يقض وقتاً لطيفا ، لأن نقوده كانت تنفق معظمها فى يوم الخميس كما أن خطاب ثيو الذى يحتوى خمسين فرنكا لم يكن يتوقع وصوله إلا يوم الاثنين ظهرا ، إنها لم تكن غلطة ثيو — فهو مازال يرسل خمسين فرنكا كل عشرة أيام بالإضافة إلى مواد الرسم ، وجن جنون فنسنت حينما رأى كل لوحاته الجديدة قد وضعت فى إطارات ، ولقد أمر بأن يظل معظمها لميزانيته الخاصة . وقد عاش خلال الأيام الأربعة هذه على ثلاثة وعشرين كوبا من القهوة ورغيف من العيش آمنه عليه الخباز . وقام رد فعل عميق تجاه لوحاته فى حين أنه لم يكن يعتقد أن لوحاته لا تساوى المبالغ التى ينفقها أخوه . ولكنه أراد أن يستعيد النقود التى أنفقها لكى يردها لأخيه . فأخذ ينظر إلى لوحاته الواحدة بعد الأخرى وهو يوبخ نفسه لأنها لا تساوى ما أنفقه عليها . وحتى لو درسها بعين متسامحة من وقت لآخر . فقد كان يعرف أنه كان فى إمكانه أن يشتريها بأرخص من نفقاتها لو اشتراها من شخص آخر .

كانت الأفكار تتوارد عليه جماعات وجماعات فيما يختص بعمله طوال

الصيف فعلى الرغم من أنه كان وحيداً إلا أنه لم يجد الوقت الكافى الذى يمكنه من التفكير أو الشعور لقد كان يمضى وكأنه آلة بخارية . ولكنه أحس الآن وكأن عقله طبخة حامضة .

كما أنه لم يجد فى يده فرنكا واحداً يمكنه من أن يبعث به السرور إلى نفسه بالأكل أو بالذهاب لزيارة راشيل .

وقرر أخيراً أن كل مارسمه فى هذا الصيف كان سيئاً ورديئاً للغاية .

وقال لنفسه : على أى حال فإن أية خيشة وضعت عليها رسمى تساوى أكثر من الخيشة الفارغة إن تظاهرى ليس مبالغا فيه . فلى الحق فى الرسم وهذا هو السبب فى رسمى .

وكان مؤمنا أنه بإقامته فى آرلز بكل بساطة سيمكنه من أن يحرر فرديته وذاتيته فالحياة قصيرة ، وتجرى بسرعة . حسناً فمادام رساما ، فعليه أن يرسم . وفكر مليا : لقد أصبحت أصابعى الفنانة مرنة وسلسة حتى ولو أن جثتى ستتحطم إربا إربا .

وكتب قائمة طويلة من الألوان لكى يرسلها إلى ثيو ، وأخيراً أدرك أنه لن يجد لونا واحدا من قائمته فى محل دانش ، أو موف ، أو ماريس ، أو فايسنبروخ . فلقد أبعدته « آرل » كلية عن التقاليد الدانمركية .

وحينما وصلت نقوده فى يوم الاثنين وجد مكانا يستطيع أن يتناول فيه وجبة جميلة فى مقابل فرنك واحد . لقد كان مطعماً غريباً . ملوناً كله بلون رمادى ، فالأرضية كانت ملونة ببتومين رمادى مثل أرصفة الشوارع ، وكان معلقا على الحائط أوراق رمادية ، أما الستائر الخضراء فكانت مرفوعة دائماً فى حين أنه أسدلت ستارة رمادية كبيرة فوق الباب لتمنع التراب . وفى نفس الوقت نفذ شعاع رفيع جداً من ضوء الشمس خلال الستارة .

وبعد أن استراح لما يزيد على أسبوع قرر أن يقوم بالرسم ليلا . فرسم المطعم الرمادى حينما كان مديروه يتناولون وجباتهم والخدم يجيئون ويروحون . ورسم سماء الليل السميكة الرمادية ، وقد انغمس فيها آلاف من نجوم بروفنس اللامعة ، كما رآها من ميدان لامارتين وخرج إلى الطريق ورسم أشجار السرو تحت ضوء القمر كما رسم « المقهى الليلى » الذى يظل مفتوحا طوال الليل حتى يستطيع المتجولون أن يلوذوا به حينما لا يكون معهم نقود للنوم فى فندق ليلى ، أو حينما يكونون ثملين جداً لدرجة تمنع من أخذهم إلى أحد الفنادق .

فرسم المقهى من الخارج فى إحدى الليالى ثم رسم داخله فى الليلة التالية ، وحاول أن يعبر عن عواطف الإنسانية المخيفة باللونين الأحمر والأخضر . فرسم الداخل بلون أحمر دموى وأصفر قاتم وفى الوسط منضدة بليارد خضراء ، كما رسم بالداخل أربعة مصابيح زيت ذات لون أصفر ليمونى ولها وهج برتقالى وأخضر . وكان يوجد فى كل مكان تناقض مثير بين أغرب الألوان الحمراء والخضراء المستعملة فى رسم « العصبجية » النائمين . وكان يعبر عن فكرة أن المقهى مكان يمكن للإنسان أن يحطم نفسه فيه ، أو يجن جنونه فيه أو يرتكب جريمة .

وسر شعب آرل لأنهم رأوا فو — رو كان يرسم فى الشوارع طوال الليل وينام طوال النهار . فلقد كانت أوجه نشاط فنسنت موضوعا خصباً لحديثهم .

وحينما حل أول الشهر ، لم يرفع صاحب الفندق إيجار الغرفة بل قرر أيضاً أن يفرض على فنسنت مصاريف تخزين عن الدولاب الصغير الذى يحفظ فيه لوحاته . فكره فنسنت الفندق — وثارت ثائرته لجشع صاحبه ووجد فى المطعم الرمادى الذى أكل فيه مكانا مناسباً . ولكن نقوده كانت لا تكفى لتناول طعامه هناك إلا يومين أو ثلاثة كل عشرة أيام . كما هات

تباشير الشتاء ، ولم يكن لديه « ستوديو » للعمل فيه كما أن حجرة الفندق كانت مقيتة ومذلة للنفس . علاوة على أن الطعام الذى اضطر لتناوله فى المطاعم الرخصية كان مسمما لمعدته .وكان عليه أن يجد منزلا « وستوديو » دائمين ليقيم فيهما .

وذات ليلة بينما كان يعبر ميدان لامارتين برفقة رولان العجوز لاحظ ورقة كتب عليها « للإيجار » على منزل أصفر قرب من فندقه . وكان لهذا المنزل جناحان وردهة فى الوسط وكان يواجه الميدان والبلدة المقامة على التل — فوقف فنسنت ينظر إليه باشتياق .

ثم قال لرولان : من سوء الحظ أنه كبير جداً ، إننى أود أن أقيم فى منزل هكذا .

— ليس من الضرورى أن تستأجر المنزل بأكمله ياسيدى ، فيمكنك مثلا أن تستأجر هذا الجناح الأيمن .

— حقا ! كم من الحجرات تعتقد فى وجودها فى هذا الجناح ؟ وهل ستكون غالية الثمن ؟ .

— أستطيع القول بأنه يوجد به حوالى ثلاث أو أربع حجرات ، وستكلفك قليلا جداً ، ولن يزيد على نصف ما يكلفك الفندق . وسآتى معك غدا فى أثناء وقت تناول غدائى — إذا أردت ذلك ، ربما أستطيع أن أساعدك فى دفع مبلغ مناسب .

وفى صباح اليوم كان فنسنت مسرورا جدا ولم يفعل شيئا سوى السير جيئة وذهابا فى ميدان لامارتين ويمسح المنزل الأصفر من جميع جوانبه . فوجد أن بناءه متين كما أنه يستقبل كل الشمس . وعندما تجول فنسنت بإمعان أكثر . وجد أن له مدخلين منفصلين . وأن الجناح الأيسر كان مؤجراً فعلا .

وبعد طعام الغداء رافقه رولان ، ثم دخلا سويا الجناح الأيمن للمنزل . فوجدا ممرا طويلا فى الداخل يقود إلى حجرة كبيرة تفتح على حجرة أصغر منها . وكانت الحجرتان مطليتين بلون أبيض ، أما الصالة والسلم اللذان يقودان إلى الطابق الثانى فكانا مرصوفين بطوب أحمر نظيف . أما فى الداخل فكان يوجـــد حجرة كبيرة أخرى ومكتب . وكانت الأرضية من البلاط الأحمر الرخيص ، فى حين أن الجدران البيضاء كانت تمتص أشعة الشمس الوضاءة .

وكتب رولان مذكرة لصاحب المنزل الذى كان فى انتظارهما . فى الطابق العلوى وتحدث هو ورولان عدة لحظات بلهجة بروفنسية سريعة . لم يفهم منها فنسنت إلا القليل واستدار ساعى البريد إلى فنسنت وقال له : « إنه مصمم على معرفة طول المدة التى ستستأجر فيها هذا المكان » .

— قل له إنها غير محددة .

— هل توافق على استئجارها لمدة ستة أشهر على الأقل ؟

— آه بالطبع — بالطبع !

— وهو يقول إنه سيؤجرها لك مقابل خمسة عشر فرنكا فى الشهر .

— خمسة عشر فرنكا ! لمنزل بأكمله . إن هذا ثلث ما كان يدفعه للفندق . بل أقل مما كان يدفعه « للاستوديو » الذى كان قد استأجره فى « هاج » منزل دائم مقابل خمسة عشر فرنكا فى الشهر ! وعندئذ أخرج النقود بسرعة من جيبه .

— هاهى ذى ! خذها بسرعة ! أعطها له . لقد استأجرت المنزل .

رولان . إنه يريد أن يعرف متى ستنتقل إلى المنزل .

— اليوم — بل الآن !

— ولكن ياسيدى ليس لديك أى أثاث فكيف يمكنك الانتقال إلى هنا ؟

— إنى سأشترى مرتبة وكرسى — إنك لاتعرف يارولان مامعنى أن تقضى حياتك فى حجرات فنادق يائسة . إنى يجب أن أحصل على هـذا المـكان فوراً؟..

كما تريد ياسيدى .

وتركهم صاحب المنزل ، كما عاد رولان إلى عمله ، وأخذ رولان يتمشى من حجرة إلى أخرى ويصعد السلالم ثم ينزل من عليها ثانية ، وهو يمعن النظر مرات ومرات . وكانت الدولارات الخمسين التى يرسلها ثيو قد وصلت فى اليوم السابق ، وكان مازال فى جيبه ثلاثون فرنكا . فاندفع خارج المنزل واشترى مرتبة رخصية وكرسيا وحملهما إلى المنزل الأصفر وقرر أن يجعل من الحجرة فى الدور الأرضى حجرة لنومه والحجرة التى فى الطابق العلوى « ستوديو » له وألقى بالمرتبة على الأرضية الحمراء وحمل الـكرسى إلى الاستوديو بالطابق العلوى ، ثم عاد إلى فندقه للمرة الأخيرة. وأضاف صاحب الفندق أربعـــين فرنكا على فاتورة فنسنت مقابل أشياء تافهة . ثم رفض أن يعطى لفنسنت لوحاته إلا أن يدفع النقود .

وكان على فنسنت أن يذهب إلى قسم البوليس حتى يسترد لوحاته ، وحتى يسمح له بدفع ولو نصف هذه المصاريف الوهمية .

وقبيل الغروب وجد تاجرا يرغب فى أن يبيع له وابورجاز وإنائين ومصباح كيروسين(بالشكك) . ولم يبق عند فنسنت إلاثلاثةفرنكات فاشترى قهوة وبنا وبعض البطاطس وقليل من اللحم ليعمل شوربة .

ثم ترك نفسه بدون سنتيم واحد . بعد أن أقام مطبخا فى حجرة المـكتب الموجودة فى الطابق الأرضى .

وحينما حل الظلام على ميدان لامارتين وعلى المنزل الأصفر ، قام فنسنت بطهى شوربته وصنع قهوة على الوابور الصغير . ولما لم يكن لديه

منضدة، فرش ورقة على المرتبة ثم أعد عشاءه وأكله وهو جالس القرفصاء على الأرض . وكان قد نسى أن يشترى سكينا أوشوكة ، فاستخدم يد فرشته ليلتقط بها قطع اللحم والبطاطس من الإناء ، فكان بها طعم بسيط من الألوان .

وحينما انتهى من تناول طعامه ، أخذ مصباح الكروسين . وصعد السلم الأحمر إلى الطابق العلوى فوجد الحجرة خالية من الأثاث ومقفرة ، وليس فيها سوى الحامل الصلب الواقف فى اتجاه الشباك الذى أضاءه ضوء القمر . وكان يوجد بأسفله حديقة ميدان لامارتين المظلمة .

ثم عاد للنوم على مرتبته ، وحينما استيقظ فى الصباح وفتح النوافذ رأى خضرة الحديقة ، والشمس المشرقة ، والطريق الملتوى المؤدى إلى المدينة . ثم نظر إلى طوب الأرضية الأحمر النظيف ، والجدران المطلية بملاط أبيض دون أن تعلق بها أية قاذورات ، والحجرات الواسعة ، فصنع لنفسه كوبا من القهوة ثم أخذ يروح ويجىء ويشرب من الإناء ، ويضع خطة فى نفسه عن كيفية تأثيث منزله ، عن أى اللوحات التى يجب أن يعلقها على جدرانه وعن كيفية قضاء ساعات السعادة فى منزل ملكه حقيقة .

وفى صباح اليوم التالى تسلم خطابا من صديقه « بول جوجوين » الذى وضع فى السجن فيما مضى ، وأصبح الآن ضحية المرض والفقر ويقيم فى مقهى ملعون فى بونت آفن فى بريتانى . إذ يقول جوجوين «إننى لا أستطيع ، الخروج من هذا الجحر ، لأننى لا أستطيع أن أدفع فاتورة حسابى كما أن المالك قد قفل على كل لوحاتى ، إننى لا يثير جنونى شىء أكثر من عدم وجود المال من بين جميع الآلام التى تعذب البشرية ، ولكننى أشعر أننى قضى على بأن أكون شحاذا مستديما » .

وفكر فنسنت فى فنانى العالم ، ومضايقتهم ، ومرضهم وانزوائهم وازدراء الناس لهم وسخريتهم منهم ، وجوعهم ، وعذابهم حتى يوم موتهم

لماذا ؟ وماهى جريمتهم التى اقترفوها ؟ وماهى إساءتهم التى جعلتهم منبوذين ومطرودين ؟ وكيف يمكن لهذه الأرواح المضطهدة أن تقوم بعمل طيب ، رسام المستقبل — آه ، إنه سيكون ملوناً ، بل ورجلا لم يخلق مثله من قبل . إنه لن يعيش فى المقاهى البائسة .

وهذا المسكين جوجين . الذى يعيش فى حجرة قذرة فى بريتانى ، لقد مرض لدرجة لا تمكنه من العمل ، وأصبح بدون صديق يساعده ، وبدون فرنك واحد فى جيبه يمكنه من تناول وجبة صحية أو الذهاب إلى الطبيب . لقد اعتقد فنسنت بأن هذا الرجل رساما عظيم ورجل عظيم ، ولو وافت المنية هذا الرجل ، أو لو أن هذا الرجل كف عن العمل ، فيالها من مأساة فى عالم الرسم .

وألقى فنسنت بالخطاب فى جيبه ، ثم ترك المنزل الأصفر ، وسار على طوال شاطىء الرون . وكان فى هــــذه الأثناء مركب محمل بشحنة فحم قد رسا فى الميناء وإذا ما نظرت إليه من أعلى وجدت أنه لامع ومبتل لطول بعض الأمطار دفعةواحدة وكان شكل المياه أبيض مصفرا ، وتعلوه سحب لؤلؤية رمادية ، أما السماء فكانت بنفسجية قاتمة ، ويحدها لون برتقالى من جهة الغرب . أما المدينة فكانت ذات لون بنفسجى داكن . وكان بعض العمال الذين يلبسون ملابس قذرة ذات لون أزرق وأبيض ، يروحون ويجيئون على ظهر السفينة وهم ينقلون البضائع إلى الشاطىء .

لقدكان المنظر « هوكوساى » أفقيا ، فلقد حمل فنسنت إلى باريس ، إلى الألوان اليابانية فى محل « بيرتانجوى » . . كما نقل إلى « بول جوجين » الذى أحبه حباً عميقاً من بين أصدقائه جميعاً .

وعلم على الفور ما يجب عليه أن يفعله ، فلقد كان المنزل الأصفر يكفى جدا لإقامة رجلين فيه ، وكان يمكن لكل منهما أن يكون له حجرة لنومه وحجرة لرسمه . ولو تمكنا من أن يطهيا طعامهما ويسحقا ألوانهما ، ويحافظا على ألوانهما أن يعيشا على المائة والخمسين فرنكا التى تصل إليه

شهريا .. فالإيجار لن يزيد ، كما أن الطعام محدود . وكم سيكون مدهشا أن يكون له صديق ثانية ، صديق فنان يستطيع التكلم بنفس اللغة ويفهم نفس الفن .

وكم من أشياء مدهشة يمكن لجوجوين أن يعلمها له عن الرسم .

إنه لم يدرك من قبل كم هو وحيد . وحتى لو لم يستطعيا العيش على المائة والخمسين فرنكا فربما يرسل إليهما ثيو خمسين فرنكا أخرى فى مقابل لوحات جوجوين كل شهر .

نعم ! نعم ! إنه يجب أن يأخذ جوجوين معه فى آرلز : فشمس بروفنس الساخنة قد تقتل جميع الأمراض وتخرجها منه ، كما فعلت مع فنسنت . كما أنهما سرعان مايجعلان الاستوديو يسير على قدم وساق . وسيكون أول استوديو أنشئ فى الجنوب . حيث يمكنهما أن يطبقا فيه تقاليد ديلاكروا ومونتشيلى . كما أنه سيمكنهما أن يغسلا رسوماتهما فى ضوء الشمس فتوقظ ألوانهما العالم على طبيعة باهرة .

إنه يجب إنقاذ جوجوين !

واستدار فنسنت ثم أخذ يشب مثل الكاتب عائدا إلى ميدان لامارتين ، ثم دخل المنزل الأصفر واندفع صاعدا السلالم الحمراء ثم ابتدأ يخطط الحجرات والسعادة تغمره .

سيكون لى أنا وبول حجرتان للنوم فى الطابق العلوى أما حجرات الطابق السفلى فسنستخدمها استوديو ، وسأشترى أسرة ومراتب وبياضات وكراسى ومناضد وسيكون لنا منزل حقيقى وسأجمل المنزل بأكمله بعباد الشمس والحدائق اليانعة .

آوه ، بول ، كم جميل أن تكون معى ثانية !

* * *

(٥)

ولم يكن الأمر سهلا كما توقعه فعلى الرغم من أن ثيو أعرب عن استعداده لدفع الخمسين فرنكا شهريا فى مقابل لوحات جوجوين ، إلا أن مشكلة دفع أجر السكة الحديد قد واجهتهم فلم يكن ثيو أو جوجوين فى إمكانهما توفيره . علاوة على أن جوجوين كان مريضا جدا لدرجة لا تسمح له بالخروج من بونت آفن ، وكان مهموم القلب لدرجة لا تيسر له الدخول فى أى مشروع بحماس كاف . ولكن الخطابات طارت ثقيلة وسريعة بين آرلز ، وباريس وبونت آفن .

وشعر فنسنت الآن بحب جارف نحو منزله الأصفر فلقد استطاع أن يشترى لنفسه منضدة ، ومكتبا به أدراج بما كان يدفعه له ثيو .

وكتب إلى ثيو : بانتهاء العام سأكون رجلا آخر . ولكن لا تعتقد أنى سأترك هذا المكان بأى حال من الأحوال . فسأقضى باقى حياتى فى آرلز ، وسأكون رسام الجنوب ، كما أنك يجب أن تعتبر أن لك منزلا ريفيا فى آرلز ، وأننى مهتم بتنظيمه حتى يمكنك المجىء دائما إليه وتقضى فيه أيام عطلاتك .

وكان ينفق أقل ما يجب أن ينفق على ضروريات الحياة بينما كان يصب كل ما تبقى لديه من مال على منزله . ففى كل يوم كان عليه أن يجرى اختبارا بين نفسه وبين المنزل فهل يجب أن يشترى لحما للغداء أم أن يشترى ذلك الإبريق الخزفى ؟ وهل يشترى حذاء أم يشترى ذلك اللحاف الأخضر لسرير جوجوين ؟ وهل يشترى إطارا من أخشاب السنوبر للوحاته الجديدة أم يشترى تلك الكراسى الواطئة ؟

ودائما ما كان يفضل المنزل على نفسه . فلقد أعطاه المنزل الأصفر شعورا بالهدوء ، لأنه كان يعمل ليؤمن المستقبل . فكثيرا ما كانوا

يتلاعبون به ، أو يدقون رأسه دون شفقة أو تفكير ، أما الآن فلن ينتقل من هذا المكان ثانية . فبعد أن يموت سيجد رسام آخر ما يثير اهتمامه ، ولذلك كان يؤسس ستوديو دائما يمكن أن تستخدمه الأجيال التالية من الرسامين فى نقلهم وتصويرهم للجنوب ولقد طغت عليه فكرة أن رسمه مثل هذه اللوحات فى المنزل قد تساوى المبالغ التى أنفقت عليه فى السنوات التى لم ينتج فيها شيئاً .

وانغمس فى عمله بطاقة جديدة ، ولقد علم أن النظر إلى أى شيء لوقت طويل يزيد من تعريفه ويعطى له مزيدا من الفهم العميق . ولذلك عاد إلى مونتماجو مايزيد على الخمسين مرة لكى يدرس الحقول عند قاعدته ولكن رياح الشمال الباردة جعلت من الصعب عليه العمل بفرجونه بحيث يجعل رسمه متصلا ومتداخلا مع إحساسه وخصوصاً وأن الحامل كان يتحرك بقوة مع الرياح . وقد كان يعمل من السابعة صباحا حتى السادسة مساء دون أى راحة . فكان يرسم لوحة كل يوم !

وذات ليلة بينما كان هو ورولان يجلسان فوق أريكة فى لامارتين ، قال له رولان . « سيكون الغد قيظا ، أما بعد ذلك فسيحل الشتاء » .

فسأله فنسنت : « وكيف يكون الشتاء فى آرلز ؟ »

— منخفض الحرارة ، مع سقوط أمطار كثيفة ، وهبوب رياح عاتية ، وبرد قارس ، ولكن الشتاء قصير جدا هنا ، ولا يتعدى شهرين .

— إذا غدا سيكون آخر أيامنا الجميلة ، وأنا أعرف البقعة التى يجب أن أرسمها . تصور يا رولان حديقة الخريف بها شجرتى صنوبر وشجيرات خضراء فى شكل الزجاجات ، وثلاث شجرات قسطل قصيرة ذات أوراق ملونة باللون البنى والبرتقالى . وبها شجرة سدر لها أوراق ليمونية شاحبة وجذع بنفسجى ، وغصنان صغيران ذوات لون أحمر دموى ، وأوراق قرمزية . وبجوارها بعض الرمال والحشائش وسماء زرقاء » .

— آه ياسيدى ، إنك حينما تصف الأشياء أشعر أنى كنت أعمى طوال حياتى .

وفى صباح اليوم التالى استيقظ فنسنت مع إشراقة الشمس ، وكان يتمتع بروح عالية . فقلم لحيته بمقص ومشط شعره القليل الذى تركته شمس آرلز دون أن تحرقه وتسقطه من فروة رأسه ، ولبس بدلته الكاملة الوحيدة ، ولبس معطفه المصنوع من فرو الأرنب الذى حمله معه من باريس كالو أنه أراد أن يودع الشمس بإيمائة لطيفة تدل على مدى غرامه بها .

وكانت تنبئوات رولان صحيحة . فأشرقت الشمس فى شكل كرة صفراء تنبعث منها الحرارة ولم يكن للمعطف المصنوع من فرو الأرنب قمة تحمى رأسه ، فنفذت الشمس فى عينيه وكانت حديقة الخريف على مسيرة ساعتين من آرلز . عبر الطريق إلى تاراسكون . وكانت تتخذ لها عشاق جانب من التل . فثبت فنسنت حامله فى حقل قمح محروث يمتد خلف الحديقة وبجوارها .

ثم ألقى بمعطفه على الأرض ، ثم خلع (جاكتته) الجميلة ووضع اللوحة على الحامل وعلى الرغم من أن الوقت كان مازال فى الصباح المبكر إلا أن الشمس لفحت قمة رأسه ثم ألقت أمام عينه ستارا من النيران المتراقصة التى اعتاد عليها .

ودرس المناظر الذى أمامه بإمعان . ثم حلل مركبات الألوان وحفر التصميم فى عقله وحينما أصبح مؤمنا بأنه فهم المنظر ، نعم فرجونه ، ورفع الأغطية عن أنابيب ألوانه ونظف السكين التى يمزق بها ألوانه السميكة . ثم نظر مرة أخرى إلى الحديقة ، وطبع الصورة فوق اللوحة الخالية أمامه ، ثم خلط بعض الألوان على خشبة مسطحة ورفع فرجونه . وإذا به يسمع صوتا يسأله من خلفه .

وهل يجب أن تبتدئ بهذه السرعة يافنسنت ؟ .

فالتفت فنسنت حول نفسه .

— مازال الوقت مبكراً ياعزيزى . ومازال أمامك يوما بأكمله يمكنك أن تعمل فيه .

وفغر فنسنت فاه ونظر إلى المرأة فى حدة شديدة . لقد كانت امرأة شابة ولكنها لم تكن طفلة . وكانت عيناها فى زرقة السماء الكوبالتية فى أثناء ليل آرلز ، أما شعرها الذى كانت قد لفته فى ضفيرة مناسبة خلف ظهرها كان أصفر ليمونى مثل الشمس . أما تقاطيع وجهها فكانت أكثر رقة من تقاطيع « كاى — فوس » وكان يظهر فيها نضوح أرض الجنوب . ولون جلدها كان ملفوحا بلون ذهبى وأسنانها كانت تظهر بين شفتيها المبتسمة بيضاء مثل زهرة الزنبق عند رؤيته بين أعناب حمراء قاتمة . وكانت تلبس فستانا أبيض طويلا ملتصقا بتقاطيع جسدها ومشبوكا فى جنبه بدبوس فضى مستدير . وكانت تلبس أيضا صندلا فى قدميها أما بنيتها فكانت قوية وشديدة التحمل ، ولكنها تنحدر إلى أسفل بوضوح مافيه شك بتجاويف ممتلئة وابتدأت المرأة قائلة : لقد ظللت وقتا طويلا بعيدة عنك يافنسنت .

ثم وقفت ما بين فنسنت والحامل ، واتكأت على اللوحة الفارغة فحالت بينه وبين النظر إلى الحديقة . وعندئذ انعكست الشمس على شعرها الأصفر الليمونى وأرسلت أمواجا من الحرارة بأسفل ظهرها . وابتسمت المرأة إليه بكل مافى قلبها . وبإعجاب شديد لدرجة أنه مرر يديه فوق عينيه ليتأكد أنه لم يمرض أو أن النوم قد انتابه فجأة .

فقالت المرأة . إنك لاتفهمنى ياعزيزى . وكيف استطعت أن تتحمل بعدى عنك طوال هذه المدة ؟

— من أنت ؟

— إننى صديقتك يافنسنت : أعز أصدقائك فى هذا العالم .

ـ وكيف عرفت اسمى ؟ إننى لم أرك مطلقا .

ـ آه كلا ، كلا ولكننى رأيتك مرات عديدة جدا

ـ وما هو اسمك ؟

ـ مايا .

ـ هل هذا كل شىء ؟ مجرد مايا ؟

ـ بالنسبة لك يافنسنت — هذا هو كل شىء .

ـ ولماذا تتبعيننى هنا إلى هذه الحقول ؟

ـ لنفس السبب الذى تتبعتك من أجله فى جميع بقاع أوربا ... لكى أكون بجانبك .

ـ إنك إذن تخطئيننى على أنى شخص آخر — فمن المستحيل أن أكون هو ذلك الرجل الذى تقصدينه .

وعندئذ وضعت المرأة يدا بيضاء باردة على شعره الأحمر المحترق ثم ملست عليه برفق فكانت برودة يدها ورقة صوتها المنخفض مثل مياه منعشة خرجت من بئر عميق أخضر .

ـ يوجد فى هذا العالم فنسنت فان جوخ واحد ، ولا يمكن أن أخطئه أبدا .

ـ منذ متى وأنت تعرفيننى ؟

ـ ثمانية سنوات يافنسنت .

ـ نعم ياعزيزى — كنت فى البوريناج .

ـ وهل عرفتينى منذ ذلك الوقت ؟

ـ رأيتك لأول مرة قبل غروب الشمس أحد الأيام ، بينما كنت تجلس على عجلة حديدية مصدأة أمام ماركيز ...

ـ ... وأنا أرقب عمال المناجم وهم عائدون إلى منازلهم

— نعم حينما نظرت إليك لأول مرة . كنت تجلس هكذا متكاسلا، وكنت على وشك المرور أمامك فوجدتك تخرج من جيبك ظرفا قديما وقلم رصاص وابتدأت ترسم . فنظرت من فوق كتفك لأرى مارسمته ... وحينما رأيته ... وقعت فى حبك .

— أنت تقعين فى الحب ؟ أنت تقعين فى حبى ؟

— نعم يافنسنت . ياعزيزى فنسنت وقعت فى حبك .

— ربما لم أكن سيئاً جدا إلى هذه الدرجة التى أنا عليها الآن حتى إنه كان من الممكن النظر إلى حينذاك .

— بل لم يكن لك نصف هذا الجمال الذى أراه الآن .

إن صوتك ياماميا ... له وقع غريب .ولم أسمع مثل هذا الصوت إلا من امرأة واحدة . .

... صوت مارجوت . إنها احبتك يافنسنت ، كما أحبك أنا .

— هل كنت تعرفين مارجوت ؟

— لقد مكثت فى البرابانت لمدة عامين ، وكنت أتبعك إلى الحقول كل يوم ، وكنت أراقبك وأنت تعمل فى حجرة المصارعة خلف المطبخ وكنت سعيدة لأن مارجوت كانت تحبك .

— ومنذ ذلك الوقت وأنت لم تعودى تحبيننى ؟

فمدت أطراف أصابعها الباردة ولمست بها على عينه .

— آه — كلا — بل أحببتك ، إن حبى لم يكل أبداً منذ أن رأيتك للمرة الأولى .

— والم تكونين غيورة من مارجوت ؟

فابتسمت المرأة ، ومر على وجهها ومضة حزن وعاطفة ليس لها حدود مما جعل فنسنت يفكر فى منديس دا كوستا

— كلا — لم أكن غيورة من مارجوت . لقد كان حبها طيباً بالنسبة لك ، ولكننى لم أكن حبك ، لكاى ، لأنه كان يضربك .

— وهل كنت تعرفينى حينما وقعت فى حب أرسولا ؟
— كان هذا قبل أن أعرفك .
— ما كنت تحبينى حينذاك
— « كلا »
— لقد كنت أحمق
— « فى بعض الأحيان يجب على الإنسان أن يكون أحمق فى البداية ، لكى يصبح حكيما فى النهاية .
— « ولكن إذا كنت قد أحببتينى حينما كنا فى البرابانت فلماذا لم تأت إلى ؟ » .
— « إنك لم تكن مستعداً لقبولى — يا فنسنت » .
— « والآن ... هل أنا مستعد ؟ » .
— « نعم ! » .
— « وهل ما زلت تحبيننى ؟ حتى الآن ... فى هذا اليوم ... وفى هذه اللحظة ؟ .
— « الآن ... واليوم ... وهذه اللحظة ... حتى الأبد » .
— « وكيف يمكنك أن تحبيننى ؟ انظرى ، إن لثة أسنانى مريضة ، وكل سنة من أسنانى أصبحت صناعية ، كما أن شعرى قد احترق وسقط من فوق رأسى ، وعيناى حمراوتان مثل المريض بالزهرى ، وما وجهى إلا عظام مشرشرة ، إنى كريه . بل أشد الرجال كراهة ! علاوة على أن أعصابى محطمة ، وجسدى عقيم وأحشائى مسممة من اعاليها إلى أسافلها . « كيف تحبين حطام رجل كهذا ؟ » .
— « هل يمكنك أن تجلس يا فنسنت ؟ » .

وجلس فنسنت على كرسيه الصغير ، وجلست المرأة على ركبتيها وسط طمى الحقل الناعم ، فصاح فنسنت ، لاتفعلى هذا ، فسيصير فستانك الأبيض قذرا . دعينى أضع معطفى تحتك .

ولكن المرأة أوقفته بلمسة خفيفة من يدها .

— « مرات عديدة توسخ فستانى فى متابعتك — يا فنسنت ، ولكنه عاد نظيفاً ثانياً .

ووضعت ذقنها على راحة يدها البيضاء القوية ، ثم أخذت تداعب بأناملها الشعيرات المحترقة تحت أذنيه .

— إنك لست دميما — يا فنسنت ، إنك جميل ، ولكنك عذبت وأشقيت هذا الجسد المسكين الذى تلتف به روحك ، ولم ترض أن تحيق أى ضرر بروحك وهى ما أحبه . على الرغم من أنك حطمت نفسك بهذا العمل الشاق .. إلا أن روحك ستبقى ... بلا نهاية . وسيبقى معها حبى لك» .

وصعدت الشمس ساعة أخرى فى كبد السماء ، وأخذت تضرب بأشعتها القوية فى فنسنت والمرأة التى معه .

وقال لها فنسنت . دعينى آخذك إلى مكان رطب ، فتوجد بعض أشجار السنوبر تحتنا على الطريق مباشرة ، حيث تكونين أكثر راحة فى الظل .

— إننى سعيدة هنا معك — فلا تهمنى الشمس ، فلقد أصبحت دة عليها .

— « هل جئت إلى آرلز منذ مدة طويلة ؟ » .

— « أتيت معك من باريس » .

فقفز فنسنت غاضبا وقذف كرسيه الصغير بقدمه .

— « إنك غشاشة . لقد أرسلك شخص ما إلى هنا لتسخرى منى . فلقد أخبرك هذا الشخص بماضى حياتى ، وأمرك أن تهزئى بى . اغربى عن وجهى ، فلن أحدثك أكثر من هذا .

ولكن المرأة تقبلت غضبه بابتسامة من عينيها .

— « إننى لست غشاشة يا عزيزى ، إننى أكثر ما يمت إلى الحقيقة فى حياتك ، ولن تستطيع أبداً أن تقتل حبى لك » .

— « هذا كذب . إنك لا تحبيننى . إنك تسخرين منى . وسأكشف لعبتك » .

وأمسك بها بقسوة بين يديه ، فدرات بنفسها حتى واجهته فقال لها :
« إننى سأحيق بك ضرراً إن لم تبعدى عنى وتتوقفى عن تعذيبك لى » .

— « ضرنى يا فنسنت — كما أضررت بى من قبل ، فالضرر جزء من الحب » .

— « بالطبع — يا عزيزى فنسنت ، إننى أحبك » .

— « ولماذا أحببتينى ؟ فدائماً ما كانت تحتقرنى النساء » .

— « لأنهن لم ينظرن إليك من أجل الحب ، ولأنه كان أمامك دائماً عمل يشغلك » .

— « عمل ؟ ياه . بل كنت أحمق . وما فائدة هذه المئات من اللوحات؟ ومن ذا الذى يود اقتناءها ؟ ومن هو الذى يريد شراءها ؟ ومن ذا الذى سيتفوه بكلمة مدح ويقول إننى فهمت الطبيعة ورسمت جمالها ؟ » .

— « سيقولها العالم أجمع يوما يا فنسنت » .

— « يوما ما — ياله من حلم . مثلما أحلم بأننى سأكون رجلا مصحاً فى يوم ما ، ولى منزل وعائلة ومال كاف أجنيه من لوحاتى لأعيش منه . إننى أرسم منذ ثمانى سنوات طوال . ولم يرض أحد أن يشترى لوحة مما رسمتها ولو مرة واحدة طوال هذه المدة الطويلة . لقد كنت أحمق » .

— « أعلم ذلك ، ولكن — يالك من أحمق عظيم . إنك بعد أن تموت يا فنسنت ، سيفهم العالم ما حاولت أن تعبر عنه . وتلك اللوحات التى لا تستطيع اليوم بيعها مقابل مائة فرنك ستباع فى يوم من الأيام بمليون فرنك . آه — إنك تبتسم — ولكن هذه هى الحقيقة . وستعلق لوحاتك فى متاحف أمستردام وهاج ، وباريس ، ودريزدن ، وميونيخ ، وبرلين . وموسكو ونيويورك . ولن يمكن لأحد أن يقدر لوحاتك بثمن ، لأنه

لن يبقى شيء للمبيع ، وستؤلف الكتب عن فنك — يا فنسنت ، وستكتب القصص والمسرحيات عن حياتك . وحينما يجتمع رجلان يعشقان الرسم سيكون اسم فنسنت فان جوخ مقدساً .

— ولو لم يزل مذاق فمك فى فمى لقلت إما أننى أحلم وإما قد جن جنونى » .

— « اقترب واجلس بجانبى يا فنسنت ، وضع يدك فى يدى » .

وكانت الشمس مركزة مباشرة على رأسيهما . كما أن الأراضى المجاورة للتل ، والوادى قد اكتست فى غلاف من الكبريت الأصفر . بينما رقد فنسنت بجوار المرأة فى شق من شقوق المحراث فى الأرض . إنه لم يتحدث مع أحد مطلقاً طوال ستة أشهر إلا مع راشيل ورولان ، ولهذا كان بداخله فيض عظيم من الكلمات ، وأمعنت المرأة النظر فى عينيه فانطلق فى الكلام ، حدثها عن أرسولا وعن الأيام التى كان فيها كاتبا عنـــد ، جوبيل ، وحدثها عن صراعه ، وفشله وعن حبه « لكاى » ، وعن الحياة التى حاول أن يبنيها مع كريستين ، وأخبرها عن آماله فى الرسم ، وعن الأسماء التى ناداه الناس بها ، وعن اللطمات التى تقبلها ، وعن أعماله التى لم تمته ، وعن ألوانه الداكنة وعن كل شىء أراد أن يحققه من أجل الرسم والرسامين . وعن تحطيم جسده من جراء التعب والمرض .

وكلما طال حديثه ازدادت استثارته ، وأخذت الكلمات تتطاير من فمه مثلما تتطاير الألوان من أنابيبه . واستيقظ جسده كله فى حركة دائمة ، فتكلم بيديه ولوح بذراعيه وكتفيه وأخذ يروح ويجىء أمامها بحركات جسدية عنيفة ، وازدادت نبضات قلبه وثار الدم فى عروقه ، بينما دفعته الشمس الحارقة فى عاطفة ذات طاقة محمومة .

وكانت المرأة تنصت إليه فى هدوء ، ولم تفت عليها كلمة واحدة مما قاله ، وعلم من عينيها أنها فهمته .

فلقد ارتشفت كل ما أراد قوله لهـا ، كما أنها ما زالت رابضة مشغوفة

ومستعدة لتستمع إلى المزيد ، لتفهمه ولكى تستقبل كل مايود أن يعطيه لها وكل ما لا يستطيع أن يحتفظ به بداخله .

وتوقف فجأة ، وأخذ جسده يرتعش مضطرباً ، من أعلاه إلى أسفله ، وكانت عيناه ووجنتاه حمراء ، وأطرافه ترتعش ، فجذبتـــه المرأة إلى جوارها .

وكانت الشمس تنحدر إلى الجانب الآخر من السماء ، وكانت الأرض ساخنة من أشعة الشمس المركزة عليها طوال النهار . وكانت تنبعث منها رائحة نباتات مزروعة ، ونباتات نامية ، ونباتات حصدت ثم ماتت ثانية . وكانت الأرض لها رائحة المياه ، رائحة نفاذة لحياة دائمة الانبثاق ودائمة العودة إلى المادة الأولى من خلقها .

واشتدت عواطف فنسفت أكثر وأكثر ، وكانت كل أنملة فى جسده تدق بداخله تنتهى إلى قلب يئن بالألم . وفتحت المرأة ذراعيها له .

فأحس بالتعب ، فنام بين ذراعيها .

وحينما استيقظ وجد نفسه بمفرده ، بينما كانت الشمس قد غربت . ووجد كعكة جافة من الطين فوق خده الذى كان قددفنه فى الطمى وهو يسيل عرقا . وكانت الأرض رطبة ولها رائحة أشياء زاحفة مدفونة ، فلبس جاكتته ، ومعطفه المصنوع من فرو الأرانب وربط الحامل على ظهره ، وأخذ اللوحات تحت إبطه . وسار عبر الطريق المظلم إلى المنزل .

وحينما وصل إلى المنزل الأصفر ألقى بالحامل ، واللوحات الفارغة إلى الحشية الموضوعة فى حجرة نومه . ثم خرج لكى يتناول قدحا من القهوة . ثم مال برأسه على كفه الموضوع على المنضدة الحجرية الباردة وأعاد الفكر فيما فعله فى أثناء النهار .. وأخذ يتمتم لنفسه : «مايا ، مايا ، ألم أسمع ذلك الاسم فى مكان ما قبل اليوم ؟ إنه يعنى ... إنه يعنى ... إننى محتار فيما يعنيه ؟ .

وتناول قدحا آخر من القهوة . . وبعد مضى ساعة عبر ميدان لامارتين إلى المنزل الأصفر . وشعر بهبوب رياح باردة ، فاشتم رائحة المطر فى الهواء .

ولم يهتم بإشعال مصباح الجاز حينما أتى بحامله . أما الآن فقد أشعل كبريتاً ووضع المصباح فوق المنضدة فأضاء الوهج الأصفر الحجرة . وجذب انتباهه رقعة ملونة على الحشية فارتاع على الفور وسار إلى الأمام ، والتقط اللوحات التى كان قد أخذها معه فى ذلك الصباح .

ورأى على اللوحة — تحت وهج الضوء العظيم — حديقة الخريف ، والشجرتين الخضراوين اللتين تشبهان الزجاجتين ، وشجرتى الصنوبر ، وشجرات القسطل الثلاث الصغيرة ذات الأوراق البنية والبرتقالية ، وشجرة السد ذوات الألوان الليمونية الشاحبة والجذع البنفسجى ، والغصنين الصغيرين ذات اللون الأحمر الدموى والأوراق القرمزية ، وبجوارها بعض الرمال والحشائش ، وتعلوها سماء زرقاء جداً بها كرة نارية ذات لون كبريتى أصفر .

ووقف وهو يحملق إلى الصورة عدة لحظات ، ثم علقها بخفة على الحائط وعاد ثانية إلى الحشية ، وجلس عليها واضعا ساقا على ساق ، وأخذ ينظر إلى رسمه ثم ابتسم .

ثم قال بصوت مرتفع . حسن جداً !

جميل جداً ما حققته .

* * *

(٦)

وحل فصل الشتاء، وكان فنسنت يقضى أيامه فى «الأستوديو» مرسمه الدافئ الجميل. وكتب ثيو إليه يخبره أن جوجوين الذى جاء إلى باريس لقضاء يوم واحد، كان فى حالة عقلية يرثى لها، وكان يعارض الفكرة الآرلزية بكل ما أوتى من قوة. ولم يكن المنزل الأصفر فى رأى فنسنت مجرد منزل لسكنى رجلين، بل كان ستوديو دائما لجميع فنانى الجنوب. وكان قد وضع خطة مفصلة لتكبير النصف الذى يخصه بمجرد ما إن ينظم المكان بمساعدة جوجوين. وكان يرحب بكل رسام يرغب فى البقاء بهذا المكان، على أن يرسل لوحة لثيو كل شهر مقابل ضيافته وبمجرد ما إن يتوافر لدى ثيو عدد كاف من اللوحات الحسية يمكنه أن يترك جوبلز ويفتتح لنفسه معرضا مستقلا فى باريس، وأوضح فنسنت فى خطاباته أن جوجوين سيكون مديراً للأستوديو، ورئيساً على جميع الرسامين الذين سيعملون فيه. وكان فنسنت فى نفس الوقت يوفر كل فرنك ما أمكنه ذلك حتى يؤثث حجرة نومه ثلون الجدران بلون بنفسجى باهت، أما الأرضية فكانت من طوب أحمر. كما اشترى ملاءات ووسائد ذات لون أخضر ليمونى خفيف جداً، ولحافاً قرمزياً، وطلى الفراش الخشبى والكراسى بلون الزبد الطازج. وطلى منضدة التواليت بلون برتقالى، والحمام بلون أزرق، والأبواب بلون بنفسجى فاتح. وعلق عدداً من لوحاته على الجدران ثم ألقى بقافلات النوافذ، ثم حول المنظر بأكمله إلى لوحات لثيو، حتى يرى أخاه إلى أى درجة أصبحت حجرته مريحة. بعد أن طلاها بألوان سطحية خالصة مثل الرسومات اليابانية.

أما عن حجرة جوجوين فكانت شيئاً آخر، لأنه لم تكن لديه الرغبة فى شراء مثل هذا الأثاث الرخيص لمدير الأستوديو. ولكن أكدت له مدام رولان أن السرير المصنوع من الجوز الذى أراده لجوجوين لن يمكنه شراءه إلا بمائة وخمسين فرنكا. وهذا المبلغ من المستحيل أن يأتى فى يدى

فنسنت ، ولكن مع هذا ابتدأ بشراء بعض اللوازم البسيطة للحجرة ، مما أدى إلى معاناته من ضائقة مالية مستمرة .

وعندما لا يجد نقوداً للموديلات كان يقف أمام مرآة ويرسم صورته مرات ومرات . وجاءت راشيل ووقفت من أجله . كما كانت مدام رولان تأتي هي وأولادها مرة كل أسبوع ، كما أن مدام جينو زوجة صاحب المقهى الذى كان يتناول منه مشروباته دائماً جلست أمامه بفستانها الآرليزى ، فرسم صورتها على اللوحة فى ساعة واحدة . أما الأرضية فكانت ليمونيا باهتا ، والوجه رمادى ، والملابس سوداء بخط فارسى أزرق . وكان قد أجلسها على كرسى استماره ذى مسندين من الخشب البرتقالى ، وكانت تتكىء بكوعها على منضدة خضراء .

ووافق ولد من الزوفيين ، ذو وجه صغير ورقبة مثل رقبة الثور وعيني نمر ، أن يجلس أمامه مقابل مبلغ ضئيل ، فرسم فنسنت نصف طوله فى لباسه الأزرق ، وكانت هذه الورقة فى زرقة صحن مزخرف ، كما رسم له ضفيرة ذات لون برتقالى أحمر باهت ، ونجمتين ليمونيتين باهتتين على صدره . ورسم قبعة حمراء على رأسه الشبيهة برأس القطط وخلفها جدار أخضر . وكانت النتيجة خليطا متوحشا من أوتار متباينة ، جشة ورخيصة وعالية ، ولكنها تناسب شخصية الشخص المرسوم .

وجلس أمام نافذته لعدة ساعات وفى يده قلمه وأمامه لوحة للرسم . وهو يحاول أن يسيطر على التكنتيك الذى يمكنه من أن يرسم بحركات قليلة من فرجونه رجلا ، رجلا أو امرأة أو شابا أو حصانا أو كلبا بحيث تتناسق الرأس والجسم والسيقان . وأخذ يعيد رسم كثير من اللوحات التى كان قد رسمها فى ذلك الصيف ، لأنه اعتقد أنه لو استطاع أن يحول خمسين صورة إلى مائتى فرنك عن كل واحدة فى خلال العام ، فإنه لن

يكون متجنيا فى أن يأكل ويشرب كما يحق له . وتعلم أشياء كثيرة فى أثناء الشتاء . تعلم أنه يجب على المرء ألا يرسم الجسد فى لون أزرق لأنه إذا ما فعل هذا سيصبح فى لون الخشب ، وتعلم أن ألوانه لم تكن ثابتة كما يجب أن تكون ، وتعلم أن أهم عنصر يدخل فى رسم لوحات أراضى الجنوب هو تناقض اللون الأحمر والأخضر واللون البرتقالى والأزرق ، ولون الكبريت والبنفسج ، وتعلم أنه يجب أن يعبر عن شىء مريح فى لوحته كما تفعل الموسيقى ، وتعلم أنه تجتاحه الرغبة فى رسم رجال ونساء عليهم سمة الهيبة ، فكان يستخدم هالة من الضوء للرمز إلى هذا ، وحاول كذلك أن يعبر عن هذه السمة بوهج وتموجات ألوانه ، وتعلم أخيرا أن هؤلاء الذين يتميزون بقريحة تعبر عن الفقر ، سيعتبر الفقر بالنسبة لهم أبديا .

ومات أحد أعمام فان جوخ وترك لثيو وصية بسيطة . ولما كان فنسنت مصرا على أن يكون جوجوين معه ، قرر ثيو أن ينفق نصف قيمة هذه الوصية لتأثيث حجرة نوم لجوجوين وإرساله إلى آرلز ، وامتلأ قلب فنسنت بالسرور ، وأبتدأ يرسم خطة لتزيين المنزل الأصفر . وكان محتاجا لاثنتى عشرة لوحة من الورود الآرلزية ، بحيث تكون سيمفونية من اللون الأزرق والأصفر .

ولكن جوجوين لم يفرح حتى حينما علم بتوفير أجر المسكن الجديد وسفره مجانا . وفضل جوجوين أن يتسكع فى بونت آفن لسبب ظل غامضا على فنسنت . ولكن مع هذا ظل فنسنت شغوفا بإنهاء الزينات وإعداد الاستوديو لحين وصول السيد .

وهل الربيع . ونمت أشجار الزنبق بشكل جنونى فى حديقة المنزل الأصفر الخلفية ، لقد نمت بشكل مفزع لدرجة أنها كادت أن تفش شكلا متنقلا . لقد كانت الأشجار محملة بزهور يانعة وزهور ذابلة أيضا ، وكان اخضرارها يجدد نفسه باستمرار فى دفعات قوية . وبدا كما لو أنه لن ينتهى أبدا .

وحمل فنسنت الحامل فوق ظهره مرة أخرى وذهب إلى الريف ليجد بعض عباد الشمس للوحاته الاثنتى عشرة . وكانت الأرض ذات الحقول المحروثة رقيقة فى ألوانها ، بينما كانت الزهور الزرقاء الصغيرة قد بقعتها السحب البيضاء . ورسم بعض عباد الشمس على إطار لوحاته عند شروق الشمس وتحت أضواء شديدة . كما أخذ بعضها معه إلى المنزل ورسمها على أصيص أخضر . وطلى الجدار الخارجى لمنزله بلون أصفر حديث ، مما بعث السرور إلى قلب كثيرين من سكان ميدان لا مارتين .

وحل الصيف مع انتهائه من رسم ما أراد على منزله ، وجاءت معه الشمس الحارقة ورياح الشمال العاصفة ، وإثارة الجو المتزايدة ، وحلت معه الآلام والكروب على الريف وعلى المدينة الحجرية الملتصقة بالتل .

وجاء معه بول جوجوين .

وصل إلى آرلز قبل الفجر وانتظر شروق الشمس فى مقهى ليلى صغير . ونظر إليه صاحب المقهى وقال مندهشا « إنك الصديق ! لقد تعرفت عليك » .

— « باسم الشيطان عما تتحدث » ؟ .

— « لقد أرانى السيد فان جوخ اللوحة التى أرسلتها إنها تشبهك تماما ياسيدى .

وذهب جوجوين لإيقاظ فنسنت . وكانت مقابلتهما عاصفة وقلبية . وأطلع فنسنت جوجوين على المنزل ، وساعده على تفريغ حقيبة سفره ، وسأله عن أخبار باريس . وتحدثا بانتعاش لساعات طويلة .

— « هل تضع خطة لعمل اليوم ياجوجوين ؟ » .

— « وهل تعتقد أنى كارلوس — ديوران ، حتى أستطيع أن آخذ خشبة ألوانى بمجرد نزولى من القطار ، وأرسم لك على الفور تأثير أشعة الشمس ؟ » .

— « إنه مجرد سؤال » .

— « إذن لا تسأل أسئلة حمقاء » .

— إذن سأعتبره يوم عطلة بالنسبة لى أيضا . هيا بنا فسأطلعك على المدينة » .

وقاد جوجوين إلى أعلى التل ، وعبر ميدان ديلاميرى الذى أحرقته الشمس ، وطوال طريق السوق الممتد فى مؤخرة المدينة . وكان الزوفيون يجولون فى الحقل خارج ثكناتهم ، بينما كانت طرابيشهم الحمراء تحترق تحت الشمس .

وقاده فنسنت عبر الحديقة الصغيرة المواجهة للساحة الرومانية .

وكان الآرلزيون يتجولون لاستنشاق هواء الصباح ، بينما كان فنسنت يتحدث بجنون إلى جوجوين ووصف له مدى جمالهم . ثم سأل جوجوين قائلا « ما رأيك فى الآرلزيين يا جوجوين ؟ » .

— « إننى أشعر بالضيق بينهم » .

— « انظر إلى أجسادهم ياهذا — ولا تنظر إلى تقاطيعهم . انظر إلى ما فعلته الشمس فى ألوانهم » .

— « وكيف حالة النزل هنا — يافنسنت ؟ »

لاتوجد منازل هنا إلا منازل الزوفيين مقابل خمسة فرنكات » .

وعادا إلى المنزل الأصفر ليقوما بعمل بعض التنظيمات . وعلقا صندوقاً فى جدار المطبخ ووضعا نصف نقودهما فيه . وهى تكفى لشراء طباقهما ومصروفاتها النثرية بما فى ذلك الإيجار . ووضعا على قمة هذا الصندوق قطعة من الورق وقلم رصاص لقيد كل فرنك يأخذانه . ثم وضعا فى صندوق آخر باقى نقودهما ، وقسماه إلى اربعة أقسام للإنفاق على طعامهما كل أسبوع .

— « إنك طباخ ماهر أليس كذلك يا جوجوين ؟ »

— « ما هذا — فلقد تعودت أن أكون بحارا » .

— « إذن ستطهى طعامنا فى المستقبل ، أما الليلة فسأعد الشوربة احتراما لك » .

وحينما أعد فنسنت الشوربة فى تلك الليلة لم يستطع جوجوين احتساءها

— « إنى لا أتصور يافنسنت كيف مزجت هذه الخلطة ، أعتقد أنك مزجتها مثلما تمزج الألوان فى لوحاتك » ،

— « وما الذى تراه فى ألوان لوحاتى ؟ » .

— « ياصديقى العزيز ، إنك مازلت غارقا فى مذهبك التأثرى المستحدث ومن الأفضل لك أن تقلع عن هذه الطريقة ، فهى لا تتلاءم مع طبيعتك » .

— « وقذف فنسنت إناء شوربته جانبا » .

— « يمكنك أن تفهم هذا من النظرة الأولى . أليس كذلك ؟ يالك من ناقد بارع » .

حسنا — انظر إلى نفسك أولا . أعتقد أنه لا توجد غشاوة على بصيرتك — أليس كذلك ؟ » .

— « فهذه الزهور البنفسيجية ، مثلا ، فى فوضى شاملة » .

ونظر فنسنت إلى لوحات عباد الشمس المعلقة على الحائط . وقال له «هل هذا هو كل ما عندك لتقوله عن عباد شمس ؟ » .

— « كلا ، ياعزيزى ، فيمكننى أن أجد أشياء أخرى كثيرة لأنقدها».

— « مثل ؟ » .

— مثل التناسق بين لوحاتك ، فهى على وتيرة واحدة وغير كاملة » .

— « هذا كذب ! »

— « أوه ، اجلس يافنسنت، وكف عن النظر إلى كما لو أنك تنوى قتلى ، فأنا أكبر منك سنا بسنوات عديدة ، كما أننى أكثر منك نضوجا . فأنت مازلت تحاول اكتشاف نفسك فما عليك إلا أن تنصت إلى وسأسدى إليك دروسا مفيدة » .

— « إننى آسف يابول فأنا محتاج حقا إلى مساعدتك .

— « إذن أول مايجب عليك أن تفعله هو أن تزيل كل هذه النفايات من عقلك . فلقد سمعتك طوال اليوم وأنت مجنون بالحديث عن ميسونيير ومونتشيلى وكلاهما لا يساوى شيئاً .

وطالما أنك معجب بهذا النوع من الرسم فلن يمكنك مطلقا أن ترسم أنت نفسك لوحات جديدة .

— « لقد كان مونتشيلى رساما عظيما ، فلقد عرف عن الألوان أكثر مما عرفه رجل آخر فى عصره .

— « لقد كان معتوها ثملا — هذا هو ما كانه » .

وقفز فنسنت من مكانه وحملق فى جوجوين الذى كان يجلس فى مواجهته عبر المائدة كما سقط إناء الحساء على الأرضية ذات الطوب الأحمر فتحطم».

— « لا تدع « فادا » إننى أحبه مثلما أحب أخى تماما ، وإن كل هذا

القيل والقال عن أنه كان ثملا أو أنه كان معتوها ، ما هو إلا ثرثرة شريرة ، فلا يمكن لأى مخمور أن يرسم لوحات مونتشيلى، فمجهوده العقلى فى وزن وتنسيق الألوان الستة الرئيسية،والضغط الشديد الواضح والتقديرات العديدة ، ومئات الأشياء التى يجب أن يفكر فيها فى مالا يزيد على نصف ساعة ويتطلب عقلا متيقظا واعيا . وإنسانا رزينا ،إنك بترديدك هذه الثرثرة عن « فادا » ما أنت إلا شرير وحيوان مثل تلك المرأة التى أشاعتها عنه » .

— « هارها ، ياقبعتى يا أم زر . »

فتراجع فنسنت كما لو أن كوبا من الماء البارد قد ألقى به فى وجهه . كما اختفت كلماته ومشاعره العارمة بداخله ، وحاول أن يخمد غضبه ولكنه لم يستطع ، فسار نحو حجرة نومه وأقفل الباب خلفه بعنف .

* * *

(٧)

ونسيت المشاجرة فى صباح اليوم التالى ، فبعد أن تناولا القهوة سويا ذهب كل منهما فى طريقه ليرسم لوحاته .

وحينما عاد فنسنت فى تلك الليلة ، مجهدا مما كان يسميه تنسيق الألوان الستة الرئيسية ، وجد جوجوين يعد طعام العشاء على موقد جاز صغير ، وتحدثا فى هدوء للحظات قليلة ثم إنتقل الحديث بعد ذلك إلى الرسم والرسامين وهو الموضوع الوحيد الذى كانا يهتمان بكل مالديهما من شغف .

واندلعت الحرب .

فبينما كان يعجب جوجوين بالرسامين كان فنسنت يحتقرهم وكان معبودى فنسنت شياطين لعينة بالنسبة لجوجوين .

وكانا لا يتفقان مطلقا على كل معالجة لفنهما . فكان من الممكن أن يناقشا أى موضوع آخر بروح من الود والصداقة ، ولكن الرسم كان لحم الحياة وشرابها بالنسبة لهما . فكانا يدافعان عن أفكارهما لآخر قطرة من طاقتهما العصبية . على الرغم من أن جوجوين يتمتع بضعف قوة فنسنت الحيوانية إلا أن ثائرة فنسنت التى تشبه السوط كانت تتركهما متعادلين .

وكانت مناقشتهما فظيعة ومكهربة حتى حينما كانا يتناقشان حول أشياء متفقا عليها ، وكانا ينتهيان منها بعد أن نضبت رءوسهما كما لو أنها بطارية أفرغت شحنتها .

وأعلن جوجوين قائلا : « إنك لن تكون فنانا مطلقا يافنسنت ، إلا إذا نظرت إلى الطبيعة ، ثم تعود إلى الاستوديو وترسمها دون أية إثارة ، وبدم بارد » .

— « إننى لا أحب الرسم بدم بارد ، أيها المعتوه ، فأنا أحب دائماأن

أرسم ودى ثائر . وهذا هو سبب وجودى فى آرلز» .

— « إن كل هذا العمل الذى رسمته ماهو إلا نسخ حقير للطبيعة .
يجب عليك أن تتعلم كيف تعمل ارتجاليا » .

— « ارتجاليا . يا إلهى الكريم » .

— « وهناك شىء آخر ، وهو أنه كان من الأفضل لك أن تستمع
« لسورات » . إن الرسم تجريدى يا بنى ، وليس فيه مجال للقصص التى تحكيها
والأخلاق التى ترفعها إليها » .

— « هل أنا أرمى إلى الأخلاقية ؟ لابد أنك مجنون » .

— « إذا كنت تريد أن تلقى وعظا يافنسنت فعليك أن تقبع فى معبد .
فالرسم عبارة عن لون وخط وشكل ولا شىء أكثر من هذا . وفى إمكان
الفنان أن يعيد خلق الديكور فى الطبيعة . وهذا هو كل مافى الأمر » .

فقال فنسنت حانقا « فن ديكور ! إذا كان ذلك هو كل ماتقتبسه من
الطبيعة ، فعليك أن تذهب إلى بورصة » .

— لو ذهبت إلى هناك « فسآتى إليك صباح كل أحـــد لأستمع إلى
مواعظك . فماذا تفهمه من الطبيعة ؟ أتفهم منها رئيس فرقة مطافئ ؟ » .

— « إننى أستمد منها حركة الحياة وموسيقاها ياجوجوين » .

— « حسنا ، إذن فنحن خارج الموضوع » .

— « إننى حينما أرسم شمسا أريد أن أجعل الناس يشعرون بها وهى
تدور بسرعة مذهلة وبأنها تبعث ضوءا وموجات حرارية ذات قوة عظيمة ،
وحينما أرسم حقل قمح أود أن أجعل الناس يشعرون أن الذرات الموجودة
فى القمحة تندفع نحو نموها ونضوجها النهائى . وحينما أرسم تفاحة أرغب
فى أن يشعر الناس برحيق تلك التفاحة وهو يندفع خارج قشرتها ، وأن
البذور التى بقلبها تتصارع إلى الخارج من أجل الاستمتاع بالحياة » .

— فنسنت « إنى أخبرتك مرات عديدة بأنه يجب على الفنان ألا
أن يرسم وفق نظريات فى رأسه ، » .

خذ منظر مزرعة العنب هذا — ياجوجوين . انظر إليه . إن تلك
الأعناب على وشك الانفجار وتضع ما بها أمام عينيك مباشرة . انظر هنا
وحاول دراسة هذا النهير الصغير ، إنى أريد أن أجعل الناس يشعرون بكل
أطنان المياه التى تتدفق بين جانبيه . وحينما أرسم صورة رجل أريدهم أن
يشعروا بشريان الحياة الكاملة فى حياة هذا الرجل ، وكل شىء رآه وفعله
وقاسى منه » .

— « بحق الشيطان ماذا تقصد بقولك هذا ؟ » .

— « إنى أقصد من هذا ياجوجوين ، أن الحقول التى تدفع القمح إلى
النمو والمياه التى تندفع عبر النهير ورحيق الأعناب ، وشريان الحياة وهو يسرى
فى جسد الرجل ؟ كلها شىء واحد . فالوحدة الوحيدة فى الحياة هى وحدة
الموسيقى . إنها الموسيقى التى نرقص كلنا عند سماعها . الرجال والتفاح ،
والأنهار . والحقول المحروثة . والعربات بين حقول القمح ، والمنازل
والخيل والقمح والشمس ، فالمادة التى بداخلك يا جوجوين اليوم ستجدها
غدا فى داخل عنبة لأنك أنت والعنبة شىء واحد . فحينما نرسم فلاحا يعمل
ويكد فى حقله أريد أن تشعر بأن هذا الفلاح يسرى بينه وبين التربة شريان
واحد مثلما يحدث مع القمح . وأريد أن تشعر كذلك بأن الأرض تسرى
فى جسد الفلاح . أريد الناس يشعرون بأن الشمس تسرى فى داخل الفلاح ،
وفى داخل الحقل والقمح والمحراث والخيل تماما مثلما يسرون جميعا فى
داخل الشمس . فحينما تبتدئ تشعر بالموسيقى العالمية التى يتحرك فى داخل
إطارها كل شىء على وجه هذه البسيطة ، ستبدأ فى فهم هذه الحياة وأن
الله واحد » .

فقـال جوجوين . « يارئيس فرقة المطافى إنك على حق فيما تقول » .

وكان فنسنت قد وصل إلى ذوروة مشاعره ، وأخذ يهتز باستثارة محمومة . وكانت كلمات جوجوين قد صفعته مثل اللطمة على وجهه . فوقف فاغرا فاهه بحماقة ،وظل فاهه مفتوحا » .

— والآن بحق كل ما فى هذا العالم . ماذا تعنى بقولك : يارئيس فرقة المطافى إنك على حق ؟ .

— إنها تعنى أننى أفكر فى اقتراب الوقت الذى يجب عليك أن تذهب فيه إلى المقهى من أجل تناول قدح من الحلبة .

وبانتهاء الأسبوع الثانى قال جوجوين ،«دعنا نجرب ذلك المنزل الليلة.

وسارا حتى نهاية بعض الأزقة الحجرية ، ثم دخلا « ميزون دى توليرانس » . وعندما سمعت راشيل صوت فنسنت اندفعت خارج المدخل وألقت بنفسها بين ذراعيه . بينما قدم فنسنت جوجوين إلى لويس .

فقال لويس . « إنك فنان ياسيد جوجوين ، وربما يمكنك إعطائى رأيك عن اللوحتين الحديثتين اللتين اشتريتهما من باريس فى العام الماضى » .

— إننى أرحب جدا بهذا . ومن أين اشتريتهما ؟ .

— من جوبلز ، فى سراى الأوبرا . إنهما معلقتان فى هذه الصالة الأمامية. وهل تتفضل بالدخول ياسيدى ؟ .

وبينما قادت راشيل فنسنت إلى حجرة تقع فى الجهة الشمالية ، دفعته داخل كرسى بالقرب من إحدى المناضد .

وذمجر فنسنت قائلا . كنت أحضر إلى هنا منذ ستة أشهر ، ولم يسألنى لويس مطلقا عن رأيى فى أية صورة .

— إنه لا يعتقد أنك فنان يافو — رو .

— « قد يكون على حق » .

وقالت راشيل غاضبة . « إنك لم تعد تحبنى » .

— « وما الذى يجعلك تظنين هذا ياحمامة ؟ »

— إنك لم تأت لزيارتى منذ أسابيع » .

— « ذلك لأنى كنت أعمل ماوسعنى الجهد لكى أعدالمنزل لصديق . »

— « إذن أنت تحبنى حتى وأنت بعيد عنى . ؟ »

— « حتى ولو أنا بعيد عنك » .

وانطلقت صرخة من الحجرة عبر الردهة، لتعبر عن صرخة شخص مامن الجائز أنها صرخة فرح أو صرخة ألم ، فألقى فنسنت براشيل ، وهرول عبر الردهة ومنها إلى داخل حجرة الجلوس .

وكان جوجوين مستلقيا على الأرض، وقد انتابته نوبة تشنجية ، وتنهمر الدموع على وجنتيه ، بينما كان لويس يحمل مصباحا فى يده وأخذ يحملق فى جوجوين دون أن ينبس بكلمة واحدة . وقبع فنسنت بجوار جوجوين وأخذ يهزه بيده ويقول:

« بول ، بول ، ماذا حدث لك ؟ » .

وحاول جوجوين أن يتكلم ولكنه لم يستطع ، وبعد لحظات تنهد قائلا . « فنسنت .. وأخيرا لقد رد اعتبارنا .. انظر .. انظر .. انظر إلى الحائط.. إلى هاتين اللوحتين اللتان اشتراهما لويس من جوبلز .. من أجل حجرة جلوس منزل دعارته، إن كلتيهما مرسومتان على طريقة بوجورو . »

وقام متعثرا على قدميه وسار إلى الباب الأمامى . وصاح فنسنت وهو يجرى وراءه . انظر دقيقة واحدة ، إلى أين أنت ذاهب ؟ » .

— « إلى مكتب التلغراف ، يجب أن أرسل هذا الاسلكيا إلى نادى باتيجنولس مباشرة » .

وحل الصيف بكل ماله من حرارة مخيفة متوهجة . وانفجرت القرية فى ثورة من الألوان ، فلقد كانت الألوان الخضراء ، والزرقاء والصفراء والحمراء فاقعة جدا لدرجة أنها أذهلت الأبصار ، وكانت الشمس تحرق كل ماتمسه نهائيا . كما كان وادى الرون يتألق تحت أمواج متتالية من الحرارة الوهاجة . ولفحت الشمس كلا الرسامين وأصابتهما بكدمات ، وهرستهما حتى جعلتهما مثل العجينة ثم امتصت منهما كل ما يتمتعان به من مقاومة . وهبت رياح الشمال الباردة وألهبت جسديهما بسوطها كما ألهبت أعصابهما. وأمالت برأسيهما على رقبتيهما لدرجة أنهما ظنا أنهما سينفجران أو يتحطمان ولكنهما على الرغم من هذا كانا يخرجان مع شروق الشمس ،وكان يجهدان أنفسهما حتى تغرق زرقة النهار المشعة فى زرقة الليل المظلمة .

وكان يبزغ فى الأفق معركة على وشك الاندلاع بين فنسنت وجوجوين، فكان أولهما بركانا ثائرا ، وثانيهما يغلى بداخله. فعندما يجن الليل ، ويكون التعب قد أجهدهما لدرجة أنهما لا يقويان على النوم ، وتكون أعصابهما ثائرة لدرجة لا يقويان معها على الصمت ، كأنما كل منهما يقتل ما تبقى له من طاقة على الآخر .

ونقصت نقودهما ، كما لم يكن أمامهما أية وسيلة للترفيه عن أنفسهما. فكانا ينفسان عن عواطفهما فى تبادل الفظاظة والمرارة . ولم يكل جوجوين مطلقا عن استثارة غضب فنسنت وكان حينما يصل فنسنت إلى ذروة غضبه كان يصفعه جوجوين بعبارته المعهودة : « يارئيس فرقة المطافى إنك على حق » .

— « فنسنت ، لا عجب أنك لاتستطيع الرسم» انظر إلى الفوضى الكامنة فى هذا الأستوديو ، وانظر إلى هذا الخليط الموجود فى علبة الألوان . يا إلهى . لو لم يكن عقلك الدانمركى مولع لهذه الدرجة « بدوديت » و « مونتشيلى » كان من المحتمل أن تنظفه وتدخل فى حياتك بعض النظام.

— «إن هذا ليس من اختصاصك يا جوجوين ، فهذا الأستوديو خاص بى» ويمكنك أن تنظم الأستوديو الخاص بك بالطريقة التى ترضيك » .

— «وعلى فكرة ، أحب أن أخبرك بأن عقلك به نفس الفوضى الموجودة فى علبة ألوانك . إنك مازلت تعجب بكل رسام أوربى فى حجم طابع البريد ، على الرغم من أنك مازلت لا تستطيع رؤية ديجا .

— « ديجا . ماذا رسم فى حياته حتى يمكننا مقارنته بما رسمه ميليت ؟

— « ميليت ، ذلك الرجل العاطفى ! ذلك » .

وانتابت فنسنت نوبة من الجنون عند سماعه هذا التوبيخ ضد ميليت الذى كان يعتبره أستاذه وأباه الروحى . واندفع كالعاصفة وراء جوجوين من حجرة إلى حجرة ، ولكن جوجوين استطاع أن يهرب منه . وكان المنزل صغيرا ، وأخذ فنسنت يصيح مناديا ، ويلقى خطبا طويلة ويلوح بقبضة يده أمام وجه جوجوين القوى . واستمرا فى صراعهما ومضايقاتهما المتبادلة خلال الليل المدارى المضنى .

وكان كل منهما يحاول كالعفريت أن يضبط نفسه وطبيعته فى لحظة الانفجار ، وتعاركا يوما بعد يوم بقطع الخشب المتوهجة ، وليلة بعد ليـــلة بنفوسهما الداخلية المتوقدة . وحتى حينما لا يصل بهما الصراع إلى الشر فقد كانت مناقشاتهما الودية تصل إلى درجة من الانفجار تطرد النوم عن جفونهما وحينما كانت تأتى إليهما النقود من ثيو كانا ينفقونها فى الحال على الطباق والجعة . وكانت الحرارة شـــديدة جدا لدرجة منعتهما عن تناول طعامهما فظنا أنهما بتناولها الجعة ستستريح أعصابهما ، ولكنها كانت تثيرهما أكثر فأكثر .

وهبت ريح شمالية قذرة مثل السوط فى لهيبها . فاحتبست الرجلين فى

منزلهما ، ولم يكن باستطاعة جوجوين أن يعمل فكان يقضى وقته فى إثارة فنسنت وإقحامه فى صراع مستمر فلم ير فى حياته شخصا مثل هذا تثور ثائرته لمجرد مناقشته للأفكار .

وكان فنسنت هو الدمية الوحيدة التى يتلهى بها جوجوين . وكان يستغلها إلى أبعد الحدود .

وبعد اليوم الخامس من هبوب الرياح الشمالية قال فنسنت: « من الأفضل أن تهدئ من نفسك » . بعد أن أثار صديقه لدرجة أن أصبحت رياح الشمال الهائجة تبدو كأنها مجرد نسمة هادئة رقيقة إذا قيست بالعاصفة التى كانت بداخل المنزل الأصفر .

— « كثيرا ما استحال رجال عديدون ، يافنسنت ممن كانوا برفقتى وكانوا معتادين على المناقشة ، إلى مجانين » .

— « هل تهددنى » ؟

— « كلا بل أحذرك .

— « إذن احتفظ بتحذيراتك لنفسك » .

— « كما تود ، ولكن لا تلمنى لو حدث لك شيء » .

— « أوه ، بول ، بول ، فلنكف عن هذا الصراع الأبدى ، فأنا أعرف أنك رسام أفضل منى . وأعلم أنك تستطيع تعليمى الكثير . ولكننى لا أود منك أن تحتقرنى ، هل تسمعنى ؟ فلقد اشتغلت كالعبد تسع سنوات متتالية ، وإننى باسم المسيح — عندي شيء لأقوله عن هذا الرسم الملعون والآن أعترف بهذا — أليس لى الحق ؟ تكلم ياجوجوين » .

— « إنك على حق — يارئيس فرقة المطافى » .

وخبت جذوة رياح الشمال ، وجرؤ الآرليزيون على الخروج ثانية من

منازلهم ، كما ظهرت الشمس الحارقة وحلت على آرلز حمى ليس لها حدود ، وكان على البوليس أن يحقق فى جرائم القوة وسار الناس هنا وهناك وفى عيونهم ثورة جارفة . ولم تنبعث ضحكة من فم أى إنسان ، بل لم ينبس أحد منهم بكلمة . بل حلت المعارك وومضات السكاكين فى ميدان لامارتين. وانبعثت فى الجو رائحة المصائب . وكانت آرلز تغلى لدرجة أنها لم تعد تحتمل هذا الضغط . وكان وادى الرون على وشك الانفجار إلى ملايين الجزيئات .

وخطر على ذهن فنسنت الصحفى الباريسى الخواطر. وأخذ يسأل نفسه. ياترى ماذا سيحل بنا — زلزال أم ثورة ؟

وعلى الرغم من هذا كله ، فقد استمر فنسنت فى رسم الحقول بدون قبعة لأنه كان فى حاجة إلى الحرارة البيضاء المبهرة للبصر لكى تسيل بداخله الشهوات الجامحة التى يشعر بها، فكان عقله بوتقة تحترق وتخرج إلى الوجود لوحة بعد أخرى من تلك اللوحات الحية .

وكان يزداد إيمانه مع بزوغ كل لوحة إلى الوجود ، إن السنوات التسع التى قضاها فى العمل المتواصل قد طرأ عليها تغيرات فى تلك الأسابيع القليلة المثقلة بالأعباء لتجعل منه فى ومضة من ومضات الحياة ، فنانا كاملا ناضجا، ولقد فاق عمله إلى حد كبير ماقام به فى الصيف الماضى . إنه لن ينتج مطلقا لوحات تعبر كلية عن جوهر الطبيعة وعن جوهره .

وكان يعمل من الرابعة صباحا حتى يسرق الليل منظر الطبيعة منه. وكان يخلق كل يوم لوحتين أو ثلاثا فى بعض الأحيان . لقد كان يقضى عاما من حياته مع كل لوحة فياضة بمشاعره كان يقتطعها من أحشائه إنه لم يكن يهمه طيلة الأيام التى عاشها على الأرض ، بل ما كان يهمه هو ما كان يفعله خلال أيام حياته . وكان يقيس الوقت بما ينتجه من لوحات وليس بأوراق التقويم المتناثرة .

وكان يشعر بأن فنه قد وصل إلى الذروة وأن تلك هى نقطة الذروة فى حياته ، إنها اللحظة التى كان يناضل من أجلها طوال تلك السنوات . ولكنه لم يكن يعرف إلى أى حد سيطول مداها ، ولكن الذى كان يعرفه هو أنه يجب أن يرسم لوحاته ، ويزيد من اللوحات .. بل المزيد والمزيد ، إنه يجب أن يبقى على ذروة حياته هذه وعلى هذه النقطة الدقيقة الأبدية ، بل يجب عليه أن يغذيها ويدفعها إلى الأمام حتى يخلق كل تلك اللوحات التى كانت تولد فى روحه .

وكانا يرسمان طوال النهار ، ويتصارعان طوال الليل ، ولا ينامان مطلقا وربما كلان قليلا ويلوثان نفسيهما بالشمس واللون والاستثارة والطباق والجعة ، ومزقتهما جميع عناصر الحياة واندفاعهما نحو الخلق ، ومزق كل منهم الآخر بثورته وقسوته ، وارتفعت الروح فى حلوقهما أعلى وأعلى .

لفحتهما الشمس ، ولطمتهما رياح الشمال الباردة بسوطها . وأخرج اللون أعينهما من حلقاتها ، ونفخت الجعة معدتيهما الفارغة بحمى متوقدة . واهتز البيت الأصفر وارتعش بالعاصفة الثائرة فى الليالى المدارية العارمة .

ورسم جوجوين لوحة لفنسنت ، بينما كان يرسم الحياة الساكنة فى بعض المحاريث وحملق فنسنت إلى اللوحة ، لأنه فهم بوضوح لأول مرة رأى جوجوين فيه .

فقال له : « إن هذه بالتأكيد صورتى ، ولكن جن جنونى حقا » .

وحينما حل المساء ذهبا إلى المقهى ، وطلب فنسنت قدحا من الجعة المخففة ، وفجأة ألقى فنسنت بالكوب وبما يحتوى إلى رأس جوجوين . فتفاداه جوجوين ، ثم حمل فنسنت بين ذراعيه وحمله عبر ميدان لامارتين . فوجد فنسنت نفسه فى سريره . فاستسلم للنوم مباشرة .

وفى صباح اليوم التالى قال بهدوء شديد : « عزيزى جوجوين أشعر بذكرى غامضة بأنى أهنتك بالأمس » .

فأجابه جوجوين : إننى أعفو عنك بسرور من كل قلبى ولكن أعتقد أن أحداث الأمس قد تتكرر ثانية ، فلو كان ذلك الكوب أصابنى لكنت فقدت أعصابى ولطمتك، ولهذا اسمح لى بأن أكتب لأخيك لأخبره بعودتى

— كلا — كلا — يابول . إنك لن تفعل ذلك. أتترك البيت الأصفر وأنا قد صنعت كل شىء من أجلك ؟ .

وثارت العاصفة طوال ساعات النهار ، وناضل فنسنت نضال اليائس مع جوجوين لكى يحتفظ به بجواره ، ولكن جوجوين كان يقاوم كل دفاع عنه . فكان فنسنت يتوسل إليه تارة ويتملقه تارة أخرى أو يلعنه أو يهدده ، بل كان يبكى أحيانا . ولقد برهن أنه الأقوى فى هذه المعركة ، لأنه كان يشعر بأن حياته كلها كانت تعتمد على الإبقاء على صديقه داخل البيت الأصفر . وبحلول الليل كان جوجوين قد أعياه التعب ، واستسلم لكى يستريح قليلا . وشحنت كل حجرة من البيت الأصفر وتذبذبت بتيار كهربائى، فلم يستطع النوم أن يغالب جوجوين ولكن بحلول الفجر استطاع أن يغفو إغفاءة بسيطة .

ولكن إحساسا غريبا أيقظه ثانية فرأى فنسنت يقف بجوار سريره وهو يحملق إليه فى الظلام .

فسأله بعنف : « ماذا حدث لك يافنسنت ؟ » .

فعاد فنسنت إلى حجرته ، واستلقى فى سريره ، واستسلم لنوم عميق .

وفى صباح اليوم التالى أيقظ نفس الشعور الغريب جوجوين من نومه. فرأى فنسنت يقف بجوار سريره وهو يحملق إليه فى الظلام . فقال له :

« فنسنت اذهب إلى فراشك » . فاستدار فنسنت تاركا إياه واندلعت بينهما مشاجرة حامية حول الشوربة عند تناولهما عشاءهما .

فصاح جوجوين « لقد صببت فيها بعض الألوان حينما لم أكن منتبها

إليك» فانفجر فنسنت ضاحكا ، وسار نحو الحائط وكتب عليه بالطباشير ، إننى روح مقدسة .

إننى بلا روح .

وا كتنفه الهدوء لعدة أيام ، وبدا وكأنه مكتئب ومهموم .

وقلما يتحدث إلى جوجوين ، كما أنه لم يقترب حتى من فرجون ألوانه ، علاوة على أنه لم يقرأ شيئا . وكان يجلس فى كرسيه ويحملق فى الفضاء الذى أمامه .

وفى أمسية اليوم التالى طلب فنسنت من جوجوين أن يتنزها معا ، بينما كانت ريح الشمال العاتية تهب .

فقال له : « هيا بنا إلى الحديقة ، لأننى أود إخبارك بشىء ما » .

— « ألا يمكنك إخبارى به هنا ، ونحن مستريحون ؟ »

— « كلا . فلا يمكننى الكلام وأنا جالس . بل يجب أن أتمشى » .

— « إذن هيا بنا — مادمت مصمما على هذا » .

وسارا فى طريق القطارات الذى ينحنى على الجانب الأيسر من الطريق، وكانا مضطرين إلى دفع نفسيهما بين الرياح الشمالية حتى يتقدما، وكانا يبدوان فى اندفاعهما وكأنهما يتصارعان داخل متاهة جلدية سميكة .

وكادت أشجار السنوبر الموجودة فى الحديقة أن يطأ أغلبها الأرض .

وسأله جوجوين : « ماذلك الذى تريد إخبارى به ؟ » .

وكان عليه أن يصيح بصوت مرتفع فى أذن فنسنت لأن الرياح كانت تختطف كلماته قبل أن يلتقطها فنسنت .

— « بول ، كنت مشغول الفكر فى الأيام القليلة الماضية . ولقد طرأ على بالى فكرة عجيبة » .

« سامحنى إذا كنت لا أفهم أفكارك العجيبة » .

— « لقد فشلنا جميعا كرسامين . هل تعرف السبب ؟ »

— « ماذا تقول ؟ إنى لا أستطيع أن أسمع كلمة واحدة صح بكلماتك فى أذنى » .

— هل تعرف لماذا أخفقنا جميعا كرسامين ؟ » .

— « كلا — لماذا ؟ » .

— « لأننا نرسم بمفردنا » .

— « ماذا بحق الشيطان ؟ » .

— « إننا نرسم أشياء ، كما أننا نرسم أشياء سيئة ثم نجمعها سويا فى لوحة واحدة » .

— « يارئيس فرقة المطافى — إننى منتبه جدا لما تقول » .

— « هل تذكر الأخوين ؟ الرسامين الدانمركيين ، وكان أحدهما يجيد رسم المناظر الطبيعية والأخر يجيد رسم البشر ، فرسما لوحة سويا ، فرسم أحدهما المنظر الطبيعى ورسم الآخر البشر فأحرزا نجاحا عظيما » .

— « حسنا ، فلتنه هذه القصة التى لا تنتهى إلا نهاية غامضة » .

— « ماذا تقول ؟ إنى لا أستطيع أن أسمعك . اقترب منى »

— « قلت أكمل حديثك . »

— « بول — إن هذا ما يجب أن نفعله أنا وأنت وسورات وسيزان ولوتريك وروسو . كلنا يجب أن نعمل سويا فى لوحة واحدة . وهذا سيحدث شيوعية كاملة فى الرسم . فكل منا سيرسم أفضل ما يمكنه رسمه . فيرسم سورات الهواء ، وأنت المنظر الطبيعى ، وسيزان الأسطح الخارجية ولوتريك الأشخاص ، وأنا الشمس والقمر والنجوم ، وبهذا سنكون جميعا رسما عظيما — فما رأيك ؟ » .

ثم انفجر فى ضحكة عالية متوحشة . ونثرت الرياح سخريته على وجه فنصنت مثل رذاذ البحر . ثم صاح ، بعد أن استطاع أن يمسك أنفاسه « يارئيس فرقة المطافى إن لم تكن هذه أعظم فكرة فى العالم لا اتهمتها وأرجو أن تسامحنى حينما تسمع نباحى » .

ثم تعثر فى الطريق وهو يمسك بمعدته ، وقد أفعمه السرور .

بينما وقف فنسنت بلا حراك .

وخرجت مجموعة طيور سوداء من السماء ، وانبعثت منها آلاف فى عوائها وصرخاتها . ونزلت كلها على فنسنت ، وأخذت تنقره وتعبه وتطير بين شعره ، وفى أنفه ، وفمه ، وداخل أذنه وعينيه ، حتى دفنته وسط سحب كثيفة سوداء من الأجنحة المرفرفة .

فعاد جوجوين إليه وقال له :

— « هيا بنا يا فنسنت ، هيا بنا إلى لويس ، فأنا أشعر بحاجتنا إلى الاحتفال بفكرتك القيمة تلك » .

وتبعه فنسنت إلى شارع « دى ريكولت » فى صمت عميق .

وصعد فنسنت إلى الطابق العلوى مع إحدى الفتيات .

وجلست راشيل بجوار فنسنت فى حجرة القهوة . ثم سألته قائلة :

ألن تأتى مع . . . يافو — رو ؟ » .

— « كلا » .

— « لماذا لا ؟ »

— « لأنه ليس معى الفرنكات الخمس »

— « إذن هل تعطينى أذنك بدلا منها ؟ »

— « نعم » .

— « وبعد بضع لحظات قليلة عاد جوجوين ثم سار الرجلان إلى البيت الأصفر ، حيث التهم جوجوين عشاءه ، ثم خرج من الباب الرئيسى دون أن ينبس بكلمة . ولكن بمجرد ما إن عبر ميدان لامارتين حتى أحس خلفه خطوة يعرفها تماما ، إنها قصيرة ، وسريعة ، وغير منتظمة فالتفت خلفه .

فهجم فنسنت عليه وفى يده موسى مفتوحة .

فوقف جوجوين متجمدا ونظر إلى فنسنت . فوقف فنسنت على بعد خطوتين منه وحملق إلى جوجوين فى الظلام ثم أحنى رأسه ، ثم استدار ، وجرى فى اتجاه المنزل .

بينما ذهب جوجوين إلى فندق واستأجر حجرة ، ثم أغلق بابها على نفسه واستلقى فى فراشه .

دخل فنسنت البيت الأصفر ، ثم صعد السلالم الحمراء إلى حجرته ثم التقط المرآة التى كان يرسم بها صورته مرات عديدة ثم وضعها على منضدة الزينة وأسندها على الحائط . ثم نظر إلى عينيه الحمراوين فى المرآة .

لقد حلت النهاية . لقد انتهت حياته — هذا هو ما قرأه على وجهه ووجد أنه من الأفضل أن يقطع ...

ودفع الموسى، فشعر بالصلب الحاد على جلد رقبته الذى يشبه الإوزة .

وكانت الأصوات تردد قصصا غريبة فى أذنيه ولكن الشمس الأرلزية عكست حاجزا من الأنوار المسورة بين عينيه وبين المرآة .

فقطع أذنه اليمنى .

ولم يترك إلا قطعة صغيرة من جلدها . ثم ألقى بالموسى ، وربط رأسه ببعض الفوط ، بينما كانت نقاط الدم تسيل على الأرض .

فالتقط أذنه من الحوض ، وغسلها جيدا ، ثم لفها فى قطع عديدة من أوراق رسمه ، ثم ربط الحزمة فى بعض الجرائد ثم وضع قبعة أسبانية على أربطة رأسه الكثيفة ، ونزل السلالم إلى الباب الأمامى ، وعبر ميدان لامارتين وتسلق التل وضرب جرس « بيزون دى توليرانس » رقم ١ .

ففتحت له الباب إحدى الخادمات .

— « أرسلى راشيل إلى »

— وجاءت إليه راشيل فى لحظة واحدة .

— « أوه — هل هو أنت يافورو — ماذا تريد ؟ »

— « لقد أحضرت لك شيئا ».

— « من أجلى أنا ؟ هدية ؟»

— « نعم »

— « كم أنت رقيق يافو — رو ! »

— « حافظى عليها باهتمام . إنها ذكرى منى »

— « وما هى»

— « افتحى وسترين » .

— « وفتحت راشيل الأوراق ، ثم نظرت إلى الأذن بخوف شديد ، ثم وقعت على البلاط وقد فقدت وعيها تماما .

واستدار فنسنت ، ثم نزل التل ، وعبر ميدان لامارتين ثم أغلق خلفه باب المنزل الأصفر ، ثم استلقى على فراشه .

وحينما عاد جوجوين فى صباح اليوم التالى فى حوالى الساعة السابعة والنصف وجد الجمهور متجمعا أمام الباب الأمامى ، بينما كان رولان يضرب كفاً بكف فى يأس شديد .

وتساءل رجل كان يلبس قبعة مستديرة .

— « ماذا فعلت فى صديقك ياسـيدى ؟ » .

وكانت نغمة صوته حادة قاسية .

— « إننى لا أعرف » .

— « أوه — بالطبع ... إنك تعرف جيدا ... إنه ميت » .

واستغرق جوجوين وقتا طويلا حتى يستجمع قواه العقلية . بينما كانت قبضات الجمهور على وشك أن تحطم جسده إربا بل وتخنقه .

ثم قال متلعثما . « فلتصعد إلى أعلى الدرج ياسيدى ، ويمكننا أن نفسر ما يحدث هناك ». وكانت الفوط المبللة ملقاة على أرضية الحجرتين السفليتين، كاخضب الدم مدخل السلم الذى يقود إلى حجرة النوم لفنسنت .

وكان فنسنت ملقى فى فراشه ، ملفوفا فى بعض الأوراق كما لو كان ثورا مذبوحا ، وبدا وكأنه فقد حياته، ولمسه جوجوين برفق شديد جدا . لقد كان دافئا ، وبدا بالنسبة لجوجوين كما لو أنه قد استعاد كل طاقته ، وكل روحه .

ثم قال لمفتش البوليس بصوت منخفض جدا : « كن رحيما ياسيدى فى إيقاظ ذلك الرجل بعناية شديدة . وإذا ما سأل عنى قل إننى سافرت إلى باريس ، لأنه قد تقع له مصيبة لو رآنى .

فأرسل مفتش البوليس فى طلب طبيب وسيارة إسعاف ، وحملوا فنسنت إلى إحدى المستشفيات . بينما كان رولان يجرى لاهثا بجوار العربة .

* * *

(٨)

كان الطبيب فيلكس رى، طبيباشابا مقيما بمستشفى آرلز ؛ وكان رجلا قصيرا بدينا ذا رأس عثمانى الشكل وشعر أسود مثل العشب ينبثق من قمة الرأس العثمانى .

وعالج الطبيب جروح فنسنت ثم وضعه فى سريره فى حجرة مثل السجن أخليت من كل شىء فيها وبعد ذلك أغلق الباب خلفه عند خروجه منها .

وعند غروب الشمس استيقظ فنسنت بينما كان الطبيب يقيس نبضه ، فحملق فى السقف ثم فى الجدران المطلية بلون أبيض ، ثم خارج النافذة حيث السماء الزرقاء المظلمة . وجال بصره ببطء فى وجه الطبيب رى — ثم قال برقة : « هلو » .

فأجابه الطبيب رى . « هالو »

— « أين أنا ؟ »

— « إنك فى مستشفى آرلز .

— « أوه » .

ومرت ومضة من الألم عبر وجهه . ثم رفع يده إلى حيث كانت أذنه اليمنى . فأوقفه الطبيب رى .

— « وقال له : لا ينبغى لك لمسها » .

— « نعم ، إننى تذكرت الآن ..؟.

— « إنه جرح نظيف لطيف يا عزيزى العجوز ، وسيمكنك الوقوف على قدميك بعد أيام قلائل .

— « أين صديقى ؟ .

— « عاد إلى باريس » .

— « .. آه .. هل يمكننى أن أشمل غليونى ؟ »

— « لم يحن الوقت بعد — ياعزيزى العجوز » .

ثم نظف الطبيب رى الجرح وضمده .

ثم قال له :

— « إنها حادثة ليست بذات بال — فعلى أى حال لا يسمع الإنسان بهذه الكرنبات المعلقة خارج رأسه . فكأنك لم تفقدها . »

— « إنك رقيق جدا يا دكتور . لماذا هذه الحجرة .. خاوية بهذا الشكل ؟ .

— « لقد أخرجت كل شىء منها لكى أحميك » .

— « ممن ؟ »

— « من نفسك » .

— « .. نعم .. إننى أفهم هذا .. » .

— « حسنا ، والآن يجب أن أتركك . وسأرسل المشرفة بعشائك إليك . وحاول أن ترقد بلا حراك ، لأن فقدانك كثيرا من الدم جعلك ضعيفا » .

وحينما استيقظ فنسنت فى صباح اليوم التالى وجد ثيو جالسا بجواره ، وكان وجه ثيو باهتا ومصفرا بينما كانت عيناه ممتقعتين » :

فقال فنسنت : « ثيو »

فنزل ثيو من فوق كرسيه ثم ركع على ركبتيه بجوار السرير ، وأخذ يد فنسنت بين كفيه واندفع يبكى دون خجل أو توقف .

فقال له فنسنت : « ثيو .. دائما ... حينما أستيقظ ... وأكون محتاجا إليك .. أجدك بجوارى » .

ولم يقو ثيو على الكلام .

— لقد تجشمت مشقة شديدة فى سفرك كل هذه المسافة إلى هنا . ولكن كيف علمت بهذا ؟ » .

— « أرسل جوجوين تلغرافا إلى بالأمس — فركبت قطار المساء » .

— لقد كان جوجوين مخطئا فى تحميلك كل هذه النفقات .

لابد أنك جلست طوال الليل ياثيو » .

— « بالطبع — يافنسنت » .

ثم مضت فترة صمت بينهما .

— « حدثت الدكتور رى — يافنسنت فقال إنها ضربة شمس . لقد كنت تعمل فى الشمس بدون قبعة أليس كذلك ؟ »

— إذن ما كان عليك ياعزيزى العجوز أن تفعل ذلك . وعليك أن تلبس قبعتك فى المستقبل فكثير من الناس فى آرلز تصيبهم ضربة الشمس .

فضغط فنسنت برفق على يديه ، بينما حاول ثيو أن يبتلع ريقه .

— « عندى أخبار لك يافنسنت ، ولكنى أعتقد أنه من الأفضل تأجيلها لأيام قلائل » .

— « هل هى أخبار لطيفة ياثيو ؟ »

وحينذاك دخل الدكتور الحجرة .

— « كيف حال المريض اليوم ؟ »

يا دكتور ...

— « هل يمكن لأخى أن يخبرنى ببعض الأخبار الطيبة ؟ » .

— « أعتقد أنه يمكن هـــذا . ولكن — انتظر دقيقة واحدة .

دعنى أنظر إلى هذه . حسنا إنها على ما يرام — على ما يرام . إنها ستشفى بسرعة الآن » .

وحينما ترك الطبيب الحجرة توسل فنسنت ليستمع الأخبار .

فقال ثيو : فنسنت .. لقد . إنى .. إنى « قابلت فتاة » .

— « لماذا — يا ثيو ؟ »

— « إنها فتاة دانمركية ، جوهانا بانجر أعتقد أنها تشبه أمى إلى حد كبير » .

— « هل تحبها يا ثيو ؟ »

— « نعم ، نعم لقد كنت وحيدا يائسا بدونك فى باريس يا فنسنت ، لم يكن الأمر سيئا لهذا الحد قبل مجيئك إلى ولكن بعد أن عشنا سويا لمدة عام .. »

— « لقد كان من الصعب الحياة معى — ياثيو . وأعتقد أنى أريتك وقتا عصيبا » .

— « أوه — يافنسنت لو علمت فقط كم من المرات دفعتنى الرغبة إلى دخول الشقة الموجودة بشارع ليبيك وأن أجد حذاءك موضوعا على البوفيه ، ولوحاتك المبتلة على فراشك ، .. ولكن يجب ألا نتحدث فى هذا الأمر من هذا .. فيجب أن تستريح ، وسنعيش هنا سويا .

وظل ثيو فى آرلز لمدة يومين . ولم يتركها إلا بعد أن أكد له رى أن فنسنت سيشفى بسرعة ، وأنه سيهتم بأخيه ليس فقط كمريض ولكن أيضا كصديق .

وكان يذهب إليه رولان كل صباح حاملا معه بعض الزهور . ولكن فنسنت كان يقاسى من هذيان طوال الليل ، فاضطر الدكتور رى إلى وضع بعض الكافور على وسادة ومرتبة فنسنت لكى يقضى على أرقه.

وبانتهاء اليوم الرابع حينما رأى الدكتور أن فنسنت قد أصبح فى كامل قواه العقلية فتح باب حجرته وأعاد إليها الأثاث .

فسأله فنسنت : « هل يمكننى أن أقوم وألبس ملابسى يا دكتور ؟

— « إذا شعرت بقوة كافية فيمكنك أن تأتى إلى عيادتى بعد أن تستنشق بعض الهواء » .

وكانت مستشفى آرلز تتكون من طابقين مبنيين على شكل رباعى ، وبهما فناء داخلى فى الوسط يمتلىء بزهور ذات ألوان فاقعة . كما أن بها بعض نباتات السرجس وبعض الممرات الممتلئة بالجص . وجال فيها فنسنت متباطئا لمدة دقائق . ثم ذهب إلى عيـادة الطبيب بالدور الأرضى .

فسأله الطبيب: « كيف تشعر وأنت واقف على قدميك ؟ » .

— « على ما يرام » .

— « أخبرنى يا فنسنت — لماذا فعلت ذلك ؟ » .

وصمت فنسنت لمدة طويلة . ثم قال : « إنى لا أعرف » .

— « فيم كنت تفكر حينما فعلت ذلك ؟ » .

— « إنى ... لم .. أفكر يا دكتور » .

وقضى فنسنت الأيام القليلة التالية ليستعيد قواه .

وذات صباح بينما كان يثرثر مع الدكتور فى حجرته ، التقط موسى من حوض الغسيل ثم فتحها » .

ثم قال « إنك محتاج إلى حلق ذقنك يا دكتور رى فهل تود أن أحلق لك ؟ » .

فتراجع الطبيب إلى الخلف فى أحد الأركان وهو يرفع كفيه أمام وجهه قائلا « كلا ! كلا ! ضع هذه » .

— « ولكننى حلاق جيد يا دكتور ، ويمكننى أن أحلق لك حلاقة جيدة » .

— « فنسنت ! ضع هذه الموسى » .

فضحك فنسنت ثم قفل الموسى وأعادها إلى حوض الغسيل .

— « لا تخف يا صديق — لقد انتهى الأمر » .

وبانتهاء الأسبوع الثانى سمح الدكتور رى لفنسنت بالرسم . فأرسلوا أحد المشرفين إلى البيت الأصفر لإحضار الحامل ولوحات الخيش . وعمل فنسنت ببطء ، وكان يرسم شيئاً بسيطاً كل يوم . وحينما انتهى من رسم اللوحة أهداها إلى الدكتور ، وقال له :

— « إننى أود أن تحتفظ بهذه اللوحة كذكرى منى — يا دكتور فهذه الطريقة الوحيدة التى يمكننى أن أعبر بها عن اعترافى بجميلك لطيبة قلبك » .

— « هذا لطيف منك يا فنسنت لقد حصل لى الشرف » .

فحمل الدكتور اللوحة إلى المنزل واستخدمها فى إخفاء شق فى الحائط .

وظل فنسنت لمدة أسبوعين فى المستشفى ، حيث رسم الفناء الداخلى وقد لفحته الشمس . وكان يضع فوق رأسه قبعة عريضة من القش عند عمله . واستنفدت زهور الحديقة أسبوعين كاملين فى رسمها .

وقال الدكتور رى وهو يصافح فنسنت عند باب المستشفى الأمامى . « أرجو أن تأتى هنا لتزورنى كل يوم ، وتذكر ، لا تشرب الجعة ولا تثر نفسك ولا تعمل تحت الشمس بدون قبعة » .

— « أعدك بهذا يا دكتور — وشكرا لك على كل ما فعلته » .

— « سأكتب لأخيك ، أنك أصبحت الآن فى كامل صحتك » .

ووجد فنسنت أن صاحب المنزل قد وقع عقد الطرد ، من المنزل ، واستئجار المنزل الأصفر لأحد بائعى الطباق . ولكن فنسنت كان متعلقاً

جداً بالمنزل الأصفر ، لأنه كان جذره الوحيد فى تربة بروفنس ، كما أنه كان قد رسم كل بوصة فيه سواء فى داخله أم خارجه . وجعله قابلا للسكنى وعلى الرغم من إصابته بتلك الحادثة فيه إلا أنه اعتبره منزله الدائم ، وقرر أن يحارب صاحب المنزل حتى النهاية المرة .

وكان يخاف النوم وحيدا فى المنزل فى أول الأمر لما يصيبه من أرق ، لم يستطع حتى الكافور التغلب عليه . وكان قد أعطاه الدكتور رى بعض البوتاسيوم ليقضى على الهذيان المفزع الذى كان يخيفه . وقد اختفت تلك الأصوات التى كانت تهمس فى أذنيه قصصا عجيبة ولكن لتعود إليه ثانية فى أضغاث أحلامه .

وكان ما زال ضعيفاً جدا لدرجة لا تمكنه من الخروج والعمل وعاد الهدوء إلى عقله ولكنه كان يعود ببطء كما كانت الحياة تعود إلى السريان فى دمائه اليوم بعد اليوم . كما تفتحت شهيته وتناول وجبة شهية مع رولان فى المطعم ، وكان يلازمه الفرح دون أن يؤرقه خوف عودة الآلام إليه . وابتدأ العمل بتيقظ فى لوحة لزوجة رولان كان لم ينته منها عند وقوع الحادث له

وقد أحب الطريقة التى درج بها الألوان الحمراء من اللون الوردى حتى البرتقالى ، كما ارتفع من اللون الأصفر حتى الليمونى ، مع بعض الألوان الخضراء الفاتحة والداكنة .

وتحسنت صحته ولوحاته ببطء شديد . لقد كان يعرف فى الماضى أنه من الممكن أن تنكسر ساق الإنسان أو ذراعه وبعد ذلك يلتئمان ، ولكن ما أدهشه أن يحدث شرخ فى مخ الإنسان ثم يلتئم بعد ذلك أيضا .

وفى أحد الأيام ذهب ليسأل عن صحة راشيل . فقال لها : ياحماتى إنى آسف للمضايقات التى سببتها لك .

— « إننى على ما يرام يا فو — رو ويجب ألا تقلق بالك ، فنى هذه المدينة ، لا يعتبر حدوث مثل هذه الأشياء غير عادى » .

وزاره أصدقاؤه وأكدوا له أن كل فرد فى بروفنس يقاسى من الحمى أو الهذيان أو الجنون .

كما قال رولان : « إن هذا لا يعتبر غير عادى يا فنسنت . فنحن هنا فى تارتارين كلنا نفوس عقدتها التوافه » .

فأجابه فنسنت : « حسنا — حسنا — إن كلامنا يفهم فنّ الآخر كما لو أننا أعضاء فى نفس الأسرة » .

ومرت أسابيع قلائل ، وأصبح فنسنت الآن قادرا على العمل بالاستوديو طوال اليوم ، وهجرت عقله أفكار الجنون والموت ، وابتدأ يشعر بأنه طبيعى .

وأخيراً جرؤ على الخروج من منزله من أجل الرسم ، وكانت الشمس تحرق بأشعتها حقول القمح الصفراء الرائعة ، ولكن فنسنت لم يستطع امتصاصها . وكان يتناول طعامه بانتظام وينام بانتظام ، ويتحاشى الاستثارة والحماس الشديد .

ولكنه حينما كان يشعر بأنه طبيعى كان لا يمكنه الرسم .

فقال له الدكتور رى : « إنك عصبى جداً يا فنسنت ، ولم تكن طبيعياً يوماً واحداً فى حياتك ، ولكن لا يوجد فنان واحد فى حالته الطبيعية ، لأنه حينما يكون كذلك ، لا يكون فناناً . فالرجال الطبيعيون لا يخلقون شيئاً فنيا . فهم يأكلون وينامون ، ويقومون بأعمال روتينية ثم يموتون . إنك شديد الحساسية بالحياة والطبيعة وهذا هو سبب مقدرتك على نقلهما لنا ،

ولكنك إن لم تكن حذرا فستقودك هذه الحساسية الشديدة إلى الدمار . لأن ضغطها الشديد يحطم كل فنان فى الوقت المناسب » .

وعلم فنسنت أنه لكى يصل إلى درجة اللون الأصفر الشديد الذى يسود لوحاته الآرلزية يجب عليه ان يكون ثائرا ومنتظما وثائرا فى دقات قلبه وحساسا عاطفيا ، وذا أعصاب خشنة .

فلو أنه سمح لنفسه لأن يكون فى هذه الحالة فسيمكنه أن يعود ثانية إلى الرسم بنفس البهاء الذى كان يرسم به من قبل . ولكن ذلك الطريق كان يقود إلى الدمار .

فكان يتمتم لنفسه : « إن الفنان رجل مكرس لنفسه ، فكم ستكون حماقتى لو ظللت حيا ولم أستطع أن أرسم بالطريقة التى أريدها .

وكان يسير فى الحقول بدون قبعته ، فيمتص بداخله قوة الشمس ، ويشرب بداخله ألوان السماء المجنونة ، والكرة النارية الصفراء ، والحقول الخضراء والزهور المنبثقة .

وترك رياح الشمال تقرعه بسوطها ; وليل السماء البهيم يخنقه وعباد الشمس يقدح قريحته إلى حد الانفجار . وكلما استشاطت ثائرته فقد شهيته للطعام . وعاش على القهوة والجعة والطباق . وكان يقضى لياليه مستلقيا متيقظاً ، بينما كانت ألوان البلدة القاتمة تندفع خلال عينيه المضرجة بالحمرة . وحمل حامله أخيراً على ظهره وذهب إلى الحقول .

وعادت إليه قدراته ، كما عاد إليه شعوره بنظم الطبيعة العالمى ، وعادت إليه مقدرته لتمكنه من رسم لوحة كبيرة فى ساعات قليلة ، بعد أن يغمرها بفيض من أشعة الشمس المبهرة المتوهجة . وكان يخلق كل يوم لوحة جديدة ، كما كان يرى كل يوم تحسناً فى حالته المعنوية ، فرسم سبعة وثلاثين لوحة دون أن يستريح .

وذات يوم استيقظ من نومه وهو يشعر بالنوم مازال يسرى فى جسده، فلم يتمكن من العمل ، فجلس على كرسى وأخذ يحملق فى أحد الجدران ، ولم يتحرك من مكانه طوال اليوم. وعادت الأصوات ثانية إلى أذنيه وأخبرته بأشياء غريبة جدا . وحينما حل الليل اتجه إلى المطعم الرمادى وجلس أمام منضدة صغيرة ، وطلب طبق حساء ، فأحضرته له الخادمة ، وإذا به يسمع صوتاً أجشّ فى أذنيه يحذره .

فألقى بطبق الحساء على الأرض ، فتحطم قطعا متناثرة . وصاح قائلا : « إنك تحاولين تسميمى ! لقد وضعت سماً فى الحساء ! » .

ثم قفز من مكانه وركل المنضدة بقدمه . فهرول بعض الزبائن خارج المطعم ، بينما حملق فيه البعض الآخر وهم فاغرون أفواههم .

فصاح فيهم : « إنكم جميعاً تحاولون تسميمى ! إنكم تريدون قتلى ! لقد رأيتكم وأنتم تضعون السم فى الحساء » .

فأقبل عليه شرطيان وحملاه إلى المستشفى بأعلى التل . وبعد مرور أربع وعشرين ساعة عليه عاد إليه هدوءه .. وابتدأ فى مناقشة الأمر مع الدكتور رى ، وكان يعمل قليلا كل يوم ثم يتنزه فى القرية ، ثم يعود ليتناول عشاءه فى المستشفى وينام .وفى بعض الأوقات كانت تعتريه نوبات من الألم العقلى الشديد ، وأحياناً كان يشعر بأن ستار الوقت والموت الذى لا محالة آت قد فارقه فى ومضة عين .

وسمح له الدكتور رى بالرسم ثانية، فرسم فنسنت خميلة من أشجار الخوخ بالقرب من الطريق ، وجبال الألب خلفها ، كما رسم بستانا من أشجار الزيتون ذات أوراق فضية ، وتتحول الفضة إلى لون أخضر بانعكاس زرقة السماء ، وحولها أرض محروثة برتقالية اللون .

وبعد مضى ثلاثة أسابيع عاد فنسنت إلى المنزل الأصفر ولكن المدينة الآن ، وعلى الأخص ميدان لامارتين ، أصبحت ثائرة ضده . فالأذن المقطوعة والشوربة المسمومة أكثر مما يستطيع تحمله بحقل رزين . فلقد اعتقد الآرلزيون اعتقادا راسخاً أن الرسم يدفع الرجال إلى الجنون . ولذلك كانوا يحملقون فى فنسنت حينما يمر عليهم وكانوا يرسلون تعليقاتهم عالية فى الهواء ، بل وفى بعض الأحيان كانوا يعبرون الشارع لكى يتحاشون السير بجواره .

ولم يسمح له أى مطعم فى المدينة بالدخول من بابه . واجتمع أطفال آرلز أمام باب المنزل الأصفر وأخذوا يلعبون لمضايقته .

وأخذوا يتصايحون : « فو — رو ! فو — رو — اقطع أذنك الأخرى » .

فأقفل فنسنت نوافذ منزله ، ولكن الصيحات وصرخات السخرية كانت تنفذ منها .

— « فو — رو ! فو — رو ! » .

— «رجل مجنون ! رجل مجنون» !

وأخذوا يغنون أغنيات قصيرة تحت نوافذه .

كان فو — رو رجلا مجنوناً .

لأنه قطع أذنه اليمنى .

والآن لن يهمه مهما صحتم .

فالمجنون لا يستطيع أن يسمعكم .

وحاول فنسنت أن يخرج من المنزل لكى يهرب منهم ، ولكن سارت خلفه عبر الشوارع وخلال الحقول مجموعة لطيفة من الأطفال الصغار المغنين الساخرين .

وازداد عددهم يوماً بعد يوم باجتماعهم أمام المنزل الأصفر ، فاضطر فنسنت إلى حشو أذنه بالقطن ، واستمر فى عمله أمام حامل لوحاته فى صنع نسخ ثانية من صوره . ولكن كلمات الأطفال كانت تنفذ خلال الشقوق والجدران ثم تتجمد فى عقله .

وازداد الصبية الصغار جرأة ، وتسلقوا مواسير المجارى مثل القردة الصغار ، وكانوا يجلسون على حافة النوافذ ، ويطيلون النظر فى الحجرات ويصيحون خلف ظهر فنسنت . قائلين : « فو — رو ، اقطع أذنك الأخرى ، إننا نريد أذنك الأخرى » .

— «فو — رو ! هل تحب بعض الحلوى ؟ ولكن حذار إنها مسمومة» !

— « فو — رو ! هل تحب الحساء ؟ ولكن حذار — إنها مسمومة » !

— كان فو — رو رجلا مجنونا .

لأنه قطع أذنه اليمنى .

والآن لن يهمه مهما صحتم .

فالمجنون لا يستطيع أن يسمعكم

وقبع الأطفال على حافة النوافذ بينما كان الجمهور يغنى بأسفلهم ، وكانوا يغنون سويا بصوت متزايد .

« فو — رو — فو — رو ألق إلينا بأذنك » .

« فو — رو — فو — رو ألق إلينا بأذنك ! . ألق إلينا بأذنك ! . »

فرفع فنسنت حامله ، وكان يجلس فى ذلك الوقت ثلاثة صبية صغار على حافة نافذته وهم يغنون ، فضربهم بحامله فتعثروا نازلين من فوق الحائط . فزمجر الحشد الموجود بأسفل المنزل . بينما وقف فنسنت بجوار النافذة ليطل عليهم .

وانبعثت من السماء مجموعة من العصافير وآلاف الصيحات والضربات، فأظلم ميدان لامارتين ، وتساقطت على فنسنت وأخذت تنقره وتملأ حجرته أو تدفعه أمامها وهى تطير بين شعره ، وفى أنفه وفمه وعينيه فدفنته تحت أجنحة كثيفة سوداء مرفرفة . فقفز فنسنت على حافة الشباك وصاح قائلا : —

« ابعدوا عن هنا أيها الأوغاد — ابعدوا — بحق الإله ، اتركونى فى هدوء . . »

« فو — رو — فو — رو ! ألق إلينا بأذنك ! ألق إلينا بأذنك . »

ابعدوا عن هنا — واتركونى بمفردى — هل تسمعوننى — اتركونى بمفردى ! »

وأخذ حوض المياه من فوق منضدته وألقاه عليهم . فتحطم على الأحجار الموجودة ، بالشارع . ثم أخذ يجرى فى ثورة غضبه ويمسك بكل شىء يقع تحت يده ويلقى به يائساً فى ميدان لامارتين فيتحطم على الفور ، فألقى بكراسيه ، وبحامله ومرآته ومنضدته ، وملابس نومه ولوحات عباد الشمس على أولاد بروفنس . وكان يتحطم مع كل من هذه الأشياء ومضة من أيامه التى قضاها فى منزله الأصفر ، ومن تضحياته التى ضحى بها من أجل شرائه قطعة من هذه الأشياء البسيطة التى أراد أن يؤثث بها منزل حياته .

وبعد أن أفرغ كل مافى الحجرة وقف بجوار النافذة ، وجميع أعصابه مرتعشة — ثم سقط على حافة الشباك ، فتعلقت رقبته فى اتجاه الشارع الحجرى .

* * *

(٩)

وسرعان مادار التماس بين سكان ميدان لامارتين وقع عليه تسعون رجلا وامرأة .

إلى العمدة تارديو :

نحن الموقعين على هذا بأسفله ، مواطنى آرلز ، نعتقد اعتقاداً راسخا أن فنسنت فان جوخ المقيم بميدان لا مارتين رقم/٢ مجنون خطير ، ولا يمكن تركه على هذه الحالة .

ولهذا ندعوك كعمدة لنا إلى حبس ذلك الرجل فى حجرة .

وكان الوقت قريباً جداً من إجراء الانتخابات ، ولم يكن العمدة تارديو ليرضى بأن يفقد كل هذه الأصوات .

فأمر معاون البوليس أن يلق القبض على فنسنت .

فوجده الجنود مستلقياً على الأرض تحت حافة النافذة فحملوه إلى السجن .

ثم وضعوه فى زنزانة وأغلقوها عليه . ووضعوا حارساً على بابها .

وحينما عاد فنسنت إلى وعيه طلب رؤية الدكتور رى . ولكنهم رفضوا طلبه فطلب ورقة وقلما لكى يكتب خطابا لثيو، ولكنهم رفضوا طلبه أيضاً .

وأخيراً استطاع الدكتور رى أن يدخل إليه السجن .

وقال له : « حاول أن تضغط على تذمرك يافنسنت ، وإلا سيصدرون عليك حكماً بأنك مجنون خطير وتكون هذه نهايتك . علاوة على أن العاطفة الجياشة لن تزيد إلا من حالتك . ولهذا سأكتب لأخيك وسنخرجك من هنا فيما بيننا . »

— « أرجوك يادكتور لاتدع ثيو يأتى إلى هنا، لأنه على وشك الزواج ، وهذا سيقلب كل شىء رأسا على عقب » .

— « سأخبره بعدم المجىء ، ولكننى أعتقد أن عندى خطة جميلة من أجلك » .

وبعد ذلك بيومين عاد إليه الدكتور ري . وكان الحارس مازال واقفاً أمام الزنزانة .

فقال الدكتور لفنسنت : « أصغ إلى يافنسنت ، لقد رأيتهم وهم يخرجونك من منزلك الأصفر ، بعد أن وضع صاحب المنزل جميع أثاثك على رصيف أحد المقاهي ، وفى نفس الوقت وضع لوحاتك فى حجرة وقفل عليها بالمفتاح ، قائلا إنه لن يعطيك إياها إلا إذا دفعت الإيجار المتأخر . »

وحل الصمت على فنسنت .

— « ومادمت لا تستطيع الذهاب إلى هناك ، فأعتقد أنه من الأفضل لك أن تحاول تنفيذ خطتى . . فلا أحد يمكنه معرفة كم من المرات ستعاودك هذه النوبات العصبية .. ولكنك لو عشت سالماً هادئاً بين جو محيط لطيف دون أن تثير نفسك ، فقد تكون هذه المرة الأخيرة بالنسبة لك . ولكن - من جهة أخرى - قد تعاودك كل شهر أو شهرين . ولهذا - فمن أجل حماية نفسك ، ومن يعيشون حولك .. أعتقد أنه من الأفضل .. أن تذهب إلى..

— « سراى المجانين . . . ؟ »

— « نعم »

— « إذن فأنت تعتقد أننى ... ؟ »

— « كلا - ياعزيزى فنسنت ، إنك لست كذلك . فيمكنك أن تعرف بنفسك أنك فى كامل قواك العقلية مثلى . ولكن هذه النوبات التشنجية مثل أى نوع آخر من الحمى . تجعل الإنسان يفقد عقله . وحينما تحل به نوبة عصبية ترتكب تلقائياً أشياء جنونية ، وهذا هو السبب فى وجودك بإحدى المستشفيات ، حيث يمكن العناية بك . »

— فهمتك الآن .

— ويوجد مكان لطيف فى سانت ريمى ، على بعد خمسة وعشرين ميلا من هنا ويسمى : «سانت بول دى موزول» ويقبلون هناك مرضى بالدرجة الأولى والثانية والثالثة ، وأجر الدرجة الثالثة مائة فرنك شهرياً . وأعتقد أنك

تستطيع الحصول على هذا المبلغ . وكان هذا المكان فى الماضى معبداً مبنياً على قاعدة أحد التلال . إنه جميل حقاً ـ يافنسنت . وهادئ ـ هادئ جداً. وسيكون بجوارك طبيب لاستشارته وممرضات للعناية بك كما أن الطعام سيكون بسيطاً ومفيداً ، كما سيمكنك استعادة صحتك .

— « وهل سيسمحون لى بالرسم ؟ »

— « بالطبع — ياعزيزى العجوز — إنهم سيسمحون لك بكل ماتريده . . مادام ذلك لايحيق بك ضرراً . وستكون بالنسبة لك كما لو أنها مستشفى عظيم بناؤها ، وإذا قضيت فيها عاما كاملا ، ستشفى تماما . »

ولكن كيف سأخرج من هذا السجن ؟ .

— لقد تحدثت مع معاون البوليس ، فوافق على ذهابك إلى « سانت بول دى موزول » على شرط أن آخذك بنفسى إلى هناك .

— وهل هو مكان جميل حقا ؟ .

— أوه — بل أخاذ — يافنسنت ، وستجد أشياء كثيرة لرسمها .

— ياله من مكان لطيف . ولكن مائة فرنك شهريا تعتبر مبلغاً كبيراً ولكن ربما هذا هو ما أحتاجه لمدة عام — حتى تستريح أعصابى .

— بالطبع أنت محتاج لهذا . ولقد كتبت فعلا لأخيك أخبره بهذا . وقد اقترحت عليه أنك بحالتك الصحية الراهنة سيكون من الجنون أن ننقلك إلى مكان بعيد جداً عن هنا ، وعلى الأخص باريس . وقد أخبرته أنى أعتقد أن سانت بول أفضل مكان بالنسبة لك .

— حسنا — إذا وافق ثيو . . . فسأفعل أى شىء ، مادمت لا أزيد عليه من متاعبه .

— إنى أتوقع إجابته فى أى لحظة ، وسأحضر إليك بمجرد حصولى عليها .

ولم يكن امام ثيو أى حل بديل . فوافق ، وأرسل النقود اللازمة

لسداد ديون أخيه . واصطحب الدكتور رى فنسنت فى عربة إلى المحطة ليستقلا القطار إلى تاراسكون . وفى تاراسكون سارا فى طريق قصير يمتلىء بالأشجار ينثنى فى شكل واد أخضر خصب إلى سانت ريمى.

وكانت تقع على ارتفاع كيلومترين من أحد التلال المنحدرة خلال بلدة سانت بول دى موزول القائمة .

واستأجر فنسنت والدكتور رى عربة ، وكان الطريق يقودهم مباشرة إلى حافة جبال سوداء قاحلة ، ورأى فنسنت على مسافة قريبة جدران المعبد الرمادية مثل العش على تلك القاعدة .

ووقفت العربة . ونزل منها فنسنت والدكتور رى . وشاهدا على الجانب الأيمن من الطريق مكانا فسيحا قطعت منه الأشجار وأقيم به « معبد فستا » و « قوس النصر » .

— لقد كان هذا المكان مكان استيطان هام للرومان . وكان هذا النهر الذى تراه أسفلك يملأ كل هذ الوادى فيما مضى . فلقد كان يجرى فى المكان الذى نقف فيه الآن ، ولكن بعد أن تراجع النهر زحفت المدينة إلى أسفل التل . والآن لا يوجد شىء سوى هذه الآثار القديمة والمعبد .

— مثير للغاية .

— هيا بنا يافنسنت — فالدكتور بايرون فى انتظارنا .

وتركا الطريق ثم سارا خلال ممر من أشجار الصنوبر ، حتى وصلا إلى بوابة المعبد .

فجذب الدكتور رى مقبضا حديديا أحدث صوتا عاليا . وبعد دقائق قليلة فتح الباب وظهر منه الدكتور بايرون .

— فقال الدكتور رى : كيف حالك يادكتور بايرون ؟ لقد أحضرت صديق فنسنت فان جوخ ، كما اتفقنا بالخطابات ، وإنى متأكد أنك ستهتم جداً به .

— بالطبع ، يادكتور رى ، إننا سنهتم به .

— إنك ستسامحنى لو عدت مسرعا ياد كتور ، لأن الوقت قد يكاد يسعفنى للحاق بالقطار العائد من تاراسكون .

— بالطبع ياد كتور رى — إنى أفهم ماتعنيه .

فقال الدكتور رى إلى اللقاء يافنسنت — كن سعيداً وستتحسن صحتك ، وسأحضر إلى هنا لزيارتك كلما أمكننى ذلك . وإنى أتوقع أن أجدك رجلا مصحا كاملا بنهاية النصف الأول من العام .

— أشكرك ياد كتور ، إنك عطوف جداً — إلى اللقاء .

— إلى اللقاء يافنسنت .

واستدار الدكتور وسار عبر أشجار الصنوبر .

وقال الدكتور بايرون وهو يتخذ جانبا . هل تسمح بالدخول يافنسنت ؟ .

فسار فنسنت أمام الدكتور بايرون .

ثم أغلق باب مستشفى المجانين خلفه .

* * *

الكتاب السّابع

سانت ريمي

(١)

يشبه العنبر الذى ينام فيه المرضى حجرة من الدرجة الثالثة فى قرية حية — ميتة . ويرتدى المجانين دائما قبعاتهم ، ونظاراتهم ، ويمسكون بعصيهم ، ويلبسون معاطفهم كما لو أنهم على وشك الخروج إلى مكان ما .

وقادت الأخت « ديزشانيل » فنسنت عبر الحجرة الشبيهة بالممر وأشارت له إلى سرير فارغ . ثم قالت له :

« إنك ستنام هنا ياسيدى ، أما فى أثناء الليل فيمكنك أن تسدل الستائر حتى تشعر بالراحة . ويرغب الدكتور بايرون فى رؤيتك بعيادته بعد أن تستقر » .

ولم يلحظ الأحد عشر رجلا الذين كانوا يلتفون حول موقد الغاز المطفأ مجىء فنسنت أو التعليق . أما الأخت ديزشانيل فقد سارت خارجة من الحجرة الطويلة الضيقة ، بينما كان يمتد خلفها مئزرها الأبيض المنثى ، وقبعتها السوداء ، وطرحتها السوداء .

وألقى فنسنت بحقيبة سفره ونظر حوله . فوجد أن جانبى العنبر يختطهما بعض الأسرة التى تنحدر إلى أسفل بزاوية خمس درجات ، وكان كل واحد من هذه الأسرة يحوطه إطار معلق عليه بعض الستائر لها لون «الكريمة» .

أما السقف فكانت تضيئه أنوار باهتة ، والجدران كانت مطلية بلون أبيض ، وكان فى وسط الحجرة موقد غاز يخرج من جانبه الأيسر أنبوبة محدبة الشكل . وكان لايوجد بالحجرة إلا مصباح واحد مدلى من سقف الحجرة فوق الموقد مباشرة .

وتعجب فنسنت من هدوء الرجال إلى هذا الحد ، وعدم تبادلهم

الحديث وعدم قراءتهم أو لعبهم ، واتكائهم على عصيهم وهم ينظرون إلى الموقد .

وكان معلقا بأعلى فراشه صندوق بالحائط ، فضل فنسنت الاحتفاظ بممتلكاته الشخصية داخل حقيبة سفره . ولكنه وضع فى ذلك الصندوق غليونه ، ولفافة من الطباق ، وكتابا ، ثم دفع بحقيبة سفره تحت السرير وسار خارجا إلى الحديقة . ومر فى طريقه على حجرات مظلمة معتمة مقفلة جيدا محرم الدخول فيها .

وكان الفناء الداخلى مهجورا تماما ، وكان ينمو فيه أشجار صنوبر كبيرة ينمو بأسفلها حشائش طويلة غير مشذبة وبعض الأعشاب المتناثرة. أما الجدران فقد أحاطت فيما بينها مربعا من ضوء الشمس الثابت الذى لا يتحرك .

واتجه فنسنت إلى الناحية اليسرى وقرع باب المنزل الخصوصى الذى يقم فيه الدكتور بايرون هو وعائلته .

وقد كان الدكتور بايرون طبيب البحرية فى مرسيليا بعد أن كان طبيبا للعيون ولكنه أصيب بنوبة حادة من مرض النقرس فبحث عن «مصحة» فى بلدة هادئة . . .

وقال الدكتور لفنسنت وهو يمسك بكلتا يديه أحد طرفى المنضدة : « انظر يا فنسنت ، لقد كنت فى الماضى أعتنى بصحة الجسد ، أما الآن فأعتنى بصحة الروح ، إنها نفس الحرفة .

— « إنك مررت بتجارب كثيرة فى الأمراض العصبية يا دكتور فهل يمكنك أن تفسر لى سبب قطعى أذنى ؟ » .

— « هذه الحالة تكاد تكون طبيعية مع مرض الصرع يافنسنت فقد

مرت على حالتين من هذا القبيل ، حيث تصبح الأعصاب السمعية شديدة فيعتقد المريض أنه يستطيع إيقاف هذيانه بقطعه أذنه » .

« . . . أوه . . . لقد فهمت . وما هو العـــلاج الذى يجب أن أتناوله ... ؟ »

— « علاج ؟ حسنا ... آه ... يجب عليك أن تستحم مرتين أسبوعيا فى حمام ساخن إننى مصمم على هذا على أن تمكث فى الحمام لمدة ساعتين . إنهما سيهدئان من « أعصابك » .

— « وأى شىء آخر يمكننى فعله يا دكتور ؟ » .

— « يجب عليك أن تظل فى هدوء تام . فلا تثر نفسك ، ولا تعمل شيئا ، ولا تقرأ ، ولا تناقش ، ولا تقلق بالك بأى شىء .

— « أعلم ... أنى ضعيف جدا لدرجة لا تمكننى من العمل . »

— « وإذا لم تكن ترغب المشاركة فى حياة سانت بول الدينية فسأطلب من الأخوات عدم الإصرار على هذا . وإذا ما احتجت لأى شىء فتعال إلى » .

— « أشكرك يا دكتور » .

— « وتناول العشاء فى الساعة الخامسة بعد سماع دق الجرس ، وحاول أن تكيف نفسك داخل إطار المدرسة بأسرع ما يمكنك يا فنسنت ، فإن ذلك سيعجل من شفائك » .

وسار فنسنت متعثراً خلال الحديقة الخاوية ، ثم عبر الحاجز الساقط عند مدخل مبنى الدرجة الثالثة ، ثم مر على صف من الحجرات الصغيرة المظلمة المهجورة . وجلس على سريره الموضوع فى العنبر . وكان مرافقوه مازالوا يجلسون حول الموقد فى هدوء تام ، وبعد مضى بعض الوقت سمع ضوضاء منبعثة من حجرة أخرى . فقام الأحد عشر رجلا من مكانهم واندفعوا كالعاصفة خارج العنبر وعلى وجوههم علامة إصرار وتصميم .

وكانت الحجرة التى يتناولون طعامهم فيها عبارة عن أرضية طينية بلا نوافذ ولم يكن بها سوى منضدة خشبية طويلة خشنة صفت حولها أرائك . وقدمت الأخوات الطعام ، وكان طعمه مائعا كما هو الحال .

فقدمن فى أول الأمر بعض الحساء والعيش الأسود .

ونسائر الدجاج الموضوعة بالحساء ، جعلت فنسنت يحن إلى مطاعم باريس . وبعد ذلك قدمن طبقا من الفاصوليا المهروسة مع الفول والعدس . فأكل رفاقه الطعام بكل ما أوتوا من قوة حتى إنهم كانوا يكنسون فتات الخبز الأسود الساقط على المائدة ويجمعونه فى أكفهم ثم يلعقونه بألسنتهم .

وبعد أن انتهى العشاء . عاد الرجال إلى كراسيهم المخصصة لهم حول الموقد ، حيث هضموا طعامهم تحت أعظم قدر من التركيز . وبعد أن هضموا العشاء قاموا من مكانهم الواحد تلو الآخر ، وخلعوا ملابسهم ثم أسدلوا الستائر واستسلموا للنوم . وحتى تلك اللحظة لم يسمع فنسنت أى صوت لهم .

وكانت الشمس على وشك الغروب . ووقف فنسنت بالقرب من النافذة وأخذ يطل على الوادى الأخضر — فرأى سماء سابحة ذات لون ليمونى باهت ، وتراصت تحتها أشجار الصنوبر فى أشكال مختلفة ذات لون أسود فاحم . ولكن هذا المنظر لم يحرك مشاعر فنسنت ، بل لم يحرك فيه مجرد الرغبة فى رسمه .

وأخذ يطل من النافذة حتى نفذ غسق بروفنسال خلال السماء الليمونية وامتص لونها ولم يأت أحد إلى العنبر ليضىء نوره . ولم يكن أمامه شىء يفعله فى هذا الظلام إلا أن يفكر فى حياته .

وخلع فنسنت ملابسه واستلقى فى فراشه . ورقد فاتحا عينيه ومحملقا

فى أشعة السقف الهادئة . وسقطت به زاوية السرير إلى القاعدة . فتذكر أنه كان قد أحضر معه كتاب ديلاكروا فأخذ يبحث عنه فى صندوقه وبعد أن وجده أمسك بالغطاء الجلدى وضمه إلى قلبه فى الظلام . إنه لم يكن ينتمى إلى هؤلاء المجانين الذين أحاطوا به بل كان ينتمى إلى السيد العظيم الذى مرت كلماته الحكيمة والمهدئة عبر الحواجز الجامدة حيث استقرت فى قلبه المتألم .

وبعد مرور بعض الوقت استغرق فى النوم . ولكن أيقظه ثانية أنين خافت انبعث من الفراش المجاور له . وارتفعت هذه الأنات أكثر وأكثر حتى انقلبت إلى صرخات وفيض من الكلمات الثائرة .

— « اغرب عن وجهى ! كف عن متابعتى ! لماذا تتابعنى ؟ إنى لم أقتله ! وان يمكنك تغفيلى . إنى أعرف من أنت . إنك البوليس السرى ! حسـنا ، ابحث عنى لو أردت ذلك ! إنى لم أسرق تلك النقود ! كما أنه قتل نفسه بيديه يوم الأربعاء ! اغرب عنى ! بحق الإله اتركنى بمفردى ! » .

فقفز فنسنت من مكانه وجذب الستارة جانبا ، فرأى شابا أشقر الشعر يناهز من العمر الثالثة والعشرين ، وأخذ يشق سترة الليل بأسنانه . وبمجرد ما إن رأى فنسنت حتى قفز على قدمه وأمسك بكفيه ورفعهما أمامه بهذيان محموم .

— « ياسيد مونيت — سولى لا تأخذنى بعيدا ! إنى لم أفعلها بنفسى سأقول لك الحق ! إنى لست سودوانيا ! بل محاميا ! وسأقوم بجميع قضاياك ياسـيد مونيت سولى ولكن لا تاق القبض على ! فلم يكن من المستطاع أن أقتله يوم الأربعاء الماضى ! والنقود ليست معى ! انظر ! إنها ليست هنا . »

ومزق الأغطية التى كانت عليه وأخذ ينبش بيديه الفراش فى نوبة عصبية وهذيان ، وهو يصيح ، طوال الوقت منددا بالبوليس السرى وبالاتهامات الكاذبة ضده . ولم يعرف فنسنت مايجب عليه أن يفعله . كما أن جميع الرفاق الآخرين كانوا يغطون فى النوم .

وهرع فنسنت إلى سرير مجاور وجذب ستارته جانبا وأخذ يهز النائم فيه . ففتح النائم فيه عينيه وأخذ يحملق بحماقة فى فنسنت .

فقال له فنسنت : استيقظ وساعدنى على تهدئته فأخاف أن يلحق ضرراً بنفسه » .

ولكن الرجل الذى كان فى الفراش أخذ يزبد فى الجانب الأيمن من فمه . ثم خرج من فمه فيض من الأصوات المشوشة غير المفهومة .

فصاح فنسنت قائلا : « أسرع لأنه يحتاج لكلينا لتهدئته » .

وحينئذ شعر بكف على كتفه . فلف بسرعة حول نفسه ، فوجد رجلا عجوزا واقفا خلفه .

فقال له الرجل : « لا فائدة من إجهاد نفسك مع هذا الرجل ، فهو عبيط ، ولم ينبس بكلمة واحدة منذ مجيئه إلى هنا . هيا بنا — ولنهدئ من روع هذا الشاب » .

وكان الشاب الأشقر قد حفر حفرة فى الحاشية بأظافره ثم انثنى على ركبتيه أمامها ، وأخذ ينتزع منها القش والحشو ، ولكنه حينما رأى فنسنت ثانية ، أخذ يردد بصوت مرتفع بعض العبارات القانونية . وأخذ يضرب بكلتا يديه على صدر فنسنت ، وهو يقول :

— « نعم ،نعم ، أنا قتلته . ! أنا الذى قتلته . ولكن لم يكن بسبب...

إنى لم أفعل ذلك ياسيد مونيت سولى . لم أفعله يوم الأربعاء الماضى . لقد كان ذلك من أجل نقوده انظر ! هاهى معى ، لقد خبأتها فى الحاشية ! سأحضرها لك ! ولكن مر البوليس السرى بالكف عن متابعتى ! وبهذا

يمكننى أن أذهب حرا حتى ولو قتلته ! وسأقدم لك بعض الحالات لأبرهن لك ... هنا ! سأخرجه لك من الحاشية . »

وقال الرجل العجوز لفنسنت : « خذ يده الأخرى » .

وأمسكا بالشاب وثبتاه على الحاشية ، ولكن هذيانه أخذ ينبعث مايزيد على ساعة . ولكن قواه خارت أخيراً وضعفت كلماته حتى أصبحت تمتمة محبوسة ثم انهار كلية فى بحر من نوم محموم . واقترب الرجل العجوز من فنسنت ، وقال له :

« كان هذا الولد يدرس من أجل البار ، فأجهد عقله ، ويصاب بهذه النوبات كل عشرة أيام ، ولكنه لا يحيق ضرراً بأحد . وأرجو لك ليلة سعيدة ياسيدى ! »

وعاد الرجل العجوز إلى فراشه واستغرق فى النوم فى الحال . وعاد فنسنت مرة أخرى إلى النافذة التى تطل على الوادى . وكان الوقت مازال به متسع قبل الشروق ، ولم يكن يرى شيئا فى السماء سوى نجمة الصباح .

وتذكر رسم دوبجنى لنجم الصباح الذى يعبر عن الهدوء الشامل والعظمة التى تلف العالم بجناحيها ... ويعبر عن شعور الكمد الذى يمتلىء به قلب الفرد الذى يقف تحته ويحملق فيه .

* * *

(٢)

وفى صباح اليوم التالى خرج الرجال إلى الحديقة بعد تناولهم طعام الإفطار . ويمكن أن يرى الإنسان حافات التلال المنعزلة القاحلة ، بعد الحائط البعيد ، ولقد هجرها الناس منذ أن عمرها الرومانيون لأول مرة . وأخذ يراقب فنسنت رفاقه وهم يلعبون بسلاطينهم باهتمام مصطنع . فجلس على أريكة من الحجر وأخذ يحملق فى الأشجار الكثيفة التى غطاها نبات العليق ، ثم فى الأرض المنقطة بأزهار الأشجار . ومرت فى تلك اللحظة الراهبات اللآتى يؤمن بمذهب سانت جوزيف دى أو بينلس ، فى طريقهن إلى الكنيسة الرومانية القديمة وكن يشبهن الفئران بأرديتهن البيضاء والسوداء وعيونهن الغائرة فى رءوسهن، ويسبحن بمسبحاتهن ويتمتمن بصلوات الصباح.

وبعد مضى ساعة تقريبا عاد الرجال إلى عنبرهم الرطب وبأيديهم سلاطينهم الصامتة . ثم التفوا حول الموقد المنطفىء . وقد دهش فنسنت لصمتهم الرهيب ، ولم يكن فى إمكانه أن يفهم لماذا لا يقرأ هؤلاء الناس شيئا حتى ولو جريدة قديمة .

وحينما أصبح من المستحيل عليه أن يتحمل الحال أكثر من ذلك عاد ثانية إلى الحديقة وأخذ يتجول فيها . فحتى شمس سانت بول بدت وكأنها تحتضر .

وكانت أبنية المعبد القديم قد أنشئت على شكل مربع تقليدى ، ففى شمالها أقيم عنبر الدرجة الثالثة ، وفى شرقها أقيم منزل الدكتور بايرون والكنيسة ودير من طراز القرن العاشر ، وفى جنوبها جناح مرضى الدرجة الأولى والثانية ، وفى غربها رواق المجانين الخطرين ، وحائط قديم من اللبن وكان المخرج الوحيد للمعبد هو الباب المقفل الموصد . وكان ارتفاع جدران حائطه اثنى عشرة قدما ، وكانت تتميز بأنها ملساء وبلا تدرج.

وعاد فنسنت إلى أريكة حجرية بالقرب من أجمة زهور برية وجلس عليها . وحاول أن يفهم نفسه ويوضح لها سبب مجيئه إلى سانت بول

ولكن تملكته امتعاضة وخوف مروع حرماه من التفكير ، ووجد أن الأمل والرغبة قد تلاشيا من قلبه .

وتعثر فى مشيته واتجه إلى مكان إقامته ، وإذا به يسمع نباح كلب غريب فى اللحظة التى وضع فيها قدمه على مدخل المبنى . وقبل أن يصل إلى باب العنبر تغير الصوت من صياح كلب إلى عواء ذئب .

فسار فنسنت على طول العنبر ، فرأى الرجل العجوز الذى رآه فى الليلة الماضية .

يجلس فى ركن قصى من العنبر ووجهه متجه إلى الحائط . وكان وجه الرجل مرفوعا إلى السقف ، وهو يعوى وينبح بكل ما أوتيت رئتاه من قوة ، وعلى وجهه نظرة حيوانية . ثم خبا عواء الذئب ليحل محله نداء حيوان فى وسط الأدغال ، فامتلأت الحجرة بصوته الحزين .

وسأل فنسنت نفسه : « ياترى أى نوع من الحظائر سجنت فيه ؟ » .

ولكن الرجال الملتفين حول الموقد لم يعيروه انتباها بينما ارتفعت صيحات الحيوان الرابض بجوار الحائط إلى صوت ملىء باليأس .

فقال فنسنت بصوت مرتفع : إننى يجب أن أعمل شيئا من أجله .

ولكن الشاب الأشقر منعه من ذلك وقال له : « من الأفضل أن تتركه بمفرده ، لأنك لو تحدثت إليه سينقلب إلى وحش ثائر ، ولكن لو تركته سيسكت بعد ساعات قلائل » .

وعلى الرغم من أن جميع جدران المعبد كانت سميكة إلا أن فنسنت كان يسمع للصرخات المتغيرة التى انبعثت من المتألم طوال فترة الغداء ، ثم انقطعت هذه الصرخات وذابت فى بحر من الهدوء . ثم قضى عصر ذلك اليوم فى مكان قصى من الحديقة ، محاولا الهرب ، من الصيحات العصبية .

وفى تلك الليلة ، بينما كانوا يتناولون عشاءهم ، قام شاب كان قد أصيب جانبه الأيسر بشلل ، وانتصب على قدميه وأمسك سكينا ووجهها إلى قلبه بيده اليمنى .

وصاح قائلا : « لقد حان الوقت ، وسأقتل نفسى . »

فقام الرجل الذى كان يجلس إلى جانبه الأيمن ، وأمسك يده المشلولة بإعياء .

وقال له « لا تقتل نفسك اليوم ياريموند — فاليوم هو يوم الأحد » .

— « نعم — نعم اليوم ! إنى لا أريد الحياة ! بل أرفض أن أعيش ! اترك يدى !

إنى أريد أن أقتل نفسى !

— « غدا - ياريموند — غدا — فاليوم ليس اليوم المناسب » .

— « دع يدى ، فأنا أريد أن أضع تلك السكين فى صدرى ! إنى أقولها لك بصراحة إنى يجب أن أقتل نفسى » .

— « أعرف ذلك — أعرفه ، ولكن ليس الآن » .

ثم أخذ الرجل السكين من يد ريموند ثم قاده إلى العنبر وهو يبكى فى نوبة من الضعف .

واستدار جهة الرجل الذى يجلس بجواره الذى كانت ترقب عيناه الحمراوان أصابعه المرتعشة وهى تحاول أن تحمل الحساء إلى فمه .

ثم سأله : « ماهى حكاية ذلك الرجل ؟ »

نخفض المصاب بالزهرى ملعقته قائلا : « لم يمض يوم واحد من أيام السنة دون أن يحاول ريموند أن ينتحر فيه .. »

فسأله فنسنت : « ولكن لماذا يحاول ذلك هناك بالذات ؟ ولماذا لا يسرق السكين ويقتل نفسه حينما يكون الجميع نياما ؟ » .

— « ربما لأنه لا يرغب فى الموت ياسيدى ؟ » .

وفى صباح اليوم التالى ، كان فنسنت يراقبهم وهم يلعبون بسلاطينهم ، وإذا به يجد أحدهم يسقط فجأة على الأرض وتنتابه نوبة تشنجية شديدة .

فصاح أحدهم قائلا : « أسرعوا ، فهذه نوبته العصبية » .

— « على ذراعيه وساقيه » .

وأمسك أربعة منهم بذراعيه وساقيه ، ولكن مريض الصرع كان وكأن به قوة اثنى عشر رجلا ، وأخذ يبحث الشاب الأشقر فى جيبه وأخرج منه ملعقة ودسها بين أسنان الرجل الممدود على الأرض .

وصاح مناديا على فنسنت : « أقبل هنا وأمسك برأسه » ..

ومر المريض بالصرع بنوبات متتالية من التشنجات ، كانت تزداد حدتها المرة تلو المرة وكانت عيناه تدوران فى تجاويفها ، وأزبد وأرغى فطفح رغاؤه على جانبى فمه .

وصاح فنسنت غاضبا : « لماذا تدس هذه الملعقة فى فمه ؟ .

— « حتى لا يعض لسانه » .

وبعد مضى نصف ساعة تقريبا انهار الرجل المرتجف فى إغماءة كاملة . فحمله فنسنت بمساعدة اثنين آخرين إلى فراشه . وكان هذا نهاية للحادثة ، ولم يذكرها أحد مرة أخرى .

وبانتهاء الأسبوعين الأولين من إقامة فنسنت بالمصحة شاهد جميع نوبات الجنون التى تعترى الأحد عشر مريضا كلا على حدة : فرأى المجنون الصائح الذى يمزق ملابسه ويخلعها بعيدا عن جسده ، ويحطم كل شىء يقع عليه بصره ، وشاهد الرجل الذى يعوى مثل الحيوانات ، وشاهد المريضين المصابين بالزهرى ، والمسن الذى يريد أن ينتحر ، والمشلولين الذين يعانون من شدة الغضب والسرور . والمريض بنوبة عصبية ، والمجنون بالأوعية الليمفاوية والذى يحن إلى القتل ، والشاب الأشقر الذى كان يتتبعه البوليس السرى .

ولم يمض يوم واحد دون أن ينتاب أحدهم نوبة جنون ، ولم يمض يوم واحد دون أن يذهب فنسنت ليهدئ من روع مجنون . فلقد أصبح مرضى الدرجة الثالثة أطباء ومرضى بعضهم البعض ، ولم يكن يزورهم بايرون

إلا مرة واحدة كل أسبوع ، ولم يكن يهتم الحراس إلا بمرضى الدرجة الأولى والثانية فقط . بينما كان يجلس مرضى الدرجة الثالثة متقاربين جداً، يساعد بعضهم بعضا فى ساعات الألم متجملين بصبر جميل لأن كلا منهم كان يعرف أن دوره سيأتى ثانية ، وفى وقت قريب ، وأنه سيحتاج إلى مساعدة أصدقائه وقوة احتمالهم .

لقد كانت أخوة فى الجنون .

وكان فنسنت مسروراً لمجيئه إلى هذا المكان ، لأنه بمشاهدته حقيقة حياة المجانين الحقيقيين ذهب عنه كابوس الخوف والذعر من الجنون . ورويدا أصبح يعتبر الجنون مثل أى مرض آخر . وبحلول الأسبوع الثالث وجد أن المجانين الذين معه لا يخيفون أكثر من مرضى السل أو السرطان .

وكان يجلس دائماً مع العبيط ويتبادل معه الحديث . وكان العبيط يجاوبه دائماً ، بأصوات غير متناسقة ، ولكن كان يشعر فنسنت أن ذلك الشخص يفهم ما يقول ، فشعر بالسرور لمقدرته على الكلام . ولم تكن الراهبات يتحدثن مع الرجال إلا إذا وجدن ذلك ضرورياً . وكان حظ فنسنت فى الحديث المعقول يقتصر على الدقائق الخمس التى كان يتبادل فيها الحديث مع الدكتور بايرون .

وقال للدكتور بايرون : «قل لى يادكتور ، لماذا لا يتحادث الرجال بعضهم مع بعض ؟ فيبدو على بعضهم الذكاء حينما تتحسن حالتهم .

— « إنهم لايستطيعون الكلام يافنسنت لأنهم فى اللحظة التى يبتدئون فيها الكلام يتناقشون فتثور ثائرتهم ، وتنتابهم النوبات ، ولهذا تعلموا أن الطريقة الوحيدة التى تمكنهم من الحياة هى أن يظلوا صامتين كلية »

— « ولكن هذا يعنى موتهم ، أليس كذلك ؟ »

فهز بايرون كتفيه وقال له : « إن هـذه ياعزيزى فنسنت مسألة رأى خاص . »

— « ولكن لماذا لايقرءون على الأقل . فأنا أعتقد أن الكتب .. »

— « إن القراءة يافنسنت تفتح أوعية عقولهم وأول شيء نعرفه بعد هذا هو إصابتهم بنوبات حادة . كلا « يا صديق » فيجب أن يعيشوا فى عالمهم المقفل ، ولسنا فى حاجة إلى الشعور بالأسف تجاههم . ألا تتذكر ما قاله درايدن ؟ .

« من المؤكد أن هناك لذة فى أن يكون الإنسان مجنوناً ولا يشعر بهذه اللذة إلا المجانين . »

ومر شهر على مجىء فنسنت ، ولم يفكر فنسنت مطلقاً فى أن يذهب إلى مكان آخر ، ولم يلحظ على الآخرين أية رغبة فى الخروج من ذلك المكان. فعلم أن هذه الحالة قد حدثت نتيجة لشعورهم بتحطيم حياتهم إذا واجهوا الحياة الخارجية .

وانتشرت فى العنبر الرائحة الكريهة المنبعثة من أجساد الرجال النخرة

وتمالك فنسنت نفسه وجمع شتات روحه بكل ما أوتى من قوة حتى ذلك اليوم الذى تعود فيه الرغبة والقوة للرسم . أما رفاقه المرضى فقد ترعرعت حياتهم فى الكسل وأصبحوا لا يفكرون إلا فى الوجبات الثلاثة التى يتناولونها يومياً . ورفض فنسنت أن يأكل من الطعام البايت أو الحامض حتى يعد نفسه لذلك اليوم . وكان يبتلع فقط بعض العيش الأسود والحساء ، كما أرسل إليه ثيو مجلداً بكتابات شكسبير، فقرأ «ريتشارد الثانى» «وهنرى الرابع» ، « وهنرى الخامس » فأرسل إشعاع عقله إلى أيام وأماكن أخرى .

وحارب بشجاعة حتى يمنع الحزن من أن يتجمع فى قلبه مثلما يتجمع الماء فى وسط مستنقع .

وكان ثيو قد تزوج فى ذلك الوقت ، وكان يرسل هو وزوجته جوهانا خطابات إلى فنسنت وكان ثيو يعانى من ضعف فى صحته، فانشغل فنسنت على صحة أخيه أكثر مما كان مشغولا بنفسه، فأرسل إلى جوهانا يستعطفها أن تقدم لأخيه طعاماً دائماً كيا بعد أن قضى عشر سنوات يتناول فيها طعامه فى المطاعم .

وكان فنسنت يعلم أن العمل يشتت عقله أفضل من أى شىء آخر ، وأنه لو استطاع أن يلقى بنفسه فى أحضانه بكل ما أوتى من قوة فسيكون ذلك العلاج لمرضه . فالمرضى الذين كانوا معه فى العنبر كانوا يعلمون أن لا شىء يمكنه أن ينقذهم من حياتهم إلا الموت العفن ، ولكنه مازال يعيش مع رسمه ليأخذه خارج المصحة رجلا معافى سعيدا .

وبانتهاء الأسبوع السادس خصص الدكتور بايرون حجرة صغيرة لفنسنت ليستعملها كأستوديو : وكانت تغطى جدرانها أوراق رمادية خضراء ، ومعلق بها ستارتان بلون البحر مرسوم عليهما ورود باهتة جداً. كما كانت الستائر يغطيها، هى وكرسى قديم ذو مسندين ، بعض المفارش ، الملونة بطريقة مونتشيلى، التى كان قد تركها أحد المرضى الأثرياء بعد وفاته .

وكانت تطل الحجرة على حقل قمح منحرف وأرض فضاء .

وكانت مثبتة فى الشباك قضبان حديدية سميكة .

فرسم فنسنت فى الحال المنظر الطبيعى الذى رآه من الشباك . فرسم فى الأرض الأمامية حقل قمح تحطمت سيقانه ومال على الأرض بعد هبوب عاصفة. ورسم حائطا يمثل حدا طبيعيا مبنيا على طوال إحدى المنحدرات ، وبعض التلال والأكواخ خلف بعض الشجيرات الخضراء وأشجار الزيتون ،

ثم رسم فى أعلى اللوحة سحابة عظيمة ذات شكل رمادى وأبيض غرقت فى وسط اللازوردى .

وعاد إلى العنبر فى موعد تناول العشاء وقد أفعم السرور قلبه . فلقد علم أن قدرته لم تهجره ، وها هو ذا يعود وجها لوجه مع الطبيعة ، لأن شعوره بالعمل قد أسره وأرغمه على الخلق .

والآن لم يكن باستطاعة مستشفى المجانين أن يقتله ، لأنه فى طريقه إلى الشفاء . وبعض مضى عدة أشهر سيكون خارجها بلاشك. وسيكون حراً فى الرجوع إلى باريس وإلى أصدقائه القدامى وتتفتح له الحياة مرة أخرى . فكتب رسالة طويلة ثائرة إلى ثيو ، يطلب فيها بعض الألوان والخيش والفرجون والكتب المثيرة .

وأشرقت شمس الغد بلون أصفر وحرارة شديدة واندفعت حشرات الحصاد مغنية بصوت أجش يبلغ عشرة أمثال صوت الصرصار . فحمل فنسنت حامله إلى الخارج ورسم أشجار الصنوبر والشجيرات والممرات. وجاء رفقاؤه الذين بالعنبر لينظروا عبر كتفه ، ولكنهم كانوا يقفون فى صمت كامل واحترام شديد .

وتمتم فنسنت لنفسه قائلا : « يتمتع هؤلاء الرجال بأخلاق أفضل من أحسن الناس فى آرلز » .

وفى مساء ذلك اليوم ذهب فنسنت لزيارة الدكتور بايرون وقال له : « أشعر بأنى فى كامل صحتى وأرجو أن تسمح لى بالخروج إلى الأماكن حتى أتمكن من الرسم . »

— « إنك تبدو بلاشك أفضل بكثير يافنسنت فلقد ساعدتك الحمامات والصمت كثيراً . ولكن ألا تعتقد أنه قد يكون من الخطر خروجك بهذه السرعة ؟ .

— « من الخطر ؟ ولماذا — لا . . كيف هذا ؟ . »

— « فلنفرض أنك . . . أصبت بنوبة . . . فى الحقول . ؟ »

فضحك فنسنت : « لن تصيبنى أية نوبات بعد الآن — يا دكتور لقد سئمت منها . وأنا الآن أشعر بتحسن أفضل مما كنت أشعر قبل إصابتى بها » .

— لا يافنسنت — فأنا خائف .

— « أرجوك يادكتور ، لأنى إذا استطعت الذهاب إلى أى مكان أرغب فيه وأرسم الأشياء التى أحبها — فأنا أشعر بالسعادة ، ألا ترى ذلك ؟ . »

— « حسنا ، إذا كان العمل هو ما تحتاج إليه . . . »

وعلى هذا فتح الباب أمام فنسنت . فحمل حامله على ظهره وذهب بحثاً عن صوره فقضى أياما بطولها بجوار المصحة . وابتدأت أشجار السرو التى تحيط بسانت ريمى تشغل أفكاره ، وأراد أن يصنع منها شيئا مثل لوحات عباد الشمس . وكم كانت دهشته حينما رأى أنه لم يستطع رسمها كما رآها . إذ إنه وجدها تضارع فى جمال حدودها ومقاييسها المسلات المصرية ، ذات النقط السوداء فى وسط أرضية غطاها ضوء الشمس .

وعادت إليه عادته القديمة التى تملكته فى أثناء الأيام التى قضاها فى آرلز . فكان كل صباح يخرج مع شروق الشمس محملا بلوحات بيضاء فارغة ويعود بها مع غروب الشمس وقد نقش الطبيعة عليها . ولو اعترت مقدرته وقدرته بعض الوهن ، لم يكن فى إمكانه إدراكها . ولكنه كان يشعر كل يوم أنه أصبح أكثر قوة ، وأكثر حساسية وأكثر وثوقا من نفسه .

والآن وقد أصبح سيد مصيره لم يعد يخاف من تناول طعامه فى مطعم المصحة . فكان يبتلع طعامه بشراهة ، ولو كان ذلك حساء صراصير ،

لأنه كان محتاجا للطعام من أجل إعطائه القوة على العمل . إنه لم يعد يخاف شيئاً الآن ، لأنه يمسك زمام نفسه تماما .

وبعد أن قضى ثلاثة أشهر فى المصحة وجد فى أشجار السرو مجالا فنيا حمله بعيداً عن متاعبه وعن جميع الآلام التى تحملها . فكانت الأشجار كثيفة والأرض الأمامية منخفضة تنمــــو بها بعض الأشجار الشائكة والغابات القصيرة ، أما وراء تلك الأشجار فكانت تمتد تلال من أشجار البنفسج ، أما السماء فكانت ذات لون أخضر وأحمر بها قمر فى طريقه إلى الزوال . فرسم مجموعة الأشجار الشائكة فى الأرض الأمامية بشكل كثيف جداً وبها لمسات من اللون الأصفر ، والبنفسجى والأخضر .

وحينما نظر إلى لوحته فى تلك الليلة علم أنه قد خرج من منجم تحت الأرض وأصبح يقف للمرة الثانية على أرض صلبة ، ووجهه فى مواجهة الشمس .

ورأى نفسه وسط فرحته التى لا تطـاق أنه قد عاد حرا كما كان .

وأرسل إليه ثيو مزيدا من النقود ، فاستطاع فنسنت أن يحصل على تصريح ويعود إلى آرلز ليستعيد صوره فقابله سكان ميدان لا مارتين بحفاوة بالغة ، ولـكن رؤيته للبيت الأصفر . أثقلته بالمرض لدرجة أنه اعتقد أنه سيغمى عليه . وبدلا من أن يزور رولان والدكتور رى ، طبقاً لخطته ذهب فى البحث عن صاحب المنزل الذى كان قد احتـكر لوحاته .

ولم يعد فنسنت إلى المصحة فى ذلك اليوم كما وعد . وفى صباح اليوم التالى وجدوه ملقيا على وجهه داخل حفرة فيما بين تاراسكون وسانت ريمى.

* * *

(٣)

وتجمعت سحب الحمى فوق عقله لمدة ثلاثة أسابيع ، وكان الرجال الذين كان يعطف عليهم بسبب معاودة النوبات لهم — كانوا صابرين جدا معه . وبعد أن شفى بدرجة مكنته من أن يدرك ما كان قد حدث له ، استمر يكرر لنفسه : « إن هذا شيء ممقوت ! إن هذا شيء مكروه ! » .

وبانتهاء الأسبوع الثالث حملت الراهبات مريضاً جديدا إلى العنبر بينما كان يتجول فى الحجرة الحاوية الشبيهة بالممر من أجل التمرين . وقد سمح هذا المريض للراهبات بقيادته إلى فراشه فى هدوء تام ، ولكن بعد أن تركته الراهبات اندفع فى نوبة من الغضب الشديد . ثم مزق جميع الملابس التى كانت على جسده إلى قطع صغيرة وهو يصيح بأعلى صوته طوال الوقت ، ثم قطع حاشيته بأظافره وحطم الصندوق ، المثبت فى الحائط ، وانتزع الستائر المعلقة ، وحطم الهيكل المعلقة فيه ، وأخذ يركل حقيبة سفره فجعلها كتلة لا شكل لها .

ولكن المرضى تعودوا على عدم لمس أى مريض جديد .

وأخيرا أقبل حارسان وجذبا المجنون خارج العنبر ثم حبسوه فى زنزانة بأسفل الممر . واستمر المجنون فى الصياح كالوحش لمدة أسبوعين متتاليين . وكان فنسنت يسمعه ليلا ونهارا . ولكن بعد ذلك توقفت تلك الصيحات نهائياً . ورأى فنسنت الحراس وهم يدفنون الرجل فى مقبرة صغيرة بالقرب من الدير .

واكتنف فنسنت نوبة خفيفة من الهبوط الروحى . وكلما عادت صحته إلى حالتها الطبيعية ، تمكن عقله من التفكير فى هدوء ، وبدا له من الحماقة أن يستمر فى الرسم الذى يكلفه الكثير دون أن يدر عليه شيئا .

ولكن مع هذا إن لم يعمل فلا يمكنه أن يعيش .

وقدم له الدكتور بايرون بعض اللحم والخمر من على مائدته الخاصة ولكنه منعه من الذهاب بالقرب من الاستوديو ، ولم يكن فنسنت يهتم بهذا ما دام فى دور النقاهة ولكن حينما عادت إليه صحته ووجد نفسه محكوما عليه بنفس الفراغ الممقوت الذى يعانى منه رفاقه ، ثارت ثائرته .

وقال للدكتور بايرون : « دكتور بايرون ، إن عملى ضرورى بالنسبة لى للاستشفاء . وإذا ما جعلتنى أمكث بلا عمل مثل هؤلاء المجانين سأصبح واحدا منهم » .

— « إننى أعرف ذلك يا فنسنت ، ولكن عملك الشاق هو الذى جلب لك هذه النوبات ، ويجب على أن أحفظك من تلك الإثارة » .

— « كلا يا دكتور ، إنه لم يكن العمل ، بل ذهابى إلى آرلز هو الذى سبب ذلك ، فبمجرد رؤيتى ميدان لامارتين والبيت الأصفر اعترانى المرض ، ولكن إن لم أذهب إلى ذلك المكان مرة أخرى ، فلن تنتابنى تلك النوبة مطلقا . فأرجو أن تسمح لى بالذهاب للاستوديو » .

— « إننى غير راغب فى تحمل مسئولية هذه المسألة ، فسأرسل خطابا لأخيك ، وإذا ما وافق على هذا فسأتركك تعمل ثانية » .

وكان الخطاب الذى حث فيه ثيو الدكتور بايرون على السماح لفنسنت بالرسم يحمل فى نفس الوقت أخبارا سارة ، إذ إن ثيو كان على وشك أن يكون والدا . فجعلت هذه الأخبار فنسنت سعيدا وقويا كما كان قبل أن تعتريه النوبة الأخيرة . فجلس على الفور وكتب لثيو خطابا جميلا .

— « هل تعرف ما آمل فيه يا ثيو ؟ هو أن تصبح العائلة بالنسبة لك مثلما أصبحت حصى الطبيعة والحشائش والقمح الأصفر والفلاحون بالنسبة لى .

فالطفل الذى تحمله جوهانا لك سيجعلك تلمس الحقيقة التى ما كان من الممكن أن تلمسها حتى ولو فى مدينة عظيمة . والآن أصبح من المؤكد أنك أنت نفسك منغمس فى الطبيعة منذ أن قلت إن جوهانا تشعر فعلا باقتراب مجىء طفلها .

وذهب للمرة الثانية إلى الأستوديو ليرسم المناظر عبر النافذة التى أقفلتها القضبان الحديدية ، فرسم حقل القمح وفيه بعض الأعواد الناضجة والشمس ضخمة.

وكانت اللوحة كلها صفراء ما عدا الحائط المقام على زاوية حادة ، والخلفية التى تتكون من التلال التى ينمو عليها زهر البنفسج .

ورضخ الدكتور بايرون لرغبة ثيو ، وسمح لفنسنت بالخروج من المصحة إلى الأراضى المجاورة من أجل العمل . فرسم أشجار السرو المنبثقة من الأرض ثم صب فيها لون الشمس الأصفر . كما رسم لوحات لبعض النساء وهن يجمعن الزيتون، وكانت الأرض ذات لون بنفسجى أما الأراضى البعيدة فكانت ترابا أصفر ، أما الأشجار فكانت جذوعها برونزية وأوراقها خضراء رمادية ، أما السماء والسيدات الثلاث فكن جميعاً بلون وردى غامق .

وكان يقف ويتحدث مع الرجال الذين يعملون فى الحقول وهو فى طريقه إلى عمله . وكان يعتبر نفسه فى داخليته أقل قدراً من هؤلاء الفلاحين .

وقال لأحدهم : « انظر ! إننى أحرث على لوحاتى مثلما تحرثون فى حقولكم » .

وعاد الخريف البروفنسى بدرجة مبهرة من الجمال . فأخرجت الأرض من جوفها كل بنفسجها ، وتوهجت الحشائش المحترقة بالقرب من الورود

الموجودة فى الحديقة ، وتناقضت السماء مع أطياف الأوراق الصفراء المختلفة .

وعادت مع الخريف الماضى قوة فنسنت الكاملة . فرأى أن عمله فى تحسن مستمر ، وعادت الأفكار الجديدة إلى الانبثاق ثانية داخل عقله ، فكان يشعر بالسعادة حينما يتركها تنمو وتترعرع بداخله . وابتدأ يشعر فى أعماقه بالقرية التى يعيش فيها لبقائه طويلا فيها . فكانت تختلف كلية فى طبيعتها عن آرلز . إذ إن التلال التى كانت تطل على الوادى كانت تصد معظم رياح الشمال .

كما أن الشمس كانت أقل توهجا بقدر كبير . والآن وبعد أن فهم القرية التى تلف سانت ريمى ، أصبح لا يرغب فى ترك المصحة . على الرغم من أنه فى الشهور الأولى من إقامته فيها كان يود من كل قلبه أن يمر عليه ذلك العام دون أن يتحطم عقله ، إلا أنه الآن بعد أن أصبح مشغولا بعمله أصبح لا يعرف ما إذا كان يقيم فى مستشفى أم فى فندق . وعلى الرغم من أنه شعر بأنه فى كامل صحته إلا أنه اعتقد أنه من الحماقة أن ينتقل إلى أى مكان آخر ليقضى فيه ستة أشهر أخرى ، ليتعرف خلالها على أرض غريبة لا يعرفها .

وكانت الخطابات التى تصل إليه من باريس ترفع من روحه المعنوية . إذ إن زوجة ثيو كانت تطهى له الطعام بالمنزل وتحسنت صحته بسرعة . كما أن جوهانا كانت تحمل الطفل دون أن تعانى أية صعوبة . وكان ثيو يرسل إلى فنسنت الطباق والسجاير والألوان ، والكتب وشيك بعشر أو عشرين فرنكا كل أسبوع .

وتلاشت ذكرى النوبة التى اعترته بعد رحلته إلى آرلز ، من عقله نهائيا . وأخذ يؤكد لنفسه المرة تلو المرة أنه لو أنه لم يعد مطلقا إلى تلك المدينة الملعونة لقضى ستة أشهر فى حالة صحية طبيعية . وحينما جفت دراساته

لبساتين السرو والزيتون غسلها بقليل من الماء والخمر لكى يزيل الزيت الموجود فى المعجون ، ثم أرسلها إلى ثيو . وإذا به يتسلم إعلان ثيو؛ بعرضه عددا من لوحاته فى معرض المستقلين وهو يشعر بخيبة أمل عظيمة لأنه كان يشعر بأنه لم يرسم بعد أفضل لوحاته ، وكان يود أن لا يعرض هذه اللوحات حتى يتقن فنه.

وأكدت له خطابات ثيو بعد ذلك أن عمله يسير بخطوات ملحوظة . وقرر أن يستأجر منزلا فى قرية سانت ريمى حينما يقضى العام المقرر له فى المصحة ، ليستكمل رسم لوحاته للأراضى الجنوبية . وشعر للمرة الثانية بالسرور البالغ الذى كان يشعر به فى أيامه الآرلزية قبل مجىء جوجوين إليها، حينما كان يرسم لوحات عباد الشمس .

وبعد ظهر أحد الأيام بينما كان يعمل فى هدوء بين الحقول جال عقله بين الأفكار . وفى تلك الليلة وجده حراس المصحة فى وقت متأخر ، على بعد عدة كيلو مترات من حامله وكان جسده ملفوفا حول جذع لشجرة سرو .

* * *

(٤)

وبانتهاء اليوم الخامس عادت حواسه إلى طبيعتها ، ولكن الشيء الذى آلمه بعمق هو أن رفاقه قد تقبلوا نبأ هذه النوبة على أنها شيء لامندوحة عنه.

وجاء الشتاء ، ولم يجد فنسنت أية رغبة فى ترك فراشه . وتوهجت نار الموقد الموضوع فى وسط العنبر وجلس الرجل حوله فى صمت عميق من الصباح حتى المساء .

وكانت نوافذ العنبر صغيرة جداً ومرتفعة ولاتدع فى الحجرة إلاضوءاً خافتاً . أما الموقدفقد أخذ يبعث حرارة وينشر معها رائحة التحلل والتحطيم. أما الراهبات فقد ابتعدن بغطاء رءوسهن الأسود وملابسهن البيضاء وانطلقن يتمتمن ببعض الصلوات وهن يتحسسن صلبانهن .
أما التلال القاحلة المنتشرة حول المصحة فقد ارتفعت مثل رءوس الموتى .

واستلقى فنسنت مستيقظاً فى فراشه الوثير . ماذا علمته لوحة موفينى التى رسمها شيفينتجن ؟ « علمته كيف يتألم دون أن يشكو ، وأن ينظر إلى الألم بدون امتعاض ... » نعم ، ولكن بتعلمه هذا خاطر بنفسه فى دوامة . لأنه إذا ما استسلم لهذا الألم وهذه الوحدة فإنهما سيقتلانه. لأنه يأتى فى حياة كل فرد لحظة يشعر فيها بأنه من الضرورى أن يلقى عن نفسه الآلام كما لو أنها رداء قذر .

ومرت الأيام ، وكان كل يوم يشبه اليوم الذى سبقه بالضبط . وكان عقله خالياً من جميع الأفكار والآلام .

وسمع الراهبات وهن يتناقشن فى أعماله ، ولكن فى حيرة من أمره. وإذا ما كان يرسم تلك اللوحات لأنه مجنـــون أم أنه مجنون لأنه يرسم .

وجلس العبيط بجوار فراشه وهو يثرثر معه ساعات عديدة . وشعر

فنسنت بدفء فى صداقة الرجل ، ولم يبعده عنه ودائماً ما كان يذهب إلى العبيط لأنه لم يكن هناك شخص آخر ليستمع إليه.

وذات يوم قال للعبيط بينما كانت راهبتان تمران بجواره.

— « يعتقدون أن عملى قد رمانى إلى الجنون ، إننى أعلم أنه من الحقيقة بمكان أن الفنان فى أعماقه رجل منغمس فيما تراه عيناه ، ولا يعتبر سيدا لباقى حياته . ولكن هل هذا يجعله غير صالح للحياة فى هذا العالم ؟ . » .

ولكن العبيط لم يفعل شيئاً سوى أن يغمغم .

ولكن ما أعطاه القوة أخيراً لترك فراشـــه كان سطرا من كتاب ديلا كروا إذ يقول ديلا كروا : « لقد اكتشفت الرسم ، حينما لم يعد عندى سنة واحدة ولا نفس » .

ولم تراوده الرغبة لأسابيع متوالية فى الخروج إلى الحديقة .

فكان يجلس فى العنبر بجوار الموقد ، يطلع على الكتب التى كان يرسلها إليه ثيو من باريس . وحتى حينما كان يصاب أحد رفاقه بنوبة كان لا ينظر إليه أو حتى يتحرك من كرسيه . لأن الجنون قد أصبح عين العقل ، والشاذ قد أصبح طبيعيا بالنسبة له فلأنه لم يجلس منذ زمن طويل مع أناس عقلاء أصبح لا ينظر إلى رفاقه فى المستشفى على أنهم مجانين .

فقال له الدكتور بايرون : « من دواعى الأسف — يا فنسنت — أننى لا أستطيع أن أسمح لك بمغادرة هذه المنطقة مرة ثانية فإنك يجب أن تبقى داخل الأسوار فى الأيام المقبلة » .

— « وهل ستسمح لى بممارسة عملى داخل الأستوديو ؟ » .

— « أنصحك ألا تفعل ذلك » .

— « هل تنصحنى يا دكتور بالانتحار ؟ » .

— « حسنا ، فلك أن تمارس عملك فى الأستوديو ولكن لساعات قليلة يوميا » .

وحتى رؤية فنسنت لحامل لوحاته وفرجونه لم يكن من السهل أن تقضى على خموله . فكان يجلس على مقعد من طراز مونتشيلى ويحملق خلال القضبان إلى حقول القمح الجدباء .

وبعد أيام قلائل دعى إلى عيادة الدكتور بايرون ليوقع باستلام خطاب مسجل ، وعند فتحه الخطاب وجد بداخله شيكا بمبلغ أربعمائة فرنك باسمه. وكان هذا أكبر مبلغ امتلكه فى وقت واحد من حياته. فتساءل بحق آلهة الأرض من الذى أرسل له هذا المبلغ .

عزيزى فنسنت . .

« وأخيراً ، بيعت إحدى لوحاتك مقابل أربعمائة فرنك ؟ وهى لوحة « خميلة العنب الحمراء » تلك اللوحة التى رسمتها فى آرلز فى الربيع الماضى . فقد اشترتها آنا بونج ، زميلة الرسامين الدانمركيين .

تهنئتى لك يا عزيزى ! وسرعان ما نبيع لوحاتك فى جميع أنحاء أوربا. استغل هذا المال فى المجىء إلى باريس إذا وافق الدكتور بايرون على ذلك .

ومنذ وقت قصير قابلت رجلا بشوشا يدعى الدكتور جاشيت ، وهو يملك منزلا فى أوثير الأواز وهى على مسيرة ساعة من باريس . ولقد اشتغل فى منزل هذا الدكتور أشهر الرسامين منذ عهد دوبيجنى ، ويدعى أنه على علم تام بحالتك ، وأنه على استعداد للاهتمام بشئونك فى أى وقت تأتى فيه إلى أوثير .

وسأكتب لك ثانية غدا » . ثيو .

وأطلع فنسنت الدكتور بايرون وزوجته على هذا الخطاب ، فقرآه قراءة يشوبها التفكير العميق ، ثم أمسك بالشيك بين أصابعه وهنأ فنسنت على ثروته الطيبة ، فنزل فنسنت إلى الممر وقد عادت الحياة المتينة إلى ذرات عقله الرخوة بنشاط محموم . وفى منتصف الحديقة أدرك أنه قد اخذ الشيك معه وترك الخطاب فى عيادة الدكتور ، فعاد إليه مسرعاً .

ولما هم بالطرق على الباب سمع اسمه يتردد فى الداخل فتردد لحظة دون أن يتمكن من أن يتخذ قرارا . وسمع مدام بايرون تسأل زوجها : « إذن، لماذا تعتقد أنه فعل هذا ؟ » .

— « ربما ظن أن هذا من مصلحة أخيه » .

— « ولكن ماذا لو أنه لم يستطع إمداده بالمال . . . ؟ »

— «أعتقد أنه ظن أن هذا العمل يستحق هذا الإنفاق ، حتى يعيد فنسنت إلى حالته الطبيعية . »

— إذن فأنت تعتقد أن عامل الصدفة ليس له دخل فى هذا ، لأن هذه هى الحقيقة » .

— « عزيزتى مارى ! وكيف يكون له أى دخل ؟ فمن المعتقد أن تلك المرأة أخت أحد الفنانين ، بحق أى شىء فى هذا الوجود يمكن لأى شخص عنده ذرة من إدراك . . . »

وبعد هذا غادر فنسنت المكان . وبينما كان يتناول طعام العشاء تسلم برقية من ثيو .

سمينا الطفل باسمك ، جوهانا ، وفنسنت فى حالة جيدة .

وكان بيع اللوحة وهذا الخبر المدهش الذى وصل من ثيو ، قد حول فنسنت إلى رجل فى كامل قواه العقلية . وذهب فى الصباح إلى الأستوديو ، ونظف فرجونه وفرز لوحاته ودراساته التى كانت تستند على الحائط .

— « إذا استطاع ديلا كروا أن يكتشف الرسم حينما لم يكن لديه أسنان ولا نفس ، فأنا أستطيع أن اكتشفه بعد أن فقدت أسنانى وعقلى » .

ثم ألقى بنفسه فى أحضان عمله فى ثورة صامتة ، فرسم « السحارتى الطيب » عن ديلا كروا و« باذر الحبوب » و «الحفار» عن ميليت . وصمم

أن يأخذ على عاتقه تعاسة حظه بفتور أهل الشمال . إنه كان يعرف منذ البداية أن حياة الفن هى التحطيم ، إذن لماذا يشكو فى هذه الأيام الأخيرة ؟ » .

وبعد مضى أسبوعين بالضبط من تسلمه الشيك الذى قيمته أربعمائة فرنك ، وصل إليه بالطريق الجوى عدد شهر يناير من مجلة « ميركورى دى فرانس » ، ولاحظ أن ثيو قد علم على مقالة فى الصفحة الأولى بعنوان « المنعزلون » .

وقرأ فيها : « إن ذلك الذى تتسم به جميع أعمال فنسنت فان جوخ هو تطرف القوة ، وعنف التعبير . فيكمن فى تقسيمه الموجب للطبيعة الأساسية للأشياء ، وفى تبسيطه الجرىء للأشياء ، وفى رغبته الطائشة فى النظر إلى الشمس وجهاً لوجه ، وفى عواطف رسوماته وألوانه ، يكمن إنسان ذو مقدرة ، صلب العود ، متهور متوحش فى بعض الأحيان ، ورقيق صريح فى بعضها الآخر .

إن فنسنت فان جوخ هو الارتقاء السامى لغرائز هولز . وتتعدى واقعيته حقيقة مواطنى هولاند العظام ، الذين يمتازون بقوة الجسم ، واتزان العقل والذين يعتبرون سلفا له . إن ما تمتاز به لوحاته هو دراسته الواعية للشخصية ، وبحثه المستمر عن جوهر كل شىء ، وحبه العميق للطبيعة والحقيقة الذى يشبه حب الأطفال لها .

وهل سيعرف هــذا الفنان الضليع الحقيقى ذو الروح المضيئة ، لذة رد الجمهور لاعتباره ثانية ؟ إننى لا أعتقد هـذا . إنه بسيط للغاية ولـكنه ثاقب النظر فى نفس الوقت بالنسبة لروحنا البرجوازية المعاصرة .

إنه لن يفهمه أحد كلية إلا من إخوته الفنانين .

ج . ألبير أورييه » .

ولم يطلع فنسنت الدكتور بايرون على هذه المقالة .

ولكن عادت إليه كل قوته وشهوته فى الحياة . فرسم صورة للعنبر الذى ينام فيه ، ورسم فيه مدير المبنى ، وزوجته ورسم صوراً طبق الأصل عن ميليت وديلاكروا ، فملأ لياليه وأيامه بعمل شاق مضن .

وعند ما عاد ببصره إلى تاريخ مرضه ، رأى بوضوح أن النوبات التى كانت تعتريه كانت دورية فى طبيعتها ، وتعاوده كل ثلاثة أشهر . وقال إن هذا جميل ، لأنه لو عرف موعدها بالضبط فسيمكنه أن يهتم بنفسه . فإذا ما حل موعد النوبة التالية ، يكف عن عمله ، ويذهب إلى فراشه ويعد نفسه لتوعك يستغرق فترة قصيرة . وبعد أيام قلائل يمكنه أن يقف ثانية على قدميه ، كما لو أنه لم يقاس من شىء أكثر من نوبة برد طفيفة .

والشىء الوحيد الذى يقلقه الآن فى المصحة هو الطبيعة الدينية البحتة التى تشمل المكان . فبدا له أنه بمجىء الشتاء الأسود تصاب الراهبات بنوبات هيستيرية . وفى بعض الأحيان ، حينما كان يراقبهن وهن تتمتمن بصلواتهن ، ويقبلن صلبانهن ، ويسبحن بمسبحاتهن ، ويسرن على أطراف أصابعهن إلى الكنيسة من أجل الصلاة والطقوس خمس أو سبع مرات يومياً ، شعر بصعوبة فى تقرير من هم المرضى فى مستشفى المجانين هذه ومن هن الممرضات .

فمنذ الأيام التى قضاها فى البوريناج أصبح يخشى جميع المبالغات الدينية حتى إنه كان يشعر فى بعض الأحيان أن عقله قد أصبح ضحية لشرود الراهبات .

ولكنه دفع بنفسه بعاطفة جياشة إلى عمله محاولا أن يمحو من عقله صورة الطنبوشة السوداء ، والكتاب الأسود اللذين تلبسهما الراهبات .

وقبل نهاية الشهر الثالث أراح نفسه مدة ثمانية وأربعين ساعة استلقى خلالها فى الفراش فى كامل صحته وقواه العقلية . وأسدل الستائر حول فراشه حتى لا تعكر عليه الراهبات سكون عقله حينما تنتابهن تهليلاتهن الدينية

وجاء اليوم الذى يجب أن تنتابه النوبة ، فانتظرها فتسنت بشغف بل وبعاطفة جياشة . ومرت الساعات متباطئة ولم يحدث له شيئاً . فدهش لذلك ، ولكنه شعر بخيبة أمل . ومر اليوم الثانى ، ولكنه مازال يشعر بأنه طبيعى جداً . وبعد أن أمضى اليوم الثالث دون أن يقع له شيئاً سخر من نفسه .

— « لقد كنت غبياً ، لقد انتابتنى آخر تلك النوبات ولقد كان الدكتور بايرون مخطئاً .

ومنذ الآن فصاعداً لا يجب على أن أخاف شيئاً . فقد فقدت وقتى هباء بنومى فى الفراش تلك الأيام الثلاثه بهذه الطريقة ، فى صباح الغد سأستيقظ من فراشى لأعمل . . » .

وفى سكون الليل ، بينما كان الجميع يغطون فى نوم عميق ، قام بهدوء من فراشه ، ثم سار عبر العنبر ذى الأرضية الحجرية بقدم حافية . ثم شق طريقه فى الظلام إلى الصومعة التى يخزن بها الفحم . وركع وجرف حفنة من تراب الفحم ، ثم لوث بها وجهه بأكمله . ثم قال :

— « انظرى يامدام دينيس ؟ إنهم يقبلوننى الآن .

إنهم يعلمون أننى واحد منهم . إنهم لم يكونوا يثقون بى من قبل ، أما الآن فقد أصبحت غولا أسود. وسيدعونى المعدنون أحمل إليهم كلمة الله . »

وبعد الفجر بقليل وجده الحراس فى ذلك المكان . وكان يتمتم بدعوات لا معنى لها ، ويكرر مقطوعات مقطعة من الإنجيل ، محاولا إجابة الأصوات التى كانت تصب قصصاً غريبة فى أذنه .

واستمر هذيانه الدينى عدة أيام ، وحينما عاد ثانية إلى وعيه طلب من إحدى الراهبات أن ترسل إليه الدكتور بايرون . وقال للدكتور :

« أعتقد أنه كان فى إمكانى أن أتحاشى هذه النوبة يا دكتور لو لم تكن هذه الهستريا الدينية التى أتعرض لها . » .

فهز الدكتور بايرون كتفيه ، واتكأ على السرير ، ثم جذب ستائر سرير فنسنت التي خلفه وقال له :

— « ماذا يمكنني فعله يا فنسنت ؟ إن الحالة تصبح هكذا كل شتاء ، فأنا لا أوافق على هذا ولكنني في نفس الوقت لا يمكنني التدخل. فالراهبات يؤدين عملهن على أكمل وجه على أي حال » .

فقال له فنسنت : « فليكن ما يكون ، ولكن من الصعب جداً أن يظل الإنسان عاقلا بين هؤلاء المجانين إن لم يتعرض للجنون الديني عوضاً عن الجنون العادي .

والآن قد قضيت الوقت المحدد لنوبتي .. » .

— « فنسنت — لا تخدع نفسك ، فهـــذه النوبة من الضروري أن تحدث ، لأن جهازك العصبي يثير نفسه حتى يصل إلى أزمة حادة كل ثلاثة شهور . فلو لم يكن هذيانك من نوع ديني لكان له طبيعة أخرى » .

— « لو اعترتني نوبة أخرى يا دكتور فسأطلب من أخي أن يخرجني من هذه المستشفى » .

— « كما تحب — يا فنسنت » .

وعاد فنسنت إلى عمله في الأستوديو في اليوم الأول من الربيع . ورسم المنظر من خارج نافذته ثانية ، وكان عبارة عن حقل محروث تركت به بقايا بعض الأعواد الصفراء . وقارن بين الأرض المحروثة المنقطة بألوان بنفسجية ذات الأشرطة المتكونة من الأعواد الصفراء وبين الظهيرة المتكون من التلال . وابتدأت أشجار اللوز في الازدهار ثانية ، وعادت السماء مرة أخرى لتتخذ اللون الليموني عند غروبها .

ولم يحمل تخليق الطبيعة الأبدى أية حياة جديدة إلى فنسنت . ولأول مرة بعد أن أصبح معتادا على مرافقيه ، يشعر بأن نوباتهم التى تعاودهم من وقت لآخر وكلامهم الفارغ يحطم أعصابه ويشق أحشاءه . كما أنه لم يجد أى مخرج يهرب منه من تلك المخلوقات الشبيهة بالفئران والتى تصلى وهى تلبس أردية سوداء وبيضاء . فمجرد رؤيتهم كانت تبعث رعشة لها إدراك معين فى جسد فنسنت .

فكتب إلى أخيه يقول له : « ثيو ، إننى لن يسعدنى أن أترك سانت ريمى ، لأنه مازال أمامى عمل طيب يجب أن أقوم به هنا ، ولكن لو انتابتنى نوبة أخرى ذات طبيعة دينية ، فستكون نتيجة لخطأ المصحة ، وليس لخطأ أعصابى ، ويكفى نوبتان أو ثلاثة من هذا النوع لقتلى .

فكن مستعداً لو انتابتنى نوبه دينية أخرى ، لسفرى إلى باريس فى اللحظة التى سيمكننى فيها أن أقوم من فراشى .

ربما سيكون من الأفضل لى أن أعود إلى الشمال ثانية . حيث يستطيع الإنسان أن يعتمد على قدر لا بأس به من العقل .

وماذا عن الدكتور جاشيت الذى تتحدث عنه ؟

هل سيهتم اهتماما شخصياً بحالتى ؟ .

فأجابه ثيو بأنه تحدث ثانية مع الدكتور جاشيت وأطلعه على بعض لوحات فنسنت فأظهر الدكتور شغفه بذهاب فنسنت إلى أوفير ليرسم منزله .

إنه متخصص — يافنسنت — ليس فقط فى الأمراض العصبية ولكن أيضا فى الرسامين . وإنى مؤمن بأنك لن تجد أفضل منه، فأى وقت ترغب المجىء فيه أرسل إلى تلغرافاً فأركب بأول قطار مسافر إلى سانت ريمى .

وانتشرت حرارة أول أيام الربيع ، وابتدأت حشرات زيز الحصاد فى الغناء ثانية . ورسم فنسنت رواق عنبر الدرجة الثالثة، والممرات والأشجار

التى بالحدائق ، وصورته كما رآها فى المرآة . وكان يشتغل وإحدى عينيه مركزة على لوحته بينما كانت الأخرى مركزة على التقويم .

وكان من المقرر أن تعتريه النوبة التالية فى مايو .

فسمع أصواتا تصيح فيه فى الممرات الخالية . وكان يجيب عليهم ، فكان يرتد إليه صـــدى صوته ، ووجدوه فى هذه المرة فاقدا وعيه فى الكنيسة . ولم يشف من هذا الهذيان الدينى الذى انبعث متلويا داخل عقله، قبل حلول منتصف مايو .

وصمم ثيو على الذهاب إلى سانت ريمى ليأخذه معه .

ولكن فنسنت اراد أن يقوم بالرحلة بمفرده ، بأن يساعده أحـد الحراس فى ركوب القطار فى تاراسكون .

عزيزى ثيو ..

إننى لست مشلولا ، كما أننى لست حيوانا شرساً .

فدعنى أبرهن لنفسى ولك أننى إنسان طبيعى ، فلو استطعت أن أنتزع نفسى من هذه المصحة بكل ما أوتيت من قوة ، لأشق حياة جديدة فى أوفير فربما يمكننى أن أهزم مرضى هذا .

إننى أعطى لنفسى فرصة أخرى ، بعيدا عن مصحة المجانين هذه ، إننى متأكد بأننى أستطيع أن أكون إنسانا عاقلا ثانية . وإننى أشعر من خلال ما كتبته لى أن أوفير ستكون مكانا جميلا وهادئا ، ولو استطعت أن أعيش بحذر تحت مراقبة الدكتور جاشيت ، فإننى مؤمن بأننى سأهزم مرضى .

سأرسل إليك ببرقية حينما يترك القطار محطة تاراسكون . وقابلنى فى محطة ليون . إننى أود أن أترك هذا المكان فى يوم السبت حتى يمكننى أن أقضى يوم الأحد بمنزلك معك ومع جوهانا والطفل الصغير .

* * *

الكتاب الثامن

أوفرس

(١)

ولم يذق ثيو للنوم طعما طوال هذه الليلة من فرط انفعاله وقبل الموعد المحتمل فيه وصول قطار فنسنت بساعتين انطلق إلى محطة ليون، أما جوهانا فقد اضطرت إلى البقاء فى البيت مع الطفل ووقفت تطل من شرفة شقتهما بالدور الرابع بسيتى بيجال وأخذت تختلس النظر من خلال أوراق الشجرة الضخمة السوداء والتى تحجب واجهة المنزل وترقب فى لهفة مدخل سيتى بيجال علها ترى عربة تدلف من شارع بيجال .

وكانت المسافة بين محطة ليون وبيت ثيو طويلة وخيل لجوهانا أنها قد انتظرت دهراً وبدأت تساورها المخاوف من أن يكون شىء قد حدث لفنسنت وهو يركب القطار ولكن أخيراً دلفت عربة من شارع بيجال وأطل منها وجهان مرحان أومآ لها بالتحية ولوحا لها بأيديهما فمدت رقبتها علها تلمح فنسنت .

ولم يكن لشارع سيتى بيجال إلا مدخل واحد وتسده فى النهاية حديقة وركن بارز لمنزل حجرى ولم يكن على كل جانب من هذا الشارع العامى إلا مبنيان مستطيلان .

وكان ثيو يقيم بالمنزل رقم ٨ وكان بيته أقرب إلى الطرف المسدود وتفصله عنه حديقة صغيرة وله طوار خاص وإن هى إلا ثوان معدودة حتى وقفت العربة أمام الشجرة الضخمة السوداء ومدخل البيت .

وصعد فنسنت درجات السلم وثيو فى اعقابه وكانت جوهانا تتوقع أن ترى فنى عليلا ولكن الرجل الذى لف ذراعيه حولها كان صحيحاً معافى متورد الوجه تعلو الابتسامة شفتيه وترتسم على وجهه آيات العزم والتصميم .

وكان أول خاطر طاف بذهنها « إنه يبدو فى أتم صحة بل إنه يبدو أقوى من ثيو » .

ولكنها لم تستطع أن تجبر نفسها على التطلع إلى أذنه ..

وصاح فنسنت وهو يمسك بيدى جوهانا ويتطلع إليها فى استحسان .

ـــ حسناً ياثيو لعمرى أنك اخترت لنفسك زوجة فاتنة ».

فضحك ثيو وقال :

ـــ شكراً يافنسنت ..

كان ثيو قد اختارها حسب الصفات المأثورة عن والدته فقد كان لجوهانا نفس عينى آنا كورنيليا العسليتين اللطيفتين ورقتها البالغة وعطفها الكامل وحنانها الزائد وكانت هى وطفلها الذى لايزيد عمره على بضع شهور حين تضفى جوا خفيفاً من الأمومه المقبلة وكانت لها تقاطيع صريحة تتسم بالطيبة ووجه بيضاوى ترتسم عليه آيات البلاهة وعلى رأسها كتلة من الشعر الأسمر مشطته فى بساطة وعقصته للخلف بعيداً عن جبهتها الهولندية العالية .وكان حبها لثيو يعنى حبها لفنسنت وجذب ثيو فنسنت إلى حجرة النوم حيث كان الطفل يرقد فى مهده وأخذ الرجلان يتطلعان إلى الطفل فى سكون وقد اغرورقت عيناهما بالدموع وأحست جوهانا أنهما يحبان أن يختليا لحظة فسارت على أطراف أصابعها إلى الباب وبينما همت بوضع يدها على الأكرة التفت لها فنسنت وقال لها وهو يبتسم ويشير إلى الغطاء الكورشيه فوق مهد الطفل :

ـــ لاتغطيه بالكثير يا أختى الصغيرة . .

وأغلقت جوهانا الباب خلفها فى هدوء وتطلع فنسنت مرة أخرى إلى الطفل وأحس بتلك الغصة وذلك الألم الفظيع الذى يعتصر قلب كل رجل عقيم لم ينجب ذرية ولا يجد من يذكره بعد موته ..

وكان ثيو كان يقرأ أفكاره فقال له :

— لا يزال أمامك متسع من الوقت يافنسنت ، وقد تعثر يوماً على زوجة تحبك وتشاطرك مصاعب الحياة ..

— آه كلا ياثيو . لقد فات الأوان ..

— لقد وجدت لك أمس فقط امرأة تصلح لك ..

— حقاً .. ومن هى ؟

— الفتاة فى قصة « الأرض العذراء » لتورجنيف .. أتذكرها ؟

— أتعنى تلك الفتاة التى كانت تعمل مع الفوضويين وتحمل الأوراق الخطيرة عبر الحدود ؟

— أجل .. إن زوجتك يافنسنت يجب أن تكون فتاة مثل هذه .. فتاة تكون قد بلت الحياة وذاقت بؤسها ومرارتها ..

— ... وماذا تبغى منى ؟ من رجل له أذن واحدة ؟ ..

واستيقظ فنسنت الصغير وتطلع إليهما وابتسم فرفع ثيو الطفل من مهده ووضعه بين ذراعى فنسنت .

وقال فنسنت وهو يتحسس جسد الطفل ويضمه إلى صدره :

— كم هو لطيف دافئ كجرو صغير ..

— تنبه أيها الأحمق ، فما هكذا يحمل الطفل ..

— أخشى أن أقول إنى لا أحسن فى البيت سوى مسك فرشاة الرسم ..

وأخذ ثيو الطفل وحمله وأسنده إلى كتفه وكانت جدائل الطفل السمراء تلمس رأسه وخيل لفنسنت أنهما تمثالان نحتا من حجر واحد .

فقال فى استسلام :

— حسنا يا بنى ثيو . . كل ميسر لما خلق له . . أنت تنجب فلذة كبد وأنا أبدع لوحات مصورة . .

— هكذا يا فنسنت .. هكذا ..

وفى هذه الليلة أقبل عدد من أصدقاء فنسنت ليرحبوا بعودته وكان أورييه أول من وصل وهو فتى وسيم تتدلى خصلات شعره وله لحية نبتت على جانبي ذقنه ولكنها تجردت من الشعر فى الوسط، وتقدمه فنسنت إلى حجرة النوم حيث كان ثيو قد علق باقة لمونتشيلى وقال له :

— فى مقال لك ياسيد أورييه قلت إنى المصور الوحيد الذى أدرك كنه ألوان الأشياء المعدنية النفيسة .. تأمل فى هذه اللوحة لمونتشيلى . . إن « فادا » أنجزها قبل أن أصل لباريس بسنوات .

وبعد ساعة تخلى فنسنت عن محاولة إغراء أورييه وقدم له عوضا عن ذلك إحدى اللوحات عن شجر السرو فى سان ريمى وذلك تقديراً لمقاله .

واندفع تولوز لوتريك وهو يلهث بعد أن صعد ست درجات ولكنه كان كعهده دائماً طروبا بذىء اللسان .

وصاح وهو يصافحه :

— فنسنت لقد مررت بلحاد وأنا أصعد الدرج فهل كان يبحث عنك أم عنى ؟.

— بل عنك ولا ريب يالوتريك! فلن يستطيع أن ينال منى شيئاً .

— سأعقد معك رهانا يافنسنت .. أراهنك أن اسمك سيكتب قبل اسمى فى كتابه الصغير .

— أراهنك . وما قيمة الرهان ؟

— العشاء فى مقهى اثينيز وسهرة فى الأوبرا .

فقال ثيو وهو يبتسم ابتسامة واهنة :

— ليتكم تقلون من المزاح عن القبور أيها الزملاء ..

ودلف من الباب الأمامى رجل غريب وتطلع إلى لوتريك ثم تهالك فى مقعد فى ركن قصى وانتظر الكل أن يقدمه لوتريك ولكنه استأنف كلامه فسأله فنسنت.

ألا تقدم لنا صديقك ؟.

فضحك لوتريك وقال :

— هذا ليس صديقى .. إنه حارسى ..

وران عليهم سكون أليم استمر لحظة ..

— ألم تسمع عن هذا يافنسنت ؟ لقد اختل عقلى شهرين .. وقالوا إن هذا يرجع إلى إدمانى على الكحول .. ولهذا فإنى الآن لا أشرب غير اللبن وسوف أرسل لك بطاقة دعوة لحضور حفلى القادم وأقدم لك صورة لى وأنا أحلب بقرة من الجهة غير الصحيحة..

ووزعت عليهم جوهانا المشروبات، وكان الكل يتحدثون فى الوقت نفسه، وأخذ الهواء يتشبع بدخان التبغ فأثار هذا ذكريات فنسنت عن الأيام الخالية فى باريس .

وسأل فنسنت لوتريك . .

— وكيف حال جورج سيرا ؟ .

— جورج ! أتريد أن تقول إنك لا تعلم ماحدث له .. ؟

فقال فنسنت :

— ماذا حدث ؟ إن ثيو لم يكتب لى أى شىء .

— جورج مريض بالسل ويقول الأطباء إنه لن يعيش بعد الحادية والثلاثين ..

— السل! كيف ؟ لقد كان جورج ممتلئا قوة وعافية فكيف يحق .. ؟

فقال ثيو :

— من الإجهاد فى العمل يافنسنت .. لقد انقضت سنتان منذ رأيته آخر مرة؟ كان جورج يجهد نفسه ويعمل كالشيطان وينام ساعتين أو

ثلاث ساعات فى اليوم ويجهد نفسه بقية اليوم فى العمل وحتى أمه الطيبة لم تستطع أن تنقذه ..

فقال فنسنت منكراً :

— إذن فجورج سيقضى وشيكا .

ودلف روسو وهو يحمل لفنسنت كيسا مليئا بالكعك المصنوع فى البيت ،وكان الأب تانجى يرتدى نفس القبعة المستديرة من القش وأهدى لفنسنت رسما يابانيا وكلاما معسولا عبر به عن فرحتهم به مرحبا بعودته إلى باريس ..

وفى الساعة العاشرة أصر فنسنت على الغزول لشراء رطل من الزيتون وأجبر كل واحد حتى حارس لوتريك على أكله .

وصاح قائلا :

— لو قدر لك مرة أن ترى أشجار الزيتون الفضية المورقة فى بروفنس لأكلت زيتونا طوال حياتك .

فقال لوتريك :

— بمناسبة الحديث عن أشجار الزيتون يافنسنت .. كيف وجدت نساء آرلز ؟ وفى صباح اليوم التالى حمل فنسنت عربة الطفل وأنزلها إلى الشارع لجوهانا عسى أن يستمتع الطفل بدفء الشمس ساعة على الطوار الخاص ثم عاد فنسنت إلى الشقة ووقف مشمرا عن أكمام قميصه وأخذ يتطلع إلى الجدران التى كانت تغطيها اللوحات .

ففى حجرة الطعام وفوق طنف الموقد لوحة «أكلة البطاطس» وفى غرفة المعيشة لوحة «منظر طبيعى فى آرلز» و «منظر ليلى على نهر الرون» ، وفى غرفة النوم لوحة «بساتين ناضرة»، ومما دفع اليأس فى قلب خادمة جوهانا وجود أكداس هائلة من اللوحات القماشية الخالية من الإطارات تحت الأسرة وتحت الأريكة وتحت الصوان فضلا عن أكداس غيرها فى الحجرة الإضافية .

وبينما كان فنسنت ينقب عن شيء فى مكتب ثيو عثر على حزم كبيرة من الرسائل مربوطة بخيط غليظ ودهش عندما وجد أنها رسائله إليه، لقد احتفظ ثيو بعناية بالغة بكل سطر دبجه له شقيقه منذ ذلك اليوم الذى غادر فيه فنسنت مدينة زندرت إلى جوبيل فى لاهاى منذ عشرين عاما. وكانت تبلغ زهاء سبعمائة رسالة وعجب فنسنت لماذا أبقى عليها ثيو .

وفى مكان آخر من المكتب عثر على الرسوم التى كان يرسلها إلى ثيو خلال السنوات العشر الماضية ، وكانت كلها مرتبة بعناية وفق أوقات إرسالها : منها رسم عمال المنجم وزوجاتهم من عهد البوريناج وهم ينحنون فوق « ما استخرجوه من باطن الأرض» وهاهم هؤلاء الفلاحون يحرثون ويبذرون الحقول قرب «إتن» رجال مسنون ونساء بلغن من الكبر عتيامن لاهاى وحفارون فى « الجيت » وصيادو السمك فى « شفنينجن » وهاهم هؤلاء أكلة البطاطس ونساجون من « نوينن » وهذه مطاعم ومناظر من شوارع باريس، وهذه رسوم تمهيدية لأزهار عباد الشمس وبساتين فى آرلز، وهذه حديقة مصحة فى سان ريمى .

وصاح قائلا :

— سأقيم معرضاً للوحاتى !

وانتزع من الجدران كل اللوحات وألقى بأكداس الرسوم التمهيدية جانباً وجذب كل اللوحات القماشية الخالية من الإطارات من تحت كل قطعة من الأثاث وفرزها فى عناية ورتبها وفق أوقات رسمها ثم انتقى منها الرسوم التمهيدية واللوحات الزيتية التى تنم عن المكان الذى كان يعمل به . .

وفى مدخل البيت فى بهو المنزل ثبت نحو ثلاثين رسماً من دراساته عن البورانيين وهم يخرجون من المناجم وينحنون على أفرانهم البيضاوية الشكل ويتناولون عشاءهم فى أكواخهم الصغيرة .

وقال لنفسه :

— هذه حجرة الفحم :

ثم تطلع فاحصاً باقى المنزل واستقر رأيه على أن الحمام هو البقعة التالية فى الأهمية فوقف على مقعد ودق على الجدران الأربعة ليعلق صفاً من دراساته فى إتن فى خط مستقيم ودراساته عن فلاحات البرابانت ..

— وهذه ولا ريب حجرة قلم النجار !

ووقع اختياره بعد ذلك على المطبخ فوضع فيه رسومه التمهيدية عن لاهاى وشفينجن، ومنظرا من نافذته على الفناء الخشبي، والكثبان الرملية، وسفن صيد وهى تسحب إلى الشاطئ وقال :

— الحجرة رقم ثلاثة غرفة الألوان المائية !

ووضع فى الحجرة الإضافية لوحات لأصدقائه دى جروتز وأكلة البطاطس وكانت أول لوحة زيتية له عبر فيها تماما عن ذات نفسه وثبت حولها من كل الجهات عشرات من دراساته عن النساجين فى نوينين والفلاحات فى الصباح وفناء المقبرة خلف كنيسة أبيه وبرجها المستدق الرشيق .

وعلق فى حجرة نومه اللوحات الزيتية التى رسمها فى باريس ، تلك التى كان قد وضعها على جدران بيت ثيو فى شارع ليبيك ليلة رحيله إلى آرلز ..

وملأ حجرة المعيشة بكل لوحة صارخة الألوان رسمها فى آرلز وأمكنه أن يثبتها على الجدران ، ووضع فى غرفة نوم ثيو اللوحات التى أبدعها فى أثناء إقامته فى المصحة فى سان ريمى ..

وعندما انتهى من مهمته قام بتنظيم أرض الحجرة وارتدى قبعته ومعطفه وهبط درجات الطوابق الأربعة ودفع عربة سميه فى شمس شارع سيتى بيجال الساطعة، بينما أمسكت جوهانا بذراعه وأخذت تحدثه بالهولندية. وأقبل ثيو وهو يخطو من شارع بيجال بعد الساعة الثانية عشرة بقليل ولوح

لهما محيياً فى مرح ثم هرول ، وانتزع الطفـل من عربته فى حركة تنعلق بالحب وتركوا العربة مع حارس الباب وصعدوا الدرج وهم يتحدثون فى نشاط وعندما وصلوا إلى الباب بالشارع أوقفهم فنسنت وقال :

— سآخذك أنت ياثيو وجوهانا إلى معرض فان جوخ ولذا أعدا نفسيكما لخوض التجربة . .

فسأله ثيو :

— معرض يافنسنت ! أين ؟

— فقال فنسنت :

— أغمضا عيونكما . .

ودفع الباب ليفتحه ودلف آل فان جوخ الثلاثة إلى البيت وحملق ثيو وجوهانا فى ذهول . .

وقال فنسنت :

— عندما كنت أعيش فى إتن قال والدى: إن الخير لا يمكن أن يكون حصاد الشر ، فأجبته قائلا : إنه يمكن وليس هذا فحسب ، بل إنه ما ينبغى أن يحدث فى الفن . وإذا تفضلتما معى أيها الأخ وأيتها الأخت العزيزة فسأريكما قصة رجل بدأ حياته ساذجاً كطفل غر ، وبعد عشر سنوات من الجهد المتصل توصل إلى . . . ولكنكما ولا ريب ستحكمان بنفسيكما . .

وقادهما من غرفة إلى غرفة وفق تسلسل الزمن التاريخى بالضبط ووقفوا يتفرجون كما لو كانوا ثلاثة من زوار إحدى قاعات الفن: وأخذوا يتطلعون إلى هذا العمل الذى يحكى قصة حياة رجل، وأحسوا بالفنان وهو يكبر فى بطء أليم ثم رأوه وهو يضرب على غير هـدى فى طريق نضجه الفنى للتعبير، وشهدوا فورة اضطرابه التى عرضت له فى باريس وصورة انفعاله الشديد وصوته القوى فى آرلز الذى انطلق مدويا بعد أن اجتاز الطريق الوعر إثر

سنوات من العمل الشاق . . . ثم تحطم كل شيء . . لوحاته فى سان ريمى، وما لاقاه من نصب شديد فى الاحتفاظ بقمة إبداعه ثم الانحدار ببطء . . والانحدار . . ثم الانحدار .. ثم الانحدار . . وتطلعوا إلى المعروضات كما يتطلع إليها الغرباء من العارضين ورأوا أمامهم فى نصف ساعة قصيرة قصة مجملة لحياة رجل على الأرض. وقدمت جوهانا غداء تقليدياً من باريانت وكان فنسنت سعيدا لتذوقه طعاما هولنديا مرة أخرى . وبعد أن رفعت ، الصحاف أشعل الرجلان غليونيهما وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث . .

ينبغى أن تراعى يافنسنت عمل كل ما أوصاك به الدكتور جاشيت .

— أجل ياثيو .. سأفعل هذا ..

— لأنه كما تعلم إخصائى فى الأمراض العصبية، وإذا نفذت تعليماته فسوف تشفى ولا ريب .

— أعدك بهذا ..

— وجاشيت رسام أيضا وهو يعرض أعماله كل عام مع « المصورين المستقلين » باسم ب — فان ريصيل ..

— وهل لوحاته جيدة ياثيو ؟ .

— ينبغى ألا أقول هذا .. ولكنه أحد هؤلاء الرجال الذين أوتوا الموهبة للتعرف على العبقرية ، وقد جاء إلى باريس وعمره عشرون عاما لدراسة الطب وأصبح صديقاً لسكوريبه ومورجيه وشانفليرى وبرودون . واعتاد أن يتردد على مقهى لا نوفيل اثينز وسرعان ما أصبح صديقاً حميما لمانيه ورينوار وديجا ودورانت وكاود مونيه وقد قام دوبينى ودوميئيه بالتصوير فى بيته قبل أن يعرف هذا الشيء باسم الانطباعية بسنوات ..

— حقا ..

— كل ما عنده تقريبا صور، إما فى حديقته وإما فى غرفة معيشته وقد ذهب لسيسارو وجيزمان وسيسلى وديلاكروا جميعا ليعملوا مع جاشيت فى

أو فرس ، وسوف تجد على الجدران أيضا لوحات لسيزان ولوتريك وسيرا، وأقول لك يا فنسنت إنه ليس ثمة مصور مشهور منذ منتصف هذا القرن لم يكن صديقا لدكتور جاشيت.

— أوه ! صبرا ياثيو . . لحظة فأنت تروعنى . . أين مكانى بين هذه الصحبة الذائعة الصيت، وهل رأى شيئا من أعمالى؟.

— يالك من غبى . . إذن، فلم تظن أنه يتوق لمجيئك إلى أوفرس ؟ .

— وأنى لى أن أعرف . . ؟

— لقد رأى أن مناظر ليالى آرلز التى عرضت لك فى آخر معرض للمصورين المستقلين أحسن اللوحات المعروضة كلها، وأقسم لك أننى عندما عرضت عليه لوحات زهور عباد الشمس التى صورتها لجوجان، والمنزل الأصفر اغرورقت عيناه بالدموع ، واستدار إلى وقال « إن أخاك فنان عظيم يا سيد فان جوخ فلم يسبق لى أن رأيت من قبل شيئا يماثل صفرة زهور عباد الشمس هذه فى تاريخ الفن وهذه اللوحات وحدها ياسيدى ستخلد ذكر أخيك » .

لك فنسنت رأسه وعبس ثم قال :

— حسن . . إذا كان هذا هو شعور الدكتور جاشيت نحو لوحتى من أزهار عباد الشمس فإننا سنكون على وفاق .

* * *

(٢)

وكان الدكتور فى المحطة فى انتظار ثيو وفنسنت ، وكان رجلا صغير الجسم عصبيا ثائرا . وله عينان حزينتان ، وقد صافح فنسنت بحرارة وقال :

— أجل . . أجل . . ستجد أن هذه القرية قرية نموذجية للصور وسوف تحبها ولا ريب . أرى أنك قد أتيت معك بحامل لوحاتك . . ألديك كفايتك من الألوان ؟ ينبغى أن تبدأ العمل فورا . . سوف تتناول معى طعام الغداء فى منزلى بعد ظهر اليوم أليس كذلك؟ هل أحضرت معك بعض لوحاتك الجديدة ؟ أخشى ألا تجد بغيتك من أصفر آرلز هنا . . ولكن ثمة أشياء أخرى . يجب أن تأتى لتصور فى منزلى، وسوف أعطيك بعض الزهريات والمناضد التى صورها كل مصور من دوبينى إلى لوتريك . . كيف حالت ؟ إنك تبدو فى صحة جيدة . . هل تعتقد أنك ستحب الإقامة هنا ؟ نعم . . نعم . . ستجد منا كل رعاية . . وسوف نخلق منك رجلا صحيحا معافى !.

وأطل فنسنت من فوق رصيف المحطة على رقعة حافلة بالأشجار يجرى فيها نهر الواز بحوضه الأخضر خلال الوادى الخصيب ، وجرى قليلا إلى أحد الجانبين ليرى المنظر بوضوح، بينما أخذ ثيو يتحدث مع الدكتور جاشيت فى صوت خافت وقال :

— أرجوك أن تولى أخى عنايتك وإذا شاهدت عليه أية أعراض تنم عن أزمة مقبلة فأرجو أن تبرق لى فى الحال إذ ينبغى أن أكون معه عندما . . ويجب ألا يسمح له بـ . . . . فثمة من يقول إن . . .

فقاطعه الدكتور جاشيت قائلا وهو ينقل قدما ويضع أخرى ويفرك بشدة لحيته الصغيرة بإبهامه . .

— صه ! صه ! إنه مجنون ولا ريب . . ولكن ما مصيرك أنت ؟ كل الفنانين مجانين . . وهذا خير ما يتصفون به . . وإنى لأحبهم كلهم على هذا النحو . . بل أتمنى أحيانا أن أكون مجنونا ! فلا تكاد روح طيبة تخلو من مزيج من الجنون !

أتعرف من قال هذا ؟ قاله أرسطو . . .

— أعلم هذا يادكتور ولكنه لا يزال شابا ولم يتعد السابعة والثلاثين ولم يستمتع بعد بأحسن سنى عمره . .

فاختطف الدكتور جاشيت قبعته الغريبة البيضاء ومر بأصابع يده فى ثنايا شعره عدة مرات دون سبب واضح ثم قال :

— دعه لى فإنى أعرف كيف أعالج المصورين . . سأخلق منه رجلا صالحا فى غضون شهر . .

وسوف أجعله يبدأ العمل وهذا كفيل بشفائه . .

وسوف أحمله على رسم صورتى الشخصية فورا عصر اليوم ، وسوف أشفى عقله تماما مما به من مرض . .

وعاد فنسنت وهو يجذب أنفاسا من هواء الريف النقى وقال :

— ينبغى أن تأتى بجو والصغير إلى هنا ياثيو . . إنه لمن الجرم تربية الأطفال فى المدينة . . .

فصاح جاشيت . .

— نعم . . نعم . . ينبغى أن تأتى يوم الأحد وتقضى طوال اليوم معنا . .

— أشكرك . . لعمرى إنى أحب هذا كثيرا . . ها هو قطارى . . إلى اللقاء يادكتور جاشيت وشكراً لعنايتك بأخى . . أرجو أن تكتب لى كل يوم يافنسنت . .

وكان الدكتور جاشيت معتادا مسك الناس من المرفق ودفعهم فى الاتجاه الذى يريد منهم أن يذهبوا نحوه وقد دفع فنسنت إلى الأمام واستمر يتدفق فى حديث عصبى بصوت عال وكان يخلط فى كلامه ويجيب عن أسئلته التى يلقيها ويغرق فنسنت فى مونولوج واللعاب يتناثر من فمه فقال :

- هذا هو الطريق المؤدى إلى القرية . . هذا الطريق الطويل . رأسا إلى الأمام ولكن تعال معى فسوف آخذك إلى أعلى التل وأتيح لك رؤية منظر حقيقى . ألا تهتم بالسير وعلى ظهرك حامل الصور؟ هذه هى الكنيسة الكاثوليكية على اليمين . هل لاحظت أن الكاثوليك يبنون دائما كنائسهم على تل حتى يتطلع إليهم الناس؟ عجبا لابد أننى تقدمت فى السن فهذه الدرجة تبدو أشد وعورة كل عام . هذه حقول قمح جميلة . . أليست كذلك ؟ وإنها تحيط بأوفرس وينبغى أن تأتى وتصور يوما هذا الحقل ولا ريب أنه ليس فى صفرة القمح فى روفنس .

نعم هذه هى المقبرة إلى اليمين وقد أقمناها هنا على قمة التل لنطل على النهر والوادى . أتظن أن الموتى يهتمون بالمكان الذى يرقدون فيه ؟

لقد أتحنا لهم أجمل بقعة فى كل وادى الواز . هل لنا أن ندخل ؟

لسوف تتاح لك فرصة رؤية منظر النهر بوضوح تام وأنت بالداخل وسوف يكون فى وسعنا أن نرى حتى بوانتواز . . نعم ، إن الباب مفتوح وما عليك إلا أن تدفعه . . حسن . . والآن أليس هذا سارا ؟ لقد بنينا الجدران عالية لنتقى الريح ونحن ندفن هنا الكاثوليك والبروتستانت على السواء . .

وترك فنسنت حامل الصور ينزلق من على ظهره وسار قليلا إلى الأمام بعيدا عن دكتور جاشيت ليهرب من سيل الكلمات المتدفق من فمه . وكانت المقبرة التى أقيمت على قمة التل نفسه مربعة الشكل تماما وأقيم جزء منها على المنحدر .. وانطلق فنسنت إلى الحائط الخلفى حيث يستطيع أن يرى وادى الواز بأجمعه وهو ينساب خلفه . وكان النهر الأخضر البارد يشق طريقه برشاقة بين شطئان الخضرة الناضرة . ورأى إلى يمينه الأسقف المصنوعة من جريد النخل لمنازل القرية ، وخلفها على بعد قصير منحدر آخر أقيمت على قمته قلعة ،وكانت شمس مايو الساطعة تغمر المقبرة،وزهور الربيع الباكرة تملأ أرجاءها وكانت السماء فوقها زرقاء صافية .. وكان الهدوء الجميل السائد هو ذلك الهدوء الذى ينبعث من القبر .

وقال فنسنت :

— لعلك تعلم يادكتور جاشيت أن سفرى للجنوب قد أفادنى والآن فانى أرى أن الشمال أحسن . . تأمل ذلك اللون البنفسجى عند شاطىء النهر البعيد حيث لم تؤثر الشمس فى اللون الأخضر .

— نعم .. نعم .. بنفسجى ، لعمرى إن الأمر كذلك ، بنفسه ..

وغمغم فنسنت قائلا :

— كم هى صحية وكم هى هادئة تريح الأعصاب .

وعرجا مرة أخرى أسفل التل عبر حقول القمح والكنيسة واتخذا الطريق الذى ينساب على يمينهما رأسا إلى قلب القرية ..

وقال الدكتور جاشيت:

— يؤسفنى ألا أستطيع استضافتك فى بيتى وهذا مما يؤسف له !

فليس عندنا متسع لإقامتك ولهذا فإنى سآخذك إلى فندق لا بأس به وسوف تأتى كل يوم لترسم فى منزلى ويمكنك أن تعتبر نفسك فى منزلك .

وأمسك الدكتور بذراع فنسنت ودفعه خلف بيت العمدة أسفل شاطىء النهر تقريبا حيث أقيم فندق صيفى .. وتحدث جاشيت مع صاحبه فوافق على إعطاء حجرة لإقامة فنسنت مع الطعام مقابل ستة فرنكات يوميا وصاح جاشيت :

ـ سأتركك برهة لتستريح ولكن إياك ألا تحضر فى الساعة الواحدة لتناول طعام الغـــداء، وهات معك حامل الصور فينبغى أن ترسم صورتى الشخصية واسمح لى أن أرى بعض لوحاتك الجديدة ولا ريب أن حديثنا سيكون ممتعا أليس كذلك ..؟

وحالما اختفى الطبيب من ناظريه جمع فنسنت حاجياته وسار فى اختيال إلى باب الخروج فقال له صاحب الفندق :

ـ صبرا لحظة .. إلى أين أنت ذاهب ؟

فأجابه فنسنت :

ـ أنا عامل ولست رأسماليا ولا طاقة لى بدفع ستة فرنكات فى اليوم.

وعاد إلى الميدان، وعثر على مشرب صغير يقع تماما أمام بيت العمدة اسمه رافوس، واستطاع الحصول على حجرة به لمبيته لقاء ثلاث فرنكات وخمسين سنتا فى اليوم تشمل نفقات الطعام .

وكان مشرب رافوس ملتقى الفلاحين والعمال الذين يشتغلون فى الجهات المحيطة بأوفرس ووجد فنسنت بارا صغيرا على يمينه وهو داخل، وعلى طول الطريق المؤدى إلى الجانب المظلم من الحجرة المتهالكة وضعت موائد ومقاعد خشبية خشنة. وخلف المشرب وراء البار كانت ثمة منضدة للبليارد ومغطاة بقطعة قذرة ممزقة من الجوخ الأخضر وكانت موضع فخار ونبع سرور صاحب رافوس . وفى الخلف باب يؤدى إلى المطبخ الخلفى وخارج هذا الباب تماما درج يؤدى إلى ثلاث حجرات للنوم وكان فنسنت يستطيع من

نافذته أن يرى برج الكنيسة الكاثوليكية وجزءاً صغيراً رشيقاً من جدار المقبرة لونه يبدو بنياً صافياً وسط ضوء شمس أوفرس اللطيفة .

وتناول حامل صوره وألوانه وفراجينه وصورة شخصية لفتاة من آرلز وانطلق باحثا عن جاشيت وكان الطريق نفسه الذى يبدأ من المحطة ويؤدى إلى مشرب رافوس يتسلل خارج الميدان نحو الغرب ويصعد درجة أخرى ، وبعد أن سار فنسنت قليلا وصل إلى بقعة يتشعب منها ثلاثة طرق . ورأى أن الطريق الذى يقع على اليمين يؤدى إلى التل عبر القصر وأن الطريق الذى يقع على اليسار يخترق حقول البازلاء ويؤدى إلى شاطىء النهر . وكان الدكتور جاشيت قد أخبره أن يتخذ الطريق الأوسط الذى يسير حول محيط التل . وسار فنسنت ببطء وهو يفكر فى الطبيب الذى عهد إليه برعايته ولاحظ كيف استبدل بالمنازل القديمة ذات الأسقف المصنوعة من جريد النخل فيلات فخمة وأن طبيعة ذلك الجانب من الريف قد تبدلت برمتها . وجذب فنسنت أكرة نحاسية مثبتة فى جدار عال من الحجر وأقبل جاشيت مهرولا إثر سماعه دقة الجرس وتقدم فنسنت صاعدا ثلاث طبقات من الدرجات الحجرية إلى أن أوصله لحديقة حافلة بالأزهار فى السطح ، وكان المنزل متينا قوى البناء ومكونا من ثلاث طوابق . وثنى الطبيب ذراع فنسنت وأمسكه من مرفقه ودفعه إلى الفناء الخلفى حيث كان يربى بعض البط والدجاج والديكة الرومية والطواويس وحاشية من القطط غير المتجانسة .

وقال جاشيت بعد أن روى له التاريخ الكامل لحياة كل طائر فى الساحة

- هيا بنا يافنسنت إلى غرفة المعيشة .

ـ وكانت غرفة المعيشة تقع فى مقدمة المنزل وهى حجرة واسعة لها سقف مرتفع ولكن لم يكن فيها إلا نافذتان صغيرتان تطلان على الحديقة ورغم اتساع الحجرة فقد كانت مكتظة تماما بقطع الأثاث والقطع الأثرية

والتحف الصغيرة وكان الرجلان يجدان صعوبة بالغة فى الحركة حول المائدة التى تتوسطها وكانت الحجرة مظلمة بسبب ضيق النوافذ ولاحظ فنسنت أن كل قطعةفيها سوداء . وهرع جاشيت ليلتقط الأشياء ويدفعها فى يدى فنسنت ثم يأخذها منه قبل أن تتاح لفنسنت فرصة التطلع إليها وقال . .

— انظر . . أترى هذه الباقة التى على الحائط ؟ لقد استخدم ديلا كروا هذه الزهرية لحفظ هذه الأزهار . . تحسسها . . ألا تحس بأنها تشبه تلك التى صورها ؟ هل ترى هذا الكرسى ؟ لقد جلس عليه كوربيه بجوار النافذة عندما صور الحديقة أليست هذه أطباقاً بديعة ؟ لقد أحضرها لى ديولان من اليابان وقد قام كلود مونيه برسم هذا الطبق فى لوحة عن الطبيعةالصامتة إنها فى أعلى البيت تعال معى فسوف أريها لك . وعلى مائدة العشاء قابل فنسنت بول بن جاشيت وهو صبى رشيق وسيم فى الخامسة عشرة من عمره وقدم جاشيت — وكان رجلا عليلا سيىء الهضم — خمسة أصناف من الطعام فى العشاء . وكان فنسنت قد تعود على تناول العدس والخبز الأسود فى سان ريمى . . فأحس بالضيق بعدتناول الطبق الثالث ولم يستطع أن يصيب شيئا آخر من الطعام . .

وصاح الطبيب قائلا :

— والآن ينبغى أن نشرع فى العمل . . سوف ترسم لى صورةشخصية يافنسنت وسوف أجلس فى مكانى هذا فهل اتفقنا ؟

— أخشى أن أقول إنه يجب أن تزداد معرفتى بك يادكتور وإلا فإنها لن تكون صورة شخصية معبرة . .

— قد تكون مصيبا فى هذا . . قد تكون مصيبا . . ولكنك سترسم شيئا ولا ريب ؟ وسوف تسمح لى برؤياك وأنت تعمل ؟ فإنى تواق لمشاهدتك . .

— لقد رأيت منظراً فى الحديقة أود أن أصوره ..

— حسنا ! حسنا ! سأقيم لك حامل صورك .. بول هيا ارفع حامل صور السيد فنسنت إلى الحديقة . . وسوف ترينا أين تريد أن نضعه . . وسأخبرك عما إذا كان قد وقع اختيار أى مصور آخر على هذه البقعة ذاتها . .

وبينما كان فنسنت يعمل كان الطبيب يحوم حوله فى دوائر ويومئ له بإشارات تدل على السرور والحيرة والدهشة وصب على أذنى فنسنت سيلا متدفقا من النصائح ترصعها صيحات إعجاب حادة وقال :

— نعم .. نعم .. لقد أصبحت هذه المرة .. إنها بحيرة قرمزية . . انتبه وإلا أفسدت هذه الشجرة . . آه نعم .. نعم .. لقد أصبحت الآن . . لا . . لا داعى للمزيد من الكوبالت فلست فى بروفنس .. والآن دعنى أرى . . أجل ، أجل إنها رائعة .. مهلا . . مهلا يا فنسنت . . ضع قليلا من اللون الأصفر فى هذه الزهرة . أجل . . أجل هكذا تماما . . ولكن خبرنى كيف تجعل الأشياء تنبض بالحياة . لعمرى إن فرشاتك لا ترسم أبدا طبيعة صامتة . . لا . . لا أرجوك .. رويدك ليس بهذا القدر . . آه أجل .. أجل . .

الآن رضيت نفسا . . حقا إنها رائعة ..

وتحمل فنسنت ما استطاع حديث الطبيب وحركاته ثم التفت إلى جاشيت الراقص وقال له :

ـــ ألا ترى يا صديقى العزيز أن إفراطك فى الحركة وانفعالك البالغ إلى هذا الحد مما يضر بصحتك ؟ لقد كان ينبغى أن تعرف بصفتك طبيبا مدى أهمية الاحتفاظ بالهدوء .

ولكن جاشيت لم يكن فى وسعه أن يظل هادئا وهو يرى أحدا يصور . . وعندما انتهى فنسنت من رسمه التمهيدى دخل البيت مع جاشيت وعرض عليه

صورة الفتاة الآرلزية التى أحضرها معه ، فنظر إليها الطبيب بطرف عينه فى سخرية وبعد جدل طويل استخدم فيه لسانه الذرب وبعد موازنة بين محاسنها وعيوبها قال :

— كلا لا أستطيع أن أتقبلها .. ليس فى وسعى أن أرضى عنها ولست أدرى ماذا تحاول أن تعبر عنه ..

فأجاب فنسنت :

— إنى لم أحاول التعبير عن أى شىء فهى ليست إلا وحيا من فتيات آرلز إذا راق لك هذا التعبير وقد حاولت أن أعبر عن صفاتها بلغة الألوان ..

فقال الطبيب وهو يئن :

— مما يؤسف له أنى لا أستطيع الرضا عنها .

— أتسمح لى بأن ألقى نظرة على مجموعتك التى تقتنيها فى البيت ؟

— طبعا .. طبعا . تفضل وتفرج كما تشاء . أما أنا فسوف أبقى هنا فى فى رفقة هذه السيدة وأرى إذا كان فى وسعى الرضا عنها .

وأخذ فنسنت يجوس ساعة فى أنحاء الدار وكان بول الخادم يتقدمه من غرفة لأخرى ووجد لوحة لجيومان ملقاة فى إهمال فى أحد الأركان وكانت لامرأة عارية تمددت على الفراش وكان من الواضح أن اللوحة قد أهملت حتى أصابها التشقق .. وبينما كان فنسنت يتفحصها أقبل الدكتور جاشيت مهرولا وقد بدت عليه أمارات الانفعال وصب فى أذنيه وابلا من الأسئلة حول لوحة فتاة آرلز ..

وسأله فنسنت :

— أتريد أن تقول إنك كنت تتطلع إليها طوال هذا الوقت ؟

— أجل . أجل لقد بدأت أستسيغها وأحس بها ..

أرجو أن تغفر لى وقاحتى يادكتور جاشيت ولكن هذه لوحة رائعة لجيومان وإذا لم تبادر بوضعها فى إطار فإنها ستتلف لا محالة . .

ولكن جاشيت لم يعره أذانا صاغية وقال :

— تقول إنك تنهج منهج جوجان فى الرسم . . إنى لا أقبل هذا . . هذا التنافر بين الألوان . . إنه يقتل الأنوثة . . لا ، إنه لا يقتلها فحسب بل . . حسنا . . حسنا سأذهب لألقى عليها نظرة أخرى فقد بدأت أستسيغها ولكن ببطء . . ببطء . لقد بدأت تبرز لى من اللوحة . .

وأمضى جاشيت بقية عصر اليوم وهو يحوم حول صورة الفتاة الأرلزية ويشير إليها ويلوح بذراعيه . . ويتحدث مع نفســـه ويجيب على أسئلة لا حصر لها ويتخذ آلاف الأوضاع وما إن أرخى الليل سدوله حتى أخذت صورة المرأة بمجامع قلبه وران عليه صمت بهيج . .

وقال وهو يقف أمام الصورة مستسلما فى إعياء :

— ما أشق البساطة . .

— أجل . .

— إنها لجميلة حقاً . . ولعمرى ما أحسست قط من قبل بمثل هذا الإحساس العميق بأصالة هذه اللوحة . .

فقال فنسنت :

— إنها لك يا دكتور إذا كانت تروقك وإنى أهديك أيضاً اللوحة التى رسمتها عصر اليوم فى الحديقة . .

— ولكن لم تهبنى كل هذه اللوحات يا فنسنت ؟ إنها ثمينة . .

— قد تضطر قريباً إلى العناية بى ولن يتوفر لى من المال ما أوفى به دينى لك ولهذا فإنى أعطيك هذه اللوحات مقابل أتعابك . .

— ولكنى يافنسنت لا أرعاك من أجل المال ولا افعل هذا إلا بدافع صداقتنا .

— ليكن ! إذن فإنى أهديك هذه اللوحات عربوناً للصداقة . .

* **

(٣)

واستقر رأى فنسنت على أن يمارس التصوير مرة أخرى. وفى الساعة التاسعة ذهب لينام بعد أن ظل يرقب العمال وهم يلعبون البليارد فى مقهى « رافوس » فى ضوء مصباح باهت الضوء واستيقظ فى الساعة الخامسة وكان الطقس جميلا والشمس ترسل أشعتها الحانية على خضرة الوادى اليانعة . وكانت فترات مرضه وتعطله الإجبارى فى سان بول قد تركت أثرها فى بدنه فانزلقت من يده فرشاة الرسم .

وطلب من ثيو أن يبعث إليه برسوم « بارج » التى خطها بالفحم على سبيل الدراسة ليقوم بنسخها لأنه كان يخشى ألا يحسن الرسم إذا لم يدرس مرة أخرى النسب ورسم الأجساد العارية وجاس خلال « أوفرس » بحثاً عن بيت صغير يستقر فيه بصفة دائمة وتساءل عما إذا كان ثيو على حق فى اعتقاده أن هناك امرأة فى مكان ما من العالم تقبل أن تكون شريكة حياته . وبسط أمامه بعض اللوحات التى رسمها فى سان ريمى وهو جد متلهف على تحسينها ببعض اللمسات الأخيرة . بيد أن نشاطه المفاجىء لم يكن إلا عارضاً مؤقتاً وانعكاساً لطاقة عظيمة من العسير أن تتبدد . .

وضاق ذرعا بعزلته الطويلة فى المصح وخيل إليه أن الأيام قد استطالت إلى أسابيع وكان يشعر بالضياع فلم يعرف كيف يشغل أوقات فراغه لأنه لم يقو على الرسم طول الوقت بل لم تساوره فيه الرغبة وقبل الحادث الذى وقع له فى آرلز كان اليوم يمر مر السحاب ولا يكاد يكفى للفراغ من عمله أما الآن فإنه يبدو له مملا لا نهاية له .

ولم تغره بالرسم إلا مناظر قليلة من الطبيعة . . وعندما بدأ العمل خامره إحساس غريب بالهدوء وعدم الاكتراث وذهبت عنه عاطفته المشبوبة للرسم والتى كانت تجرى كل لحظة فى دمائه الحارة . وغدا يرسم

الآن رسوماً تمهيدية كالتى كان يرسمها لمجرد تمضية أوقات الفراغ ولم يكن يبدو عليه أى اهتمام إذا لم يستطع أن ينتهى من لوحه قبل حلول المساء . .

وظل الدكتور جاشيت صديقه الوحيد فى أوفرس وكان جاشيت قد أمضى معظم أيامه فى مكتب استشاراته بباريس .

وكثيراً ما كان يتردد على مقهى رافوس ليلا ليتطلع إلى اللوحات وكان فنسنت كثيراً ما يعجب لتلك النظرة الحزينة التى تبــدو فى عينى الطبيب وسأله :

— لم تشعر بالتعاسة يادكتور جاشيت ؟

— آه يا فنسنت . . لقد اشتغلت سنوات طويلة ولم أفعل من الخير إلا القليل فالطبيب لا يرى سوى الألم ولا شىء غير الألم .

فقال فنسنت :

— لكم يسعدنى أن أستبدل بأوجاعى آلامك . .

فأشرقت عينا جاشيت بلهفة عارمة وقال :

— أواه . . كلا يا فنسنت إن التصوير أجمل ما فى الوجود وطالما تمنيت أن أكون فناناً ولكن أنى لى هذا وأنا لا أستطيع أن أجد إلا ساعة من الفراغ هنا وهناك إذ إن عندى الكثير من المرضى فى حاجة إلى، وركع الدكتور جاشيت وجذب كوما من اللوحات من تحت فراش فنسنت وأمسك بلوحة متألقة لزهرة صفراء من عباد الشمس ورفعها أمام عينيه ثم قال :

— لو استطعت أن أصور لوحة كهــذه يا فنسنت لتغيرت نظرتى وطابت لى الحيــاة . لقد أمضيت سنوات وأنا أداوى الناس وأخفف آلامهم ولكنهم كانوا يموتون فى النهاية فاذا بهم ؟ وهذه الزهرات من

عباد الشمس فيها شفاء للناس من آلام قلوبهم وإسعاد لهم ... لمئات السنين .. ولهذا أنت ناجح فى حياتك ولهذا يجب أن تكون سعيداً ..

وبعد مضى بضعة أيام رسم فنسنت صورة شخصية للدكتور وهو يرتدى قلنسوة بيضاء وسترة زرقاء على أرضية كوبالت زرقاء .

ورسم الرأس بلون خفيف وفاتح جداً واليدين بلون البشرة الفاتح وجعل جاشيت يتخذ وضعاً ينحنى فيه على منضدة حمراء عليها كتاب أصفر ونبات أصبع العذراء وأزهار أرجوانية اللون وعندما انتهى من اللوحة طرب إذ رأى أن الصورة تشبه صورته التى رسمها لنفسه فى آرلز قبل وصول جوجان .

وكان إعجاب الطبيب بالصورة بالغا حدالتعصب ولم يسمع فنسنت من قبل مثل هذا السيل من الثناء والإطراء وأصر جاشيت على أن يرسم فنسنت نسخة له ولما وافق فنسنت تجاوزت فرحة الطبيب كل الحدود وصاح قائلا :

ـــ ينبغى أن تستخدم آلة الطباعة الموجودة فى غرفتى العليا يا فنسنت فسوف نذهب إلى باريس ومعنا كل لوحاتك ونطبع منها صوراً على الحجر ولن يكلفك هذا سنتيما واحداً .. تعال معى وسوف أريك ورشتى ...

وكان عليهما أن يصعدا سلماً خشبيا ويدفعا باباً مسحوراً ليدلفا إلى الغرفة العليا وكان باستديو جاشيت أكوام عالية من الأدوات الغريبة والآلات التى لا تخطر على بال وظن فنسنت أنه فى معمل كيمائى فى العصور الوسطى .

ولاحظ فنسنت وهو يهبط الدرج أن لوحة جيومان للفتاة العارية ما زالت ملقاة فى إهمال فقال :

ـــ أرانى مضطراً يا دكتور جاشيت إلى الإلحاح عليك بأن تضع هذه فى إطار .. إنك تتلف تحفة رائعة ..

— نعم . . نعم إنى أعتزم وضعها فى إطار . . متى نستطيع أن نذهب إلى باريس ونحصل على لوحاتك ؟ ستطبع بالحجر ما تريد من اللوحات وسوف أمدك بالمواد اللازمة . وانصرم شهر مايو فى هدوء وأقبل شهر يونية ورسم فنسنت لوحة للكنيسة الكاثوليكية على التل . . وكان يجهد نفسه فى منتصف العصر ولم يكن يهتم بالفراغ منها ونجح بفضل مثابرته العظيمة فى تصوير حقل للقمح وهو يرقد على الأرض ورأسه غارق تقريباً فى القمح كما رسم لوحة كبيرة لمنزل مدام دوبينى ولوحة أخرى لبيت أبيض وسط الأشجار وسماء سوداء ينبعث من نوافذه ضوء برتقالى اللون وسط خضرة داكنة ورقعة ذات لون وردى قاتم وأخيراً صور تأثير حلول الليل على شجرتى كمثرى فبدتا سوداوين تحت سماء صفراء .

ولكنه لم يعد يستسيغ طعما للرسم وكان يصور بحكم العادة لأنه لم يكن هناك ما يفعله سوى ذلك، وكانت قوة الاندفاع الرهيبة التى اكتسبها خلال عشر سنوات من العمل الجسيم ما زالت تدفعه قليلا وبينما كانت المناظر الطبيعية تحرك جوانحه وتثير انفعاله من قبل فإنها لم تعد تقابل منه إلا بعدم الاكتراث . .

ولعله كان يغمغم قائلا لنفسه وهو يذرع الطرقات وعلى ظهره حامل الصور متطلعاً إلى شىء يحفزه على الرسم :

لقد رسمت هذا مرارا . . ولم أعد أرى فيه شيئاً جديدا يمكن أن أضيفه فلم أكرر نفسى ؟ لقد كان الأب « ميلر » على حق عندما قال « إنى أفضل الا أقول شيئاً ولا أعبر عما يجيش فى نفسى تعبيرا ضعيفا . .

ولم يخمد حبه للطبيعة ولكنه لم يعد يحس بالحاجة الماسة إلى أن يلقى بنفسه بين أحضان منظر ويبدع له صورة . كان قد احترق . ولم يرسم خلال شهر يونية بأكمله إلا خمس لوحات . كان متعبا ، ومنهوك القوى

وشعر بالفراغ وأحس بأنه قد استنزف كل ما عنـــده كما لو كانت مئات الرسوم ومئات اللوحات التى تدفقت فيها عبقريته فى السنوات العشر الماضية قد انتزعت منه كل ذرة صغيرة من حياته .

وأخيراً استمر فى العمل لأنه أحس بأنه مدين لثيو بما أنفقه عليه فى سنوات الاستثمار . ومع ذلك فإنه عندما كان يدرك وهو يصور أن بيت ثيو قد ازدحم بلوحات لا يمكن أن تباع ولو عاش عشرة أضعاف عمره ، كان يصاب بغثيان خفيف ويدفع حامل لوحاته فى اشمئزاز .

وكان يعلم أنه سيصاب بنوبة أخرى فى يوليو عندما تنتهى فترة الشهور الثلاث وكان يتملكه القلق خوفا من أن يقدم على فعل جنونى تحت تأثير النوبة فينبذ فى القرية ولم يعمل مع ثيو أية ترتيبات مالية نهائية عندما غادر باريس وكان القلق ينتهبه ولا يعرف مبالغ ما سوف يتسلمه من مال . وكان الأسى والنشوة اللذان يبدوان فى نظرات دكتور جاشيت تثيران غثيان فنسنت يوماً بعد يوم.

ومما زاد الطين بلة مرض طفل ثيو ..

وكاد القلق الذى استبد بفنسنت على سميه أن يؤدى به للجنون .

وقد تحمل هذا ما استطاع ثم لم يطق صبرا فأخذ القطار المسافر إلى باريس وكان وصوله المفاجىء إلى سيتى بيجال سبباً فى زيادة ارتباكه فقد كان ثيو يبدو معتلا شاحب الوجه وبذل فنسنت كل ما فى وسعه لمواساته وأخيرا قال له :

— إنى لست قلقا فقط على الصغير يا فنسنت . .

— إذن ماذا يقلقك يا ثيو ؟

— فالودون .. لقد هددنى بأنه سيطلب منى الاستقالة . .

— كيف هذا يا ثيو ؟ إنه لا يستطيع ، لقد اشتغلت مع آل جوبيل ستةعشر عاماً !

— اعرف هذا ولكنه يقول بأنى قد أهملت التجارة المنظمة لصالح الانطباعيين وأنى لا أبيع من لوحاتهم كثيرا .. وإذا اتفق أن بعت بعضا منها فإن أسعارها تكون منخفضة ويدعى فالودون بأن محلى كان لا يحقق ربحاً فى خلال السنة الماضية .

— ولكن هل يستطيع حقاً أن يفصلك ..؟

— ولم لا ؟ إنه لا يهمه مصلحة آل فانجوخ ..

— ولكن ماذا عساك أن تفعل ياثيو ؟ هل ستفتح لك محلا ؟

— وكيف أستطيع ؟ إنى لم أدخر إلا مبلغاً ضـــئيلا وقد أنفقته على زواجى وعلى الطفل :

— ليتك لم تنفق على هذه الآلاف من الفرنكات .

— أرجوك يا فنسنت فهذا لا علاقة له بوقفى وأنت تعلم أنى ...

— ولكن ماذا عساك أن تفعل يا ثيو ؟ هناك جو والطفل الصغير ..

— أجل .. حسنا. لست أدرى . إن مايقلقنى الآن هو مصير الطفل.
وظل فنسنت فى باريس بضعة أيام وكان يبقى خارج الشقة كلما أمكنه حتى لا يزعج الطفل وكانت باريس تثيره وأصدقاءه وكان يحس بحمى بطيئة تزحف على جسمه وعندما استرد فنسنت الصغير صحته بعض الشىء أخذ القطار وعاد إلى قرية أوفرس الهادئة ..

ولكن الهدوء لم يفده شيئا وكان القلق ينتهبه ويعذبه .. فماذا سيحدث له إذا فقد ثيو عمله ؟ هل سيجد نفسه ملقى على قارعة الطريق يتسول كأى شحاذ حقير ؟ ولهذا السبب ماذاسيحدث لجو والطفل .. وماذا سيحدث إذا

مات الطفل ؟ كان يعلم أن ثيو بصحته الضعيفة لن يتحمل الصدمة . ومن يا ترى سيعولهم كلهم بينما يبحث عن عمل جديد ؟ ومن أين تواتى ثيو القوة اللازمة لهذا البحث ؟

وجلس فى الظلام فى مقهى رافوس بضع ساعات وكانت تذكره بمقهى لا مارتين بما يفوح فيها من روائح البيرة المعتقة ودخان التبغ اللاذع — وأخذ يضرب عصا البليارد فى غير ما هدى محاولا أن يصيب الكرات غير الملونة . ولم يكن يملك مالا يبتاع به شرابا أو يشترى به ألوانا ولوحات . ولم يكن فى وسعه أن يطلب من ثيو أى شىء فى مثل هذه اللحظة الحرجة وكان يخشى أن يقدم على فعل جنونى عندما تفاجئه النوبة فى يوليو ويفعل شيئا يكون سببا فى زيادة قلق ثيو المسكين ورفع نفقاته .

وحاول أن يعمل ولكن عبثا . . كان قد رسم كل ما يريد أن يصوره وقال كل ما يريد أن يقوله ولم تعد الطبيعة تحرك فيه أية عاطفة خلاقة وكان يعلم أن خير ما فيه قد مات .

ومرت الأيام وأقبل منتصف شهر يوليو وأقبل معه الحر ورغم أن ثيو كان مهددا بأن يطيح به فالودون وكان يحس بقلق بالغ على مصير طفله وروشتات الطبيب فإنه استطاع أن يقتصد خمسين فرنكا أرسلها إلى أخيه لحولها إلى رافوس وكان هذا كفيلا بأن يكفيه مئونة العيش حتى نهاية شهر يوليو ولكن ماذا بعد هذا ؟

إنه لن يتوقع أن يصله من ثيو أى مبلغ آخر من المال .

ورقد على ظهره تحت أشعة الشمس المحرقة فى حقول القمح بجانب المقبرة الصغيرة ثم قام يسير على طول شواطىء نهر الواز وهو يستنشق عبير الماء البارد وأوراق الأشجار التى تقع على شاطئيه ثم ذهب إلى بيت جاشيت

لتناول طعام الغذاء وحشا معدته بطعام لم يستطع أن يستسيغ طعمه أو يهضمه
وبينما كان الطبيب يتحدث فى هذر عن لوحات فنسنت وقد تملكه الانفعال
كان فنسنت يقول لنفسه — إنه لا يتحدث عنى أنا فهذه لا يمكن أن تكون
لوحاتى . أنا لم أرسم أبدا أى شىء بل إنى لا أستطيع أن أتعرف على توقيعى
على أى لوحة ولا أستطيع أن أتذكر أنى وضعت فرشاة واحدة على أية
واحدة منها . لا بد أن رجلا غيرى قد رسمها .

وبينما هو راقد فى ظلام غرفته كان يقول لنفسه :

لكن لنفرض أن ثيو لم يفقد عمله ولنفرض أنه مايزال قادراً على أن
يرسل إلى مائة وخمسين فرنكا كل شهر فما عسانى أن أصنع بحياتى؟ لقد تمسكت
بالحياة طوال هذه السنوات التسعة لأنه كان على أن أصور ولأنه كان على
أن أقول أشياء تلهب مشاعرى ولكن لم يعد هناك اليوم ما يلهب مشاعرى
ولست إلا صدفة فهل كتب على أن أعيش كهذه الأرواح الهائمة المسكينة
فى سان رول وأترقب وقوع حادث يمحونى من الوجود؟

وفى أوقات أخرى كان يتملكه القلق على مصير ثيو وجوهانا والطفل .
وقال :

لنفرض أنى استعدت قواى وروحى المعنوية وعادت لى رغبتى فى
التصوير فكيف أستطيع أن آخذ من ثيو مالا فى الوقت الذى يحتاج فيه إلى
كل فرنك لينفقه على جو والطفل الصغير؟ إنه ينبغى ألا ينفق على هذا المال
بل يجب أن يستخدمه فى إرسال أسرته إلى الريف حيث يستطيعان أن ينعما
بالصحة والعافية . ولقد تحملنى عشر سنوات طوال . أفلا يكفى هذا ؟ ألا
يحسن بى أن أخرج من حياتهما وأهيىء فرصة لفنسنت الصغير؟ لقد تمتعت
بحياتى وآن لهذا الطفل أن يعيش .

ولكن كان يكمن فى أعماقه خوف طاغ مما قد يفعله به الصراع فى النهاية

إنه الآن يتمتع بالصحة والعقل ويستطيع أن يصنع بحياته ما شاء ، ولكن لنفرض أن النوبة التالية ستحوله إلى مجنون هائج . ولنفرض أن عقله سيتحطم تحت ضغط النوبة . لنفرض أنه أصبح معتوها متبلد العقل عاجزا فماذا عسى أن يصنع ثيو المسكين ؟ هل سيودعه مصحة للمجانين ؟

وأهدى للدكتور جاشيت لوحتين أخريين وطلب منـــه أن يقول له رأيه

فقال الطبيب :

— كلا يا فنسنت .. لقد تخلصت من النوبات وسوف تجد نفسك متمتعاً بكامل الصحة من الآن فصاعدا. ولكن ليس كل من يصابون بالصرع لهم مثل حظك .

— ماذا يحدث لهم فى النهاية يا دكتور ؟

— أحياناً عندما تتكرر النوبات يفقدون عقولهم كلية .

— ولكن أليس هناك احتمال لشفائهم ؟

— كلا . . لا أمل فيهم .. أوه . قد يمتد بهم الأجل فى مصحة ولكنهم لن يعودوا مطلقاً إلى كامل قواهم العقلية .

— وكيف يستطيعون يا دكتور أن يعلموا إذا كانوا سيشفون بعد النوبة التالية أو إذا كانوا سيفقدون عقولهم ؟

— ما من وسيلة للعلم يا فنسنت ولكن لماذا نناقش الإجابة عن هذه الأسئلة السقيمة ؟ هيا بنا إلى الورشة لنقوم ببعض عمليات الحفر .

ولكن فنسنت لم يغادر حجرته فى رافوس خلال الأيام الأربعة التالية وكانت مدام رافو تحضر له عشاءه ، كل ليلة.

وظل يكرر ويعيد القول لنفسه ..

إننى الآن فى صحة وعافية وأنا سيد نفسى ومصيرى ولكن إذا ما أصبت بالنوبة التالية وحطمت جمجمتى فلن أعرف كيف أقتل نفسى وأكون قد ضعت — أواه يا ثيو ماذا عساى أن أصنع يا ثيو ؟

وفى عصر اليوم الرابع ذهب إلى الدكتور جاشيت وكان الطبيب جالساً فى غرفة المعيشة وسار فنسنت إلى الصوان حيث كان الطبيب قد وضع منذ مدة لوحة السيدة العارية لجيومان والتقط اللوحة وقال :

— لقد أبلغتك أن تضع هذه فى إطار .

فتطلع إليه الطبيب فى دهشة وقال :

— أعلم هذا يا فنسنت وفى الأسبوع القادم سأطلب من النجار فى أوفرس أن يصنع لى إطارا من الخشب .

— لم هذا يا فنسنت ؟ إن هذا هذر !

فنظر فنسنت إلى الطبيب نظرة ملتهبة دامت لحظة وتقدم نحوه خطوة للأمام مهددا ثم وضع يده فى جيب سترته وظن الدكتور جاشيت أن فنسنت يمسك بمسدس ويصوبه إليه من جيب سترته فصاح قائلا :

— فنسنت !

فارتجف فنسنت وخفض بصره وجذب يده من جيبه ثم أسرع هاربا من المنزل ..

وفى اليوم التالى أخذ حامل الصور ولوحة وسار جنوباً فى الطريق الطويل المؤدى إلى المحطة وصعد التل مارا بالكنيسة الكاثوليكية وجلس فى حقل القمح الأصفر المقابل للمقبرة .

وحوالى الظهر عندما كانت الشمس ترسل شواظا من نار على رأسه اندفع سرب من الطيور السوداء وهى تحلق فى السماء وملأت الفضاء وحجبت

الشمس وتركت فنسنت يسبح فى غلالة كثيفة من ظلام يفوق ظلمة الليل وطارت فى شعره وعينيه وأنفه وفمه ودفنته فى سحابة كثيفة من الأجنحة القوية التى ترفرف بشدة ، واستمر فنسنت فى عمله وصور الطيور فوق حقل القمح الأصفر ولم يعرف كم ساعة استمر وهو يدير فرشاته ولكنه عندما رأى أنه قد انتهى من الرسم كتب فى ركن «غربان فوق حقل قمح» ورفع حامل صوره ولوحته وعاد إلى حانة رافوس وألقى بنفسه على الفراش ثم استغرق فى النوم .

وبعد ظهر اليوم التالى انطلق خارجا مرة أخرى ولكنه ترك ميدان دى لاميرى من الجانب الآخر وصعد التل مارا بالقصر ورآه فلاح يجلس فوق شجرة وسمع فنسنت وهو يقول :

— مستحيل .. مستحيل ..

وبعد برهة نزل من على الشجرة وسار فى الحقل الذى تم حرثه خلف القصر وفى هذه المرة كانت النهاية . لقد عرف هذا الأمر فى آرلز عندما فاجأته النوبة الأولى ولكنه عجز عن إدراك كنهه وأراد أن يقول كلمة وداع على الرغم مما لاقاه فقد استمتع بلحظات سعيدة من حياته فى خضم هذه الحياة الدنيا . وكما قال جوجان « لكل سم ترياق » والآن وهو على وشك أن يغادر هذا العالم أراد أن يقول كلمة وداع لها ولكل هؤلاء الأصدقاء الذين مدوا له يد المساعدة وهونوا عليه متاعب الحياة ويودع أرسولا التى كان احتقارها له سببا فى انتزاعه من حياته التقليدية وجعلته شقيا مطرودا ويودع مندس دا كوستا الذى جعله يؤمن بأنه سيستطيع التعبير فى النهاية عن ذات نفسه تعبيرا سيكون مبررا لحياته ، وكاى فوس التى نقشت كلمتها « لا أبدا .. أبدا » فى روحه بحروف من نار ومدام دينيس وجاك فيرينى وهنرى دكروك الذى ساعده على محبة المنبوذين فى الأرض وبيترسون المحترم الذى فاقت رقته ولطفه رقة ملابس فنسنت القبيحة وسلوكه الخشن

وأمه وأباه اللذين أحباه ملء قلبهما، وكريستين الزوجة الوحيدة التى رأى القدر أنها تليق به وتباركه رموف الذى قدر له أن يكون أستاذه لبضع أسابيع حلوة وفايسنبروخ ودى بوك وكانا أول صديقين له من المصورين وأعمامه فنسنت وجان وكورنيوس واستريكر الذين كانوا يعدونه الشاة السوداء فى القطيع من عائلة فان جوخ ومارجو المرأة الوحيدة التى أحبته والتى من أجل حبها هذا حاولت أن تقتل نفسها ، وكل أصدقائه من المصورين فى باريس ولوتريك الذى احتجز فى مصحة مرة أخرى حتى يموت، وجورج سيرا الذى توفى وهو فى الحادية والثلاثين من الإجهاد فى العمل وبول جوجان الذى يستجدى الناس فى بريتانى وروسو الذى يعيش فى حجرة عفنة قرب الباستيل وسيزان الذى انسحب فى مرارة لاذعة ليعيش فوق قمة تل فى أكس والأب تانجى ورولان اللذين كشفا له عما فى النفوس البسيطة من نبل وشهامة وراشيل ودكتور رى اللذين غمراه بعطفهما فى وقت اشتدت فيه حاجته للعطف وأوربيه ودكتور جاشيت الرجلين الوحيدين فى هذا العالم اللذين كانا يؤمنان بأنه مصور عظيم وأخيرا أخاه الطيب ثيو الذى قاسى كثيرا وأحبه كثيرا خير الأخوة كلهم وأعزهم ولكن الكلمات لم تكن يوما أسلوبه الذى يعبر به ورأى أنه يجب عليه أن يرسم صورة معبرة عن الوداع .

ولكن أنى للإنسان أن يرسم صورة تعبر عن الوداع ..

وأدار وجهه للشمس وضغط بالمسدس على صدغه وشد الزناد ثم سقط وهو يدفن وجهه فى طين الحقل الخصب ذى الرائحة النفاذة.. وعادت قطعة من الأرض اللينة إلى بطن أمها .

* * *

(٤)

وبعد أربع ساعات كان يسير وهو يترنح فى ظلام مقهى مدام رافوس التى تبعته إلى حجرته ورأت الدم وهو يغطى ملابسه فجرت فى الحال إلى الدكتور جاشيت .

ودلت الدكتور جاشيت إلى الحجرة وقال وهو يئن :

— أواه يا فنسنت .. رباه وماذا فعلت يا فنسنت !

— أظن أنى لم أحكم تصويبه .. ما رأيك ؟

وفحص جاشيت الجرح ثم قال :

— أواه يا فنسنت ، يا صديقى المسكين .. لا بد أنك كنت تحس بتعاسة لا مزيد لها حتى صنعت هذا ! لم لم أعرف هذا ؟ لماذا تريد أن تغادرنا ونحن كلنا نحبك ؟ فكر فى اللوحات الجميلة التى مازال فى استطاعتك أن تصورها لهذا العالم ..

— هل تتكرم بأن تناولنى غليونى من جيب صديريتى ..؟

— بكل تأكيد يا صديق ..

وحشا غليونه بالتبغ ثم وضعه بين أسنان فنسنت ..

فقال فنسنت :

— أشعله من فضلك ..

— بكل تأكيد يا صديق ..

وأخذ فنسنت ينفث الدخان من غليونه فى هدوء ..

— إن اليوم الأحد يا فنسنت ، وأخوك ليس فى المحل فما عنوان بيته ؟

— لن أقول لك ..

— ولكن يجب أن تخبرنى به يا فنسنت ! فالأمر عاجل ويجب الاتصال به ..

— بل يجب ألا نزعج ثيو يوم راحته فهو متعب وقلق وفى حاجة للراحة ..

ولم يفلح أى إغراء فى انتزاع عنوان سيتى بيجال من شفتى فنسنت وظل معه الدكتور جاشيت حتى ساعة متأخرة من هذه الليلة وهو يعالج جرحه ثم انصرف إلى منزله ليصيب بعض الراحة وترك ابنه لرعاية فنسنت ..

وظل فنسنت راقدا وعيناه متسعتان طوال الليل ولم يتفوه لبول بأى كلمة وظل يحشو غليونه ويدخنه باستمرار ..

وعندما وصل ثيو إلى جوبيل فى صباح اليوم التالى وجد برقية جاشيت فى انتظاره فاستقل أول قطار مسافر إلى بونتواز ثم اندفع فى عربة إلى أوفرس ..

وقال فنسنت :

— حسن يا ثيو ..

فركع ثيو على ركبتيه بجانب الفراش وتناول فنسنت بين ذراعيه كما لو كان يحمل طفلا صغيرا ولم يستطع أن ينطق حرفا واحدا ..

وعندما وصل الطبيب قاده ثيو خارج البهو فهز جاشيت رأسه فى حزن وقال :

— لا أمل هناك ياصديق فأنا لا أستطيع القيام بعمليةجراحية لانتزاع الرصاصة لأنه فى غاية الضعف ولعمرى لو لم يكن قد من حديد لمات فى الحقول .. وجلس ثيو بجانب فراش فنسنت طوال اليوم وهو يمسك بيده

وعندما أقبل الليل وتركا وحدهما فى الحجرة بدآ يتحدثان فى هدوء عن طفولتهما فى البرابانت ، وقال :

— أتذكر يا فنسنت الطاحونة التى فى ريزويك ؟

— لقد كانت طاحونة قديمة لطيفة يا ثيو .. أليس كذلك؟ وقد اعتدنا أن نلعب بين سنابل القمح العالية فى منتصف الصيف واعتدت أن تمسك يدى كما تفعل الآن ..

أتذكر هذا يا ثيو ..؟

— أجل يا فنسنت..

— عندما كنت فى المستشفى فى آرلز اعتدت أن أفكر كثيراً فى زيندرت فقد كانت طفولتنا ممتعة يا ثيو أنا وأنت . واعتدنا أن نلعب فى الحديقة التى تقع خلف المطبخ فى ظل أشجار سنط وكانت أمنا تصنع لنا كعكا بالجبن نتناوله فى الغداء يا فنسنت ..

— يبدو أنه مرت على هذا أجيال طويلة يا فنسنت ..

— أجل ... حسن ... إن الحياة طويلة ... أرجوك يا ثيو أن تعنى بنفسك من أجلى . حافظ على صحتك ويجب أن تفكر فى جو والطفل الصغير .. خذهما هناك إلى الريف حتى يستطيعا أن يتمتعا بالصحة والعافية ولا تبق فى جوبيل يا ثيو — لقد سلبوا منك عمرك كله ولم يعطوك فى مقابله شيئاً ..

— سأفتح صالة صغيرة للفن تكون ملكا خالصاً لى يا فنسنت وسيكون أول معرض أقيمه هو معرض للوحات رجل واحد ، الأعمال الكاملة لفنسنت فان جوخ كما نظمته فى الشقة بيدك ..

— آه حسنا — أعمالى .. لقد خاطرت فى سبيلها بحياتى .. وفقدت تفكيرى السليم تقريبا ..

وأرخى الليل سدوله على الحجرة وساد الهدوء العميق بلدة أوفرس ..

وبعد الساعة الواحدة بقليل أدار فنسنت رأسه قليلا وهمس ..

— كم أتمنى أن أموت يا ثيو ..

وفى بضع دقائق أغلق عينيه..

وشعر ثيو بأن أخاه يفارقه للأبد ..

* * *

(٥)

وجاء روسو والأب تانجى وأوريه وأميـل برنارد من باريس لتشييع الجنازة ..

وكانت أبواب مقهى رافوس مغلقة والستائر مسدلة بينما كانت عربة الموتى بخيولها السوداء تنتظر أمام الباب .

ووضعوا نعش فنسنت على منضدة البلياردو . .

وتجمع ثيو والدكتور جاشيت وروسو والأب تانجى وأوريه وبرنارد ورافوس حولها فى صمت ولم يستطع أحدهم أن ينظر إلى وجه الآخر ..

ولم يفـكر أحد فى استدعاء قسيس ..

ونقر سائق عربة الموتى على باب الشارع وقال :

— حان الوقت أيها السادة ..

فصرخ الدكـتور جاشيت قائلا ..

— بحق الله ، إننا لا نستطيع أن نتركه هكذا ..

وأحضر كل اللوحات من حجرة فنسنت ثم بعث ابنه ليجرى إلى المنزل ويحضر باقى اللوحات ..

وأخذ ستة من الرجال يعملون بهمة فى تثبيت اللوحات على الجدران بينما جلس ثيو وحده بجانب النعش ..

وأحالت لوحات فنسنت التى كانت تسبح فى ضوء الشمس المقهى السنجابى اللون الـكئيب المنظر إلى كاتدرائية تسطع بالضوء ومرة أخرى تجمع الرجال حول منضدة البلياردو ولم يستطع أحد منهم أن يفوه بأى كلمة إلا جاشيت الذى قال :

— يجب علينا نحن أصدقاء فنسنت ألا نسمح لليأس بأن يتطرق إلى قلوبنا ففنسنت حى لم يمت وان يموت وسوف يحيا إلى الآن بفضل حبه وعبقريته والجمال الذى ابتدعه ليضفى ثروة على هذا العالم ولا تكاد تمر على ساعة دون أن أتطلع إلى لوحاته وأجد فيها إيمانا جديدا ومعنى جديدا للحياة . لقد كان عملاقاً ومصورا عظيما وفيلسوفا كبيرا وقد سقط شهيد حبه للفن .

وحاول ثيو أن يشكره فقال :

— أنا .. أنا ..

وخنقته العبرات ولم يستطع أن يتابع كلامه ..

ووضع الغطاء على نعش فنسنت ..

ورفعه أصدقاؤه الستة من فوق منضدة البلياردو وحملوه إلى خارج المقهى الصغير ووضعوه بلطف فى عربة الموتى ..

وساروا خلف العربة السوداء جنوب الطريق الذى تغمره أشعة الشمس ومروا بالأكواخ المسقفة بجريد النخل وفيلات البلدة الصغيرة ... وعند المحطة استدارت عربة الموتى نحو اليسار وبدأت ترقى التل فى بطء ومروا بالكنيسة الكاثوليكية ثم عرجوا على حقل القمح الأصفر ..

وعند باب المقبرة توقفت العربة السوداء . .

وسار ثيو خلف النعش الذى حمله الرجال الستة ليواروه فى القبر . .

وكان الدكتور جاشيت قد اختار البقعة التى وقفا عليها فى أول يوم وهما يتطلعان إلى وادى الواز الأخضر الجميل لتكون المثوى الأخير لفنسنت ..

ومرة أخرى حاول ثيو أن يتكلم ولكنه لم يستطع . . .

وأنزل اللحادون النعش إلى باطن الأرض ثم أهالوا عليه التراب ورطبوه بالمياه . . .

واستدار الرجال السبعة وغادروا المقبرة وساروا يهبطون التل . .

وعاد الدكتور جاشيت بعد بضعة أيام ليغرس حول القبر أزهار عباد الشمس . .

وعاد ثيو إلى سيتى بيجال ودفعته خسارته إلى قضاء كل لحظة بالليل وهو يكابد حزنا يستعصى تخفيفه . .

وتحطم عقله تحت ضغط الإجهاد . .

فأخذته جوهانا إلى مصحة فى أوترخت وكان مارجو قد سبقه إليها . .

وبعد أن مضت على وفاة فنسنت ستة شهور مات ثيو ودفن فى أوترخت .

وبعد مدة بينما كانت جوهانا تقرأ الإنجيل التماسا للسلوى صادفت فى إصحاح صمويل هذه العبارة . .

— وفى موتهما لم يفترقا . .

فنقلت جسد ثيو إلى أوفرس ووسدته بجسد أخيه . .

وعندما ترسل شمس أوفرس الحيامة على المقبرة الصغيرة فى حقول القمح سيرقد ثيو فى ارتياح متفيئا ظلال زهرات عباد الشمس التى غرست شجيراتها من أجل فنسنت .

* * *

مطبعة نهضة مصر بالفجالة